نجيب محفوظ

أولاد حارتنا



افتتاحية

"الناس تحملوا البغى فى جلد ، ولاذوا بالصبر واستمسكو بالأمل، وآانوا آلما أضر بهم العسف قالوا : لابد للظلم من آخر ، ولليل من نهار، ولنرين فى حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب."

هذا حكاية حارتنا ، أو حكايات حارتنا وهو الأصدق ، لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير الذى عاصرته، ولكنى سجلتها جميعا آما يرويها الرواة وما أآثرهم جميع أبناء حارتنا يروون هذه الحكايات، يرويها آل آما يسمعها فى قهوة حية أو آما نقلت إليه خلال الأجيال، ولا سند لى فيما آتبت إلا هذه المصادر، وما أآثر المناسبات التى تدعو إلى ترديد الحكايات ، آلما ضاق أحد بحاله، أو ناء بظلم أو سوء معاملة أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناصيتها المتصلة بالصحراء، وقال فى حسرة هذا بيت جدنا، جميعنا من صله، ونحن مستحقوا أوقافه، فلماذا نجوع وآيف نظام؟ ثم يأخذ فى قص القصص والاستشهاد بسير أدهم وجبل ورفاعة وقاسم من أولاد حارتنا الأمجاد، وجدنا هذا لغز من الألغاز عمرّ فوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره، واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد، فلم يره منذ أعتزاله أحد، وقصة اعتزاله وآبره مما يحير العقول، ولعل الخيال أو الاغراض قد اشترآت فى إنشائها على أى حال آان يدعى الجبلاوى وباسمه سميت حارتنا، وهو صاحب أوقافها وآل قائم فوق أرضها والأحكار المحيطة بها فى الخلاء سمعت مرة رجلاً يتحدث عنه فيقول " : هو أصل حارتنا، وحارتنا أص مصر أم الدنيا، عاش فيها وحده وهى خلاء خراب، ثم امتلكها بقوة ساعده ومترلته عند الوالى، آان رجلاً لايجود الزمان بمثله، وفتوة تهاب الوحوش ذآره " وسمعت آخر يقول عنه " : آان فتوة حقًا، ولكنه لم يكن آالفتوات الآخرين، فلم يفرض على أحد أتاوة، ولم يستكبر فى الأرض ، وآان بالضعفاء رحيما . " ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته، وهكذا حال الدنيا . وآنت ومازلت أجد الحديث عنه شائقًا لايمل، وآم جعلنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلى أفوز بنظرة منه ولكن دون جدوى وآم وقفت أمام بابه الضخم أرنو إلى التمساح المحنط المرآب أعلاه، وآم جلست فى صحراء المقطم غير بعيد من سوره الكبير فلا أرى إلا رءوس أشجار التوت والجميز والنخيل تكتنف البيت،

ونوافذه مغلقة لا تنم على أى أثر لحياة . أليس من المحزن أن يكون لنا جدّ مثل هذا الجدّ دون أن نراه أو يرانا؟ أليس من الغريب أن يختفى هو فى هذا البيت الكبير المغلق وأن نعيش نحن فى التراب؟ وإذا تساءلت عما صار به وبنا إلى هذا الحال سمعت من فورك القصص، وترددت على أذنيك أسماء أدهم وجبل ورفاعة وقاسم، ولن تظفر بما يبل الصدر أو يريح العقل، قلت إن أحدًا لم يره منذ اعتزاله ، ولم يكن هذا بذى بال عند أآثر الناس فلم يهتموا منذ بادئ الأمر إلا بأوقافه وبشروطه العشرة التى آثر القيل والقال عنها، ومن هنا ولد التراع فى حارتنا منذ ولدت، ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم والغد، ولذلك فيس أدعى إلى السخرية المريرة من الإشارة إلى صلة القربى التى تجمع بين أبناء حارتنا

.آنا ومازلنا أسرة واحدة لم يدخلها غريب، وآل فرد فى حارتنا يعرف سكانها جميعًا نسءً ورجالاً ومع ذلك فلم تعرف حارة حدة الخصام آما عرفناها، ولا فرق بين أبنائها النزاع آما فرق بيننا، ونظير آل ساع إلى الخير تجد عشرة فتوات يلوحون بالنبابيت ويدعون إلى القتال حتى اعتاد الناس أن يشتروا السلامة بالإتاوة، والأمن بالخضوع والمهانة، ولاحقتهم العقوبات الصارمة لأدنى هفوة فى القول أو فى الفعل بل للخاطرة تخطر فيشى بها الوجه وأعجب شئ أن الناس فى الحارات القريبة منا آالعطوف وآفر الزغارى والدراسة والحسينية يحسدوننا على أوقاف حارتنا ورجالنا الأشداء، فيقولون حارة منيعة وأوقاف تدر الخيرات فتوات لايغلبون، آل هذا حق، ولكنهم لايعلمون أننا بتنا من الفقر آالمتسولين، نعيش فى القاذورات بين الذباب والقمل، نقنع بالفتات، ونسعى بأجساد شبه عارية، وهؤلاء الفتوات يرونهم وهم يتبخترون فوق صدورنا فيأخذهم الإعجاب، ولكنهم ينسون أنهم إنما يتبخترون فوق صدورنا، ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير ونقول فى حزن وحسرة

"هنا يقيم الجبلاوى " صاحب الأوقاف، وهو الجد ونحن الأحفاد.

شهدت:

العهد الأخير من حياة حارتنا وعاصرت الأحداث التى دفع بها إلى الوجود " عرفة " ابن حارتنا البار . وإلى أحد أصحاب عرفة

يرجع الفضل فى تسجيل حكايات حارتنا على يدة، إذ قال لى يوما " : إإنك من القلة التى تعرف الكتابة، فلماذا لا تكتب حكايات حارتنا؟ إنها تروى بغير نظام، وتخضع لأهواء الرواة وتحزباتهم، ومن المفيد أن تسجل بأمانة فى وحدة متكاملة ليحسن الانتفاع بها، وسوف أمدك بما لا تعلم من الأخبار والأسرار ." ونشطت إلى تنفيذ الفكرة اقتناعا بوجاهتها من ناحية، وحبًا فيمن اقترحها من ناحية أخرى , وآنت أول ن اتخذ من الكتابة حرفة فى حارتنا على رغم ما جره ذلك على من تحقير وسخرية، وآانت مهمتى أن أآتب العرائض والشكاوى للمظلومين وأصحاب الحاجات . وعلى آثرة المتظلمين الذين يقصدوننى فإن عملى لم يستطع أن يرفعنى عن المستوى العام للمتسولين فى حارتنا، إلى ما اطلعنى عليه من أسرار الناس وأحزانهم حتى ضيق صدرى وأشجن قلبى، ولكن مهلاً، فإننى لا أآتب عن نفسى ولا عن متاعبى، وما أهون متاعبى إذا قيست بمتاعب حارتنا ، حارتنا العجيبة ذات الأحداث العجيبة، آيف وجدت؟ وماذا آان من أمرها ؟ ومن هم أولاد حارتنا ؟

نجيب محفوظ

أدهم

1

آان مكان حارتنا خلاء، فهو امتداد لصراء المقطم الذى يربض فى الأفق، ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى آأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطرق، آان سوره الكبير العالى يتحلق مساحة واسعة نصفها الغربى حديقة، والشرقى مسكن مكون من أدوار ثلاثة، ويوما دعا الواقف أبناءه إلى مجلسه بالبهو التحتانى المتصل بسلاملك الحديقة وجاء الأبناء جميعا، إدريس ، وعباس ، وروضوان وجليل وأدهم ، فى جلابيبهم الحريرية فوقفوا بين يديه وهم من إجلاله لا يكادون ينظرون نحوه إلا خلسه، وأمرهم بالجلوس فجلسوا على المقاعد من حوله ، وراح يتفحصهم هنية بعينيه النافذتين آأعين الصقر، ثم قام متجهًا نحو باب السلاملك، ووقف وسط الباب الكبير ينظر إلى الحديقة المترامية التى تزحمها أشجار التوت والجميز والنخيل ، وتعترش فى جنباتها الحناء والياسمين، وتثب فوق عصونها مزقزقة العصافير.
ضجت الحديقة بالحياة والغناء على حين ساد الصمت بالبهو وخيل إلى الأخوة أن فتوة الخلاء قد نسيهم، وهو يبدو بطولة وعرضه خلقا فوق الآدميين آأنما من آوآب هبط وتبادولا نظرات متسالة، إن هذا شأنه إذا قرر أمرًا ذا خطر، وما يقلقهم إلا أنه جبار فى البيت آما هو جبار فى الخلاء وأنهم حياله لا شئ . التفت الرجل نحوهم دون أن يبرح مكانه وقال بصوت خشن عميق تردد بقوة فى أنحاء البهو الذى توارت جدرانه العالية وراء ستائر وطنافس.
-أرى من المستحسن أن يقوم غيره بإدارة الوقف .. وتفحص وجوههم رمة أخرى، ولكن لم تنم وجوههم على شئ لم تكن إدارة الوقف مما يغرى قومًا استحبوا الفراغ والدعة وعربدة الشباب، فضلا عن هذا فإدريس الأخر الأآبر هو المرشح الطبيعى للمنصب، فلم يعد أحد منهم يتساءل عما عنالك، وقال إدريس لنفسه " : يا له من عبء ، هذه الأفكار لا حصر لها، وهؤلاء
المستأجرين المناآيد " أما الجبلاوى فاستطرد قائلا:
-وقد وقع اختيارى على أخيكم أدهم ليدير الوقف تحت إشرافى.
عكست الوجوه وقع مفاجأة غير متوقعة، فتبودلت النظرات فى سرعة وانفعال، إلا أدهم فقد غض بصره حياءً وارتباآًا ، وولاهم الجبلاوى ظهره وهو يقول فى عدم آآتراث:
لهذا دعوتكم-- .
تفجر الغضب فى باطن إدريس فبدا آالثمل من شدة مقاومته ونظر إليه إخوته بحرج، ودارى آل منهم - عدا أدهم طبعا

غضبه لكرامته باحتجاجه الصامت على تخطى إدريس، الذى آان تخطيًا مضاعفا لهم، أما إدريس فقال بصوت هادئ آانما يخرج من جسم آخر:
ولكن يا أبى
قاطعه الأب ببرود وهو يلتفت نحوهم
ولكن ؟
فغضوا الأبصار حذرًا من أن يقرأ ما فى نفوسهم ، إلا إدريس فقد قال بإصرار
ولكننى الأخ الأآبر
فقال الجبلاوى مستاء
أظن أننى أعلم ذلك ، فأنا الذى انجبتك
فقال إدريس وحرارة غضبه أخذة فى الارتفاع
للأخ الأآبر حقوق لا تهضم إلا لسبب
فحدجه الرجل بنظرة طويلة آأنما يمنحه فرصة طيبة لتدبر أمره وقال
-أوآد لكم إنى راعيت فى اختيارى مصلحة الجميع.
تلقى إدريس اللطمة بصبر ينفد إنه يعلم آما يضيق أبوه بالمعارضه، وإن عليه أن يتوقع لطمات أشد إذا تمادى فيها، ولكن الغضب لم يدع له فرصة لتدبر العواقب، فأندفع خطوات حتى آاد يلاصق أدهم، وانتفخ آالديك المزهو ليعلن للأبصار فوارق الحجم واللون والبهاء بينه وبين أخيه، وانطلق الكلام من فيه آما ينطلق نثار الريق عند العطس بغير ضابط:
إنى وأشقائى أبناء هانم من خيرة النساء، أما هذا فإبن جارية سوداء
شحب وجه أدهم الأسمر دون أن تند عنه حرآة، على حين لوح الجبلاوى بيده قائلا بنبرات الوعيد
تأدب يا إدريس
ولكن إدريس آانت تعصف به عواصف الغضب المجنونة فهتف
وهو أصغرنا أيضا، فدلنى على سبب يرجحنى به إلا أن يكون زماننا زمان الخدم والعبيد؟-.
اقطع لسانك رحمة بنفسك يا جاهل-.
إن قطع رأسى أحب إلىّ من الهوان
ورفع رضوان رأسه نحو أبيه وقال برقة باسمة
نحن جميعا أبناؤك، ومن حقنا أن نحزن إذا افتقدنا رضاك عنا . والأمر لك على أى حال .. وغاية مرامنا أن نعرف السبب
وعدل الجبلاوى عن إدريس إلى رضوان، مروضا غضبه لغاية فى نفسه ، فقال

-أدهم على دراية بطباع المستأجرين ويعرف آآثرهم باسمائهم، ثم إنه على علم بالكتابة والحساب.
وعجب إدريس من قول أبيه آما عجب أخوته، متى آانت معرفة الأوشاب ميزة يفضل من أجلها إنسان، ودخول الكتاب أهون
ميزة أخرى؟ وهل آانت أم أدهم تدفع به إلى الكتاب لولا يأسها من فلاحه فى دنيا الفتوة . وتسأل إدريس متهكما:
اتكفى هذه الأسباب لتبرير ما يراد بى من مذلة؟
فأشار الجبلاوى نحوه بضحر وقال
-هذه إرادتى ، وما عليك إلا السمع والطاعة.
والتفت الرجل التفاتة حادة صوب أشقاء إدريس وهو يسأل ؟
ما قولكم ؟
فلم يحتمل عباس نظرة أبيه، وقال وهو وأجم
سمعًا وطاعة
وسرعان ما قال جليل وهو يفض طرفه
أمرك يا أبى- .
وقال رضوان وهو يزدرد ريقه الجاف
على العين والرأس
عند ذلك ضحك إدريس ضحكة غضب تقلصت إلى أساريره حتى قبحت وجهه وهتف
يا جبناء .. ما توقعت منكم إلا الهزيمة المزرية، وبالجبن يتحكم فيكم ابن الجارية السوداء
فصاح الجبلاوى مقاطعا عن عينين تتطاير منهما النذر
إدريس!
ولكن الغشب آان قد اقتلع جذور عقله فصاح بدوره
ما أهون الأبوة عليك ، خلقت فتوة جبارًا فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارًا، ونحن أبناءك تعاملنا آما تعامل ضحاياك-. العديدين
اقترب الجبلاوى خطوتين فى بطء آالتوثب، وقال بصوت منخفض وقد أنذرت أساريره المتقبضة بالشر:
اقطع لسانك
ولكن إدريس واصل صياحه قائلا
-لن ترعبنى ، أنت تعلم أننى لا أرتعب، وأنك إذا أردت ان ترفع ابن الجارية على فلن أسمعك لحن السمع والطاعة.

ألا تدرك عاقبة التحدى يا ملعون ؟-.

الملعون حقا هو ابن الجارية

فعلت نبرات الرجل واخشوشنت وهو يقول

إنها زوجتى يا عربيد، فتأدب وإلا سوت بك الأرض .. وفزع الأخوة وأولهم أدهم لداريتهم ببطش أبيهم الجبار ، ولكن إدريس

آان قد بلغ من الغضب درجة لم يعد يدرك معها خطرًا آأنه مجنون يهاجم نارًا مندلعة، فصاح

إنك تبغضنى ، لم أآن اعلم هذا، ولكنك تبغضنى دون ريب، لعل الجارية هى التى بغضتنا إليك، سيد الخلاء وصاحب-. الأوقاف والفتوة الرهيب، ولكن جارية استطاعت أن تعبث بك، وغدًا يتحدث عنك الناس بكل عجيبة يا سيد الخلاء

قلت لك اقطع لسانك يا ملعون-. .

لا تسبنى من أجل أدهم طوب الأرض يأبى ذلك ويلعنه ، وقرارك الغريب سيجعلنا أحدوثة الأحياء والحوارى-.

فصاح الجبلاوى بصوت صك الأسماع فى الحديقة والحريم

أغرب بعيدا عن وجهى. .

هذا بيتى، فيه أمى ، وهى سيدته دون منازع

لن ترى فيه بعد اليوم وإلى الأبد

واآفهر الوجه الكبير حتى حاآى لونه النيل فى احتدام فيضانه، وتحرك صاحبه آالبنيان مكورًا قبضة من صوان، وأيقن الجميع أن إدريس قد انتهى، ما هو إلا مأساة جديدة من المآسى التى يشهدها هذا البيت صامتا . آم من سيدة مصونة تحولت بكلمة إلى متسولة تعيسة . وآم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحا يمل على ظهره العارى أثار سياط حملت أطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه والرعاية التى تحوط الجميع عند الرضا لا تشفع لأحد وإن عز جانبه عند الغضب لهذا أيقن الجميع إن أدريس قد انتهى حتى إدريس بكرى الواقف ومثيله فى القوة والجمال قد انتهى . وتقدم الجبلاوى خطوتين أخريين وهو يقول:

لا أنت أبنى ولا أنا أبوك، ولا هذا البيت بيتك، ولا أم لك فيه ولا أخر ولا تابع، أمامك الأرض الواسعة فاذهب مصحوبًا بغضبى-.

ولعنتى وستعلمك الأيام حقيقة قدرك وأنت هميم على وجهك محروما من عطفى ورعايتى

فضرب إدريس البساط الفارسى بقدمه وصاح:

-هذا بيتى ولن أغادره.

فأنقض عليه الأب قبل أن يتقيه، وقبض على منكبه بقبضة آالمعصرة، ودفعه أمامه والآخر يتراجع مقهقرًا ، فعبرا باب

السلاملك وهبطا السلم وإدريس يتعثر ثم اخترق به ممرًا تكتنفه شجيرات الورد والحناء مفروشا بالياسمين حتى البوابة الكبيرة فدفعه خارجا وأغلق الباب وصاح بصوت سمعه آل من يقيم فى البيت.
الهلاك لمن يسمح له بالعودة أو يعينه عليها
ورفع رأسه صوب نوافذ الحريم المغلقة وصاح مرة أخرى
-وطالقة ثلاثا من تجترئ على هذا.

2

منذ ذلك اليوم الكئيب وأدهم يذهب آل صباح إلى إدارة الوقف فى المنظرة الواقعة إلى يمن باب البيت الكبير، وعمل بهمة فى تحصيل أجور الأحكار وتوزيع أنصبة المستحقين وتقديم الحساب إلى أبيه، وأبدى فى معاملة المستأجرين لباقة
وسياسة ، فرضوا عنه على رغم ما عرف عنهم من مشاآسة وفظاظة , وآانت شروط الواقف سرًا لايدرى به أحدًا سوى الأب، فبعث اخيار أهم للإدراة الخوف أن يكون هذا مقدمة لايثاره فى الوصية، والحق أنه لم يبد من الأب قبل ذلك اليوم ما ينم عن التحيز فى معاملته لأبنائه، وعاش الأخوة فى وئام وانسجام بفضل مهابة الأب وعدالته، حتى إدريس - على قوته وجماله وأسرافة أحيانا فى اللهو - لم يسئ قبل ذلك اليوم إلى أحد من أخوته، آان شابا آريما حلو المعشر حائزا الود والإعجاب ، ولعل الأشقاء الأربعة آانوا يضمرون لأدهم شيئا من افحساس بالفارق بينهم وبينه، ولكن أحدًا منهم لم يعلن هذا ولا اشتم منه فى آلمة أو إشارة أو سلوك، ولعل أدهم آان أشد غحساسا منهم بهذا الفارق، ولعله قارن آثيرًا بين لوهم المضئ ولونه الأسمر، بين قوهم ورقته، بين سمو أمهم ووضاعة أمه، ولعله عانى من ذلك أسى مكتوما والمأ دفينا، ولكن جو البيت المعبق بشذى الرياحين الخاضع لقوة الأب وحكمته ، لم يسمح لشعور سيئ بالاستقرار فى نفسه ، فنشأ صافى القلب والعقل.
وقال أدهم لأمه قبيل ذهابه إلى إدارة الوقف:
بارآيني يا أمى ن فما هذا العمل الذى عهد به إلى غلا امتحان شديد لى ولك
فقالت الأم بضراعة
-ليكن التوفيق ظلك يا بنى، أنت ولد طيب والعقبى للطيبين.
ومضى أدهم إلى المنظرة ترمقه العيون من السلاملك والحديقة من وراء النوافذ، وجلس على مقعد ناظر الوقف وبدأ عمله

، وآان عمله أخطر نشاط إنسانى يزاول فى تلك البقعة الصحراوية ما بين المقطم شرقا والقاهرة القديمة غربا ، واتخذ أدهم من الأمانة شعارصا وسجل آل مليم فى الدفتر لأول مرة فى تاريخ الوقف، وآان يسلم أخوته رواتبهم فى أدب ينسيهم مرارة الحنق ثم يقصد أباء بحصيلة الأموال وسأله أبوه يوما:

آيف تجد العمل يا أدهم ؟

فقال أدهم بخشوع

-ما دمت قد عهدت به إلى فهو أعظم ما فى حياتى.

فشاعت فى الوجه العظيم البشاشة، إذ أنه على جبروته آان يستخفه طرب الثناء، وآان أدهم يحب مجلسه، وإذا جلس إليه اختلس منه نظرات الإعجاب والحب، وآم آان يسعده أن يتابع أحاديثه وهو يروى - له ولأخوته - حكايات الزمان الأول ،

ومغامرات الفتوة والشبابا إذ هو ينطلق فى تلك البقاع ملوحا بنبوته المخيف غازيا آل موضع تطأه قدماه وبعد طرد إدريس ظل عباس ورضوان وجليل على عادتهم من الاجتماع فوق سطح البيت، يأآلون ويشربون ويقامرون، أما أدهم فلم يكن يطيب له الجلوس إ لا فى الحديقة، آان عاشقا للحديقة منذ درج، وآان عاشقا للناى، ولازمته تلك العادة بعد اضطلاعه بشئون الوقف، وإن لم تعد تستأثر بجل وقته، فكان إذا فرغ من عمله فى الوقف افترش سجادة على حافة جدول، واسند ظهره إلى جذع نخلة أو جميزة، أو استلقى تحت عريشة الياسمين، وراح يرنو إلى العصافير وما أآثر العصافير أو يتابع اليمام وما أحلى اليمام، ثم ينفخ فى الناى محاآيا الزقزقة والهديل والتغريد ، وما أبدع المحاآاة، أو يمد الطرف نحو السماء خلال الغصون وما اجمل السماء، ومرّ به أخوه رضوان وهو على تلك الحال فرمقه بنظرة ساخرة وقال:

ما أضيع الوقت الذى تنفقه فى إدارة الوقف!

فقال أدهم باسما

لولا إشفاقى من إغضاب أبى لشكوت-. .

فلنحمد نحن المولى على الفراغ

فقال أدهم ببساطة

هنيئًا لكم-. .

فسأله رضوان وهو يدارى الامتعاض بالابتسام

-أتود أن تعود مثلنا ؟

خير ما تمضى الحياة فى الحديقة والناى ؟

فقال رضوان بمرارة

آان إدريس يود أن يعمل

فغض أدهم بصره وهو يقول

-لم يكن عند إدريس وقت للعمل ولاعتبارات أخرى غضب ، أما السعادة الحقة ففى هذه الحديقة تجدها.

-ولما ذهب رضوان قال أدهم لنفسه " : الحديقة وسكانها المغردون، والماء ، والسماء، ونفسى النشوى هذه هى الحياة الحقة آأننى أجد فى البحث عن شئ ما هذا الشئ؟ الناى احيانا يكاد يجيب ولكن السؤال يظل بلا جواب، لو تكلمت هذه العصفورة بلغتى لشفت قلبى باليقين وللنجوم الزاهرة حديث آذلك ، اما تحصيل الإيجار فنشاز بين الأنغام."

-ووقف أدهم يوما ينظر إلى ظله الملقى على الممشى بين الورود، فإذا بظل جديد يمتد من ظله وأشياء بقدوم شخص من المنعطف خلفه، بدأ الظل الجديد آأنما يخرج من موضع ضلوعه . والتفت وراءه فرأى فتاة سمراء وهى تهم بالتراجع عندما اآتشفت وجوده فأشار بالوقوف فوقفت وتفحصها مليا ثم سألها برقة.

من انت ؟

فأجابت بصوت ملعثم

أميمة-. .

إنه يذآر الاسم ، فهو لجارية ، قريبة لأمه، وآما آانت امه قبل أن يتزوج منها أبوه

ومال إلى محدثتها أآثر فسألها:

ماذا جاء بك إلى الحديقة ؟

فأجابت مسبلة الجفنين

حسبتها خالية-. .

-لكن ذلك محرم عليكن

فقالت بصوت لم يكد يسمع

-أخطأت يا سيدى.

وتراجعت حتى توارت وراء المنعطف، ثم ترامى إلى أذنيه وقع أقدامها المسرعة، وإذا به يغمغم متأثرًا " ما أملحك "! وشعر بأنه لم يكن قط أدخل فى خلائق الحديقة منه فى هذه اللحظة ، وإن الورد والياسمين والقرنفل والعصافير واليماما ونفسه نغمة واحدة وقال لنفسه " : أميمة مليحة " حتى شفتاها الغليظتان مليحتان، وجميع أخوتى متزوجون عدا إدريس المتكبر، وما أشبه لونها بلونى، وما اجمل منظر ظلها وهو مفروض فى ظلى آأنه جزء من جسدى المضطرب بالرغبات ولن يسخر أبى من اختيارى وإلا فكيف جاز له أن يتزوج من أمى؟

رجع أدهم إلى إدارة الوقف بقلب مفعم بجمال غامض آالعبير وحاول آثيرا أن يراجع حساب اليوم، ولكنه لم ير فى صفحة عقله إلا السمراء، و لم يكن عجيبا أن يرى أميمة اليوم لأول مرة فالحريم فى هذا البيت آاالأعضاء الباطنية يعرفها صاحبها على نحو ويعيض بفضلها ولكنه لايراها، واستسلم أدهم إلى تيار أفكاره الوردية حتى انتزع منه على صوت مرعد قريب آأنما انفجر فى المنظرة نفسها وهو يصيح:

أنا هنا ، فى الخلاء يا جبلاوى، العن الكل، اللعنة على رؤوسكم نساءً ورجالاً، واتحدى من لم تعجبه آلماتى ، سامعنى يا جبلاوى؟

وهتف أدهم " إدريس " وغادر المنظرة إلى الحديقة فرأى أخاه رضوان متجها نحوه فى اضطراب ظاهر ، وبادره قائلا:

إدريس سكران، رأيته من النافذة مختل التوازن من السكر، أى فضائح تخبئ الأقدار لأسرتنا؟

فقال أدهم وهو يغضى ألمًا

قلبى يتقطع أسفا يا أخى.

وما العمل ؟ إن آارثة تهددنا

ألا ترى يا اخى أنه يجب علينا أن نحدث أبانا فى الأمر ؟

فقطب رضوان قائلا

أبوك لا يراجع فى أمر، وحال إدريس هذه لا شك ضاعفت من غضبه عليه

فغمغم أدهم فى آآبة

-ما آان أغنانا عن هذه الأحزان.

أحد على الاقتراب-.

منه، فتساءل أدهم فى قلق وهو يشعر بأن ملابسات الحديث تدفعه إلى مأزق

نعم ، النساء يبكين فى الحريم ، عباس وجليل معتكفان من الكدر ، وأبونا وحده فى حجرته لا يجرؤ

-ألا ترى أنه ينبغى أن نعمل شيئا؟

يبدون أن آل واحد منا يود أن يلوذ بالسلامة، ولايهدد السلامة مثل طلبها بأى ثمن، غير أنى لن اجازف .بمرآزى ولو-.

انطبقت السماء على الأرض، أما آرامة أسرتنا فتتمرغ الساعة فى التراب فى ثوب إدريس

لماذا قصدتنى إذن؟ بين يوم وليلة انقلب أدهم غراب بين ينعق وتنهد قائلا:

إنى برىء من آل هذا ، ولكن لن تطيب لى الحياة إن سكت-. .
فقال رضوان وهو يهم بالذهاب
-لديك من الأسباب ما يوجب عليك العمل!
ومضى راجعا ولبث أدهم وحده وأذناه ترددان هذه العبارة " لديك من الأسباب ".. نعم إنه المتهم دون ذنب جناه آالقلة التى
تسقط على رأس لأن الريح أطاحب بها، وآلما أسف أحد على إدريس لعن أدهم، واتجه أدهم نحو الباب ففتحه فى رفق ومرق منه . رأى إدريس غير بعيد يترنح ردائرًا حول نفسه، يقلب عينين زائغتين، وقد تشعث رأسه وانحسر جيب جلبابه عن شعر صدره، ولا عثرت عيناه على أدهم توثب للانقضاض آأنه قطة لمحت فأرًا، ولكن أعجزه السكر، فمال نحو الأرض وملا قبضته ترابًا ورمى به أدهم فأصاب صدره وانتثر على عباءته وناداه أدهم برقة:
أخى-.
فزمجر إدريس وهو يترنح
خرس يا آلب يا بن الكلب، لا أنت أخى ولا أبوك أبى، ولأدآن هذا البيت فوق رءوسكم
فقال أدهم متوددًا
بل أنت أآرم هذا البيت وأنبله
فقهقه إريس من فيه دون قلبه وصاح
لماذا جئت يا ابن الجارية؟ عد إلى أمك وأنزلها إلى بدروم الخدمز
فقال أدهم دون أن تتغير مودته
لا تستسلم للغضب ، ولا توصد الأبواب فى وجه الساعين لخيرك
فلوح إدريس بيده ثائرًا وصاح
-ملعون البيت الذى لا يطمئن فيه إلا الجبناء الذين يغمسون اللقمة فى ذل الخنوع، ويعبدون مذلهم، لن أعود إلى بيت أنت فيه رئيس، فقل لأبيك إننى أعيش فى الخلاء الذى جاء منه، وإننى عدت قطاع طريق آما آان وعربيدا أثيما معتديا آما يكون وسيشيرون إلى فى آل مكان أعيث فيه فسادا ويقولون " ابن الجبلاوى " بذلك أمرغم فى التراب يا من تظنون أنفسكم سادة وأنتم لصوص.
وتوسل أدهم قائلا:
أخى أفق، حاسب نفسك على آل آلمة توجب اللوم، ليس الطريق مسدودا فى وجهك إلا أن تسده بيدك، وإنى أعدك-.
بأن يعود آل شئ طيب إلى أصله

فخطا إدريس نحوه بصعوبة آأن ريحًا ترجعه وقال:

بأى قوة تعدنى يا ابن الجارية؟

فقال وهو يرمقه بحذر

بقوة الأخوة-. .

الأخوة ّ قذفت بها فى أول مرحاض صادفنى

فقال أدهم متألما

ما سمعت منك من قبل إلا الجميل-. .

طغيان أبيك أنطقنى بالحق-.

لا أحب أن يراك الناس على هذه الحال

فأرسل إدريس ضحكة معربدة وصاح

يدى، طردنى أبوك دون حياء فليتحمل-.

العواقب

وسيروننى على أسوأ منها آل يوم ، العار والفضيحة والجريمة ستحل بكم على

ورمى بنفسه نحو أدهم فتنحى هذا عن موقفه دون تردد، فكاد إدريس يهوى على الأرض لولا أن استند إلى الجدرار، ولبث يلهث حانقا، وينظر فى الأرض مفتشا عن حجر، فتراجع أدهم بخفة إلى الباب ودخل وأغرورقت عيناه من الحزن، وآان صياح إدريس مازال صاخبا، وحانت منه التفاتة نحو السلاملك فلمح أباه خلال الباب وهو يعبر البهو فمضى نحوه وهو لا يدرى، متغلبا على خوفه بحزنه ، ونظر إليه الجبلاوى بعينين لا تفصحان عن شئ ، وآا يقف بقامته المديدة ومنكبيه العريضين

أمام صورة محراب نقشت على جدار البهو خلفه، وأحنى أدهم رأسه قائلا:

السلام عليكم-. .

فتفحصه الجبلاوى بنظرة عميقة ثم قال بصوت نفذ إلى أعماق قلبه

صرح بما جئت من أجله

فقال أدهم بصوت مهموس

أبى ، إن أخى إدريس.

فقاطعه الأب بصوت آضربة الفأس فى الحجر

لا تذآر اسمه أمامى.

ثم وهو يمضى إلى الداخل

-اذهب إلى عملك.

4

توالى مشرق الشمس ومغيبها على هذه البقعة الخلاء وإدريس يتردى فى مهاوى الشقاوة فى آل يوم يسجل فى آتابه حماقة جديدة آان يدور حول البيت ليقذفه فأقذع الشتائم أو يجلس على آثب من الباب عاريا آما ولدته أمه آأنما يتشمس وهو يترنم بأفحس الأغانى . وآان يتجول فى الأحياء القريبة فى خيلاء الفتوات يتحدى آل عابر ينظرات هجومية ويتحرش بكل من يعترض سبيله، والناس يتحاشونه آاظمين، وهم يتهامسون " ابن الجبلاوى (ولم يحمل لغذائه هما، فكان يمد يده بكل بساطة إلى الطعام حيث وجده فى مطعم أو على عربة، فيأآل حتى يكتظ ثم يمضى دون شكر من ناحية أو محاسبة من الآخرين، وإذا تاقت نفسه إلى العربدة مال إلى أول حانة تصادفه ، فتقدم إليه البوظة حتى يسكر، ثم ينطلق لسانه آالنافورة بأسرار أسرته وأعاجيبها وتقاليدها السخيفة وجنبها المهين، منوها بثورته على أبيه جبار هذه الأحياء جميعا ، ثم يدخل فى قافية ليغرق فى الضحك، ويغنى إذا لزم الحال ويرقص وتتناهى مسرته إذا ختمت السهرة بمعرآة، ثم يذهب مشيعا بالتحيات، وفى آل مكان اشتهر بهذه السيرة فتحاشاه الناس ما استطاعوا، ولكنهم سلموا بأمره آأنه مصيبة من مصائب الدهر، ونال الأسرة من ذلك ما نالها من الغم والكرب وغلب الحزن أم إدريس فشلت واحتضرت، وجاء الجبلاوى ليودعها فأشارت نحو بيدها السليمة محتجة وفاضت روحها فى أسى وغضب وخيم الحزن على الأسرة آخيوط العنكبوت، فتوالت سمر الأخوة فوق السطح، وسكت ناى أدهم فى الحديقة.

ويما تفجر الأب عن ثورة جديدة آانت ضحيتها تلك المرة امرأة إذا تعالى صوته الجهيز وهو يلعن نرجس الخادمة ويطردها من البيت، وعلم فى نفس اليوم أن أعرا الحمل ظهرت على المرأة فقررت حتى أقرت بأن إدريس اعتدى عليها قبل طرده، وغادرت نرجس البيت وهى تصوت وتلطم خديها، وهامت على وجهها سحابة النهار حتى عثر عليها إدريس فألحقها برآابه دون ترحيب، ودون جفاء ، آذلك إذا لم تكن تخلو من نفع عند الحاجة.

على أن آل مصيبة وإن جلت لابد يوما أن تُؤلف، لذلك أخذت الحياة تعود إلى مجراها المألوف فى البيت الكبير آما يعود السكان إلى ديارهم عقب زلزال أآرههم على الفرار منها . عاد رضوان وعباس وجليل إلى ندوة السطح آما عاد أدهم إلى سهرة الحديقة يناجى الناى فيناجيه، ووحد أميمة تضئ خواطره وتدفئ مشاعره وصورة ظلها المعانق لظله ترتسم بوضوح فى مخيلته، فقصد مجلس أمه فى حجرتها حيث آانت تطرز شالاً ، فأفضى إليها بذات نفسه إلى أن قال:

إن أميمة يا أمى قريبتك.

فابتسمت أمه ابتسامة باهتة دلت على أن فرحة الخير لم تستطع التغلب على عناء مرضها وقالت
نعم يا أدهم ، إنها فتاة طيبة ، تصلح لك آما تصلح لها وستسعدك بمشيئة المولى
ولما رأت تورد البهجة فى وجنتيه استدرآت قائلة
لا ينبغى أن تدللها يا بنى حتى لا تفسد حياتك ، وسأخاطب أباك فى الأمر لعلى أنعم برؤية ذريتك قبل أن يدرآنى-.
الموت
وعندما دعاه الجبلاوى إلى مقابلته وجده يبتسم ابتسامة لطيفة حتى قال لنفسه " : لا شئ يعادل شدة أبى إلا رحمته."
وقال الأب:
-ها أنت تطلب زوجة يا أدهم ، ما أسرع الزمن، وهذا البيت يحتقر المساآين ، ولكنك باختيار أميمية، تكرم أمك، لعلك تنجب ذرية صالحة ، لقد ضاع إدريس ، وعباس ، وجليل عقيمان ورضوان لم يعش له ولد حتى اليوم، وجميعهم لم يرثوا عنى إلا آبريائى، فاملأ هذا البيت بذريتك وإلا ذهب عمرى ً هباء.
وآانت زفة أدهم التى لم يشهد لها الحى نظيرا من قبل وحتى اليوم يجرى ذآرها مجرى الأمثال فى حارتنا . تدلت ليلتذاك الكلوبات من غصون الأشجار ومن فوق السور حتى بدا البيت بحيرة من نور وسط الخلاء المظلم، وأقيم سرادق فوق السطح للمغنين والمغنيات وامتدت موائد الطعام والشراب فى البهو والحديقة والخلاء المتصل بمدخل البيت الكبير . وبدأت زفة أدهم من أقصى الجمالية عقب منتصف الليل سار فيها آل من يحب الجبلاوى أو يخافه حتى انتظم الجميع، وخطر أدهم فى جلبا حريرى لاسة مزرآشة بين عباس وجليل، أما رضوان فسار فى المقدمة، وعلى الميني وعلى اليسار
حاملوا الشموع والورود، وتقدم الموآب مجموعة ضخمة من المنشدين والراقصين، وتعالى الغناء ، وتبعته تأوهات المطربات وتحيات المعجبين بالجبلاوى وأدهم، حتى استيقظ الحى ودوت الزغاريد وسار الموآب من الجمالية فالعطوف ثم آفر الزغارى والمبيضة، ينهال عليه الترحيب حتى من الفتوات، وحطب من حطب ، ورقص من رقص، ووزعت الحانات البوظة مجانا ، فسكر حتى الغلمان، وتهاوت الجوز من جميع الغرز فى طريق الموآب هدية للمحتفلين فعبق الجو بحسن آيف والهندى.
وفجأة لاح إدريس آما انشقت عنه الظلمة فى أخر الطريق لاح عن المنعطف المفضى إلى الخلاء على ضوء الكلوبات التى تتقدم الموآب فتوقف حاملوا الكلوبات عن السير وانتشر التهامس باسم إدريس ولمحته أعين المنشدين فاعترض الخوف حناجرهم فكفت عن الغناء وراء الراقصون فجمدت أوساطهم وسرعان ما سكتت المزامير، وخرست الطبول، وغاضت الضحكات وتساءل آثيرون عم يفعلون، فهم إن استكانوا لم يأمنوا الأذى وإن ضربوا لم يضربوا إلا ابن الجبلاوى ، ولوح إدريس
بنبوته وهو يصيح:

لمن الزفة يا حثالة الجبناء ؟
فساد الصمت واشرأبت الأعناق نحو أدهم وإخوته، وعاد إدريس يتساءل
متى آنتم لابن الجارية أو لأبيه أصدقاء؟
عند ذاك تقدم رضوان خطوات وهتف قائلا
أخى من الحكمة أن تدع الزفة تمر
فصاح إدريس مقطبا
رغد العيش بالكرامة والأخوة
فقال رضوان بإشفاق
أنت أخر من يتكلم يا رضوان، أنت أخ خائن وابن جبان، وذليل يشترى
لا شأن للناس باختافاتنا.
ففقهقه إدريس قائلا
الناس يعلمون بخزيكم ، ولولا جبنهم العريق ما وجدت هذه الزفة زامرًا أو منشدًا
فقال رضوان بعزم ثابت
أبوك عهد إلينا باخيك ، ولا بد أن نحفظه
فعاد إدريس يقهقه وهو يتساءل
أريت أنك تدافع عن نفسك لا عن ابن الجارية؟-.
أين رشادك يا أخى؟ بالحكمة وحدها تعود إلى بيتك-..
إنك آاذب ، وأنت تعلم أنك آاذب
فقال رضوان فى حزن:
-لن ألومك فيما يخصنى ، ولكن دع الزفة تمر بسلام.
فكان جوابه أن انقض على الموآب الكثور الهائج، وأخذ نبوته يرتفع ويهوى فتتحطم الكلوبات وتتصدع الطبول وتبعثر الورود ،
وراح الناس يولون مذعورين آالرمال أمام العاصفة ، وتكاتف رضوان وعباس وجليل أمام أدهم فتضاعف غضب إدريس.
-يا أنذال ، تدافعون عمن تكرهون خوفا على الطعام والشراب..
وهجم عليهم .. فتلقوا ضرباته بنبابيتهم دون أن يردوا عليها وهم يتراجعون، وإذا به يرمى بنفه فجأة بينهم فيثور سبيلا إلى موقف أدهم فعلا الصوت فى النوافذ، وهتف أدهم وهو يتحفز للدفاع عن نفسه.

إدريس ، لست عدوًا لك فارجع إلى عقلك
ورفع إدريس نبوته، وهنا صاح صائح " الجبلاوى " وصاح رضوان مخاطبا إدريس
-أبوك قادم.
فوثب إدريس إلى جانب اطلريق والتفت إلى الوراء فرأى الجبلاوى قادما وسط هالة من الخدم يحملون المشاعل وعض إدريس على أسنانه ثم هتف ساخرًا:
-سأهبك عماا قريب حفيدا من الزنا تقر به عينك.
واندفع نحو الجمالية والناس توسع له على الجانبين حتى ابتلعته الظلمة وبلغ الأب موقف الإخوة وهو يتظاهر بهدوء تحت الآف الأعين المحدقة فيه، ثم قال بلهجة أمرة.
-ليعد آل شئ إلى أصله.
ورجع حملة الكلوبات إلى مواقعهم، ودقت الطبول، وعزفت المزامير، ثم غنى المنشدون، ورقص الراقصون، واستأنفت الزفة مسيرها.
وسهر البيت الكبير حتى الصباح فى طرب وشراب وغناء، وعندما دخل أدهم حجرته المطلة على خلاء المقطم وجد أميمة واقفة إلى جانب المرأة والنقاب الأبيض مايزال يغطى وجهها . آان مخمورًا مسطولا لا تكاد تحمله قدماه، فاقترب منها وهو يبذل جهدًا شديدًا ليتمالك أعصابه، ورفع النقاب عن وجهها الذى طالعه فى أحسن رواء، وهوى برأسه حتى لثم شفتيها المكتنزتين، ثم قال بلسان مخمور:
-لتهن الهموم جميعا مادمت حسن الختام.
واتجه نحو الفراش يستقيم خطوة ويترنح خطوة، حتى استلقى على عرض السرير باللاسة والمرآوب، وآانت أميمة تنظر إلى صورته المنعكسة على المرأة وهى تبتسم فى إشفاق وحنان.

5

وجد أدهم فى أميمة سعادة لم يعرفها من قبل، ولبساطته أعلن عن سعادته بأقواله وأحواله حتى تندر به إخوته، وعند ختام آل صلاة آان يبسط يديه هاتفا " : الحمد لصاحب المنن، على رضى أبى الحمد لله على حب زوجتى ، الحمد له على المنن المترلة التى أحطى بها دون من هم أجدر منى بها، الحمد له على الحديقة الغناء والناى الرفيق، الحمد له ." وقالت آل امرأة من نساء البيت الكبير إن أميمة زوجة واعية، فهى ترعى زوجها آأنه أمها، وتوادد حماته وتخدمها حتى أسرتها،

وتولى سمكنها العناية التامة آأنه قطعة من جسدها، أما أدهم فكان زوجا مترع القلب بالمحبة وحسن المعاشرة، وآما شغلته إدارة الوقف عن جزء من ملاهية البريئة فى الحديقة من قبل، فقد شغل الحب بقية يومه، واستبد به حتى نسى نفسه، وتوالت أيام هانئة، وامتدت فوق ما قدر رضوان وعباس وجليل الساخرون، ولكنها ارتطمت فى النهاية بذاك الهدوء الحكيم آما تنتهى مياه الشلال المتدفقة الراغية المزبدة فى النهر الرصين، وعاد التساؤل يحتل مكانه فى قلب أدهم، فشعر بأن الزمن لا يمر فى غمضة عين، وأن النهار يعقبه الليل، وأن المناجاة إذا تواصلت إلى غير نهاية فقدت آل معنى، وأن الحديقة ملهاة صادقة لا يجدر به أن يهجرها، وأن شيئا من هذا لايعنى بحال أن قلبه تحول عن أميمة ، فما تزال فى صميمة، ولكن للحياة أطوارًا لا يخبرها المرء إلا يومًا بيوم.

وعاد إلى مجلسه عند القناة وأجال بصره فى الأزهار والعصافير ممتنا ومعتذرًا ، وإذا بأميمة تلحق به مشرقة بالبهجة، فجلست إلى جانبه وهى تقول:

نظرت من النافذة لأرى ما أخرك، لماذا لم تدعنى معك؟

فقال باسما

-خفت أن أتعلبك.

-تتعبنى ؟ طالما أحببت هذه الحديقة أتذآر أول لقاء لنا هنا ؟

وأخذ يدها فى يده، وأسند رأسه إلى جذع النخلة مرسلاً طرفه إلى الغصون، وإلى السماء خلال الغصون وعادت تؤآد له حبها للحديقة، وآلما أمعن فى الصمت أمعنت فى التوآيد، إذ أنها آانت تزآه الصمت بقدر ما تحب الحديقة، وآان حديث حياتها أطيب حديث، ولا بأس بالوقوف بعض الوقت عند أهم الأحداث فى البيت الكبير، خاصة ما يتعلق بزوجات رضوان وعباس وجليل، ثم تغير صوتها مائلا نحو العتاب وهى تقول:

أنت تغيب عنى يا أدهم ؟

فابتسم إليها قائلا

-آيف وأنت ملء القلب!

-ولكنك لا تصغى إلى ؟

هذا حق ومع أنه لم يرحب بمقدمها فأنه لم يضق به، ولو همت بالرجوع لأمسك بها صادقا، والحق أنه يشعر بأنها جزء لا يتجزأ منه وقال آالمعتذر:

-إنى أحب هذه الحديقة، لم يكن فى حياتى الماضية أطيب من جلستها، وتكاد أشجارها الباسقة ومياهها المفضفضة وعاصيرها المزقزقة تعرفنى آما أعرفها، وأود أن تقاسمينى حبها، أرأيت إلى السماء آيف تبدو خلال الغصون؟

فرفعت عينها مقدار لحظة ثم نظرت إليه باسمة وقالت:

إنها جميلة حقا ، وجديدرة بأن تكون أطيب ما فى حياتك

فآنس من قولها العتاب دون إفصاح وبادرها قائلا

-بل آانت آذلك قبل أن أعرفك.

والآن ؟

فضغط على يدها بحنو قائلا

لا يتم جمالها إلا بك

فقالت وهى تحد بصرها نحوه

من حسن الحظ أنها لا تؤاخذك على انصرافك عنها إلى

فضحك أدهم وجذبها بحوه حتى التصق خدها بشفتيه، ثم سألها

أليست هذه الأزهار أجدر بالتفاتنا من الكلام عن زوجات إخواتى ؟

فقالت أميمة باهتمام

الأزهار أجمل ولكن زوجات إخوتك لا يكففن عن الحديث عنك، إدارة الوقف، دائما إدارة الوقف، وثقة أبيك فيك، يبدئن ويعدن-.

فى هذا

وقطب أدهم غائبا عن الحديقة ، وقال بحدة:

لا شئ ينقصهن-. !

-الحق إنى أخاف عليك العين

فهتف أدهم غاضبًا:

لعنة الله على الوقف ، أرهقنى وغير القلوب على وسلبنى راحة البال، فليذهب فى داهية

فوضعت أصبعها على شفتية وهى تقول

وقد تجر وراءها نفعا لا يخطر بالبال-. .

-جرت حتى الآن المتاعب .. وحسبناه مأساة إدريس

لا تكفر بالنعمة يا أدهم ، إن إدارة الوقف شأن خطير،

-فابتسمت ، لكن ابتسامتها لم تنم عن بهجة وإنما دارت بها اهتماما جديا تجلى فى نظرة عينيها وقالت.

-انظر إلى مستقبلنا آما تنظر إلى الغصون والسماء والعصافير، وواظبت أميمة على مشارآته جلسته فى الحديقة، و لم

تكن تعرف الصمت إلا فى النادر، لكنه اعتادها آما اعتاد الأصغاء بنصف انتباه أو دون ذلكن وعند الحاجة يتناول الناى لاينفخ
فيه ما شاء له الطرب، واستطاع أن يقول فى رضى تام أن آل شئ طيب حتى شقاوة إدريس باتت شيئا مألوفا لكن المرض اشتد على أمه، وعانت آلاما لم تعرفها من قبل تقطع لها قلبه، وآانت تدعوه إلى جانبها آثيرًا فتسبغ عليه اآرام الدعاء، ومرة قالت له بتوسل حار " : ادع ربك دائما أن يقيك الشر ويهديك سواء السبيل، ولم تدعه يذهب، وظلت تراوح بين
الأنين وبين مخاطبته وتذآيره بوصيتها حتى فاضت روحها بين يديه وبكاها أدهم ، وبكتها أميمة، وجاء الجبلاوى فنظر فى وجهها مليا ثم سجاها باحترام وقد تجلت فى عينيه الحادتين نظرة آئيبة مليئة بالشجن.
وما آاد أدهم يعود رويدًا إلى مألوف الحياة حتى ارتطم بتغير طارئ على أميمة لم يعرف له علة، بدأ بانقطاعها عن مجلسه فى الحديقة فلم يسر بذلك آما آان يتوهم أحيانا، وسألها عن سر انقطاعها فاتلت بأعذار شتى آالعمل أو التعب، ولاحظ أنها لم تعد تقبل عليه بالاندفاع المعهود ، فإذا أقبل هو عليها لاقته دون عاطفة حقيقة، آأنما تجامله، وآأنهما مجاملته
عناء، وتساءل عما هناك ! لقد مر بشئ شبيه بهذا ، ولكن حبه صمد له وتغلب عليه، وآان بوسعه أن يقسو عليها، وود أحيانا لو يفعل ذلك ولكن منعه انكسارها وشحوبها ومغالاتها فى التأدب معه أحيانا تبدو حزينة، وأحيانا تبدو حائرة ومرت باغت فى عينيها نظرة نافرة حتى رآبه الغضب والجزع معا وقال لنفسه " : فلا صبر عليها قليلا، إما ينصلح حالها أو فلتذهب فى ألف داهية."
وجلس إلى أبيه فى مخدع الرجل ليعرض عليه حساب الشهر الختامى.
وتفحصه الأب دون أن يعنى بمتابعته وسأله:
مالك ؟
فرفع أدهم رأسه نحوه فى دهشة وقال
لا شئ يا أبى
فضيق الرجل عينيه وتمتم
خبرنى عن أميمة
فانخذلت عيناه تحت نظرة أبيه النافذة وقال
بخير ، آل شئ طيب
فقال الجبلاوى بضجر
صارحنى بما عندك- .

فصمت أدهم مليا ، وهو يؤمن بان أباه قادر على معرفة آل شئ

ثم قال معترفًا:

تغيرت آثيرًا ، وتبدو آالنافرة

فتجلت فى عينى الأب نظرة غريبة وقال

هل وقع بينكما خلاف ؟-.

أبدًا

فقال الجبلاوى فى ارتياح وهى يبتسم

-يا جاهل ، ترفق بها ، لا تقترب منها حتى تدعوك، سوف تكون أبا عما قريب.

6

جلس أدهم فى إدارة الوقف يستقبل مستأجرى الأحكار الجدد، وأحدًا بعد أخر، وقد وقفوا طابورًا، أوله أمامه وأخره فى نهاية المنظرة الكبيرة، ولما جاء أخر المستأجرين سأله أدهم دون أن يرفع رأسه عن دفتره فى عجلة وضجر:

-اسمك يا معلم ؟

-إدريس الجبلاوى

فرفع أدهم رأسه فى فزع فرأى أخاه واقفا أمامه، ثم وقف متوثبا للدفاع عن نفسه وهو ينظر نحوه بحذر، لكن إدريس بدا فى مظهر جديد لا عهد لأحد به، بدا رث الهيئة هادئا، متواضعا، حزين الطرف مأمون الجانب ، آالثوب المنشى بعد نقعة فى الماء، ومع أن هذا المنظر استل من نفس أدهم آل حنق قديم إلا أنه لم يطمئن إلى السلامة آل الاظمئنان، فقال فى تحذير مشوب بالرجاء.

إدريس-. !

فأحنى إدريس رأسه قائلا فى رقة عجيبة

-لا تخف لست إلا ضيفك فى هذا البيت إذا وسعنى آرم أخلاقك.

أهذا الكلام اللطيف يصدر عن إدريس حقا ! هل أدبته الآلام؟ الحق أن خشوعه محزن آفجوره، وألا تعد استضافته له تحديًا للأب؟ لكنه جاء دون دعوة منه، ووجد نفسه يشير إليه بالجلوس على مقعد قريب من مقعده ، فجلس معا وهما يتبادلان النظر فى غرابة حتى قال إدريس:

أندسست فى جموع المستأجرين لأتمكن من الانفراد بك

فتسأل أدهم فى قلق

ألم يرك أحد ؟-.

لم يرنى أحد من البيت، اطمئن إلى هذا ، لم أجىء لأآدر صفوك ولكنى الجأ إلى لطف اخلاقك

فغض أدهم عينيه متأثرًا وقد تصاعد الدم إلى وجهه، فقال إدريس

لعلك تعجب لما غيرنى، لعلك تتساءل أين ذهب تكبره وصلفه، فأعلم أننى قاسيت آلاما لا يقدر عليها أحد، ورغم هذا آله-.

فأننى لا أقف موقفى هذا من أحد سوالك إذ أن مثلى لاينسى آبرياءه إلا حيال الخلق اللطيف

فغمغم أدهم قائلا:

-خفف الله عنك وعنا، فكم نغص مصيرك حياتى وآدرها.

-آان ينبغى أن أعرف هذا من أول الأمر، ولكن الغضب جننى وفتكت الخمر بكرامتى، ثم اجهزت حياة التشرد والبلطجة على الرمق الأخير من انسانيتى، أعهدت مثل ذلك السلوك فى أخيك الأول ؟

أبدًا ، آنت خير أخ وأنبل إنسان!

فقال إدريس بصوت المتوجع

حسرة على تلك الأيام، لست اليوم إلا شقيا، اخبط فى الخلاء جارًا ورائى ارمأة حبلى، اشبع فى آل مكان باللعنات،-.

واترى رزقى بالمنكر والعدوان

-إنك تمزق قلبى يا أخى.

معذرة يا أدهم ، لكن هذه هى طويتك التى خبرتها منذ قديم، ألم أحملك صغيرًا على يدى، ألم أشهد صباح ويفاعتك-.

وألمس فيها نبلك وسجاياك الحميدة؟ لعنة الله الغضب حيثما احترق

لعنة أبدية يا أخى

تنهد إدريس وهو يقول وآأنما يخاطب نفسه

-شدّ ما اسأت إليك، أن ما حاق بى من شر وما سيحيق لهو دون ما استحق من جزاء.

خفف الله عنك ، اتدرى أننى لم ايأس أبدًا من عودتك؟-.

حتى فى أبان غضب أبينا جازفت بمخاطبته فى شأنك

فابتسم إدريس عن أسنان علاها الإصفرار والقذارة وقال:

هذا ما حدثتنى به نفسه ، قلت إن يكن ثمة رجاء فى مراجعة أبى فلن يتأتى عن سبيل سواك

فلمعت عينا أدهم وهو يقول

إنى المس الهداية فى روحك الكريمة، إلا ترى أنه قدر أن الآوان لكى نخاطب والدنا فى الأمر ؟

فهز إدريس رأسه الأشعث فى يأس وقال
أآبر منك بيوم يعرف أآثر منك بسنة، وأنا أآبرك بعشر سنوان لا بسنة واحدة، فأعلم أن أبانا يغفر آل شئ إلا أن يهينه-.
أحد، لن يعفو عنى أبوك بعد ما آان، ولا أمل لى فى العودة إلى البيت الكبير
لا شك فيما قاله إدريس، وهذا مازاده حرجا وضيقا وتمتم فى آآبة:
ماذا فى وسعى أن أفعل من أجلك ؟
فابتسم إدريس مرة أخرى قائلا
-لا تفكر فى مساعدات مالية، فإنى واثق من أمانتك آمدير للوقف وأعلم أنك إذا مددت لى يد المعونة فسيكون من حر مالك، وه ما لا أقبله، أنك اليوم زوج وغدًا أب، وأنا لم اجئك مدفوعا بفقرى، ولكنى جئت لأعلن لك ندمى عما فرط منى فى
حقك، ولاسترد مودتك، ثم أن لى رجاء.
فتطلع إليه أدهم باهتمام وتساءل:
قال يا أخى ما رجاؤك؟
فأدنى إدريس رأسه من أخيه آأنما يخشى أن تسمعه الجدران وقال
أريد أن أطمئن على مستقبلى بعد أخ خسرت حاضرى، سأآون أبًا مثلك، فما مصير ذريتى؟-.
ستجدنى رهن اشارتك فى آل ما استطيع
فربت إدريس آتف أدهم بامتنان وقال
أريد أن أعرف هل حرمنى أبى من حقى فى الميراث؟-..
آيف لى بمعرفة هذا، ولكن أن سألتنى عن رأيى
فقاطعه إدريس قلقا
إنى لا أسأل عن رأيك ولكن عن رأى أبيك-. .
إنه آما تعلم لا يصارح أحدًا بما يدور فى رأسه
ولكنه دون شك قج سجله فى حجة الوقف
فهز أدهم رأسه دون أن ينبس فعاد إدريس يقول
آل شئ فى الحجة-. .
لا علم لى بها، وأنت تعلم أن احدًا فى بيتنا لا يدرى عنها شيئا . وعلمى فى الإدارة يسير تحت إشراف أبى الكامل
فحدجه إدريس بنظرة حزينة وقال

-الحجة فى مجلد ضخم، وقد لمحته مرة فى صباى وسالت أبى عما فيه - وآنت وقتذاك قرة عينه - فقال لى إنه يضم آل شئ عنا، ولم نعد إلى الحديث عنه، ولم يسمح لى بذلك حين بدأ لى أن اسأل عن بعض ما جاء فيه، ولا أشك الآن فى أن مصيرى قد تقرر فيه.

فقال أدهم وهو يشعر بأنه ينحصر فى رآن ضيق:

-الله أعلم.

-إنه فى الخلوة المتصلة بمخدع أبيك، ولا شك أنك رأيته بابها الصغير فى نهاية الجدار الأيسر، وهو باب مغلق دائما، لكن مفتاحه مودع فى صندوق فضى صغير فى درج الخوان القريب من الفراش، أما المجلد الضخم فعلى ترابيزة فى الخلوة الضيقة.

فرفع أدهم حاجبية الخفيفتين فى انزعاج وتمتم:

-ماذا تريد ؟

فقال إدريس متنهدًا

إن آان ثمة راحة بال باقية لى فى هذه الدنيا فهى رهن بمعرفتى ما سجل فى الحجة عنى

فقال أدهم فى ارتياع

أهون على أن أسأله عما فى الشروط العضرة صراحة

-لن يجيب، وسيغضب وربما اسىء بك الظن، أو خمن الدافع الحقيقى وراء سؤالك فثار سخطة، وآم أآره أن تخسر ثقة أبيك جزاء أحسانك إلى، وهو لاشك لايريد أن يذيع شروطه العشرة، ولو أراد ذلك لعرفناه جميعا، لفلا سبيل مأموتا إلى الحجة إلا السبيل الذى وصفه لك . وهو ميسور جدًا عند الفجر حين يتجول أبوك فى الحديقة.

فامتقع وجه أدهم وهو يقول:

ما أفظع ما تدعونى إليه يا أخى

فدارى إدريس خيبته بابتسامة شاحبة وقال

ليس جريمة أن يطلع ابن على ما يخصه فى حجة أبيه-. .

لكنك تطلب إلى سرقة سر يحرص أبونا على صونه

فتنهد إدريس بصوت مسموع وقال

قلت لنفسى عندما قررت الجوء إليك " : ما أصعب أن أقنع أدهم بعمل يعتبره مخالفا لإرادة الأب، ولكن داعبنى أمل قوى فقلت لعله يقدم إذا لمس مدى حاجتى إلى معونته، وليس فى الأمر جريمة وسيمر بسلام، وستجد أنك انتشلت روحا من الجحيم دون أدنى خسارة.

ليحفظنا المولى من الأخطار-. ..

أمين لكنى أتوسل إليك أن تنقذنى من العذاب

نهض أدهم فى جزع واضطراب ، فنهض إدريس فى أثره وابتسم ابتسامة دلت على تسليمة باليأس وقال:

أزعجتك حقا يا أدهم ! من أمارات تعاستى أننى لا ألقى شخصا حتى تدرجه المتاعب على وجه أو أخر، بات إدريس لعنة-. ساخرة

آم يعذبنى عجزى عن مساعدتك أنه عذاب ما بعده عذاب

فدنا منه حتى وضع يده على منكبه فى رقة، ثم لثم جبينه فى عطف وقال

لا يسأل عن تعاستى إلا نفسى، لمذا احملك فوق ما تطيق؟-.

دعنى أترك بسلام وليفعل الله ما يشاء

قال إدريس ذلك ثم ذهب.

7

دبت الحيوية فى وجه أميمة لأول مرة منذ عهد قصير، فسألت أدهم باهتمام:

ألم يحدث أبوك عن الحجة من قبل ؟

آان أدهم متربعا على الكنبة، ينظر من النافذة إلى الخلاء الغارق فى الظلمة فأجابها

لم يحدث احدًا عنها قط-. .

لكن أنت-.

لست إلا أحد أبنائه الكثيرين

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقال

لكنه اختارك أنت لتدير الوقف

فالتفت نحوها قائلا بحدة

قلت إنه لم يحدث أحدًا عنها قط

فابتسمت مرة أخرى آأنما لتلطف حدته، ثم قالت بمكر

لا تشغل بالك، إدريس لايستحق ذلك، إن إساءاته لك لا تُنسى أبدًا

فحول أدهم رأسه نحو النافذة وقال بحزن

إدريس الذى جاءنى اليوم غير إدريس الذى اساء إلى، إن منظره النادم الحزين لا يبرح مخيلتى-. .

فقالت بارتياح ظاهفر

هذا ما أدرآته من حديثك، وهو سر اهتمامى بالأمر، ولكنك تبدو ضيق الصدر بخلاف عادتك

آان ينظر إلى الظلام الكثيف، لكن رأسه المشغول لم يستجب له فقال

لا فائدة ترجى من الاهتمام-. .

لكن أخاك النادم يسألك الرحمة-.

العين بصيرة واليد قصيرة-.

نفسك يوما وحيدا أمامهم-.

أنت تهتمين بنفسك لا بإدريس

فهزت رأسها آأنما تزيح عنه نقاب المكر وقالت

يجب أن تحسن علاقتك به، وبأخوته، وإلا وجدت

من حقى أن أهتم بنفسى، ومعنى هذا أن اهتم بك وبما فى بطنى، ماذا تريد المراة ؟ وهذا الظلام ما أشد آثافته، حتى المقطم العظيم قد أبتلعه وأراح نفسه بالمصت وإذا بها تسأله

ألا تذآر أنك دخلت الخلوة أبدًا ؟

فأجاب خارجا من صمته القصر

-أبدا ، أحببت فى صباى أن أدخلها فمنعنى ابى، ولم تكن أمى تسمح لى بالاقتراب منها.

-لا شك أنك آنت تتمنى دخولها ؟

ما حداثها فى الأمر إلا وهو ينتظر أن تدفعه عنه لا أن تجيز به إليه آان بحاجة إلى من يؤآد له صواب موقفه من أخيه، آان بحاجة ماسة إلى ذلك، ولكنه آمن ينادى فى الظام خفيرا فيخرج إليه قطاع طريق.

وعادت أميمة تسأله:

-والخوان الذى به الصندوق الفضى هل تعرفه ؟

آل من دخل الحجرة يعرفه، لماذا تسالين عنه؟

-تزحزحت من مجلسها على الكنبة مقتربه منه وسألته باغراء

بربك ألا تود أن تطلع على الحجة ؟

فأجاب بحدة

آلا ، لماذا أود ذلك ؟

منذا يقاوم الرغبة فى الاطلاع على المستقبل

تعنين مستقبلك أنت ؟-

مستقبلى ومستقبلك ، ومستقبل إدريس الذى حزنت عليه رغم ما سبق منه ضدك

المرأة تعرب عما فى نفسه، وهذا مايثير حنقه ومد رأسه نحو النافذة آثما يهرب منها وهو يقول

لا أود ما لا يود أبى

فرفعت حاجبيها المزججين متسائلة

لماذا يخفى هذا الأمر ؟-!

ذلك شأنه ، ما آآثر أسئلتك الليلة

فقالت وآاثما تخاطب نفسها

المستقبل ! نعرف مستقبلنا ونقدم احسانًا آبيرًا إلى إدريس التعيس، لن يكلفنا هذا آله إلا قراءة ورقة دون أن يدرى أحد،-

واتحدى أى صيق أو عدو أن يثبت علينا سوء نية فى عملنا هذا أو انه يمس من قريب أو من بعيد والدك المحبوب

وآان أدهم يراقب نجما فاق الأنجم بضيائه اللامع فقال متجاهلا قولها:

ما أجمل السماء ! لولا رطوبة الليل لجلست فى الحديقة أراقبها من خلال الغصون-. .

لا شك أنه ميز البعض فى شروطه

فهتف أدهم

ما أزهدنى فى امتياز لايجر وراءه إلا المتاعب

فقالت متنهدة

-لو آنت أعرف القراءة لذهبت بنفسى إلى الصندوق الفضى.

تمنى لو آان ذلك آذلك، وتضاعف حنقه عليها وعلى نفسه، بل شعر بأنه قد وقع فى المحظور فعلا وأنه يفكر فيه آحدث مضى، وتحول نحوها مقطبا فبدأ ودجهه على ضوء المصباح المرتعش بالنسيم المتسلل من النافذة متجها ، ضعيفا رغم تجهمه وقال:

لعنت حين أفضيت إليك بالخبر-. !

لا أريد ب شرًا، ومبحتى لوالدك مثل محبتك له-

دعيك من هذا الحديث المتعب، فى هذه الساعة تستحب الراحة-..

العمل السهل

فنفخ قائلا

يبدو أن قلبى لن يرتاح قبل الاقدام على هذا

اللهم أرجع إليها عقلها!

فرمقته بنظرة المتحفزة ثم سالته

ألم تخالف أباك باستقبالك إدريس فى المنظرة ؟

فاتسعت عيناه دهشة وقال

-وجدته أمامى فلم يسعنى إلا استقباله.

هل أخبرت والدك بنبأ زيارته ؟-.

ما أثقلك الليلة يا أميمة

فقالت بصوت الظافر

-إذا جاز لك أن تخالفه فيما قد يضرك فكيف لا تخالفه فيما يفيدك ويفيد اخاك ولا يضر أحدًا؟

بوسعه أن يقطع الحديث لو شاء، ولكن المنحدر آان شديد الانحدار، والحق أنه لم يترآها تسترسل فى حديثها إلا لأن جزاءًا من نفسه آان بحاجة إلى تأييدها، وتساءل فيما يشبه الغضب:

ماذا تعنين ؟-.

أعنى أن تسهر حتى الفجر، أو حتى يخلو المكان لنا

فقال بامتعاض

ظننت الحمل قد أفقدك عاطفتك وحدها، ولكن ها هو يفقدك عقلك أيضا-. .

أنت مقتنع بما أقول وحق من خلق الروح فى بطنى، ولكنك خائف، والخوف لا يليق بك

فاآفهر وجهه أآفهرارًا منقطع الأسباب بالتراخى السارى فى داخله وقال

سنذآر بهذه الليلة أول زعل فرق بيننا

فقالت برقة عجيبة

أدهم ، دعنا نفكر جادين فى الأمر-. .

لن نجنى خيرًا-.

-هذا قولك ولكنك سترى

شعر بوهج النار وهو يقترب منها . قال لنفسه : إذا احترقت فلن تجدى دموعى فى أخمادها، وحول رأسه إلى النافذة فخيل إليه أن سكان ذلك النجم اللامع سعداء لبعدهم عن هذا البيت زتمتم بصوت ضعيف:

لم يحب أح أباه آما أحبه-. .

لم أبعدك عما يسيئه-.

أميمة ، ما أحوجك إلى النوم-.

أنت الذى طيرت النوم من عينى-.

أملت أن أسمع عندك صوت العقل-.

ما اسمعتك غيره

وسائل نفسه بصوت منخفض آالهمس

ترى هل أندفع نحو الخراب ؟

فربتت يده الملقاة على مسند الكنبة وقالت بعتاب

مصيرنا واحد يا نآآر الحب!

فقال فى استسلام دل على أنه اتخذ قراره:

فقالت بانطلاق:

-ستقرأ مصيرك فى الحجة..

ومد بصره نحو النجوم الساهرة . وقطع السحاب المستضيئة بنورها الهادئ، وخيل إليه أنها مطلعة على نجواه فغمغم " : يا لطف السماء، ثم سمع أميمة وهى تقول فى نبرات مداعبة:

-دعنى أرد إليك الجميل.

8

أنت علمتنى حب الحديقة،

وعند الفجر غادر الأب حجرته قاصدًا الحديقة ، آان أدهم بأقصى الردهة يترقب أميمة خلفه ممسكة بكتفه فى الظلام، تابعا وقع الأقدام الثقيل المتزن ولكنهما لم يتبينا اتجاهها فى الظلام، وآان من عادة الجبلاوى أن يسير فى هذه الساعة دون حاجة إلى ضوء أو رفيق، وسكت الصوت فالتفت أدهم نحو زوجه هامسا:

ألا يحسن بنا أن نعود ؟

فدفعته وهى تهمس فى أذنه

-على اللعنة أن آنت أضمر سوءًا لإنسان.

فتقدم بخطوات حذرة، فى اضطراب أليم، ويده قابضة على شمعة صغيرة فى جيبه، وجعل يتحسس الجدار حتى مست

يده مصراع الباب.

وهمست أميمة:

-سابقى هنا لأرقب المكان، اذهب مصحوبا بالعناية.

ومدت يدها فدفعت الباب حتى انفتح ثم تراجعت، ومضى أدهم نحو الحجرة بخطواته الحذرة فتقلى من داخلها رائحة مسكية شديدة النفاذ، ورد الباب وراءه ووقف يحملق فى الظلام حتى تبين له خصاص النوافذ المطلة على الخلاء، وهى تنضح بنور الفجر، شعر أدهم بأن الجريمة - أن آان ثمة جريمة 0 قد وقعت بدخوله الحجرة، وأن عليه أن يتم عمله، سار مع الجدار الأيسر، مرتطما أحيانا بالمقاعد، مارًا فى طريقة بباب الخلوة، حتى بلغ نهايته، ثم مال مع الجدار الأوسط وما لبث أن عثر على الخوان، جذب الدرج، وتحسس ما بداخله حتى وجد الصندوق، ثم شعر بحاجة إلى الراحة ليأخذ نفسه . ورجع إلى باب الخلوة ففتش عن ثقبه، ثم وضع فيه المفتاح وأجاره، وفتح الباب، وإذا به يتسلل إلى الخلوة التى لم يدخلها أحد قبله إلا الأب، رد الباب، فأخرج الشمعة، ثم أشعلها، فرألا مربعا ذا سقف عال لا منفذ فيه إلا الباب، مفروش الأرض بسجادة صغيرة، وعند ضلعه الأيمن ترابيرزة أنيقة عليها المجلد الكبير الذى ثبت فى الجدار بعلاقة من صلب، ازدارد أدهم ريقه الجاف بشئ من الألم آأنه وعكة أصابت اللوزتين، وعض على أسنانه، آأنما ليعصر الخوف السارى فى أوصاله المرعش للشمعة فى يده واقترب من التربيزة وهو يحملق فى غلاف المجلد المزخرف بخطوط مموهة بالذهب، ثم مد يده ففتحه، وجد مشقة فى ترآيز ذهنه ونفض الاضطراب عنه وبدأ يقرأ بالخط الفارسى " باسم الله."

لكنه سمع الباب وهو يفتح بغتة، انجذب رأسه نحو الصوت بقوة ودون وعى آأن الباب شده إليه وهو ينفتح رأى الجبلاوى على ضوء شمعته يسد الباب بجسمه الكبير ملقيا على نظرة باردة قاسية، حملق أدهم فى عينى أبيه فى صمت وجمود ، وتخلت عنه قوى الكلام والحرآة والتفكير، وأمره الجبلاوى قائلا:

-اخرج.

ايقظه الرعب من تجمده فتحرك ، وتخلى الأب عن الباب، فغادر أدهم الخلوة والشمعة ما تزال تحترق فى يده ، ورأى أميمة واقفة وسط الحجرة صامتة، والدمع ينحدر تباعًا من مقلتيها، وأشار له الأب أن يقف إلى جانب زوجته ففعل، ثم خاطبه بصرامة قائلا:

عليك أن تجيب على أسئلتى بالصدق

فنطقت أساريره بالامتثال ، وسأله الرجل

من الذى أخبرك بالكتاب ؟

فقال أدهم دون تردد آوعاء تحطم فسال ما فيه

-إدريس.

متى ؟-.

-صباح الأمس

آيف تم اللقاء بينكما ؟-.

-أندس بين المستأجرين الجدد وانتظر حتى انفرد بى

لماذا لم تطرده ؟-.

عز علىّ طرده يا أبى

فقال الجبلاوى بحدة

لا تخاطبنى بالأبوة

فاستجمع أدهم قواه قائلا

-إنك أبى رغم غضبك ورغم حماقتى.

أهو الذى أغراك بفعلتك ؟

وأجابت أميمة دون أن يوجهه إليها السؤال

-نعم يا سيدى.

اخرسى يا حشرة) ثم موجها الخطاب إلى أدهم .. (ّأجب-.

آان يائسا حزينا نادما وود لو يطمئن على مستقبل ذريته

وفعلت هذا من أجله.

آلا .. اعتذرت له عن عجزى

وماذا غيرك ؟-.

فتنهد أدهم يائسا وتمتم

الشيطان!

فسأله ساخرًا

هل أخبرت زوجتك بما جرى بينك وبينه ؟

هنا انتحبت أميمة فنهرها الجبلاوى أن تخرس، وحث أدهم على الإجابة بإشارة من إصبعه ، فقال

-نعم.

وماذا قالت لك ؟

لاذ أدهم بالصمت آى يزدرد ريقه فصاح به

أجب يا وضيع-. .
وجدت بها رغبة فى الاطلاع على الوصية وظنت أن ذلك ين يضر أحدًا
فحدجه باحتقار شديد وقال
وهكذا انصعت إلى خيانة من فضلك على من هم خير منك
فقال أدهم بصوت آالأنين
-لن يسعفنى دفاع عن ذنبى ، لكن مغفرتك أآبر من الذنب والدفاع.
تتأمر على مع إدريس الذى طردته إآرامًا لك ؟-.
لم اتامر مع إدريس، لقد أخطأت ، ولا نجاة لى إلا بمغرفتك
وهتفت أميمة بتوسل
سيدى..
قاطعها قائلا
إخرسى يا حشرة
وجعل يردد عينيه بينهما عابسًا ، ثم قال بصوت رهيب
أخرجا من البيت
وهتف أدهم
أبى
فقال الرجل بصوت غليظ
-غادرا البيت قبل أن تلقيا خارجا.

9

وفتح باب البيت الكبير ليشهد هذه المرة خروج أدهم وأميمة مطرودين . خرج أدهم يحمل بقجة ملابس، وتبعته أميمة حاملة بقجة ثانية وأطعمة خفيفة.
خرجا ذليلين حزينين باآيين بلا أملن وعندما سمعا صوت الباب وهو يغلق خلفهما ارتفع صوتهما بالنحيب، وقالت أميمة وهى تنشج:
الموت ما أستحق من جزاء!

فقال أدهم بصوت متهدج
-لأول مرة تصدقين، ولكن الموت دون ما أستحق آذلك.
وما آادا يبتعدان قليلا عن البيت حتى دوت ضحكة ساخرة مخمورة، فنظرا نحو مصدرها، فرأيا إدريس أمام آوخه الذى بناه من الصفائح والأخشاب وقد جلست امرأته نرجس وهى تغزل صامتة، آان إدريس يضحك فى سخرية وشماته حتى ذهل أدهم وأميمة فوقفا يحملقان فيه ، وراح إدريس يرقص ويفرقع بأصابعه حتى ضجرت نرجس فآوت إلى الكوخ ، تابع أدهم بعينين محمرتين من البكاء والغضب ، أدرك فى لحظة المكر الذى مكره فتكشف له عن حقيقته الخبيثة المجرمة، وأدرك أيضا مدى حمقه وغبائه الى يرقص له المجرم شماتة وفرحا، هذا هو إدريس الذى استحال شرًا مجسدًا وغلى دمه حتى فار فأغرق مخه وقبض على حفنة من تراب ورماه بها وهو يصيح بصوت مختنق بالغضب.
-يا قذر ، يالعين، أن العقرب بالقياس إليك حشرة مستأنسه.
فأجاب إدريس بمزيد من حرآاته الراقصة ، هز رقبته يمنة ويسرة ، ولعب حاجبيه ومازال يفرقع بأصابعه وتضاعف غضب أدهم فصاح:
الفساد والدناءة والوضاعة هذه هى صفات المخادعين الكاذبين ، فراح إدريس يهز وسطه بمثل الرشاقة التى هز بها رقبته ويرسم بفيه ضحكة صامتة قبيحة، فصاح أدهم دون التفات إلى أميمة التى حاولت أن تدفعه إلى المسير
-حتى الدعارة تجربها يا أقذر من خلق!
فمضى إدريس يهز عجيزته وهو يدور حول نفسه فى بط ودلال فأعمى الغضب أدهم برمى بالبقجة أرضا ودفع أميمة التى همت بالتعلق به وجرى نحوه حتى قبض على عنقه وشد عليه بكل قوته لم يبد على إدريس أنه تأثر بالمنقض ولا بقبضته، وواصل الرقص وهو يتأنق فى تأودة، وجن جنون أدهم فانهال على إدريس ضربا ولكن إدريس ازداد عبثا وراح يغنى بصوت آريه:
=حطة ا بطة يا دقن القطة.
وتوقف بغتة وهو يزمجر، ثم دفع أدهم فى صدره دفعة قوية تقهقر على أثرها يترنح ثم اختل توازنه فسقط على ظهره ، وهرعت إليه أميمية صارخة فساعدته على النهوض وأخذت تنفض الغبار عن ثوبه وتقول:
-مالك أنت وهذا الوحش، فلنبتعد عنه!
وتناولت البقجة صامتا، وحملت زوجته بقجتها وابتعدا حتى طرف البيت الآخر، وآان الإعياء قد نال منه فرمى بالبقجة وجلس عليها وهو يقول " : لنسترح قليلا " ، فجلست المرأة قبالته وقد رجعت تبكى، وإذا بصوت إدريس يترامى إليهما قويا آالرعد
وصاحبه يقف ناظرًا إلى البيت الكبيرة نظرة التحدى ويصيح:

-طردتنى إآراما لأحقر من أنجبت، أرأيت آيف آان سلوآه نحوك، ها أنت ترميه بنفسك إلى التراب، عقاب بعقاب والبادى أظلم، آى تعلم أن إدريس لا يقهر، فلتبق وحدك مع ابنائك العقماء الجبناء، لن يكون لك حفيد إلا من يسعى فى التراب ويتقلب فى القاذورات، غدا يسرحون بالبطاطة واللب، غدا يتعرضون لصفعات الفتوات فى العطوف وآفر الزغارى، غدًا يمتزج دمك بأحقر الدماء، وتقبع أنت وحيدًا فى حجرتك تبدل وتغير فى آتابك آيف شاء لك الغضب والفشل وتعانى وحدة الشيخوخة فى الظلام، حتى إذا جاء الأجل فلن تجد عينا تبكيك.

ثم التفت صوت أدهم وواصل صياحه الجنونى:

وأنت أيها الضعيف آيف تلقى الحياة وحدك ! لا قوة فيك تؤيدك ولا قوى لديك تعتمد عليه، وماذا تفيدك مبادئ القراءة-..

والحساب فى هذا الخلاء ؟ ها .. ها .. ها

و لم تزل أميمة تبكى حتى ضاق بها أدهم فقال فى فتور:

آفى عن البكاء

فقالت وهى تجفف عينيها

سأبكى آثيرًا ، أن ا الآثمة يا أدهم- .

لست دونك اثما ، لو لم تلقى منى ضعيا نذلا ما وقع الذى وقع-.

الذنب ذنبى وحدى

فهتفت بغيظ

إنك تحملين على نفسك لتتقى حملتى عليك.

فباخت حميتها فى اهتمام نفسها وأحنت رأسها مليا ثم عادت تقول بصوت ضعيف

لم أآن أتصور أن تبلغ قسوته هذا الحد- .

إنى أعرفه ولا عذر لى

فترددت قليلا ثم قالت

آيف أعيش هنا وأنا حبلى ؟

فى هذا الخلاء نعيش بعد البيت الكبير، ليت للدموع جدوى، ولكن ليس أمامنا إلا أن نقيم آوخا لنا أين ؟

فنظر فيما حوله، ووقف نظره قليلا صوب آوخ إدريس، ثم قال بقلق

لا يجوز أن نبتعد آثيرا عن البيت الكبير ولو اضطررنا إلى البقاء غير بعيد من آوخ إدريس، وإلا هلكنا وحدنا فى أطراف هذا-.

الخلاء

ففكرت أميمة قليلا ثم قالت بوجه مال إلى الاقتناع برأيه:

مرمى بصره ، لعله يرق لحالنا

فتأوه أدهم قائلا

نعم ، ولكن نبقى على

-الحسرة تقتلنى ، ولولاك لتوهمت ما بى آابوسا، هل يجفونى قلبه إلى الأبد؟ لن أتطاول عليه آإدريس ، هيهات، لست آإدريس فى شئ، فهل ألقى نفس المعاملة؟

فقالت أميمة فى حنق:

لم تعرف هذه الأحياء أبًا مثل أبيك

فتساءل بعينين حادتين

متى يتوب لسانك ؟

فانفعلت قائلة

والله ما ارتكبت جريمة ولا إثما، خبر من تشاء بما فعلت وبما نلت جزاء ما فعلت وأراهنك على أنه سيضرب آفا بكف، والله-.

ما عرفت الأبوة أبا آأبيك

ولا عرفت الدنيا رجلاً مثله، هذا الجبل ن وهذه الصحراء، وهذه السماء تعرفه، ومثله يجبن عند التحدى-. .

بهذا الجبروت لن يبقى فى البيت أحد من أبنائه-.

نحن أول الخارجين فنحن شر من فيه

فقالت بامتعاض

لست آذلك، لسنا آذلك.

الحكم الصحيح لن يكون إلا عند الامتحان

لاذ آلاهما بالصمت لم يكن بالخلاء حتى يُرى، إلا بعض المارة العابرين عن بعد عند سفح الجبل، وآانت الشمس ترسل أشعة حامية من سماء صافية فتغمر الرمال المترامية حيث يلمع الحصا أو قطع الزجاج المتناثرة ، ولم يكن من قائم إلا الجبل فى الأفق، وصخرة آبيرة فى الشرق آأنها راس جسم مطمور فى الرمال، وآوخ إدريس عند الطرق الشرقى للبيت

الكبير ينغرس فى الأرض متحديثا بهيئته الزرية، آان الجول آله ينذر بالشقاء والتعب والخوف وتنهدت أميمة بصوت مسموع وقالت:

سنتعب آثيرًا حتى تتيسر لنا الحياة

فرنا أدهم إلى البيت الكبير وقال

وسنتعب أآثر حتى يفتح لنا هذا الباب مرة أخرى.

10

شرع أدهم وأميممة فى إقامة آوخ لهما عند الطرف الغربى للبيت الكبير، آانا يجيئان بالأحجار من المقطم، ويجمعان الصفائح من سفح الجبل، ويلتقطان الأخشاب من مشارف العطوف والجمالية وباب النصر، وتبين لهما أن بناء الكوخ سيستغرق وقتا اطول مما قدرا . وصادف ذلك نفاد الزاد الذى حملته أميمة من البيت من جبن وبيض وعسل أسود، فقر أدهم أن يبدأ بالسعى فى سبيل رزقه ، ورأى أن يبيع بع ثيابه الثمينة ليشترى بثمنها عربة يد لبيع البطاطة والملانة والخيار وغيرها على حسب المواسم، وعندما أخذ فى جمع ثيابه أجهشت أميمة فى البكاء من شدة التأثر، ولكنه لم يستجب لعواطفها، فقال وهو بين السخط والسخرية:

- لم تعد هذه الثياب تناسبنى، أليس من المضحك أن أسرح ببطاطة وأنا متلفع بعباءة مزرآشة من وبر الجمل؟

ثم شهده الخلاء وهو يدفع عربته نحو الجمالية، الجمالية التى لم تنس بعد زفته وانقبض قلبه وانحبس صوته فكف عن النداء وآادت تغرورق عيناه ، واتجه نحو الأحياء البعيدة متهربا وآان يواظب على المشى والنداء من الصباح إلى المساء حتى آلت يداه وانجرد نعلاه وسرت الأوجاع فى قدميه ومفاصله، وآم آان يشق عليه مساومات النسوان، أو أن يضطره الأعياء إلى افتراش الأرض لصق جدار، أن أن يقف فى رآن ليفك حصره، بدت الحياة غير حقيقية، وأيام الحديقة وإدارة الوقف والمخدع المطل على المقطم آالأساطير، وجعل يقول لنفسه " : لاشئ حقيقى فى هذه الدنيا، هى البيت الكبير، هى الكوخ الذى لم يتم، هى الحديقة هى عربة اليد، هى المس واليوم والغد، لعلى أحسنت صنعا بالإقامة قبالة البيت حتى لا أفقد الماضى آما فقد الحاضر والمستقبل، وهل من عجب أن أخسر الذاآرة آما خسرت أبى وآما خسرت نفسى؟ فإذا عاد أول الليل إلى أميمية فليس إلى الراحة يعود، ولكن ليواصل العمل فى بناء الكوخ، ومرة جلس فى حارة الوظاويط عن الظهر ليستريح فنعس، واستيقظ على حرآة فرأى غلمان يسرقون عربته فنهض مهددا . ورأه غلام فنبه أقرانه بصفير ودفع العربة ليشغله بها عن مطاردهم فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين آالجراد، وغضب أدهم غضبا شديديا حتى قذف فوه المهذب بسيل من أقذع الشتائم، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذى لوث بالطين وتضاعف

غضبه دون أن يجد له متنفسا فراح يقول بتأثر وانفعال " : لماذا آان غضبك آالنار تحرق بلا رحمة؟ لماذا آانت آبرياؤك أحب إليك من لحمك ودمك؟ وآيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا نداس بالأقدام آالحشرات؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها فى بيتك الكبير أيها الجبار ! وقبض على يدى العربة وهم يدفعها بعيدا عن الحارة اللعينة، وإذا بصوت يقول متهكما:

-بكم الخيار يا عم ؟

رأى إدريس واقفا يبتسم ابتسامة ساخرة، رافلاً فى جلباب مقلم بألوان زاهية، وعلى رأسه لاسة بيضاء، رآه باسمًا ساخرًا لا ثائرًا ولا هائجا فضاقت لمنظره الدنيا فى عينيه رغم ذلك، ودفع العربة ليذهب ، ولكن إدريس اعترض سبيله وهو يقول فى دهشة:

ألا يستحق زبون مثلى حسن المعاملة ؟

فارتفع رأس أدهم فى عصبية وهو يقول

دعنى وشانى

فأمعن إدريس فى السخرية متسائلا

ألم تجد خيرًا من هذه اللهجة تخاطب بها أخاك الأآبر ؟

فقال أدهم بلهجة المتصبر

-يا إدريس أما آفاك ما فعلت بى ؟ لا أريد أن تعرفنى أو أن أعرفك.

آيف يتأتى هذا ونحن فى حكم الجيران ؟

ما أردت جوارك ولكنى قصدت أن أبقى قريبا من البيت الذى .. فقاطعه هازئًا-!

الذى طردت منه

فسكت أدهم وقد تجلى الضيق فى شحوب وجهه، فاستطرد الآخر قائلا

النفس تتعلق بالمكان الذى تطرد منه ، أليس آذلك ؟

فلم يخرج أدهم عن صمته ، فقال الآخر

فاعلم بأنى لن أسمح لك بالعودة وحدك-.

ولو انطبقت السماء على الأرض

إنك تطمع فى العودة إلى البيت ما مآر، إنك ضعيف حقا ولكن ملىء بالمكر، ألا

فتساءل أدهم ومنخراه يتحر آان من الحنق:

ألم يكفك ما فعلت بى ؟-.

ألم يكفك أنت ما فعلت بى ؟ من أجلك طردت وآنت آوآب البيت المنير-.

المتعجرفة

فقهقة إدريس قائلا

بل طردت بسبب نفسك

وطردت أنت بسبب نفسك الضعيفة، فلا مكان فى البيت الكبير للقوة ولا للضعف، فانظر إلى استبداد أبيك ، أنه لا يسمح-.

باجتماع القوة والضعف فى نفس ألا نفسه هو، أنه القوى لحد الفتك بفلذات آبده، الضعيف لحد التزوج من أم آأمك

فقطب أدهم غاضبا وقال بتهدج:

دعنى اذهب ، وتحرض إذا شئت بقوى مثلك-. .

أبوك يتحرش بالأقوياء والضعفاء

فصمت أدهم وازداد عبوسا فقال إدريس هازئا

لا تريد أن تتورط فى تجريحه، هذا مكر من مكرك، ودليل على أنك مازلت تحلم بالعودة

ثم تناول خيارة وأخذ ينظر إليها باشمئزاز ثم قال

آيف سولت لك نفسك أن تسرح بهذا الخيار الملوث ! ألم تجد عملاً أشرف من هذا ؟-.

إنى راض عنه

بل اضطرتك الحاجة إليه، على حين ينعم أبوك بالعيش الرغيد، فكر قليلا فى الأمر، أليس من الأآرم لك أن تنضم إلى

فقال أدهم فى ضجر

لم اخلق لحياتك-! .

انظر إلى جلبابى ! ان صاحبه يرفل فيه أمس دون وجه حق

فلاح التساؤل فى عينى أدهم وقال

وآيف حصلت عليه ؟-.

آما يفعل الأقوياء

أسرق أم أقتل ؟ وقال بحزن

لا أصدق أنك أخى إدريس!

فقال وهو يقهقه

لا تعجب مادمت تعلم أننى ابن الجبلاوى

فهتف أدهم فى نفاد صبر

!-هلا أوسعت لى الطريق؟

آما تشاء لك حماقتك

وملأ جيبه بالخيار، وألقى عليه نظرة ازدراء، ثم بصق على العربة ومضى

ووقفت أميمة تستقبله وهو يقترب من الكوخ ، آانت الظلمة تغشى الخلاء، وفى داخل الكوخ شمعة تحترق آألها رمق فى صدر محتضر ، أما فى السماء فالنجوم تزهر، وعلى ضوئها يبدو البيت الكبير آشبح عملاق، أدرآت أميمية من صمته أنه على حال يستحسن معها تجنبه، قمت إليه وز ماء ليغسل أطرافه وجاءته بجلباب نظيف ، وغسل وجهه وقدميه وبدل جلبابه ثم جلس على الأرض ومد ساقيه، واقتربت منه فى حذر، فجلست وهى تقول بلهجة الاسترضاء:

ليتنى اتحمل عنك بعض تعبك

وآألها حكت أجرب فصاح

اخرسى يا أصل الشر والتعاسة

فتزحزحت بعيدًا عنه حتى آادت تختفى، ولكنه صاح

إنك خير من يذآرنى بغفلتى وحماقتى، ملعون اليوم الذى رأيتك فيه

فجاءه فى الظلام انتحاها ولكنه ضاعف من غضبه فقال

سحقا لدموعك ! إن هى إلا عرق الخبث الذى يمتلىء به جسدك

فجاءه صوقما الباآى قائلا

ىكل قول يهون بالقياس إلى عذابى-. .

-لا تسمعينى صوتك وأبعدى عن وجهى

وآور ثوبه المخلوع ورماها به فتأوهت قائلة " : بطنى "! وسرعان ما برد غضبه ، وأشفق من العواقف، وأنست هى من صمته

تراجعا فقالت بصوت المتوجع:

سأذهب بعيدا آما تريد

وقامت فمضت تبتعد حتى صاح بها

هل تريب الوقت مناسبا للدلال ؟

ثم تحفز للقيام وهو يصيح

-ارجعى لا رجعت إليك الراحة.

واحد بصره فى الظلام حتى رأى شبحها يعود فأسند ظهره إلى جدار الكوخ ورفع رأسه نحو السماء، وود لو يطمئن على

بطنها ولكن أبت آبرياؤه ، أجل ذلك إلى اجل قريب .. ثم مهد له بقوله:
-إغسلى بعض الخيار للعشاء.

11

مجلس لا يخلو من الراحة ، لا نبت فيه ولا ماء ولا عصافير تزقزق فوق الغصون، لكن أرض الخلاء الجرداء المشاآسة تكتسى فى الليل حلة غامضة بخالها الحالم ما يشاء، وفوقه قبة السماء المرصعة بالنجوم والمرأة داخل الكوخ والوحدة ناطقة والحزن آالجمر المدفون تحت الرماد، وسور البيت العالى يعاند المشتاق، وهذا الأب الجبار آيف السبيل إلى إسماعه انبيني ومن الحكمة نسيان الماضى، لكن ليس لنا من زمن غيره، لذلك آرهت ضعفى ولعنت نذالتى ورضيت الشقياء رفيقا وسألد له أبناء، والعصفورة التى لا تصدوها قوة عن الحديقة أسعد من أحلامى وعيناى احترقتا شوقا إلى المياه الجارية بين شجيرات الورد وأين عبير الحناء والياسمين أين، أين خلو اباب والناى أين، أيها القاسى، مضت نصف عام فمتى يذوب ثلج قسوتك؟

وعن بعد ترام صوت إدريس مغنيا بصوت آريه " : عجايب والله عجايب " ، وإذا به يوقد نارًا أمام آوخه فاشتعلت آأنها شهاب

هوى فانغرس فى الأرض، وآانت زوجة تذهب وتجىء ببطنها المتدلى لتقدم طعاما أو شاربا ولطمته موجة سكر فصاح فى السكون موجها الخطاب إلى البيت الكبير " : هذا أوان الملوخية والفراخ المحمرة، اطفحوها سمًا يا أهل البيت " ، ثم عاد إلى الغناء.

وقال أدهم لنفسه متأسفا " : آلما خلوت إلى نفسى فى الظام جاء الشيطان فاشعل ناره وعربد فأفسد على خلوتى " ، وظهرت أميمة عند باب الكوخ فعلم أنها لم تنم على خلاف ظنه، وآانت من الحمل فى إعياء ومن الجهد والفقر على حال لا تسر ، وقالت برقة واشفاق:

ألا تنام ؟

فقال فى ظهر

دعينى للساعة الوحيدة التى تطيب فيها الحياة-. .

ستسعى بعربتك فى الصباح الباآر فما أحوجك إلى الراحة-.

فى وحدتى أرتد سيدا أو شبه سيد، أتأمل السماء واتذآر الأيام الخالية

فتنهدت بصوت مسموع وقالت

أود لو رأيت أباك ذاهبا من البيت أو راجعا إليه أن أرمى بنفسى تحت أقدامه وأن استغفره

فقال أدهم فى جزع

قلت لك مرارًا أن تقلعى عن هذه الأفكار، فليس بهذه الوسيلة يمكن أن نسترد عطفه

فصمتت مليا ثم قالت همسا

إن أفكر فى مصير الشئ الذى فى بطنى-. .

ولا شغل لى إلا هذا رغم أنى لم أعد إلا حيوانا قذرا

فتمتمت بحزن

والله إنك خير الرجال جميعا

فضحك أدهم ساخرا وقال

لم أعد إنسانًا، فالحيوان وحده هو الذى لا يهمه إلا الغذاء-. .

لاتحزن ، آم من رجل بدأ مثلك ، ثم تيسر له العيش الرغيد فملك الدآآين والبيوت-.

اراهن على أن أوجاع الحبل قد بلغت رأسك

فقالت باصرار

ستكون رجلا ذا شأن وسينشأ وليدنا فى أحضان النعيم

فضرب أدهم آفا بكف وتساءل ساخرًا

أأبلغ ذلك بالبوظة أم بالحشيش ؟-.

بالعمل يا أدهم

فقال فى سخط

-العمل من أجل القوت لعنة اللعنات . آنت فى الحديقة أعيش لا عمل لى إلا أن انظر إلى السماء أو انفخ فى الناى، أما اليوم فلست إلا حيوانا أدفع العربة أمامى ليل نهار فى سبيل شىء حقير نأآله مساء ليلفظه جسمى صباحا، العمل من اجل القوت لعنة اللعنات الحياة الحقة فى البيت الكبير، حيث لا عمل للقوت وحيث المرح والجمال والغناء.

وإذا بصوت إدريس يقول:

=نطقت بالحق يا أدهم، العمل لعنة، وهو ذل لم نعده، ألم أعرض عليك الانضمام إلى ؟التفت أدهم نحو الصوت فراى شبح غدريس واقفا على قرب منه هكذا يتسلل فى الظام دون أن يشعر به فيتصنت إلى الحديث ما شاء له التنصت، ويشترك فيه إذا حلا له ذلك، ووقف أدهم منفعلا وهو يقول:

عد إلى آوخك

فقال إدريس بلهجة جدية مفتعلة

-إني مثلك أقول إن العمل لعنة لا تليق بكرامة الإنسان..

إنك تدعوني إلى البلطجة وهى قذارة فكيف يعيش الإنسان ؟

فلم يرتح إلى محادثته فصمت، وانتظر إدريس أن يتكلم فلم يتكلم ، فقال

لعللك تريد رزقا بلا عمل؟ ولكن ذلك سيكون حتما على حساب الآخرين

وثابر أدهم على صمته فعاد الآخر يقول

أم لعلك تريد رزقا بلا عمل دون أن يضار به أحد؟

وضحك ضحكة آريهة وقال

هذه فزورة يا ابن الجارية ؟

وصاحت اميمة بغضب-.

-عد إلى آوخك واخز الشيطان-."

ونادته امرأته بحدة ، فرجع من حيث أتى وهو يترنم " : عجايب والله عجايب

وتوسلت أميمة إلى زوجها قائلة:

تجنب الاشتباك معه بأى ثمن-. .

أني أجده فجأة فوق رأسي دون أن أدرى آيف جاء

وساد صمت اتخذا منه مسكنا لانفعالهما . وعادت أميمة تقول برقة

=قلبي يحدثني بانني سأجعل من آوخنا بيتًا شبيهًا بالبيت الذى طردنا منه، لن تنقصه الحديقة ولا البلابل، وسيلقى وليدنا فيه آل راحة ومتعة.

فوقف أدهم يتبسم ابتسامة لم ترها فى الظام، وقال ساخرًا وهو ينفض التراب عن جلبابه:

الخيار القشطة، الخيار السكر ، والعرق يتصبب من جسدى والغلمان يتسلون بمعاآستي، والأرض تأآل قدمي فى سبيل ملاليم، ودخل الكوخ فتبعته وهى تقول

-لكن سيأتي يوم المرح والغناء-. .

لو آنت تشقين ما وجدت وقتا للأحلام

ورقد آل منهما على خيشه محشوة بالقش، وهى تقول

اليس الله بقادر على أن يجعل من جوخنا بيتا آالبيت الذى طردنا منه؟

فقال أدهم وهو يتثاءب

أمنيتى أن أعود إلى البيت الكبير
ثم وهو يتثاءب بدرجة أعلى
العمل لعنة
فقالت بصوت هامس
-ربما ، ولكنها لعنة لا تزول إلا بالعمل!

12

وذات ليلة استيقظ أدهم على تأوهات عميقة . ولبث وهو بين النوم واليقظة حتى تبين صوت أميمة وهى تتوجع هاتة " : أه يا ظهرى .. أه يا بطنى ." فجلس من فوره وهو يحملق صوبها ، ثم قال:
هذا حالك هذه الأيام ثم ينجلى عن لا شئ ، اشعلى الشمعة
فقالت وهى تئن
-ّاشعلها بنفسك هذه المرة جد.
فقام يتحسس موضع الشمعة بين أدوات الطهى حتى عثر عليها، فأشعلها، وثبتها على الطبلية، فبدت أميمة على الضوء الخافت جالسة متكئة على ساعديها، تئن، وترفع رأسها لتتنفس بصعوبة ظاهرة.
وقال الرجل بقلق:
هذا ما تظننينه آلما شعرت بوجع
فقالت بوجه متقلص
ّآلا ، أنا متأآدة أن هذه المرة جد
وساعدها حتى أسند ظهرها إلى جدار الكوخ ثم قال
-لأحضر لك الداية.
صحبتك السلامة، ما الوقت الآن ؟
مضى أدهم خارج الكوخ، وجعل ينظر إلى السماء، ثم قال
هو شهرك على أى حال ، تجلى حتى أذهب إلى الجمالية
-الفجر قريب، لن أغيب إلا مسير الطريق.
واندفع يسير على عجل نحو الجمالية، ثم عاد يشق الظلام وهو قابض على يد الداية العجوز ليهديها السبيل، وعند اقترابه

من الكوخ ترامى إليه صراخ أميمة الذى مزق السكون، فخفق قلبه وأوسع خطاه حتى تشكت الداية، ودخلا الكوخ معا، فخلعت المرأة ملاءها وهى تقول أميمة ضاحكة:

جاء الفرج، وما بعد الصبر إلا الراحة

وسألها أدهم

آيف حالك ؟

فقالت فى صوت آالأنين

أآاد أموت من الألم، جسمى يتفكك ، وعظامى تنكسر، لا تذهب . فقالت الداية-. :

-بل ينتظر فى الخارج بسلام

وغادر أدهم الكوخ إلى العراء فلمح شبحًا واقفًا عن قرب عرفه قبل أن يتبينه، فانقبض صدره، ولكن إدريس قال مصطنعا لهجة الأدب:

جاءها الطلق؟ مسكينة، مرت زوجى بهذه الحالة آما تعلم منذ زمن قصير، إنه ألم آاذب لا يلبث أن يزول، ثم تتلقى-. نصيبك من عالم الغيب آما تلقيتُ هند، إنها طفلة ساحرة ولكنها لاتكف عن التبول والبكاء . تجلد

فقال أدهم على مضض وضيق:

الأمر لصاحب الأمر

فصدرت عن إدريس ضحكة خشنة وتساءل

جئت لها بداية الجمالية؟-.

نعم-.

مارًا ببيتها

قال أدهم بعد تردد

امرأة قذرة ، طماعة ، جئتُ بها أيضا فغالت فى تقدير أتعابها فطردتها، وماتزال تدعو علىّ آلما رأتنى

-ما ينبغى أن تعامل الناس هكذا.

يابن الأآابر، علمنى أبوك أن اعامل الناس بالفظاظة والقسوة، وارتفع صوت أميمة بصراخ آأنما هى صدى للتمزق الذى يقع فى جوفها، فانطبقت شفتا أدهم على ما هم بقوله، واقترب من الكوخ قلقا، وهتف بصوت رقيق

شدى حيلك

فردد إدريس قوله بصوت مرتفع

شدى حيلك يا امرأة أخى

فأشفق أدهم من سماع زوجه هذا الصوت، لكنه دارى حنقه قائلا

يحسن بنا أن نقف بعيدا عن الكوخ-. .

تعال بنا إلى آوخى أقدم لك الشاى، وترى هند وهى تغط فى النوم

لكن أدهم ابتعد عن آوخه دون أن يتجه نحو آوخ الآخر، وهو يلعنه فى سره فى غيظ مكتوم، فتبعه إدريس وهو يقول

إنه تغير خطير، من فوائده أن تشعر بالرابطة التى يمزقها أبوك فى يسر وبلادة فنفس أدهم

عن ضيقه بقوله

ستكون أبا قبل طلوع الصبح،

هذا الكلام يضايقنى.

ربما ، لكن لاهم لنا غيره

فسكت أدهم مترددًا ، ثم قال بشئ من الإشفاق

إدريس، لماذا تتبعنى وأنت تعلم ألا مودة بيننا؟

فقهقه غدريس عاليا وقال

يا لك من طفل قليل الحياء، لقد أيقظنى صراخ زوجك من أحلى نومه فلم أسمح لنفسى بالغضب، وعلى العكس جئت-.

لأقدم لك المعونة إن آنت فى حاجة إليها، وأن أباك ليسمع الصراخ آما سمعته لكنه عاود النوم آمن لا قلب له

فقال أدهم فى ضجر:

-حسبنا ما آتب لنا من مصر، ألا تستطيع أن تتجاهلنى آما أتجاهلك ؟

-إنك تكرهنى يا أدهم لا لأننى آنت السبب فى طردك ولكن لأننى أذآرك بضعفك، إنك تكره فى نفسك الآثمة، أنا فلم يعد لى من مبرر لكراهيتك، بل أنت اليوم عزائى وتسليتى، ولا تنس أننا جيران، وأول من سكن هذا الخلاء من الأحياء، وسيدب عليه أولادنا جنبا إلى جنب.

إنك تتلذذ بتعذيبى

فصمت إدريس مليا حتى مى أدهم نفسه بالخلاص، ولكنه عاد يسأل بلهجة جدية

لماذا لا نتفق؟

فقال أدهم وهو يتنهد

-لأننى بياع على قد حالى وأنت رجل هوايتك الضرب والاعتداء.

وعاد صراخ أميمة يعلو ويشتد فرفع أدهم رأسه متوسلاً، فأدرك من توه أن آثافة الظلام قد خفت، وأن الفجر تسلق الجبل، وهتف أدهم:

ما ألعن الألم!

فقال إدريس ضاحكا

ما أجمل الرقة، خلقت لإدارة الوقف والنفخ فى الناء-. .

اسخر ما شئت ، إنى متالم-!

لماذا ؟ حسبت امرأتك هى المتلأمة

فصاح أدهم من فرط جزعه

دعنى وشأنى

فتساءل الآخر فى هدوء مغيظ

أتريد أن تصير أبا بلا ثمن ؟

فلزم أدهم الصمت وهو ينفخ فقال إدريس متعاطفا

-أنت حكيم، وقد جئت أعرض عليك عملا تستعين به على إسعاد المخلوقات القادمة ، إن هذا الذى نسمع مقدمات تشريفة الأول وليس الأخير، فإن شهواتنا لا تقنع إلا بأن تبنى فوقنا تلاً من الذرية الصاخبة، ما رأيك؟

-الضياء يلوح فاذهب لتستوفى نومك.

وتعالى الصراخ، متتابعا متواصلا حتى ضاق أدهم بموقفه فرجع إلى الكوخ الذى شق عنه الظلام، وبلغه وأمية ترسل تنهدة عميقة مثل ختام أغنية حزينة اقترب من باب الكوخ وهو يتساءل:

-آيف الحال عندآم ؟

فجاءة صوت الداية وهو يقول " : انتظر " ، تحفز قلبه للارتياح عندما خيل إليه أن الصوت يوحى بالظفر، ومالبث أن لاحت المرأة

فى الباب وهى تقول:

-رزقت بذآرين.

توامين ؟-

فليرزقك الله برزقهما

وصحت أذنيه ضحكة إدريس من وراء ظهره وسمعه يقول

إدريس الآن أب لأنثى وعم لذآرين

ومضى نحو آوخه وهو يغنى " : البخت والقسمة فين يادى الزمان قلبى " وعادت الداية تقول

ترغب الأم فى أن يسميا قدرى وهمام-. .

فراح أدهم يغمغم وقد استخفه السرور

-قدرى وهمام ، قدرى وهمام.

13

قال قدرى وهى يجفف وجهه بذيل جلبابه:

فنجلس لتناول طعامنا- .

فقال همام وهو ينظر نحو الشمس المائلة للغروب

نعم سرقنا الوقت

تربعا على الرمال تحت سفح المقطم، وحل همام عقدة المنديل الأحمر المخطط فكشف عن خبز وطعمية وآرات، وراحا يأآلان وينظران بين حين وآخر نحو أغامهما، التى هام بعضها على وجهه، وقعد البعض ليجتر فى راحة وسلام، لم يكن ثمة ما يميز بين الشقيقين فى الملامح والقسمات، غير أن نظرة الصائد المتجلية فى عينى قدرى أضفت على سحنته حدة ميزته بطابع خاص، وعاد قدرى يقول وهو يطحن الطعام المحتشد فى فيه:

لو آان هذا الخلاء لنا دون شريك لرعينا اغنامنا مرتاحى البال

فقال هماما باسما

ولكن هذا الخلاء مقصد الرعاة من العطوف وآفر الزغارى والحسينية، ومن الممكن ان نصادقهم فنتقى شرهم

فضحك قدرى ضحكة هازئة انطلقت من فيه مع فتات من طعامه وقال

-هذه الحوارى عندها جواب واحد لمن ينشد صداقتها هو الصفعات . لكن..

جلبابه وانطحه فى جبينه فينقلب على وجهه أو-.

على قفاه

لا لكن يا ابن إبى ، أنى أعرف طريقة واحدة، وهى أن اجذب الرجل من

-لذلك لا نكاد نحصى أعداءنا.

-ومن آلفك بإحصائهم؟

وتابع همام جديا أو غل فى الابتعاد فراح يصفر له حتى توقف وادار عائدا فى صمت الحكيم وانتقى عودًا من الكرات ومسحه باصابعه فدفعه فى فيه متلذذًا ، ثم قال وهو يتمطق:

-ولذلك تجدنا وحدنا ، ويمضى الوقت الطويل دون أن نتكلم.

وما حاجتك إلى الكلام وأنت تغنى طوال الوقت؟
فنظر همام إليه بثقة وقال
يخيل إلى أنك تضيق بهذه الوحدة أحيانا.
ساجد دائما عللا للضيق، الوحدة أو غيرها
وساد صمت وضح فيه التمطق، ولاحت عن بعد جماعة عائدة من الجبل نحو العطوف، تسير على غناء ، منشد آالحادى والآخرون يرددون فقال همام:
هذه الناحية من الخلاء امتداد لحينا، ولو ذهبنا شمالاً أو جنوبًا، فأغلب الظن أن لن نعود
فضحك قدرى ضحكة مجلجلة وقال
لن تجد واحدا يجرؤ على منازلتى
فقال همام وهو ينظر نحو الأغنام
سنجد فى الشمال وفى الجنوب أناسًا يودون قتلى، ولكن
-لا يمكن إنكار شجاعتك، ولكن لا تنس أننا نعيش بفضل اسم جدنا وسمعة عمنا المخفية رغم مابيننا وبينه من خصام.
لم يجهر بمعارضة واتجه بصره نحو البيت الكبير الذى لاح عن بعد فى الغروب
هيكلا ضخما مطموس المعال، وقال
فعقد قدرى ما بين حاجبيه احتجاجا ، ولكنه
هذا البيت ! لم أشهد له مثيلاً، فى خلاء بكتنفه من جميع النواحى ، وعلى مقربة من حوار وأزقة اشتهرت بالجبروت-!
والمشاآسة ، صاحبه جبار بلا جدال، هذا الجد الذى لم ير أحفاده وهم على بعد ازرع منه
فاتجه بصر همام ناحية البيت، ثم قال:
إن إبانا لا يذآره إلا مصحوبًا بالاجلال والإآبار-. .
وعمنا لا يذآره ألا مصحوبا باللعنات
فقال همام باشفاق
-هو جدنا على أى حال.
وما جدوى ذلك يا غلام؟ إن أبانا يكدح وراء عربته، وأمنا تكد طوال النهار وشطرًا من الليل، ونحن نعاشر الأغنام حفاة شبه-.
عراة، أما هو فقابع وراء الأسوار، بلا قلب، متمع بنعيم لا يخطر على بال
فرغا من الطعام ، نفض همام المنديل ولفه ثم دسه فى جيبه، واستلقى على ظهره متوسدًا ذراعيه، مرسلاً ناظريه إلى

السماء الصافية، وهى تفطر هدوء المغيب، والحداى تولى فى الآفاق، ونهض قدرى فانتحى جانبا ليبول، وقال:
يقول أبونا إنه آان يخرج آثرًا فى الماضى فيمر بهم فى ذهابه وإيابه، أما اليوم فلا يراه أحد، وآأنما يخاف على نفسه
قال همام بنبرات حالمة
-آم تمنيت أن أراه.
أوبعمنا، أو بكليهما معا، إنى أعجب لوالدى آيف لا يذآره إلا بالإجلال-.
رغم ما ناله على يديه
لا تحلم بأن ترى شيئا خارقًا، ستجده شبيهًا بأبينا
الظاهر أنه آان شديد التعلق به ، او أنه امن بعدالة ما نزل به من عقاب-! .
أو أنه مازال يطمع فى عفوه-.
أنك لاتفهم أبانا، إنه رجل ودود العشر
عاد قدرى إلى مجلسه وهو يقول
إنه لا يعجبنى، وأنت لا تعجبنى ، أؤآد لك أن جدنا شخص شاذ لا يستحق الاحترام، ولو آانت به ذرة من خير ما جفا-.
لحمه هذا الجفاء الغريب، إنى أراه آما يراه عمنا لعنة من لعنات الدهر
فقال همام باسمًا:
تتباهى به أنت ، أعنى القوة والبطش
فقال قدرى بحدة
لعل أرذل ما فيه هو ما
لقد نال هذه الأرض هبه بلا عناء ثم طغى واستكبر.
لا تنكر ما أعترفت به منذ قليل أن الوالى نفسه لم يكن بوسعه أن يعيش وحده فى مثلا هذا الخلاء
وهل تجد فى الحكاية التى رويت لنا مسوغا حقا لغضبه على والدينا؟-!
إنك تجد أهون منها سببًا آافيًا للبطش بالناس
تناول قدرى الكوز ومضى يشرب حتى روى، ثم تجشأ وقال
ما ذنب الأحفاد ؟ أنه لايدرى ما رغى الغنم، سحقًا له، أود لو أعرف وصيته، وماذا أعد لنا؟
فتنهد همام وقال بصوت حالم
ثروة تربح من العناء، آى يفرغ المرء لقلبه، ويمضى العمر فى يسر وطرب.
أنك تردد قول أبينا نشقى فى التراب والطين ونحلم بالناى فى ظل حديقة غناء، الحق أقول إنى أعجب بعمى أآثر من-.

أبى

فجلس همام وهو يتثاءب ثم نهض يتمطى، وقال:

على أى حال صرنا شيئا ، لنا مأوى يسعنا ورزق يحفظ علنيا الحياة ، وأغنام نرعاها، نبيع لبنها ونسمنها لنبيعها أيضا، ومن-.

شعرها تغزل أمنا الكساء

-والناى والحديقة ؟

فلم يجب، واتجه نحو الأغنام بعد أن تناول عصاه الملقاه عند قدميه، ووقف قدرى، وصاح موجهًا خطابه إلى البيت الكبير فى عبث:

أسمحت بأن نرثك أم ستعاقبنا فى موتك آما عاقبتنا فى حياتك؟-.

أجب يا جبلاوى

وردد الصدى " : أجب يا جبلاوى."

14

ورأيا عن بعد شخصًا يتجه نحوهما لم تضح معالمه، ومضى القادم يقترب رويدًا حتى تبيناه، فأنتصبت قامة قدرى بجرآة تلقائية وشعت عيناه الجميلتان بنور ابتهاج . ولحظ همام أخاه باسمًا ، ثم نظر إلى الأغنام فى غير مبالاة وهمس بلهجة تنبيه:

الظلام غير بعيد

فهتف قدرى باستهانة

-فليأت الفجر إذا شاء.

وخطا خطوات نحو الأمام ملوحًا بذراعيه فى ترحاب للفتاة، وأخذت تدنو من موقفها، مجهدة من المشى، لطول المسافة من ناحية ولمقاومة الرمال لشبشبها من ناحية أخرى، متطلعة نحوهما ببصر لامع يعكس مع فتنة العينين الخضروااين جرأة، وبدت ملتفة .بملاءهّا اللف حتى الكتفين، مطلقة الرأس والعنق عاريين فعبث الهواء بضفيرتيها، وارتفع صوت قدرى بسرور مسح عن وجهه امارت الحدة:

أهلاً بمند

فأجابت بصوت رقيق

أه بك) ثم مخاطبة همام (مساء الخير يا ابن عمى
فقال همام باسما
-مساء الخير يا بنت العم، آيف حالك ؟
وتناول قدرى يدها وسار بها نحو الصخرة الكبيرة القائمة على بعد امتار من موقفهما، ودار حول الصخرة حتى ضلعها المواجهة للجبل فصارا فى منعزل عن الخلاء ومن فيه . وجذبها نحوه فأحاطها بذراعيه ثم قبل ثغرها قبلة طويلة حتى تماست ثناياها وغابت الفتاة فى لحظة استسلام مذهلة، واستطاعت أن تتخلص من ذراعيه، وأن تقف مضطربة الأنفاس فتحكم لف ملاءتها، وتتلقى نظرته المهاجمة بنظرة باسمة، ولكن الابتسامة اختفت آأنما لخاطرة خطرت، وتقوست الشفتان فى تبرم ثم قالت:
جئت بعد معرآة، أف هذه الحياة لا تطاق
فقطب قدرى لا دراآه ما تعنى وقال بحدة
-لا تبالى بشئ ، أننا أبناء الحمق، أبى الطيب رجل غبى ، وأبوك الشرس لا يقل عنه غباء، أنهما يودان أن يورثانا الكراهية، فيا للغباء ! خبرينى آيف تيسر لك المجئ؟
فنفخت وقالت:
-مضى اليوم آاليام السابقة فى نقار متواصل بين أبى وأمى، وصفعها مرة او مرتين فصرخت تلعنه وصبت غضبها على قلة فحطمتها ، ولكن غضبها اليوم وقف عند هذا الحد، إنها آثيرًا ما تمسك بخناقه متحدية لطماته، وتدعو عليه إذا غلبت على أمرها، أما إذا غلبته الخمر فلا سلامة غلا البعد عن وجهه . آثيرًا ما أشعر برغبة فى الهرب، وبكراهية شديدة لهذه الحياة، ولكنى أروح عن نفسى بالبكاء حتى تؤلمنى عيناى، ما علينا، انتظرت حتى ارتدى ثيابه وذهب فتناولت الملاءة ولكن أمى تعرضت لى تحاول منعى آالعادة، ولكنى تخلصت منها ومضيت إلى الخارج.
فتناول قدرى يدها بين يديه وتساءل:
ألا تخمن أين تذهبين؟
– لا أظن ، لايهمنى، إنها على أى حال لا تجرؤ على إخبار أبى فضحك قدرى ضحكة مقتضبة وسألها
ماذا تظنينه يفعل لو عرف ؟
فرددت ضحكته فى حيرة ولكنها قالت
يبالى أن يقول إننى-.
أغلى شئ فى دنياه، ولعل هذا هو أصل متاعبى
إنى لا اخشاه رغم شدته، بل أقول لك إنى أحبه، وهو يحبنى فى سذاجة لا تتفق وحدة طبعه، ولا

جلس قدرى على الأرض أسفل الصخرة ودعاها إلى الجلوس بأن ربت الموضع جانبه، فجلست وهى تتخفف من حبكة الملاءة، ومال نحوها فلثم خدها . ثم قال:

يبدو أن غزو أبى أيسر من غزو أبيك، ومع ذلك فشد ما يبدو فظا إذا جاء ذآر لأبيك ، أنه ينكر عليه صفات

ضحكت قائلة وهى تذآر ما تردده عن ذآره

بنى أدم ! آذلك ينكر أبى عليه

فحدجها بنظرة استنكار فقالت

أبوك ينكر على أبى فظاظته، وأبى ينكر على أبيك طيبته، والمهم أنهما لم يتفقا على شئ

فندت عن رأس قدرى حرآة آأنما ينطح الهواء، وقال بتحد

لكننا سنفعل ما نشاء

فقالت هند وهى تنظر نحوه بعطف واشفاق

-أبى يستطيع أن يفعل ما يشاء آذلك!

وأنا قادر على أشياء آثيرة، ماذا يريد لك هذا العم السكير؟

فضحكت على رغمها، وقالت بلهجة تشى الاحتجاج والمداعبة معا

تكلم عن أبى بأدب

وواصلت الكلام وهى تقرصه فى أذنه

طالما ساءلت نفسى عما يريد لى، فخيل إلى أحيانا أنه يكره أن يزوجنى من أحد

فحملق فيها منكرًا فعادت تقول

رأيته مرة يرمى بيت جدنا بنظرة غاضبة ويقول " : إذا آان قد رضى لأبنائه وأحفاده الهوان فهل يرضى به لحفيدته؟ لا مكان لائق بهند إلا هذا البيت المغلق ." ومرة قال لأمى إن فتوة آفر الزغارى يرغب فى الزواج منى ففرحت أمى فصاح بها حانقًا "يا وضيعة .. يا خسيسة، من يكون فتوة آفر الزغارى هذا؟ ." أن أحقر خادم فى البيت الكبير أشرف منه وانظف، فسألته أمى فى حسرة : فمن تراه الجدير بها؟ فصاح " علم ذلك عند الطاغية المتوارى خلف أسوار بيتهه، أنها حفيدته، وليس فى الأرض من هو أهل لها ! أريد لها زوجا مثلى أنا . فقالت أمى على رغمها : أتريدها أن تكون تعيسة مثل أمها؟ فهجم عليها آالوحش وراح يرآلها بشدة حتى جرت خارج الكوخ.

هذا هو الجنون بعينه-. .

إنه يكره جدنا ، ويلعنه آما ذآره، لكنه فى أعماقه يتيه إذلالا بأبوته

فكور قدرى قبضته وجعل يضرب بها فخده ويقول

لعلنا آنا نكون أسعد حالاً لو لم يكن ذلك الرجل جدًا لنا، فقالت بمرارة-. :
لعلنا-.
فجذبها إلى صدره بشدة تناسب الحدة فى قوله وضمها إليه بقوة
واستبقاها هكذا بين يديه ريثما ترم فترة الانتقال بين الشواغل المتعبة وبين الهيام الموعود، وقال:
-اعطينى فالك.
عند ذاك تراجع همام من موقفه عند الصخرة ، واتجه بخفة نحو الأغنام وهو يبتسم فى حياء وأسى ، خيل إليه أن الهواء يثمل بأنفاس الحب، وأن الحب ينذر بالمآسى، لكنه قال لنفسه " : صفا وجهه ورق، لا يرى على هذا الحال إلا خلف الصخرة،
فمن لنا بقوة هذا الحب السحرية لتزيل متاعبنا؟ ." هنا السماء تشجب فى استسلام، وانفاس المغرب تتردد فى خمول والسحرة تزحف آنغمة وداع وانيه، وهناك تيس يثب على عنزة، وعاد همام يحدث نفسه " : ستفرح أمى يوم تلد هذه العنزة، ولكن ميلاد إنسان قد يجئ بالكوارث، فوق رؤسنا لعنة من قبل أن نولد، وأعجب عداوة هى التى لا تجد لها من مبر إلا أنها بين أخوين، إلى متى نعانى من هذه الكراهية، لو نُسى الماضى لابتهج الحاضر، ولكنا سنظل نتطلع إلى هذا البيت الذى لا عزة لنا إلا به ولا تعاسة إلا بسبب منه، وعلقت عيناه بالتيس فابتسم ومضى يدور حول الغنم وهو يصفر ويلوح بعصاه، وحانت منه التفاتة نحو الصخرة الكبيرة الصامتة فبدت فى وقفتها آأنها لا تبالى شيئا فى الوجود.

15

استيقظت أميمة آعادتها عندما لم يبق فى السماء إلا نجمة واحدة ونادت أدهم حتى استيقظ متاوها، ونهض الرجل فغادر غرفته مثقلا بالنعاس إلى غرفة خارجية متصلة بها حيث ينام قدرى وهمام فأيقظهما، وبدا الكوخ فى مظهره الجديد ناميا ممتدًا آأنه بيت صغير، وأحاط به سور ضم غليه فراغا خلفيا لإيواء الأغنام وانتشرت على السور أفرغ اللبلاب فلطفت من جفاء منظره، ودلت على أن أميمة لم تيأس بعد من تحقيق حلمها القديم بأن تهذب ما استطاعت آوخها على مثال البيت الكبير، واجتمع الرجال فى الفناء حول صفيحة مملوءة بالماء، فغسلوا وجوههم، وارتدوا جلابيب العمل، وحمل الهواء من داخل الكوخ رائحة احتراق خشب، وبكاء الأخوة الصغار ، وأخيرًا جلسوا حول الطبلية أمام مدخل الكوخ يأآلون من حلة فول
مدمس، وآان جو الخريف رطيبا مائلا للبرودة فى هذه الساعة المبكرة ولكنه لاقى أجساما قوية صمدت حيال نزواته، وعن بعد بدا آوخ إدريس وقد آبر وامتد آذلك، أما البيت الكبير فقام فى صمت منطويا على ذاته آانما لايربطه سبب فهذا العالم

الخارجى ، وجاءت أميمة تحمل آوزين لبن محلوب لتوه فوضعته على الطبلية وجلست، وعند ذاك سألها قدرى بسخرية:
لماذا لا تبيعن اللبن إلى بيت جدنا الموقر ؟
فالتفت إليه أدهم برأسه الذى وخط المشيب فوديه وقال
آل وأنت ساآت، السكوت غاية ما نرجو عندك من خير، وقالت أميمة وهى تطحن ما فى فيها-. :
آن لنا أن نخلل الليمون والزيتون والفلفل الأخضر، آنت ياقدرى تبتهج فى أيام التخليل وتشترك فى حشو الليمون
فقال قدرى بمرارة
آنا نبتهج ونحن صغار حتى بلا سبب-. .
فسأله أدهم وهو يعيد الكوز إلى موضعه
وماذا يشقيك اليوم يا أبو زيد الهلالى ؟
فضحك قدرى و لم يجب أما همام فقال
يوم السوق قريب، ينبغى أن نفرز الأغنام
فهزة الأم رأسها بالإيجاب على حين وجه الأب خطابه إلى قدرى قائلا
يا قدرى لا تكن فظا، لا أقابل شخصا يعرفك إلا شكاك إلى، أخشى أن تعيد سيرة عمك فى هذه الحياة-! .
أوسيرة جدى
فاتقدت عينا أدهم استياء ، وقال:
لا تذآر جدك بسوء، هل سمعتنى أفعل ذلك؟ ثم أنه لم يسئ إليك
فقال قدرى باستنكار
أساء إلينا ما دام أساء إليك-. .
اسكت ، نقطنا بسكوتك-.
بسببه آتبت علينا هذه الحياة، وهى أيضا مصير بنت عمنا
فقال أدهم فى عبوس
مالنا ومالها ، أبوها علة الكارثة
فهتف قدرى
أعنى أنه ما آان يصح أن تنشأ نساء من دمنا فى الخلاء، والعراء، ثم خبرنى أى رجل ستتزوج هذه الفتاة؟
ليكن الشيطان نفسه، لا شأن لنا بها، لا شك أنها مفترسة مثل ابيها-. .
ونظر نحو زوجه آأنما ينشد تأيدًا فقالت أميمة

نعم ، مثل أبيها

فبصق أدهم قائلا

ملعونة هى وأبوها!

فتساءل همام

ألا يفسد هذا الحديث علينا طعامنا؟-.

فقالت أميمة برقة

لا تبالغ، إن أسعد الأوقات وقت اجتماعنا

هنا ترامى إليهم صوت إدريس آالهدير وهو يلعن ويسب ، فقال أدهم بتقزز

-بدأت صلاة الصبح.

وتناول أخر لقمة ونهض، ثم اتجه نحو عربته وراح يدفعها أمامه وهو يقول : ترآتكم بعافية فردوا عليه / مع السلامة . ومضى الرجل مبتعدا صوب الجمالية، وقام همام فمضى نحو الحظيرة من ممشى جانبى، وما لبث أن تعالى ثغاء الأغنام ووقع أظلافها فملأت الممشى فى طريقها إلى الخارجن ونهض قدرى آذلك فتناول عصاه ولوح لأمه مودا ولحق باخيه . وعندما اقتربا من آوخ إدريس تصدى لهما فتساءل ساخرًا:

بكم الرأس يا جدع؟

فحدجه قدرى بنظرة حب استطلاع على حين تجنب همام النظر إليه وعاد إدريس يتساءل فى إنكار

ألا يتفضل أحدآم بالجواب ا ابنى بياع الخيار؟

فقال قدرى بحدة

إذا أردت الشراء فاذهب إلى السوق

فتساءل إدريس مقهقها

وإذا قررت الاستيلاء على إحداها؟

وجاء صوت هند من الداخل وهى تقول

أبى ، لا نريد فضائح

فأجابها مداعبا

اهتمى بشأنك أنت، ودعينى لسلالة الجوارى!

فقال همام

نحن لا نتعرض لك فلا تتعرض لنا-. .

أن تكون بين الأغنام لا وراءها
فقال همام محتدًا
أه صوت أدهم ، آآن ينبغى
أمرنا أبى بألا نجيب على تحرشك بنا
فقهقه إدريس عاليا وقال
جزاه الله آل الخير، لولا أمره هذا لكنت فى الهالكين) ! ثم بلهجه خشنة ..(إنكما تعيشان عزيزين بفضل اسمى، لعنة الله-.
عليكم جميعا غورا من وجهى
وواصلا سيرهما وهما يلوحان من حين إلى حين بعصويهما، ولبث همام ممتقع اللون من الانفعال فقال لقدرى:
هذا الرجل مقيت، ما أقدره، حتى فى هذه الساعة المبكرة تنفث أنفاسه رائحة الخمر
فقال قدرى وهما يوغلان وراء الأغنام فى الخلاء
أنه يتكلم آثيرا، ولكنه لم يمد لنا يدا بأذى
فقال همام محتجا
بل استولى أآثر من مرة على بعض أغنامنا-. .
-إنه سكير، وهو للأسف عمنا، لا مهرب من الاقرار بذلك
وساد الصمت قليلا وهما يتجهان نحو الصخرة الكبيرة، وفى السماء سحب متفرقة، والشمس ترسل أشعتها فتغمر الرمال المترامية ، وضاق همام بكتمان ما يود قوله فقال:
ستخطئ خطأ آبيرًا إذا وصلت أسبابك بأسبابه
فاشتعلت عينا قدرى بنظرة غاضبة وهتف
لا تحاول نصحى ، حسبى أبوك.
فقال همام وهو لم يفق بعد من إهانات إدريس:
حياتنا موفورة المتاعب فلا تزدها
فصاح قدرى
فلتسحقكم المتاعب التى تخلقونها بأنفسكم، أما أنا فأفعل ما أشاء
وآآن قد بلغا الموضع الذى يسرحان عنده الغنام فالتفت همام نحو أخيه وتساءل
أتظن أنك ناج من عواقب أفعالك ؟
فقبض قدرى على منكبه بقبضته وصاح

-ما أنت إلا حسود.
فدهش همام . دهمه قول أخيه الذى لم يتوقعه، ولكنه آان متعودًا من ناحية أخرى على مفاجأته ومفرقعاته، ورفع يده عن منكبه وهو يقول:
اللهم أحفظنا
فتشبك قدرى يديه على صدره وهو يهز رأسه ساخرًا فقال همام
خير ما أفعل أن أترآك لنفسك حتى تندم، لن تقر بخطأ، ولن تقر به إلا بعد فوات الفرصة-. .
وأولاه ظهره متجها نحو جانب الصخرة الظليل، ووقف قدرى مكفهر الوجه تحت الأشعة الحامية

16

جلست أسرة أدهم أمام الكوخ تتناول عشاءها فى ضوء النجوم الخافت، وإذا بحدث يقع لم يشهد له الخلاء مثيلاً مذ طرد أدهم، فتح باب البيت الكبير وخرج منه شبح حاملاً مصباحا، وتطلعت العين إلى المصباح فى دهشة انعقدت لها الألسنة، وتابعته وهو يتحرك فى الظلام آكوآب أرضى، وعندما توسط المسافة بين البيت والكوخ ترآزت الأبصار على الشبح لتتبينه على ضوء المصباح المنعكس حتى همس أدهم " : هذا عم آريم بواب البيت " ، وتضاعفت الدهشة عندما أيقنوا من أنه يقصدهم فوقفوا جميعا، بعضهم اللقمة فى يده والبعض اللقمة فى فيه بلا حراك، وبلغ الرجل موقفهم فوقف رافعا يده وهو يقول:
-مساء الخير يا سيدى أدهم.
ارتجف أدهم لدى سماعة الصوت الذى انقطع عنه منذ عشرين عاما، فدعا من أعماق ذاآرته نبرات الأب العميقة وشذا الياسمين والحناء وحنينا وأشجانا فمادت به الأرض وقال وهو يقاوم دموعه.
مساء الخير يا عم آريم
فقال الرجل بتأثر غير جاف
لعلك أنت وأهلك بخير-. .
الحمد لله يا عم آريم
فقال الرجل برقة
أود أن أعرب لك عما بنفسى ولكنى آلفت فقط بأن أبلغك بأن سيدى الكبير يدعو أبنك همام إلى مقابلته فورًا
وساد الصمت، فتبادلوا النظرات ، ولتفهم الحيرة ، وإذا بصوت يتساءل

-همام وحده ؟

التفتوا ساخطين نحو إدريس الذى بدا عن آثب وهو يصغى غير أن عم آريم لم يجن ورفع يده تحية ورجع صوب البيت الكبير تارآا الجميع فى ظام، وتغيظ إدريس منه فصاح به:

اتترآنى بلا جواب يا ابن اللئيمة ؟

وأفاق قدرى من ذهوله فتساءل غاضبا

ولماذا همام وحده؟

فردد إدريس تساؤله

نعم لماذا همام وحده

فقال له أدهم، ولعله وجد فى مخاطبته متنفسا عن أزمته

عد إلى آوخك ودعنا فى سلام-. .

سلام ؟ إنى أقف حيث أشاء

وتطلع همام إلى البيت الكبير صامتا، وقلبه يخفق بشدة خيل إليه معها أن المقطم يردد صداه، وقال له أبوه بتسليم

اذهب يا همام إلى جدّك مصحوبًا بالسلامة

فالتفت قدرى إلى أبيه يسأله بحدة وتحد

وأنا ؟ ألست أبنك مثله ؟-.

لوم على فلست أنا الداعى

فقال إدريس محتجا

لا تتكلم آما يتكلم إدريس يا قدرى، إنك ابنى مثله بلا أدنى ريب، ولا

لكن بوسعك أن تمنع تمييز أخ عن أخيه-. .

هذا شأن لا يعنيك) ثم مخاطبا همام (يجب أن تذهب وسيأتى دور قدرى، إنى واثق من ذلك

فقال إدريس وهو يهم بالذهاب

إنك أب ظالم مثل أبيك، مسكين قدرى، لماذا يعاقب دون ذنب؟ لكن اللعنة تتزل أول ما تتزل فى أسرتنا بالممتازين، ألا-!

لعنة الله على هذه الأسرة المجنونة

ومضى فابتعلته الظلمة، وعند ذاك هتف قدرى:

إنك تظلمنى يا أبى-. .

لا تُعد أقواله، تعال يا قدرى، واذهب يا همام

فقال همام بحرج:

وددت لو آان معى أخى-. .

سيلحق بك

فصاح قدرى بحنق

أى ظلم هذا ! لماذا أثره على؟ إنه لم يعرفه آما لم يعرفنى فلماذا يختصه بالدعاء؟

فدفعه أدهم همام قائلا

اذهب

فسار همام، وهمست أميمة

تحفظك العناية

واحتضنت قدرى باآية ولكنه تخلص من ذراعيها ومضى فى أثر أخيه فصاح به أدهم

عد يا قدرى ولا تقامر بمستقبلك

فقال قدرى بغضب

-لن ترجعنى قوة على الأرض.

وعلا صوت أميمة بالبكاء، وبكى الصغار فى الداخل، وأوسع قدرى خطاه حتى لحق بأخيه، وعلى آثب منه فى الظلام رأى شبح إدريس يسير ممسكا بيد هند، ولما بلغوا باب البيت دفع إدريس قدرى إلى يسار همام وهند إلى يمينه وتراجع خطوات وهو يصيح:

افتح يا عم جريم ، جاء الأحفاد للقاء جدهم

وفتح الباب وظهر على عتبته عم آريم وبيده المصباح، وقال بأدب

فليتفضل سيدى همام بالدخول

هتف إدريس

ماتت باآية

فقال عم آريم بأدب

وهذا أخوه قدرى، وهذه هند وهى صورة مكررة من أمى التى

أنت تعلم يا سيدى إدريس أنه لا يدخل هذا البيت إلا من يؤذن له

وأشار إلى همام فدخل، وتبعه قدرى أخذًا بيد هند ولكن علا صوت من الحديقة عرفه إدريس وهو يقول بصرامة

اذهبا بعارآما أيها الملوثان

تسمرت أقدامهما ، وأغلق الباب، وانقض إدريس عليهما فقبض على منكبيهما بقبضته وتساءل بصوت متهدج من الغضب
-أى عار يعنى ؟
وصرخت هند ألما، على حين تحول قدرى فجأة نحو إدريس ورفع يديه عنه وعن هند، فأفلتت هند وولت هاربة فى الظلام ، وتراجع إدريس بخفة إلى الوراء ثم وجه إلى قدرى لكمة فتحملها الشاب رغم قوتها ووجه إليه لكمة أشد، واندفعا يتبادلان الضرب والرآل بقسوة ووحشية تحت سور البيت الكبير، وصاح إدريس:
سأقتلك يا ابن العاهرة
فصاح قدرى
سأقتلك قبل أن تقتلنى
وتبادلا الضربات حتى سال الدم من فم قدرى وأنفه، وجاء أدهم جريا آالمجنون وصاح بأعلى صوته
اترك ابنى يا إدريس-. .
فصاح إدريس بحقد
سأقتله بجريمته-. .
لن أدعك تقتله، ولن أدعك تعيش أن قتلته
وجاءت أم هند مولولة وهى تصيح
فرت هند يا إدريس ، أدرآها قبل أن تختفى
ورمى أدهم بنفسه بين إدريس وقدرى وصاح بأخيه
قبل أن تختفى
وجذب قدرى إليه، ورجع به مسرعا وهو يقول
أفق، إنك تقاتل بلا سبب، بنتك طاهرة لم تمس لكنك أرعبتها ففرت، أدرآها
اسرع ، ترآت أمك فى حالة اغماء-. .
أما إدريس فانطلق فى الظلام وهو يصرخ بأعلى صوته : هند .. هند

17

تبع همام عم آريم فاجتاز الممشى تحت عريشة الياسمين متجهين نحو السلاملك .. بدا الليل فى الحديقة شيئا جديدا، لطيفا رطبا مترعا بنشوات الأزهار والرياحين فانسكب بروعته فى أعماق روحه، وامتلأ الشاب بشعور جلال وافتتان ، وحنين

مودة عميقة للمكان، وبأنه مقبل على أجل لحظات عمره، وتراءت لعينيه أنوار وراء شيش بعض النوافذ، ونور قوى ينبعث من باب البهو فارشا على أرض الحديقة تحت شكلاً هندسيًا فخفق قلبه وهو يتخيل الحياة خلف النوافذ وفى الأبهاء، آيف تكون ومن يحياها ، وزاد قلبه خفقانا حينما تمثلت لخاطره هذه الحقيقة العجيبة وهى أنه مخلوق من سلالة هذا البيت ونطفة من هذه الحياة، وأنه جاء ليلقاها وجها لوجه فى جلباب أزرق بسيط وطاقية باهتة، منتعلا أديم الأرض، ورقيا فى سلم السلاملك، فمالا إلى جناح الشرفة الأيمن نحو باب صغير فتح على سلم فصعدا فى صمت لاينم عن حياة حتى بلغا ردهة طويلة مضاءة بمصباح يتدلى من سقف مزرآش، واتجها نحو باب آبير مغلق يتوسط الردهة، وقال همام لنفسه فى تأثر بالغ : فى موضع من هذه الردهة، لعله هذا الموقع عند رأس السلم، وقفت أمى منذ عشرين عاما لتراقب الطرية أية ذآرى تعيسة ! ونقر عم آريم على الباب الكبير مستأذنا للقادم، ثم دفعه برقة وتنحى لهمام جانبا وهو يشير له بالدخول، ودخل الشاب فى أناة وأدب ورهبة، فلم يسمع صوت الباب وهو يغلق وراءه، ولم يشعر إلا شعورًا غامضا بالنور المضئ فى السقف والأرآان، أما وعيه آله فقد انجذب نحو الصدارة حيث تربع الرجل على ديوان، لم يكن رأى جده من قبل، ولكنه لم يشك فى هوية الجالس أمامه، فمن يكون هذا الهائل إن لم يكن جده الذى سمع عنه الأعاجيب؟ واقترب من مجلسه وهو يتلقى من عينيه الكبيرتين نظرة استلت من ذاآرته جميع ما فيها، ولكنها بثت فى قلبه فى الوقت نفسه طمأنينة وسلامًا.

وانحنى حتى آادت تمس جبهته طرف الديوان، ومد يده، فأعطاه الآخر يده، فلثمها من الأعماق، وقال بشجاعة غير متوقعة:

مساء الخير يا جدى

فجاءه الجواب من صوت جهورى لم يخل من أنغام رحمة

أهلا بك يا بنى ، اجلس

واتجه الشاب نحو مقعد إلى يمين الديوان وجلس على حافته فقال الجبلاوى

-خذ راحتك فى مجلسك.

فتزحزح همام إلى الداخل وقلبه يرتوى من المسرة، وتحرآت شفتاة بشكر مهموس ثم صاد الصمت، ولبث ينظر فى نقوش السجادة تحت قدميه، وهو يشعر بموقع النظرة المسددة نحوه آما نشعر بموقع الشمس منا دون أن نراها، وإذا بذهنه يتجه فجأة نحو الخلوة القائمة إلى يمينه ، فلحظ بابها بخوف وآآبة، وإذا بالرجل يسأله:

ماذا تعرف عن هذا الباب ؟

فارتجفت أوصاله، وعجب آيف يرى آل شئ، وقال بخشوع

-أعرف أنه فاتحة مأساتنا.

وماذا ظننت بجدى لدى سماعك الحكاية ؟

وفتح فاه ليتكلم فبادره الرجل

أصدقنى القول-. .

فأثرت به اللهجة إلى حد أن قال فيما يشبه الصراحة

بدا لى تصرف والدى خطأ آبيرًا ، آما بدا لى عقابهما صارما شديدًا

فابتسم الجبلاوى قائلا

هذا هو شعورك على وجه التقريب؟ إنى امقت الكذب والخداع، ولذلك طردت من بيتى آل من لوث نفسه

فاغرورقت عينا همام . فقال الجد

بدا لى أنك شاب نظيف ، ولذلك استدعيتك

فقال همام بصوت رطبته الدموع

شكرًا يا سيدى

فقال الجد بهدوء

رأيت أن أعطيك فرصة لم تتح لأحد ممن فى الخارج، وهى أن تعيش فى هذا البيت، وأن تتزوج به، وأن تبدأ حياة جديدة-. فيه

فتتابعت دقات قلب همام فى نشوة من الأفراح ، ولبث ينتظر انغاما جديدة يستكمل بها هذا اللحن البديع آالسميع الذى ينتظر الجواب بعد أن طرب للقرار ، ولكن الرجل لاذ بالصمت، وتردد همام قليلا ثم قال:

الشكر لك-. .

إنك تستحق

واختلج نظر الشاب بين جده وبين السجادة، ثم تساءل فى اشفاق

وأسرتى ؟

فقال الجبلاوى فى عتاب

قلت ما أريد بوضوح

فقال همام باستعطاف

إنهم يستحقون رحمتك وعطفك

فتساءل الجبلاوى بشئ من البرود

ألم تسمع ما قلت ؟

-... بلى ، ولكنهم أمى وأبى وأخوتى، إن أبى رجل

ألم تسمع ما قلت ؟

وشى الصوت بالضجر فغلب الصمت ، وإذا بالرجل يقول إيذانا بانتهاء الحديث

-ارجع إليهم لتستأذن ، ثم عد.

وقام همام فلثم يد جده ومضى، وجد عم آريم ينتظر، فتحرك الرجل وتبعه الشاب فى شسكون، ولما انتهيا إلى السلاملك، رأى همام فتاة فى منطقة الضوء بأول الحديقة، وقد سارعت إلى الاختفاء، غير أنه لمح منها العارض والعنق وقامة ممشوقة، وعاد صوت الجد يتردد فى أذنيه وهو يقول : أن تعيش فى هذا البيت وأن تتزوج به . بفتاة آهذه الفتاة وعيشة خبرها أبى ، آيف هانت عليه المقامرة . وآيف وبأى قلب تحمل الحياة بعد ذلك وراء عربة اليد؟ وهذه الفرصة السعيدة آأنها حلم ، حلم أبى منذ عشرين عاما، ولكنى مثقل الرأس.

18

عاد همام إلى الكوخ فوجد أسرته جالسة تترقب عودته، وأحاطوا به مستطلعين وساله أدهم بلهفة:

ماذا وراءك يابنى؟

ولاحظ همام أن قدرى معصوب العين فقرب رأسه من وجهه ليتحقق من الأمر فقال لأدهم بأسى

نشبت معرآة حامية بين أخيك وبين ذلك الرجل

وأشار بيده نحو آوخ إدريس الذى بدا غارقا فى الظلمة والصمت على حين قال قدرى بغضب

آل ذلك بسب التهمة الخبيثة الكاذبة التى قذفت بها من داخل البيت

واشار همام نحو آوخ إدريس وتساءل فى قلق

ماذا يحدث هنالك ؟

فقال أدهم بحزن

الرجل وزوجه يبحثان عن ابنتهما الهاربة

فصاح قدرى

من المسئول عن ذلك إلا الرجل الفظ اللعين ؟

فتوسلت أميمة قائلة

اخفت من صوتك

فصاح قدرى فى حنق

ماذا تخافين؟ لا شئ إلا الطمع فى عودة لن تتحقق صدقينى إنك لن تغادرى هذا الكوخ حتى الممات

فاحتد أدهم قائلا

آفى هذيانا، أنت مجنون وحق خالق الكون، ألم تكن تريد أن تلحق بالفتاة الهاربة؟-.

وسألحق بها-.

اسكت، لقد ضقت بحماقاتك

وقالت أميمة بجزع

لن تطيب لنا الحياة بجوار غدريس بعد اليوم

والتفت أدهم نحو همام وسأله

قلت ماذا وراءك؟

فقال همام بصوت لا أثر للسرور فيه

دعانى جدى إلى الإقامة فى البيت الكبير

وترقب أدهم بقية للحديث فلما لم ينبس الشاب تساءل فى ياس

ونحن، ماذا قال عنا ؟

فهز همام رأسه فى حزن وهمس

لا شئ

فحك قدرى ضحكة آلدغة عقرب وسأله فى سخرية

-وماذا جاء بك ؟

نعم ماذا جاء بى ، لا شئ ، إلا أن السعادة لم تخلق لينعم بها أمثالى.

وقال بحزن:

لم أقصر فى تذآيره بكم

فقال قدرى بحنق

شكرًا ، ولكن ماذا جعله يؤثرك علينا ؟-.

أنت تعلم ألا شأن لى فى ذلك

وقال أدهم وهو يتنهد

لاشك أنك يا همام خيرنا جميعا!

فهتف قدرى بمرارة

وأنت يا أبى الذى لم تذآره إلا بخير لايستحقه

فقال أدهم

أنت لا تفهم شيئا-. .

هذا الرجل أسوأ من ابنه إدريس

فتوسلت أميمة قائلة

أنت تقطع قلبى، وتغلق أبواب الأمل فى وجهك

فصاح قدرى باستهانة

لا أمل إلا فى هذا الخلاء، أدرآوا هذا وأريحوا أنفسكم، إيأسوا من هذا البيت اللعين، أنا لا أخاف هذا الخلاء، حتى إدريس-. نفسه لا أخافه، وبوسعى أن أآيل له من الضربات أضعاف ما يكيل لى، أبصقوا على هذا البيت وأريحوا أنفسكم

وساءل أدهم نفسه " : أيمكن أن تمضى هذه الحياة على هذا النحو إلى الأبد؟ ولماذا ايقظت يا أبى طموحنا إليك قبل أن ترتضى العفو لنا؟ وأى شئ يمكن أن يلين قلبك إذا آان ذلك الزمن الطويل لم يلنه؟ وما جدوى المل إذا آان ذلك العذاب آله لم يزآنا لرحمة من نحب؟ " ، وقال الرجل بصوت آالغروب:

خبرنى يا همام عما لديك

فقال همام فى حياء

قال لى اذهب فأستأذن ثم عُد

وشى الظلام بمحاولة فاشلة من أميمة لكتم انتحاها، وتساءل قدرى فى خبث

وماذا يؤخرك ؟

فقال أدهم فى حزم

اذهب يا هماما مصحوبا بالسلامة والبرآات

وقال قدرى بلهجة جدية آاذبة

اذهب يا شهم ولا تلق بالا إلى أحد

فصاح أدهم

لا تهزأ بأخيك الطيب

فقال قدرى ضاحكا

إنه شرنا جميعا

فهتف همام بحدة

إذا قررت البقاء فلن يكون هذا إآراما لك أنت

فقال أدهم بقوة

بل اذهب دون تردد

وقالت اميمة خلال دموعها

نعم .. اذهب بالسلامة

فقال همام

آلا يا أمى ، لن اذهب

فتساءل أدهم

أجننت يا همام ؟-.

آلا يا أبى .. الأمير يحتاج إلى تفكير ومشاورة-.

لا حاجة بك إلى ذلك .. ولا تحملنى ذنبا جديدا

فقال همام بعزم وهو يشير نحو آوخ إدريس

يخيل إلى أن أحداثا ستقع

فقال قدرى ساخرًا

إنك أضعف من ان تدفع شرًا عن نفسك فضلا عن الأخرين

فقال همام بازدراء

خير ما أفعل ان اتجاهل ما تقول

فعاد أدهم يقول برجاء

اذهب يا همام

فاتجه همام نحو الكوخ وهو يقول

-سأظل إلى جانبك.

19

لم يبق من الشمس إلا الشفق ، وانقطعت السابلة، وانفرد بالخلاء قدرى وهمام والغنام، مر النهار فلم يتبادلا طواله إلا ما تقتضيه ضرورة الشرآة فى العمل، وغاب قدرى شطرًا آبيرًا من النهار فخمن همام أنه يتشمم أخبار هند، ولبث وحده فى

ظل الصخرة على آثب من الغنام، وفجأة وفى شئ من التحدى سأل قدرى همام:
خبرنى عما أنتويت من ذهابك إلى جدك او عدو لك ؟
فقال همام بامتعاض
هذا شان يخصنى وحدى
فاحتدم الغيظ فى قلب قدرى، ولاحت بوادره فى وجهه آطلائع الظلام فوق المقطم وتساءل
لماذا بقيت؟ ومتى تذهب؟ متى تجد الشجاعة لإعلان نيتك؟-
بل بقيت لأتحمل نصيبى من العناء الذى خلقته فضائحك
فضحك قدرى ضحكة آاسرة وقال
هكذا تقول لتدارى حسدك!
هز همام رأسه آالمتعجب وقال
إنك تستحق الرثاء لا الحسد
فاقترب قدرى منه وأطرافه ترتجف من الحنق وقال بصوت مخنوق بالغضب
ما أبغضك حين تتظاهر بالحكمة
فحدجه همام بنظرة احتقار دون ان ينبس ، فعاد الآخر يقول
يجب أن تخجل اليحاة لانتساب أمثالك إليها
فلم يغض همام من بصره تحت النظرات المتقدة التى تنصب عليه وقال بثبات
-اعلم أننى لا أخافك.
هل وعدك البلطجى الأآبر الحماية؟-
إن الغضب يجعل منك شيئا حقيرًا تعافه النفس
وفجاة لطمه قدرى على وجهه، لم تدهمة اللطمة فردها بأشد منها وهو يقول:
-لا تتماد فى جنونك.
وانحنى قدرى بسرعة فالتقط حجرًا وقذف به اخاه بكل ما اوتى منقوة، وبادر همام ليتفادى من الحجر ولكنه أصاب جبينه، ندت عنه أهة وجمد فى موقفه والغضب يشتعل فى عينيه، وإذا بالغضب يختفى منهما فجأة آانه شعلة ردمت بتراب آثيف، وإذا بفراغ قاتم يحل فيهما فبدت العينان وآأنهما تنظران إلى الداخل ، وترنح ثم أنكفأ على وجهه وتبدل قدرى حالا بعد حال، فزايله الغضب وترآه حديدًا باردًا بعد انصهار، ورآبه الخوب، ترقبه بلهفة أن ينهض النمكفئ أو أن يتحرك ولكنه لم يرحم

لهفته، وانحنى فوقه، ومد إليه يده يهزه فى رفق ولكنه لم يستجب وسواه على ظهره ليخلص انفه وفاه من الرمال فاستلقى الآخر محملق العينين ولا حراك به، ورآع قدرى إلى جانبه، وراح يهزه ، ويدلك صدره ويديه، وينظر بفزع إلى الدم المتدفق بغزارة من جرحه وناداه برجاء فلم يجب . وبدا صمته آثيفا عميقا آأنه جزء لا يتجزأ من آيانه آجموده الذى بدا غريبا عن الحى والجماد معاً، لا إحساس ولا انفعال ولا اهتمام بشئ، آأنما ألقى إلى الأرض من مكان مهول فلم يمت إليها بسب، عرف قدرى الموت بفطرته فراح يشد شعر رأسه فى يأس، ونظر فيما حوله خائفا، ولكن لم يكن هناك من حى إلا الأغنام والحشرات وجميعا انصرفت عنه دون اآتراث سينتشر الليل ويستحكم الظلام وقام بعزم، فجاء بعصاه واتجه إلى موضع بين الصخرة الكبيرة وبين الجبل، وراح يحفر الأرض ويرفع التراب بيديه، ويواصل العمل بعناد وهو يتصبب عرقا، وترتجف

منه الأوصال، وهرع نحو أخيه هزه وناداه للمرة الخيرة دون أن يتوقع جوابا، وقبض على أسفل ساقيه وجره حتى أودعه الحفرة، وألقى نظرة وهو يتنهد، وتردد مليا، ثم أهال عليه التراب، ووقف يجفف عرق وجهه بكم جلبابه، وآلما رأى بقعة دم فى الرمال غطاها بالتراب وارتمى على الأرض من شدة الإعياء، وشعر بقوته تتخلى عنه، وبرغبة فى البكاء، ولكن الدموع استعصت عليه، وقال غلبنى الموت لم يدعه و لم يقصده ولكنه يجئ آما يحلو له، ولو أنه انقلب تيسا لغاب فى الأغنام، أو ذرة من رمال لاختفى فى الأرض . مادمت لا أستطيع أن أرد الحياة فلا يجوز أن أدعى القوة أبدًا، وهيهات أن تمحى تلك النظرة من رأسى ابدًا، إن الذى دفنته لم يكن من الأحياء ولا من الجمادن ولكنه من صنع يدى.

20

عاد قدرى إلى الدار يسوق الأغنام، و لم تكن غربة أدهم بموقفهما وجاء صوت أمه من الداخل وهى تتساءل:

لماذا تأخرتما عن موعدآما ؟

فدفع الأغنام إلى الممشى المفضى إلى حظيرتها وهو يقول

غلبنى النوم، ألم يحضر همام ؟

رفعت اميمة صوتها ليعلو على أصوات الطفلين قائلة

آلا ، ألم يكن معك ؟

فازدرد ريقا جافا وقال

غادرنى منذ الظهر دون أن يخبرنى أين هو ذاهب ، فظننته رجع إلى هنا-. .

فتساءل أدهم وآان قد وصل ومضى يُدخل العربة إلى الفناء

هل تشاجرتما؟

أبدًا

-أظنك آنت السبب فى ذهابه، ولكن أين هو ؟

خرجت أميمة إلى الفناء، على حين أغلق قدرى باب الحظيرة وراح يغسل وجهه ويديه من ماء طشت تحت الزير لابد من مواجهة الموقف .. الدنيا تغيرت ولكن اليأس قوة، وانظم إلى والديه فى الظلام وهو يجفف وجهه بطرف جلبابه ، وتساءلت أميمة:

أين ذهب همام؟ لم يغب آهذه المرة من قبل؟

فوافقها أدهم قائلا

بلى خبرنا آيف ولماذا ذهب ؟

وارتعد قلب قدرى لصورة خطرت برأسه لكنه قال

آنت جالسا فى ظل الصخرة فلاحت منى التفاتة فرأيته يبتعد صوب حينا، وهممت أن أناديه ولكنى لم أفعل

فقالت أميمة فى حسرة

-ليتك ناديته و لم تستسلم لزعلك.

ونظر أدهم حائرًا فى الظام حوله، فرأى ضوءًا خافتا خلال آوة فى آوخ إدريس دلت على أن الحياة دبت فيه من جديد، ولكنه لم يأبه لذلك، وثبت بصره على البيت الكبير وتساءل:

اتراه ذهب إلى جده؟

فقالت أميمة بغنكار

لا يفعل ذلك دون إخبارنا

فقال قدرى بصوت شاحب

لعل الحياة منعه!

فسدد أدهم نحوه نظرة ارتياب منقبض الصدر لخلو صوته من السخرة والعدوان وقال

دفعناه إلى الذهاب فأبى

فقال قدرى فى إعياء

-تحرج من القبول أمامنا.

ليس هذا من خلقه، وأنت مالك آالمريض؟

فقال قدرى بحدة

حملت عبء العمل وحدى

فهتف أدهم فى ضيق المستغيث

الحق أقول أن قلبى غير مطمئن

فقالت أمية بصوت مبحوح

سأذهب إلى البيت الكبير لأسأل عنه

فهز أدهم منكبيه فى يأس وقال

لن يرد عليك أحد، ولكنى أؤآد لك انه لم يذهب

فنفخت أمية فى آرب وقالت

شيئا يا رجل، فتنهد أدهم بصوت مسموع فى الظام وقال : فلنفتش عنه فى-.

آل ناحية

رباه ، لم يضطرب هكذا قلبى من قبل، افعل

فقال قدرى:

لعله فى الطريق إلينا

فهتفت امية

لا ينبغى أن ننتظر

ثم مستدرآة فى جزع وهى تنظر صوب آوخ إدريس

ايكون إدريس قد صادفه فى طريقه ؟

فقال أدهم بامتعاض

غريم إدريس قدرى لا همام-! .

إنه لا يتردد فى القضاء على أى منا، إنى ذاهبة إليه

فحال أدهم بنيها وبين الذهاب وهو يقول

-لا تزيدى أمورنا تعقيدًا، أعدك إذا لم نعثر عليه أن اذهب إلى إدريس وأن اذهب إلى البيت الكبير.

وحدج شبح قدرى بنظرة قلبة، ما باله واجمًا ؟ أليس عنده أآثر مما قال؟ وأين أنت يا همام؟

اندفعت أميمة لتغادر الفناء، فمال أدهم نحوها وأمسك بمنكبها وإذا بباب البيت الكبير يفتح، فتطلعوا نحوه، وبعد قليل لا ح شبح عم آريم وهويقترب منهم فخرج إليه أدهم وهو يقول " : أهلا بك عم آريم، فحياه الرجال وقال:

سيدى الكبير يسأل عما أخر همام؟

فقالت أميمة بيأس

لا ندرى أين هو حتى ظنناه عندآم-.. .

سيدى يسأل عما أخره

فهتفت أميمة

-اعوذ بالله من أوهام قلبى.

وذهب عم آريم وأخذت اميمة تحرك رأسها فى اضطراب ينذر بالانفجار، فساقها أدهم أمامه إلى حجرتها الداخلية حيث علا بكاء الصغيرين، وصاح بوحشية.

فانحنى

فوقه هامسا

لا تغادرى الحجرة ، سأعود به، ولكن إياك أن تغادرى الحجرة، وعاد إلى الفناء فعثر على قدرى جالسا على الأرض

خبرنى ماذا تعرف عن أخيك؟

فرفع رأسه نحوه بشدة ولكن شيئا منعه من الكلام فعاد الرجل يسأله

خبرنى يا قدرى ماذا فعلت بأخيك ؟

فقال الشاب بصوت لا يكاد يسمع

-لا شئ.

وارتد الرجل نحو الداخل ثم رجع بمصباح فأشعله ووضعه على عربته فسقط نوره على وجه قدرى فتفحصه الرجل برهة وقال:

وجهك ينذر بالشقاء

وجاء صوت أميمة من الداخل مختلطا بأصوات الطفلين ليقول آلامًا لم يميزه أحد فصاح أدهم

اسكتى ياولية، موتى إن شئت ولكن فى صمت!

وعاد إلى تفحص ابنه، وبغتة ارتعدت أطرافه، وأمسك بطرف آمه وقال فى فزع

-دم ما هذا ؟ دم أخيك ؟

فحملق قدرى فى آم جلبابه ثم انكمش بجرآة لا إرادية، وحنى رأسه فى يأس، اعترف قدرى بجرآته اليائسة، فجذبه أدهم حتى أقامه، ثم دفعه إلى الخارج دفعة بقسوة لم يعهدها من قبل، وغشى عينيه ظام فوق الظلام المحيط.

21

دفعه نحو الخلاء قائلا:

-سنميل نحو خلاء الدراسة آيلا نمر أمام آوخ إدريس.

وأوغلا فى الظلام، وقدرى يسير آالمترنح تحت قبضة أبيه الناشبة فى منكبهن وتساءل أدهم وهو يجد فى السير بصوت أدرآه الهرم.

ولكنه لم يكن يشعر-.

بها، وآان ألمه شديدا ولكنه لم يفصح عنه، وود أن الشمس لا تطلع أبدًا

خبرنى هل ضربته؟ بأى شئ ضربته؟ وعلى أى حال ترآته؟ لم يجب قدرى، آانت قبضة ابيه شديدة

ارحمنى وتكلم، ولكنك لم تعرف الرحمة، وقد قضيت على نفسى بالعذاب يوم انجبتك، أنا الذى تطاردنى اللعنات منذ-.

عشرين عاما وها أنا أطلب الرحمة ممن لا يعرفها

فانفجر قدرى باآيا حتى ارتجف منكبه فى قبضة أدهم القاسية، وظل يرتجف حتى سرت عدواه إلى أدهم، لكنه قال:

أهذا جوابك؟ لماذا يا قدرى لماذا؟ آيف هان عليك؟ اعترف فى الظلام قبل أن ترى نفسك فى ضوء النهار

فهتف قدرى

-لا طلع النهار!

-نحن أسرة الظلام، لن يطلع علينا نهارا .. وآنت أحسب الشر مقيما فى آوخ إدريس، فإذا به فى دمنا نحن، إن إدريس يقهقه ويسكر ويعربد، أما نحن فيقتل بعضنا البعض، رباه .. هل قتلت أخاك؟

-أبدًا!

فأين هو ؟-!

ما قصدت قتله

فصاح أدهم

-لكنه قتل!

واجهش قدرى فى البكاء واشتدت قبضة أبيه، إذن قتل همام، زهرة العمل وحبيب الجد، آأنه لم يكن، لولا الألم المفترس ما صدقت وبلغا الصخرة الكبيرة فساله أدهم بصوت غليظ:

أين ترآته يا مجرم ؟

فسار قدرى نحو الموضع الذى حفره لأخيه ووقف عنده فيما بين الصخرة والجبل وتساءل أدهم

أين أخوك ؟ لا أرى شيئا

فقال قدرى بصوت لا يكاد يسمع

هنا دفنته

فصرخ أدهم

-دفنته!

واخرج من جيبه علبة ثقاب وأشعل عوا تفحص الموضع على ضوئه حتى رأى قطعة من الأرض قلقة المستوى آما رأى مسحب الجثة الذى انتهى عندها، تأوه أدهم من الألم، وراح يزيح التراب بيدين مرتعشتين.

وواصل عمله فى جو رهيب حتى مست أصابه رأس همام ، وغرز يديه إلى ما تحت ابطيه وسحب الجثة فى رفق، وجثا على رآبتيه إلى جانبها واضعا يديه على رأسه، مغمض العينين، مثالا للتعاسة والخيبة، وزفر من أعماقه ، ثم غمغم:

إن حياة أربعين عاما من العمر تبدو سخفا سقيما أمام جثتك يا بنى

وقام بغتة، ونظر نحو قدرى وهو يقف أمام الجثة من الناحية الأخرى، فعانى لحظات آراهية عمياء، وقال بصوت غليظ

سيعود همام إلى الكوخ محمولا على عنقك

فجفل قدرى متراجعا، ولكن الرجل سارع إليه دائرا حول الجثة ثم قبض على منكبه وهتف

احمل أخاك

فقال قدرى بصوت آاالأنين

لا استطيع-. .

إنك استطعت قتله-.

لا استطيع يا أبى-.

له، لا ام له ، لا أخ له-.

لا استطيع

فشد قبضته عليه وقال

لا تقل أبى ، قاتل أخيه لا أب

-على القاتل أن يحمل ضحيته.

حاول قدرى أن يفلت من قبضة أدهم ولكن أدهم لم يمكنه ، وانهال فى عصبية على وجهه باللكمات فلم يتفاد من لكمه أو يتأوه من ألم وآف الرجل، ثم قال:

لا تضيع الوقت، أمك تنتظر

وارتعد قدرى لدى ذآر أمه ، فقال برجاء

دعنى اختفى
فجذبه نحو الجثة وهو يقول
-هلم نحمله معا.
تحول أدهم إلى الجثة ووضع يديه تحت ابطى همام، وانحنى قدرى واضعا يديه تحت الساقين، رفعا الجثة معا، وسارا فى بطء نحو خلاء الدراسة، اوغل أدهم فى مشاعره الأليمة حتى فقد اى شعور بالألم أو بسواه، ولبث قدرى يعانى الما من خفقان قلبه وارتجاف أطرافه، وامتلأ أنفه برائحة ترابية نفاذة على حين سرى مس الجثة من يديه إلى أعماقه، وآن الظلام غليظا بينا نضح الأفق بأنوار الأحياء الساهرة، وشعر قدرى باليأس يكتم أخر أنفاسه فتوقف قائلا لأبيه:
سأحمل الجثة وحدى-. .
ووضع ذراعا تحت الظهر وأخرى تحت الفخذين وسار يتبعه أدهم

22

وعندما اقتربا من الكوخ جاءهما صوت أميمة متسائلا فى جزع.
هل وجدتماه ؟-.
فصاح أدهم بصوت أمر
-اسبقينى إلى الداخل.
وسبق قدرى إلى الكوخ ليتاآد من اختفائها، ووقف قدرى عند مدخل الكوخ لايريد أن يتحرك، وأشار له أبوه بالدخول فامتنع
قائلا فى صوت هامس:
لا استطيع أن القاها
فهمس الأب حانقا
استطعت ما هو افظع
فتشبث قدرى بموقفه وهو يقول
آلا ، هذا افظع-. .
ودفعه أدهم امامه بحزم فاضطر إلى التحرك حتى بلغ الحجرة الخارجية
وانقض أدهم على أميمة بسرعة فكتم براحته الصرخة التى أوشكت على الإفلات من فيها، وقال بقسوة:

لاتصرخى يا ولية، لاينبغى أن نلفت الأسماع حتى نتدبر الأمر ، فلنقاس المقدور صامتين، ولنتحمل الألم صابرين، الشر-. من بطنك ومن صلبى خرج، واللعنة حقت علينا جميعا

وسد فاها بقوة، وحاولت التخلص من يده عبثا، ارادت أن تعضها فلم تتمكن، اضطربت أنفاسها وخارت قواها فسقطت مغشيا عليها.

ولبث قدرى واقفا يحمل الجثة فى صمت وخزى مرآزا بصره على المصباح ليتجنب النظر إليها، واتجه أدهم نحوه فساعده على وضع الجثة على الفراش، ثم ساجها برفق، ونظر قدرى إلى جثة اخية المسجاة على الفراش الذى اقتسماه طوال العمر فشعر بأنه لم يعد له مكان فى الدار، وحرآت اميمة راسهان ثم فتحت عينيها فبادر أدهم إليها وهو يقول بحزم:

-إياك أن تصرخى.

وارادت أن تنهض فساعدها على النهوض وهو يحذرها من إحداث صوت، وهمت بالارتماء على الفراش فحال الرجل دون ذلك، فوقفت مغلوبة على أمرها، واندفعت تنفس عن آربها بشد شعرها بقسوة فانتزعت منه خصلات بعد خصلات، و لم يبال الرجل بما تفعل، وقال بغلظة:

افعلى ما يريحك ولكن فى صمت

فقالت بصوت مبحوح

ابنى .. ! ابنى

فقال أدهم فى ذهول

هذه جثته، لم يعد ابنك ولا ابنى، وهذا هو قاتله، اقتليه إن شئت ولطمت أميمة خديها وقالت لقدرى بوحشية-. :

إن أحط الوحوش تتبرأ من فعلتك

فحنى قدرى رأسه فى صمت على حين قال أدهم بوحشية

هل تذهب هذه الروح هدرًا؟ لا ينبغى أن نحيا ، هذه هى العدالة

فهتفت أميمة

آان أمس أملاً مشرقًا، قلنا له أذهب فأبى، ليته ذهب، لو لم يكن آريمًا نبيلاً رحيمًا لذهب، أيكون جزاء هذا القتل؟ آيف-. هان عليك يا صخرى القلب لست ابنى ولست أمك

لم ينبس قدرى لكنه قال لنفسه " : قتلته مرة وهى يقتلنى مرة آل ثانية، لست حيًا ، من قال إنى حى؟ وسأله أدهم بفظاظة:

ماذا أفعل بك ؟

فقال قدرى بهدوء

قلت إنه لا ينبغى أن أحيا

فهتفت أميمة

آيف سولت لك نفسك قتله؟

فقال قدرى فى يأس

لا جدوى من النواح، إنى مستعد للعقاب، والقتل أهون مما أعانى

فقال أدهم بحنق

لكنك جعلت حياتنا أيضا أفظع من الموت

وهبت أميمة هاتفة وهى تلطم خديها

لن أحب هذه الحياة أدفنونى مع ابنى، لماذا لا تدعنى أصوت؟

فقال أدهم بمرارة وسخرية

يسمعنا الشيطان

فقال قدرى باستهانة

ليس شفقة على حنجرتك ولكنى اخشى ان

فليسمع آيف شاء، لم أعد أآترث للحياة

وإذا بصوت غدريس يعلو قريبا من مدخل الكوخ

أخى أدهم ! تعال يا مسكين!

فسرت الرعدة فيهم جميعا، غير أن أدهم صاح به

عد إلى آوخك، واحذر أن تستفزنى

فقال إدريس بصوت قوى

شر أهون من شر ، مصيبتكم نجتكم من غضبى، ولكن لندع هذا الحديث، آلانا مصب، أنت فقدت العزيز الغالى، وأنا-

ضاعت ابنتى الوحيدة، آان الأبناء عزاءنا فى منفانا ولكنهم ذهبوا، تعال يا مسكين نتبادل العزاء

إذن ذاع السرع ! آيف ذاع؟ ولأول مرة يخاف قلب أميمة على قدرى.

وقال أدهم:

لا تهمنى شماتتك، من يذق ألمى تهن عليه الشماتة

فجاء صوت إدريس مستنكرا

شماتة ! ألا تدرى إننى بكيت عندما رأيتك تسحب الجثة من الحفرة التى حفرها قدرى؟

فصاح أدهم بغضب

-تجسس حقير.

أيضا، وقلت لنفسى يا لك من مسكين يا أدهم، فقدت شابين فى ليلة-.

واحدة

لم أبك على القتيل وحده ولكن على القاتل

وصوتت أميمة دون اآتراث لأحد، واندفع قدرى خارج الكوخ بغتة وجرى أدهم وراءه وصرخت أميمة.

لا أريد أن أفقد الاثنين!

أراد قدرى أن يثب على إدريس ولكن أدهم دفعه بعيدا عنه ثم وقف أمام الرجل متحديا وهو يقول

احذر أن تتعرض لنا!

فقال إدريس بهدوء

أنت أحمق يا أدهم ، لا تفرق بين الصديق وبين العدو، تريد أن تعارك أخاك دفاعا عن قاتل أبنك-. .

أذهب عنى

فقال إدريس ضاحكا

-آما تشاء ، تقبل عزائى والسلام عليكم.

غاب إدريس فى الظلام، وتحول أدهم نحو قدرى فوجد أميمة واقفة تتساءل عنه، فجزع الرجل وراح ينظر فى الظلام ويصيح بأعلى صوته.

قدرى .. قدرى .. أين أنت ؟

وجاء صوت إدريس وهو يصيح بقوة

-قدرى .. قدرى .. أين أنت.

23

دُفن همام فى مقبرة تابعة للوقف بباب النصر، سار فى جنازته قوم آثيرون من معارف أدهم، أآثرهم باعة من زملائه، وأقلهم زبائن ممن أسرهم رقة أخلاقة وحسن معاملته، وفرض إدريس نفسه على الجنازة فاشترك فى تشييعها، بل وقف يتقبل العزاء بصفته عم الفقيد، وسكت أدهم آارها فسار فى الجنازة آثيرون من الفتوات والبلطحية والبرمجية واللصوص وقطاع الطرق، وعند الدفن وقف إدريس فوق القبر يشجع أدهم بكلمات العزاء والآخر صابر متصبر لا يجيب ودموعه تستبق

على خديه، وروحت أميمة عن آربها باللطم والصوات والتمرغ فى التراب، وعندما تفرق المشيعون، التفت أدهم إلى إدريس وقال بحنق:

ألا يوجد حد لقسوتك ؟

فتظاهر إدريس بالدهشة وتساءل

عم تتحدث يا أخى المسكين؟

قال أدهم بحدة

ظنى بك، الموت نهاية آل حى، فما وجه الشماتة فيه؟

فقال إدريس وهو يضرب آفًا على آف

لم أتصورك على هذا القدر من القسوة رغم سوء

-الحزن أخرجك عن أدبك، لكنى مسامحك.

متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة؟-.

لترحمنا السماء، ألست أخى ؟ هذه رابطة ليس فى الإمكان فصمها

إدريس آفاك ما فعلت بى

حفيدة عاهرة وحفيد-.

قاتل، وعلى أى حال فأنت خير حالاً منى إذ لك ذرية تعوضك عما فات

الحزن قبيح، ولكن آلانا مصاب، أنت فقدت همام وقدرى وأنا فقدت هند، أصبح للجبلاوى العظيم

فتساءل أدهم فى حسرة:

أما زلت تحسدنى

فقال إدريس متعجبا

إدريس يحسد أدهم!

فعلا صوت أدهم وهو يهدر

إذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء.

العفاء .. العفاء

-ومرت أيام آئيبة بالأشجان، وقهر الحزن أميمة فساءت صحتها واعتصرها الضمور، وفى أعوام قلائل بلغ أدهم من الهرم ما لا يبلغ فى عمر مديد، وبات الزوجان يعانيان الهزال والمرض، ويما اشتدت عليهما وطأة المرض فرآنا إلى الرقاد، أميمة مع طفيلها فى الغرفة الداخلية، وأدهم فى الغرفة الخارجية ، غرفة قدرى وهمم، ومضى النهار وجاء الليل فلم يشعلا مصباحا،

وقنع أدهم بضوء القمر المنبعث من الفناء، وراح يغفو قليلا ويستيقظ قليلا فى حال بين الوعى والذهول.

وجاء صوت إدريس من خارج الكوخ وهو يساله متهكما:

-ألست فى حاجة إلى خدمة؟

فانقبض صدره و لم يجبه، وآان يكره الساعة التى يغادر فيها الآخر آوخه ليذهب إلى سهرته الليلية ، وجاءه الصوت مرة أخرى وهو يقول:

اشهدوا يا ناس على لرى وعقوقه.

وذهب وهو يغنى:

آنا تلاتة طلعنا الجبل نصطاد.

واحد قتله الهوى والثانى خدوه الأحباب.

امتلأت عينا أدهم بالدموع . هذا الشر الذى لا يصد عن اللهو، يقاتل ويقتل ويحظى بكل احترام، يقسو ويستبد هازئا بالعواقب وله ضحكة تجلجل فتملأ الآفاق، له لذة فى العبث بالضعفاء ويسمر فى المآتم ويغنى فوق شواهد القبور، الموت يدنو منى وهو مازال يضحك ساخرا، القتيل فى التراب والقاتل ضائع وفى آوخى بكاء على الاثنين، ضحكة الطفولة فى الحديقة استحالت مع الأيام عبوسة غارقة فى الدمع، وفى الداخل بقية جسدى يتوجع . لماذا هذا العناء آله وأين صفو الأحلام أين؟

وخيل إلى أدهم أنه يسمع وقع أقدام .. أقدام بطيئة وثقيلة استثارت ذآريات غامضة آرائحة زآية مؤثرة تستعصى على الإدراك والتحديد حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح، ثم رأه يمتلئ بشئ آجسم هائل، عملق فى دهش ، واحد بصره فى أمل يكتنفه يأس، وندت عنه أهه عميقة، وغمغم متسائلا:

أبى!

وخيل إليه أنه يسمع الصوت القديم وهو يقول

مساء الخير يا أدهم

فاغرورقت عيناه ، وهم بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم يجدهما منذ أآثر من عشرين عاما، وقال بصوت متهدج

دعنى أصدق

فقال

أنت تبكى وأنت الذى أخطأت

فقال أدهم بصوت يشرق بالدمع

الخطأ آثير والعقاب آثير ولكن حتى الحشرات المؤذية لا تيأس من العثور على ظل-! .

هكذا تعلمنى الحكمة-.

عفوًا .. عفوًا ، الحزن أرهقنى، والمرض رآبنى، حتى أغنامى مهددة بالهلاك-.

جميل أن تخاف على أغنامك

تساءل أدهم فى رجاء

هل عفوت عنى؟

أجاب بعد صمت

نعم

فهتف أدهم بجسم مرتعش

قاع هاية اليأس بيدى-! .

فعثرت على فيها-.

نعم آالصحو بعد الكابوس-..

لذلك فأنت ولد طيب

فتأوه أدهم قائلا

الشكر لله، منذ قليل آنت اقرع

-أنجبت قاتلاً وقتيلا.

الميت لايعود فماذا تطلب ؟

فتنهد أدهم قليلا

آنت أهفو للغناء فى الحديقة ولكن لن يطيب لى اليوم شئ

فقال

-.

الشكر لله

فقال

سيكون الوقف لذريتك\.

-لا تجهد نفسك وأرآن إلى النوم.

جبل

24

أقيمت بيوت الوقف فى خطين متقابلين يصنعان حارتنا ويبدأ الخطان من خط يقع أمام البيت الكبير، ويمتدان طولا فى اتجاه الجمالية، أما البيت الكبير، فقد ترك خاليا من جميع الجهات على رأس الحارة من ناحية الصحراء . وحارتنا حارة الجبلاوى أطول حارة فى المنطقة، أآثر بيوتها ربوع آما فى حى آل حمدان، وتكثر الأآواخ من منتصفها حتى الجمالية، ولن تتم الصورة إلا بذآر بيت ناظر الوقف على رأس الصف الأيمن من المساآن، وبيت الفتوة على رأس الصف الأيسر قبالته.
آان البيت الكبير قد أغلق أبوابه على صاحبه وخدمه المقربين، ومات أبناء الجبلاوى مبكرين فلم يبق من سلالة الذين أقاموا وماتوا فى البيت الكبير إلا الأفندى ناظر الوقف فى ذلك الوقت، أما أهل الحارة عامة فمنهم البائع الجوال، ومنهم صاحب الدآان أو القهوة، وآثيرون يتسولون، وثمة تجارة مشترآة يعمل فيها آل قادر هى تجارة المخدرات وبخاصة الحشيش والأفيون والمدافع، وآان طابع حارتنا - آحالها اليوم - الزحام والضجيج، الأطفال الحفاة أشباه العرايا يلعبون فى آل رآن، ويملأون الجو بصراخهم والأرض بقاذورتهم، وتكتظ مداخل البيوت بالنساء، هذه تخرط الملوخية ، وتلك تقشر البصل، وثالثة توقد النار، يتبادلن الأحاديث والنكات، وعند الضرورة الشتائم والسباب والغناء والبكاء لاينقطعان، ودقة الزار تستأثر باهتمام خاص، وعربات اليد فى نشاط متواصل، ومعارك باللسان أو الأيدى تشب هنا وهناك، وقطط تموء وآلاب تهر وربما تشاجر النوعان حول أآوام الزبالة والفئران تنطلق فى الأفنية وعلى الجدران، وليس بالنادر أن يتجمع قوم لقتل ثعبان أو عقرب، أما الذباب فلا يضاهيه فى الكثرة إلا القمل فهو يشارك الأآلين فى الأطباق والشاربين فى الأآواز، يلهو فى الأعين ويغنى فى الأفواه آأنه صديق الجميع.
وما أن يجد شاب فى نفسه جرأة أو فى عضلاته قوة حتى يندفع إلى التحرش بالأمنين، والاعتداء على المسالمين فيفرض نفسه فتوة على حى من أحياء الحارة، يأخذ الأتاوات من العاملين ويعيش ولا عمل له إلا الفتونة، هكذا وجد فتوات الأحياء مثل قدره والليثى وأبو سريع وبرآات وحمودة، وآان زقلط أحد هؤلاء الفتوات، فخاض معارك آثيرة مع فتوة بعد فتوة حتى هزم الجميع وصار فتوة الحارة آلها، وفرض الأتاوات على الفتوات جميعا، ورأى الأفندى ناظر الوقف أنه بحاجة إلى مثل هذا الرجل لينفذ أوامره أو يدفع عنه ما قد يهدده من شر فقربه ورتب له راتبا عظيما من ريع الوقف، فأقام زقلط فى بتيه المقابل لبيت الناظر واستحكم سلطانه، وعند ذاك ندر وقوع المعارك بين الفتوات، إذ أن الفتوة الأآبر لايرتاح إلى هذا النوع من المعارك الذى قد ينتهى بتكبير فتوة وبالتالى بتهديد مرآزه هو لذلك لم يجد الفتوات متنفسا لقوة شرهم الحبيسة إلا فى

الأهالى المساآين آيف انتهى الأمر بحارتنا إلى هذا الحال؟

لقد وعد الجبلاوى أدهم بأن يكون الوقف لخير ذريته، وشيدت الربوع ووزعت الخيرات وحظى الناس بفترة من العمر السعيد،

ولما أغلق الأب بابه واعتزل الدنيا احتذى الناظر مثاله الطيب حينا، ثم لعب الطمع بقلبه فنزع إلى الاستئثار بالريع، بدأ بالمغالطة فى الحساب والتقتير فى الأرزاق ثم قبض يده قبضا مطمئنا إلى حماية فتوة الحارة الذى اشتراه، ولم يجد الناس بدًا من ممارسة أحقر الأعمال، وتكاثف عددهم فزاد فقرهم وغرقوا فى البؤس والقذارة وعمد الأقوياء إلى الإرهاب والضعفاء إلى التسول، والجميع إلى المخدرات، آان الواحد يكد ويكدح نظير لقمات يشارآه فيها فتوة، لا بالشكر، ولكن بالصفع والسب واللعن، الفتوة وحده يعيش فى بحبوحة ورفاهية، وفوق هذا الفتوة الأآبر، والناظر فوق الجميع ، أما الأهالى فتحت الأقدام، وإذا عجز مسكين عن أداء الأتاوة انتقم منه فتوة حيه شر الانتقام، وإذا شكا أمره إلى الفتوة الأآبر ضربه الفتوة الأآبر وأسلمة إلى فتوة حيه لعيد تأديبه، فإذا سولت له نفسه أن يشكو إلى الناظر ضربه الناضر والفتوة الأآبر وفتوات الأحياء جميعا ، وهذه الحال الكئيبة شهدها بنفسى فى أيامنا الأخيرة، صورة صادقة مما يروى الرواة عن الأزمان الماضية، أما شعراء المقاهى المنتشرة فى حارتنا فلا يروون إلا عهود البطولات متجنبين الجهر بما يحرج مراآز السادة ويتغنون بمزايا الناظر والفتوات، بعدل لا نحظى به ورحمة لا نجدها وشهامة لا نلقاها وزهد ولا نراه ونزاهة لا نسمع عنها، وأنى لأتساءل عما أبقى أيامنا - أو عما يبقينا نحن - بهذه الحارة اللعينة؟ الجواب يسير لن نلقى فى الحوارى الأخريات إلا حياة أسوأ من الحياة التى نكابدها هنا، هذا إذا لم يهلكنا فتواتها انتقاما مما لا قوا على أيدى فتواتنا، والأدهى الأمر أننا محسدون ! يقول أهالى الحوارى حولنا يا لها من حارة سعيدة ! تحظة بوقف لا مثيل له، وفتوات تقشعر عند ذآرهم الأبدان، ونحن لا ننال من الوقف إلا الحسرات ومن قوة فتواتنا إلا الإهانات والأذى على ذلك آله فنحن بقفون، وعلى الهم صابرون، ننتطلع إلى مستقبل لا ندرى متى يجئ ونشير إلى البيت الكبير ونقول هنا أبونا العتيد، ونومئ إلى الفتوات ونقول هؤلاء رجالنا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

25

ونفد صبر آل حمدان فاصطخبت فى حيهم أمواج التمرد . آان آل حمدان يقيمون فى قمة الحارة فيما يلى بيتى الأفندى وزقلط حول البقعة التى بنى أدهم فيها آوخه، وآان رئيسهم حمدان صاحب قهوة، قهوة حمدان، أجمل قهوة فى الحارة آلها، التى تتوسط حى حمدان بين الربوع جلس المعلم حمدان فى الجهة اليمنى من مدخل القهوة فى عباءة رمادية، وعلى الرأس لاسة مزرآشة، يتابع عبدون صبى القهوة فى نشاطه المتواصل ويتبادل مع بعض الزبائن الأحاديث ، وآانت

القهوة ضيقة العرض ولكنها تمتد طولا حتى أريكة الشاعر فى الصدر تحت صورة خيالية ملونة لأدهم فى رقاده الأخير وهو يتطلع إلى الجبلاوى الواقف بباب الكوخ، أشار حمدان إلى الشاعر فتناول الرابة واستعد لالنشاد، وبين أنغام الأوتار بدأ بتحية الناظر حبيب الجبلاوى، وزقلط زين الرجال، ثم روى فترة من حياة الجبلاوى قبيل مولد أدهم، وندت عن احتساء القهوة والقرفة والشاى أصوات وأنعقد الدخان المتصاعد من الجوز حول الفانوس سحابا شفافة وترآزت الأعين فى الشاعر، واهزت الرؤوس لجمال ذآرى أوحش موعضة، ومضى وقت الخيال فى شغف وانسجام حتى وافاه الختام، وترامت على الشاعر تحيات الاستحسان، عند ذاك تحرآت فى الأعماق موجة التمرد التى اجتاحت آل حمدان، فقال عتريس الأعمش فى مجلسه وسط القهة معلقا على ما سمع من قصة الجبلاوى:

آان فى الدنيا خير ، حتى أدهم لم يجمع يوما واحد

وإذا بتمر حنة العجوز تقف أمام الدآان وتنزل قفص البرتقال من فوق رأسها، ثم تقول موجهة الخطاب إلى عتريس الأعمش

يسلم فمك يا عتريس، آلامك آالبرتقال السكرى!

فنهرها المعلم حمدان قائلا

اذهبى يا ولية وأريحينا من آلامك الفارغ

لكن تمر حنة جلست على الأرض لصق مدخل القهوة وهى تقول

ما أحلى القعدة جنبك يا معلم حمدان) ثم وهى تشير إلى قفص البرتقال (يوم ونصف ليلة فى المشى والنداء نظيم-.

ملاليم يا معلم

وهم المعلم بالرد عليها ، ولكنه رأى ضملة مقبلا مقطبا وقد تلوث جبينه بالتراب ، فنظر إليه حتى وقف أمامه فى مدخل القهوة وهتف بصوت مرتفع:

ربنا على المفترى ! قدرة هو أآبر مفترى، قلت له امهلنى إلى الغد حتى يفتح الله على فرمانى على الأرض وبرك فوق-.

صدرى حتى آتم أنفاسى

فجاء صوت عم دعبس من أقصى القهوة وهو يقول:

تعال يا ضلمة أقعد جنبى، تعال الله يلعن أولاد الحرام، نحن أسياد هذه الحارة، ولكننا نُضرب فيها آالكلاب، ضلمة لايجد إتاوة لقدره، تمر حنة تسرح بالبرتقال وهى لا ترى أبعد من ذراع أمامها، وأنت يا حمدان أين شجاعتك يا أبن أدهم ؟

فاتجه ضلمة إلى الداخل، وتساءلت تمر حنة.

أين شجاعتك يا أبن أدهم ؟

فهتف حمدان

غورى يا تمر حنة، أنت فت سن الزواج من خمسين سنة فلم تحبين مجالس الرجال؟

فتساءلت المرأة

أين هم الرجال ؟

قطب حمدان ، ولكن تمر حنة بادرته آالمعتذرة

دعنى اسمع الشاعر يا معلم

فقال دعبس للشاعر بمرارة

حدثها عن هوان آل حمدان فى هذه الحارة

فابتسم الشاعر قائلا

حلمك يا عم دعبس، حلمك يا سيد الناس

فقال دعبس محتدًا

من سيد الناس؟ إن سيد الناس يضرب الناس ويظلم الناس ويغتال الناس، أنت تعرف من هو سيد الناس!

فقال الشاعر بقلق

قد نجد بيننا فجأة قدره أو غيره من الشياطين؟

فقال دعبس بحدة

آلهم ذرية إدريس!

فقال الشاعر بصوت خافت

-حلمك يا عم دعبس قبل أن تهدم القهوة فوق رؤوسنا.

فنهض دعبس من مجلسه وقطع القهوة فى خطوات واسعة ثم جلس إلى يمين حمدان على أريكة وهم بالكلام، ولكنه ضجة غلمان علت بغتة حتى غطت على صوته، وانتشروا أمام القهوة آالجراد وهم يتبادلون السباب فصرخ فيهم دعبس:

-يا أولاد الشياطين أليس لكم جحور تؤيكم فى الليل؟

لكنهم لم يبالوا بصراخه فوثب آالمدفوع وانقض عليهم فجروا فى الحارة وهم يصيحون) هيه (وترامى أآثر من صوت نسائى من نوافذ الربع المواجه للقهوة ، وحد الله يا عم دعبس، خوفت الأولاد يا رجل، فلوح بيده ساخطا وعاد إلى مجلسه وهو يقول:

-الواحد حيران لا عند الأولاد راحة ولا عند الفتوات راحة ولا عند الناظر راحة.

أمن آل على قوله، آل حمدان ضاع حقهم فى الوقف، آل حمدان تمرغوا فى تراب القذارة والبؤس، آل حمدان تسلط عليهم فتوة ليس منهم بل من أحط الأحياء، قدرة يسير بينهم مختالاً يصفع من يشأ ويأخذ الأتاوة ممن يشاء، لذلك نفد صبر آل حمدان واصحطبت فى حيهم امواج التمرد.

والتفت دعبس إلى حمدان وقال:

يا حمدان ، الجميع على رأى واحد، نحو آل حمدن عددنا آبير، أصلنا معروف وحقنا فى الوقف آحق الناظر نفسه

فغمغم الشاعر

اللهم فوت الليلة على خير

حمدان حبك العباءة حوله ورفع حاجبيه المثلثين الغزيرتين وقال

قلنا فى هذا وعدنا، سيحدث أمر، إنى أشم الأحداث شما

وارتفع صوت على فوانيس بالتحية وهو يدخل القهوة مشمر الجلباب وطاقيته الترابية مائلة حتى حاجبيه، وما لبث أن قال

الكل مستعدون ، ولو احتاج الأمر إلى نقود سيعطون، حتى الشحاذون

وانحشر بين دعبس وحمدان وهو يهتف بعبدون صبى القهوة

شاى من غير سكر

فانتبه غليه الشاعر قائلا

-إحم!

فابتسم على فوانيس ودس يده فى صدره فأخرج آيسًا ثم فتحه واستخرج منه لفافة صغيرة رمى بها إلى الشاعر، وربت

فخد حمدان متسائلا فقال هذا:

أمامنا المحكمة-. .

فقالت تمر حنة

خير ما نفعل

فقال الشاعر وهو يخرج الشئ من اللفافة

فكروا فى العواقب

فقال على فوانيس بحدة

لا هوان مما نحن فيه، ولنا عدد وفير يجب حسابه، والأفندى لا يمكن ان يتجاهل أصلنا وقرابتنا إليه وإلى صاحب الوقف

فقال الشاعر وهو ينظر إلى حمدان نظرة ذات معنى

لم تضق بنا الحلول

فقال حمدان آأنما يجيبه

عندى فكرة جريئة!

تطلعت إليه الأبصار فقال:

أن نلجأ إلى الناظر!

فقال عبدون وهو يقدم الشاى إلى فوانيس

خطوة عزيزة وبعدها تحفر قبور

فضحكت تمر حنة قائلة

اسمعوا فالكم من عيالكم

لكن حمدان قال بتصميم

-ينبغى أن نذهب ، ولنذهب جماعة.

26

تجمهر أمام بيت الناظر جمع آثر من آل حمدان نساء ورجالاً على رأسهم حمدان ودعبس وعتريس الأعمش وضلمة وعلى فوانيس ورضوان الشاعر، آان من رأى رضوان أن يذهب حمدان وحده نفيا لشبهة العصيان واتقاء لعواقبه، ولكن حمدان قال له بصراحة " : إن قتلى شئ يسير ولكن قتل آل حمدان يقدرون عليه " ، ولفت التجمهر أنظار أهل الحارة وبخاصة الجيران الأقربين، فبرزت رءوس النساء من النوافذ وتطلعت أعين من تحت السلال والمقاطف ومن فوق عربات اليد، وأقبل آثيرون آبارًا وصغارًا وتساءلوا ماذا يريد آل حمدان؟ وقبض حمدان على المطرقة النحاسية وطرق الباب ، ففتح بعد قليل عن البواب بوجهه الكئيب ونسائم محملة بشذا الفل والياسمين ، نظر البواب إلى المتجمهرين بانزعاج وتساءل:

ماذا تريدون ؟

فقال حمدان بقوة استمدها ممن خلفه

-نريد مقابلة حضرة الناظر.

آلكم ؟-.

ليس فينا من هو أحق بالمقابلة عن الآخرين-.

انتظروا حتى استأذن لكم

وهم برد الباب لكن دعبس مرق إلى الداخل وهو يقول

-الانتظار فى الداخل أآرم.

واندفع وراءه الأخرون آالسرب وراء الحمامة، ودفع حمدان بينهم رغم سخطة على اندفاع دعبس فانتقلت المظاهرة إلى الممشى المفروض بين السلاملك والحديقة ، وصاح البواب:

يجب أن تخرجوا
فقال حمدان
-الضيف لا يطرد ، اذهب وخبر سيدك.
وتحرآت شفتا الرجل باحتجاج غير مسموع، وشت به قسماته المكفهرة ثم تحول مهرولا نحو السلاملك، وتبعته الأعين حتى اختفى وراء الستار المسدل على باب البهو، وظلت أعين عالقة بالستار، وجالت أعين فى أنحاء الحديقة حول الفسقية المحاطة بالخيل واعراش العنب لصق الجدران، وفروع الياسمين المتسلقة الأسوار، جالت بنظرات حائرة وحواس مغلقة بالهم وما لبثت أن ردت إلى الستار المسدل على باب البهو.
وانزاح الستار فخرج الأفندى بنفسه متهجم الوجه، وتقدم فى خطوات حادة غاضبة حتى وقف عند رأس السلم ، لم يبد من شخصه المتلفع بالعباءة إلا وجهه الغاضب وشبشبه الوبرى وسبحة طويلة فى يمناه، ألقى نظرة ازدراء على المظاهرة ثم استقرت عيناه على حمدان فقال هذا بأدب جم:
صبحك الله بالسعادة يا حضرة الناظر
فاآتفى برد التحية بحرآة من يده ، وتساءل
من هؤلاء ؟
آل حمدان يا حضرة الناظر
من أذن لهم بالدخول فى بيتى ؟
فقال حمدان بدهاء
إن بيت ناظرهم، فهو بيتهم، وهم فى حماه
فلم يلن وجه الأفندى وقال
تحاول الاعتذار عن سوء سلوآكم!
وضاق دعبس بتأدب حمدان فقال
نحن أسرة واحدة جميعنا أبناء أدهم وأميمة
فقال الأفندى بامتعاض
ذاك تاريخ مضى، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه
فقال حمدان
نحن فى آرب من الفقر وسوء المعاملة فاجتمع الرأى بيننا على اللجوء إليك لتفرج آربنا
وهنا قالت تمر حنة

وحياتك عيشتنا تقرف الصراصير

فقال دعبس بصوت ارتفع درجات

أآثرنا متسولون ، أطفالنا جياع، وجوهنا متورمة من صفع الفتوات، أيليق ذلك بأبناء الجبلاوى ومستحقى وقفه؟

فتقبضت يد الأفندى على المسبحة وهتف

أى وقف يا هذا ؟

حاول حمدان أن يمنع دعبس من الكلام ولكنه اندفع قائلا آمن لطشت الخمر رأسه

الوقف الكبير، لا تغضب يا حضرة الناظر ، الوقف الكبير الذى يملك حارتنا من أولها إلى أخرها ويتبعه آل حكر فى الخلاء-.

المحيط، وقف الجبلاوى يا حضرة الناظر

فاندلعت ألسنة الغضب من عينى الأفندى وصاح:

هذا وقف أبى وجدى ما لكم به صلة إنكم تتناقلون الحكايات الخرافية وتصدقونها، وما لديكم دليل أو حجة

فقال أآثر من صوت وضح بينها صوت دعبس وتمر حنة

-الجميع يعرفون ذلك ؟\

-الجميع؟ ما قيمة ذلك؟ لو تناقلتم فيها بينكم أن بيتى هو بيت فلان أو علان منكم فهل يكفى هذا لاغتصاب بيتى يا هولاء

؟ حارة حشاشين حقيقة ! خبرونى مى أخد أحدآم مليما من ريع الوقف ؟

فساد الصمت مليا ثم قال حمدان:

-آان أباؤنا يأخذون.

ألديكم دليل؟

فعاد حمدان يقول

قالوا لنا ونحن نصدقهم-. .

فهتف الأفندى

غير مطرودين

فقال دعبس بتصميم

آذب فى آذب، وتفضلوا

أطلعنا على الشروط العشرة

فصاح الأفندى

لماذا أطلعكم عليها؟ من أنتم ؟ ما علاقتكم بها؟-.

نحن المستحقون
عند ذاك تعالى صوت هدى هانم حرم الناظر من وراء الباب وهى تقول
دعهم وادخل، لا تبح صوتك بمناقشتهم
فقالت تمر حنة
آوبى محضر خير يا ست هانم
فقالت هدى هانم بصوت متهدج من الغضب
قطع الطرق لا يكون بالنهار والشمس طالعة
فقالت تمر حنة بامتعاض
الله يسامحك يا ست هانم، الحق على جدنا الذى أغلق على نفسه الأبواب
فرفع دعبس رإسه وصاح بصوت آالرعد
يا جبلاوى ! تعال شوف حالنا، ترآتنا تحت رحمة من لا رحمة لهم
دوى صوت قويا حتى خيل إلى البعض أنه سيبلغ الجد فى بيته، ولكن الأفندى صاح مرتعش النبرات من الحنق
اخرجوا .. اخرجوا دون تردد
وقال حمدان بضيق
-هيا بنا.
وتحول عن موقفه ومضى نحو الباب، وأخذوا يتبعونه صامتين، حتى دعبس تبعه، لكنه رفع رأسه مرة أخرى وصاح بالقوة نفسها:
-يا جبلاوى.

27

دخل الأفندى البهو مصفر الوجه من الغضب فوجد زوجته واقفة مقطبة، فقالت:
حرآة غريبة لها ما بعدها ، ستكون حديث الحارة آلها، وإذا تهاونا فى الأمر فقل علينا السلام
فقال الأفندى بتقزز
رعاع أبناء رعاع ويطمعون فى الوقف، من ذا الذى يستطيع أن يعرف أصله فى حارة مثل خلية النحل؟-.
احسم الأمر . ادع زقلط ودبر أمرك، زقلط يقاسمنا الريع دون أن يفعل شيئا فدعه يحلل ما ينهب من أموالنا

فحدجها الأفندى بنظرة طويلة ثم تساءل

وجبل ؟

فقالت بطمانية وثقة

جبل ! إنه ربيبنا ، بل هو ابنى، لم يعرف من الدنيا إلا بيتنا، أما آل حمدان فلا يعرفهم ولا يعرفونه، ولو آانوا يعدونه منهم-.

لتشفعوا به إلينا، اطمئن من ناحيته، وسوف يعود من جولته بين المستأجرين فيحضر الاجتماع

وجاء زقلط تلبية لدعوة الناظر ، آان متوسط القامة ، بدينا متين البنيان، وبقسماتة ساماجة وغلظة، وبرقبته وذقنو ندوب ،

جلسوا متقاربين وزقلط يقول:

سمعت أخبارًا لا تسر

فقالت هدى بغيظ

ما أسرع ما تجرى أخبار السوء.

وقال الأفندى وهو يلحظ زقلط بمكر:

إنها تمس هبيتنا آما تمس هيبتك

فقال زقلط بصوت آالخوار

مضى زمن غير قصير دون أن نحرك نبوتا أو نسفك دما

فابتسمت هدى قائلة

يا لهم من مغرورين آل حمدان، لم يظهر منهم فتوة واحد، ومع ذلك فأحقرهم يزعم أنه سيد الحارة

فقال زقلط باشمئزاز

باعة ومتسولون، ولن يظهر فتوة من قوم خرعين

فتساءل الأفندى

والعمل يا زقلط ؟

سأدوسهم بقدمى آالصراصير

سمع جبل قول زقلط وهو يدخل البهو، بدأ مورد الوجه بعد جولته فى الخلاء، وجرت حيوية الشباب فى جسمه الفارع القوى، ووجهه ذى الملامح الصريحة وبخاصة أنفه المستقيم وعينيه الكبيرتين الذآيتين . حيا الموجودين بأدب وبدأ يتكلم عن الأحكار التى تم تأجيرها اليوم ولكن هدى هانم قاطعته قائلة:

اجلس يا جبل، نحن فى انتظارك لأمر عظيم

فجلس جبل وعيناه تعكسان نظرة تحرج لم تغب عن عينى الهانم فقالت

أرى أنك تحدس ما نحن مهتمون له

فقال بصوت هادئ

الجميع يتحدثون فى الخارج

فنظرت الهانم صوب زوجها هاتفة

اسمعت ؟ الجميع يتوقعون منا الجواب

فقال زقلط وقسماته تزداد سماجة

شعلة تطفئها حفنة تراب، بودى أن أبدأ العمل!

فالتفت هدى إلى جبل متسائلة

ألديك ما تقوله يا جبل ؟

فقال وهو يدارى ضيقة بالنظر فى الأرض

الأمر منكم وإليكم يا سيدتى-. .

يهمنى أن أعرف رأيك

تفكر مليا وهو يشعر بنظرات الأفندى الحادة، ونظرات زقلط الممتعضة ثم قال

سيدتى ، إننى ربيب نعمتك، ولكنى لا أدرى ماذا أقول ، فلست إلا أحد أبناء حمدان؟

قالت هدى بحدة

لماذا تذآر حمدان ولا أب ولا أم ولا أقارب لك فيهم ؟-.

وند عن الأفندى صوت ساخر مقتضب يشبه الضحك لكنه لم يتكلم

وبدأ فى وجه جبل أنه يعانى ألمًا صادقًا، لكنه أجاب:

آان أبى وامى منهم، لايمكن إنكار ذلك

وقالت هدى

ما أخيب أملى فى ابنى-. .

معاذ الله ، إن المقطم لايستطيع أن يزحزحنى عن الوفاء لك، لكن إنكار الحقائق لايغيرها

وقام الأفندى نافد الصبر وقال يخاطب زقلط

لا تضيع وقتك فى سماع هذه المعاتبات

فقام زقلط باسما، وإذا بالهانم تقول له وهى ترمى جبل بلحظ خفى

لا تجاوز المعقول يا معلم زقلط ، نريد تأديبهم لا إبادتهم

غادر زقلط البهو ، وألقى الأفندى على جبل نظرة لوم وهو يتساءل ساخرًا

إذن أنت من آل حمدان يا جبل ؟

ولاذ جبل بالصمت حتى رحمته هدى فقالت

قلبه معنا ولكن شق عليه أن يتنكر لأصله أمام زقلط

فقال جبل بحزن واضح

أهل الحارة أصلا

فصاح الأفندى

إنهم برساء يا سيدتى رغم أنهم آآرم

حارة لا اصل لها

فقال جبل جادًا

إننا أبناء ادهم ، ومازال جدنا حيا أطال الله بقاءه

فتساءل الأفندى

بنوته لأبيه؟ نه آلام لا بأس أن يقال أحيانا ولكنه لا ينبغى أن يتخذ وسيلة لنهب أموال الغير

وقالت هدى

من يستطيع أن يثبت

نحن لا نريد بهم سرًا على شرط ألا يطمعوا فى أموالنا.

وأراد الأفندى ان ينهى الحديث فقال لجبل:

-اذهب إلى عملك ولا تفكر فى سواه.

وغادر جبل البهو فذهب إلى إدارة الوقف فى منظرة الحديقة آان عليه أن يسجل فى الدفاتر عددًا من عقود الإيجار، وان يراجع الحساب الختامى للشهر ولكن الحزن شتت عقله، ومن عجب أن آل حمدان لا يحبونه، وهو يعلم ذلك ويذآر آيف آان يقابل بالبرود فى قهوة حمدان فى المرات القلائل التى غشيها ، مع ذلك احزنه مايدبر لهم من شر ، أحزنه أآثر مما أسخطة سلوآهم الجرئ، وود أن يدفع عنهم الشر لولا اشفاقه من اغضاب البيت الذى أواه ورباه وتبناه، ماذا آان يكون لو لم يدرآه عطف هدى هانم؟ منذ عشرين عاما رأت الهانم طفلا عاريا يستحم فى حفرة مملوءة بمياه الأمطار، مضت تتسلى بمشاهدته فمال قلبها الذى حرمه العقم من نعم الأمومة إليه، أرسلت من حمله غليها وهو يبكى خائفا، وتحرآت عنه فعلمت أنه طفل يتم ترعاه بياعة دجاج استدعت الهانم بياعة الدجاج وطلبت إليها أن تتنازل لها عن الطفل فرحبت بذلك آل الترحيب، هكذا نشأ جبل فى بيت الناظر وفى رعاية حضرته ينعم بأسعد أمومة فى الحارة جميعا، وأدخل الكتاب

فتعلم القراءة والكتابة، ولما بلغ رشده ولاه الأفندى إدارة الوقف، فى آل بقعة فيها للوقف أملاك يدعونه " حضرة الوآيل" وتتابعة نظرات الإآبار والإعجاب أينما حل، وآانت الحياة تبدو ودودة واعده بكل جميل حتى آان تمرد آل حمدان، وجد جبل أنه ليس شخصا واحدًا آما توهم طوال عمره، ولكنه شخصان أحدهما يؤمن بالوفاء لأمه وأخرهما يتساءل فى حيرة : وآل حمدان؟

28

انبعثت الرباب تحكم مصرع همام على يد قدرى، اتجهت الأعين نحو رضوان الشاعر فى انتباه يشوبه القلق ، ليست الليلة آبقية الليالى، ليلة ختمت نهارًا ثائرًا ، وظل آثيرون من آل حمدان يتساءلون هل تمر بسلام؟ وشعل الحارة ظلام حتى النجوم توارت وراء سحب الخريف فلم يبد من ضوء إلا ما نضحت به النوافذ المغلقة أو ما أرسلته مصابيح عربات اليد المتباعدة فى أحياء الحارة ن وضجت الأرآان بغوغء الغلمان المتجمعين آالفراشا حول مصابيح العربات، على حين افترشت تمر حنة خيشة أمام أحد ربوع حمدان وراحت تدندن:

على حارتنا حسن القهوجى.

وارتفع مواء قطط فى نوبات متقطعة واشيا بمنافسات جنسية أو منازعات تموينية، واحتد صوت الشاعر وهو يروى قائلا:

وصرخ أدهم فى وجه قدرى " : ماذا فعلت بأخيك " فى تلك اللحظة ظهر زقلط فى دئرة الضوء التى يرسمها فانوس القهوة على الأرض، ظهر فجأة آأنما انشق عنه الظام، بدا عابسا متحديا آارها مكروها يتفجر الشر فى عينيه وتشد قبضته على نبوته المرعب، وزحفت من محجرية نظرة ثقيلة مخيفة على القهوة والجالسين آأنها حشرة سامة، فتحجر الكلام فى حلق الشاعر.

وباخت نشوة ضلمة وعتريس، وانقطع عن التهامس دعبس وعلى فوانيس، وآف ع الحرآة عبدون، أما حمدان فشدت يده على خرجوم النارجيلة بعصبية، وساد صمت آالموت.

وتتابعت حرآات خاطفة . غادر القهوة سراعا الزبائن الذين لا ينتسبون لآل حمدان . جاء فتوات الأحياء، قدرة والليثى وأبو سريع وبرآات وحمودة فصنعوا جدار وراء زقلط وسرى الخبر فى الحارة بسرعة آانه بيت تهدم ففتحت النوافذ، وأقبل الصغار يجرون والكبار يتنازع قلوبهم الإشفاق الشماتة، وآان حمدان أول من خرق الصمت فقام فى هيبة استقبالية وهو يقول:

اهلا بالمعلم زقلط فتوة حارتنا .. تفضلوا

لكن زقلت تجاهله، آأنه لا يسمعه ولا يراه، وظل يطلق الطعنات من عينيه القاستين ، ثم تساءل بصوت غليظ

من فتوة هذا الحى ؟

فأجاب حمدان ولو أن السؤال لم يوجه إليه

فتوتنا قدره-. .

التفت زقلط نحو قدره متسائلا فى سخرية

أنت حامى آل حمدان ؟

فتقدم قدرة خطوات بجسمه القصير المدمج ووجهه المتحرش بكل شئ وقال

أنا حاميهم من الجميع إلا إياك يا معلم

فابتسم زقلط ابتسامة آالامتعاض وقال

ألم تجد حيا غير حى النسوان لتكون فتوة عليه؟

ثم صاح بالقهوة

يا نسوان ، يا أولاد الزوانى ، ألا تعترفون بأن للحارة فتوة؟

فقال حمدان بوجه شاحب

يا معلم زقلط ليس بيننا وبينك إلا الخير

فصاح به

فقال حمدان بصوت المتألم

اخرس يا عجوز يا قارح ، الآن تتمسكن بعد أن هجمت على أسيادك وأسياد أهلك.

-لم يكن فى الأمر هجم، لكنها شكوى سرنا بها إلى حضرة الناظر ، فصاح زقلط:

نتن انسيت ما آانت تفعله أمك؟ والله لن يسير أحدآم أمنا فى هذه الحارة حتى-.

يقول بأعلى صوته : أنا مرة

اسمعتم مايقول ابن الزانية؟ حمدان يا

ورفع بسرعة نبوته وهوى به بشدة على الطاولة فتطايرت الفناجيل والأآواب والصوانى والملاعق وعلب البن والشاى والسكر والقرفة والزنجبيل والكنكاب، وثب عبدون إلى الوراء فارتطم بتربيزة وسقطا معا، وبغتة وجه زقلط لطمة إلى وجه حمدان فقد الرجل توازنه وسقط على جنبه فوق النارجيلة التى تحطمت، ورفع زقلط نبوته مرة أخرى وهو يصيح:

-لا ذنب بلا عقاب يا أولاد الزوانى.

وتناول دعبس آرسيا ورمى به الفانوس الكبير فتحطم وساد الظلام قبل أن يهوى النبوت على المرأة الكبيرة وراء الطاولة، وصوتت تمر حنة فرددت نساء حمدان الصوات فى النوافذ والأبواب آأنما انقلبت الحارة جنجرة آلب رمى بحجر، وجن جنون

زقلط فاطلق ضرباته فى آل ناحية فأصابت أناسا ومقاعد والجدار ، وتلاطمت أمواج الصراخ والاستغاثات والتأوهات، وتطايرت

الأشباح فى آل ناحية وارتطمت أشباح بأشباح.

وصاح زقلت بصوت آالرعد:

-آل واحد يلزم بيته.

فبادر إلى تنفيذ الأمر آل شخص من آل حمدان أو من غيرهم وتتابع وقع الأقدام المتراجعةن وجاء الليثى بفانوس فظهر على ضوئه زقلط والفتوات من حوله، فى حارة خالية، لايسمع بها إلا صوات النسوان، وقال برآات متوددا:

وفر نفسك يا معلم للشدائد ، وعلينا نحن تأديب الصراصير

وقال أبو سريع

لو شئت جعلنا من آل حمدان ترابا تمشى عليه بحصانك

وقال قدرة فتوة حمدان

تمر حنة من وراء باب الربع-. :

ربنا على الظالم

فصاح بها زقلط

لو آلفتنى بتأديبهم لحققت لى أمنية آبيرة وهى أن أخدمك يا معلم، وعلا صوت

يا تمر حنة أتحدى أى رجل من حمدان أن يعد الزانين بك-. .

فهتفت تمر حنة وإن دل آخر آلامها على أن يدا وضعت على فيها لتمنعها من الاستمرار

ربنا بيننا وبينك ، حمدان أسياد ال.

ووجه زقلط الخطاب إلى الفتوات بصوت أراد أن يسمعه آل حمدان قال

لا يغادر رجل من حمدان داره إلا ضرب

فصاح قدره مهددا

من ير نفسه رجلا فليخرج

وتساءل حمودة

والنسوان يا معلم ؟

فقال زقلط بحدة

-زقلط يعامل الرجال لا النسوان.

وطلع النهار فلم يغادر الربوع رجل من آل حمدان، وجلس آل فتوة عند باب قهوة حتى يراقب الطريق، وجعل زقلط يمر بالحارة آل بضع ساعات فيستبق الناس إلى تحيته والتودد إليه والثناء عليه " : والله أسد بين الرجال يافتوة حارتنا " ، " عفارم عليك يازين الرجال ياملبس حمدان الطرح " ، " والحمد لله الذى اذل حمدان المتعجرفين بيدك القوية يا زقلط ." و لم يكن يعير
أحدًا أدنى اهتمام.

29

هل يرضيك هذا الظلم يا جبلاوى ؟
تساءل جبل وهو يفترش الأرض أسفل الصخرة التى تقول الحكايات أن عندها آان يخلو قدرى إلى هند، وإن عندها قُتل همام، ونظر إلى الشفق بعين لم تعد ترى إلا ما يكدر الصفو . لم يكن ممن يرآنون إلى الخلوات لكثرة مشاغله لكنه شعر أخيرًا برغبة قاهرة فى الخلو بنفسه التى زلزلها ما حاق بآل حمدان، لعل فى الخلاء أن تسكت الأصوات التى تعيره والتى تعذبه، أصوات تهتف به من النوافذ وهو مار " : ياخائن حمدان يا لئيم " ، وأصوات تهتف به من أعماق نفسه " : لن تطيب الحياة
على حساب الغير " ، وآل حمدان اهله، ففيهم ولدت أمه وأبوه، وفى مقابرهم دفنا، وهم مظلومون وما أقبح الظلم، اغتصبت أموالهم ولكن من الظالم؟ إنه ولى نعمته، الرجل الذى انتشلته زوجه من الطين فرفعته إلى مصاف آل البيت الكبير، وجميع الأمور تجرى فى الحارة على سنة الإرهاب، فليس عجيبا أن يُسجن سادتها فى بيتهم وحارتنا لم تعرف يوما العدالة أو السلام، هذا ما قضى به عليها زمن طرد أدهم وأميمة من البيت الكبير، ألا تعلم بذلك يا جبلاوى؟ ويبدو أن الظلم ستشتد آثافة ظلماته آلما طال بك السكوت فحتى متى تسكت يا جبلاوى؟ الرجال سجناء فى البيوت والنساء يتعرضن فى الحارة لكل سخرية، وأنا أمضغ المهانة فى صمت، ومن عجب أن أهل حارتنا يضحكون ! علام يضحكون؟ إنهم يهتفون للمنتصر أيًا آان المنتصر، ويهللون للقوى أيًا آان القوى، ويسجدون أمام النبابيت، يدارون بذلك آله الرعب الكامن فى أعماقهم ، غموس اللقمة فى حارتنا الهوان، لا يدرى أحد متى يجئ دوره ليهوى النبوت على هامته، ورفع رأسه إلى السماء فوجدها صامتة هادئة ناعسة، يوشى أطرافها الغمام، وتودعها أخر حدأة وانقطع المارة وأن للشحرات أن تزحف وفجأة سمع جبل صوتا غليظا يصيح من قريب " : قف يا ابن الزانية . " استيقظ من أفكاره فنهض قائما وهو يحاول أن يتذآر أين سمع هذا الصوت، ثم اتجه حول صخرة هند إلى الجنوب فرأى رجلاً يرآض فى رعب وآخر وراءه يطارده ويوشك أن يلحق به، وأمعن النظر فعرف فى الهارب دعبس وفى المطادر قدرة فتوة حى حمدان، وفى الحال أدرك حقيقة الموقف، ومضى يراقب

المطاردة التي تقترب منه بفؤاد قلق، وما لبث قدرة أن أدرك دعبس فقبض بيده على منكبه وتوقف الاثنان عن العدو هما يلهثان من الجهد . وصاح قدرة فصوت متقطع من البهر:

آيف تجرؤ على مغادرة جحرك يا ابن الأفعى؟ لن تعدو سالًما

فهتف دعبس وهو يحمى رأسه بذراعه

دعني ياقدرة، أنت فتوة حينا وعليك أن تدافع عنا

فهزه قدرة هزة أطارت اللاسة عن رأسه وصاح به

أنت تعرف يا ابن اللئيمة إني أدافع عنكم ضد أى مخلوق إلا زقلط

وحانت من دعبس نظرة نحو موقف جبل فرأه وعرفه فناداه قائلا

اغثني ياجبل، أغثني فأنت منا قبل أن تكون منهم

فقال قدرة بلغظة وتحدة

لا مغيث لك مني يا أبن الدايخة

ووجد جبل نفسه يتقدم منهما حتى وقف عندهما ويهو يقول بهدوء

ترفق بالرجل يا معلم قدرة

فحدجة قدرة بنظرة باردة وهو يقول

إني أعرف ما ينبغى أن أفعله- .

لعل أمرًا ضروريا دفعه إلى مغادرة بيته-.

ما دفعه إلا قضاؤه المحتوم

وشد على منكبه حتى أن دعبس أنينا مسموعا ، فقال جبل بحدة

-ترفق به ، ألا ترى أنه أآبر منك سنا وأضعف بنية؟

رفع قدرة يده عن منكبه فصفعه على قفاه بقوة تقوس لها ظهره، ثم ضرب برآبته دبره فانكفأ على وجهه، وسرعان ما برك فوقه وراح يكيل له الضربات وهو يقول بصوت يزفر الغل والحنق:

ألم تسمع ما قال زقلط ؟

واشتغل الغضب فى دماء جبل فصاح به

اللعنة عليك وعلى زقلط اترآه ياقليل الحياء!

فكف قدرة عن ضرب دعبس ورفع رأسه إلى جبل وجها ذاهلاً ثم قال

أنت تقول هذا يا حبل؟ ألم تشهد حضرة الناظر وهو يأمر زقلط بتأديب حمدان؟

فصاح جبل وغضبه أخذ فى ازدياد

اترآه يا قليل الحياء

فقال قدرة بصوت يرتعش من الحنق-!

لا تظن أن خدمتك فى بيت الناظر تحميك منى إذا أردت محاسبتك

فأنقض عليه جبل آمن فقد وعيه ورآله فألقاه جانبا وصاح به

-عد إلى أمك قبل أن تثكلك.

وثب قدرة قائما وهو يتناول نبوته من على الأرض، ثم رفعه بخفة ولكن جبل بادره بضربة فى بطنة من يد قوية فترنح متألما، وانتهز جبل هذه الفرصة فخطف النبوت من يده ووقف وهو ينظر نحوه بحذر، تراجع قدرة خطوتين ، ثم انحنى بسرعة خاطفة فالتقط حجرًا ولكنه قبل أن يقذف به أصاب النبوت رأسه فصرخ، ودار حول نفسه، ثم سقط على وجهه والدم يتفجر

من جبينه بغزارة، آان الليل يهبط فنظر جبل فيما حوله فلم ير أحدًا إلا دعبس الذى وقف ينفض جلبابه ويتحسس المواضع التى تؤلمه من جسده، ثم اقترب من جبل وهو يقول ممتنًا:

عوفيت من أخر آريم يا جبل

فلم يجبه جبل، وانحنى فوق قدرة فعدله على ظهره، ثم تمتم

-أغمى عليه!

فانحنى دعبس فوقه آذلك ثم بصق على وجهه، فجذبه جبل بعيدًا عنه، وانحنى فوقه مرة أخرى، وراح يهزه برفق ولكنه لم يبد أملاً فى الإفاقة ، فتساءل:

ماله ؟

فانحنى دبعس فوقه والصق أذنه بصدره، ثم قرب وجهه من وجهه، وأشعل عودا من الثقاب، ثم وقف وهو يهمس

إنه ميت!

فاقشعر بدن جبل وقال

آذبت-. !

ميت ابن ميت وحياتك-.

يا خبر أسود

فقال دعبس مهونا الأمر

آم وآم قتل فليذهب إلى الزبانية!

فقال جبل بصوت حزين وآأنه يخاطب نفسه

لكننى لم أضرب و لم أقتل-. .

آنت تدافع عن نفسك-.

لكننى لم أقصد قتله ولا أردته

فقال دعبس باهتمام

إن يدك لشديدة يا جبل، لاخوف عليك منهم، وبوسعك أن تكون فتوة لو أردت

فضرب جبل جبينه بيده وهتف

يا ويلى ، هل أنقلب قاتلا من أول ضربة؟-.

انتبه إلى نفسك ولهم ندفنه وإلا قامت القيامة-.

ستقوم القيامة دفناه أم لم ندفنه-.

لست أسفًا ، عقبى للباقى، عاونى على إخفاء هذا الحيوان

وتناول دعبس النبوت وراح يحفر فى الأرض غير بعيد من الموضع الذى حفر فيه قدرى من قبل، وما لبث جبل أن انظم إليه بقلب آئيب.

وتواصل العمل فى صمت حتى قال دعبس ليخفف عن جبل ثقل مشاعره.

لاتحزن فالقتل فى حارتنا مثل أآل الدوم

فقال جبل متنهدًا

ما وددت أن أآون قاتلاً قط رباه ما آنت أحسب أن غضبى بهذه الفظاعة؟

ولما فرغا من الحفر وقف دعبس يجفف جبينه بكم جلبابه ويتمخط ليطرد الرائحة الترابية التى تملأ خيشومه، قال بحقد

هذه الحفرة تسع ابن الزانية والفتوات الآخرين

فقال جبل بضحر

احترم الميت فجميعنا أموات

فقال دعبس بحدة

عندما يحترموننا أحياء نحترمهم أمواتًا-. .

ورفعا الجثة فأودعاها الحفرة، ووضع جبل النبوت إلى جانبها ، ثم أهالا عليه التراب

ولما رفع جبل رأسه رأى الليل قد أخفى الدنيا وما عليها فتنهد من الأعمال وهو يكبت نزعا نحو البكاء.

30

أين قدرة ؟

سأل زقلط نفسه آما سأل الفتوات الأخرين، لكن الفتوات آانوا يتساءلون أيضا عن صاحبهم الذى اختفى من الوجود آما اختفى رجال حمان من الحارة، آان قدرة يسكن فى الحى التالى لحى حمدان، وآان أعزب يسهر الليل فى الخارج فلا يعود إلى مسكنة إلا مع الفجر أو بعد ذلك ، ولم يكن من النادر أن يغيب عن مسكنه ليلة أو ليلتين، ولكن لم يحدث أبدًا أن غاب أسبوعًا آاملاً دون أن يعلم أحد بمكانه وبخاصة فى أيام الحصار هذه التى أوجبت عليه أعباء لا يستهان بها من اليقظة والمراقبة، وقامت الظنون حول حمدان فتقرر تفتيش بيوتهم، واقتحم الفتوات وعلى رأسهم زقلط ربوعهم ففتشوها تفتيشا دقيقا من البدروم إلى السطح، وحفرت الأفنية بالطول والعرض، وتعرض رجال حمدان لإهانات شتى، ولم يسلم أحد منهم من لطمة أو رآلة أو بصقة، ولكنهم لم يعثروا على شئ يريب وتفرقوا فى أطراف الخلاء يسألون فلم يدلهم أحد على أمر ذى بال، وبات قدرة الموضوع الذى تدور به الجوزة فى غرزة زقلط تحت تكعيبة العنب بحديقة بيته، آان الظلام يغشى الحديقة عدا نور حيى ينبعث من مصباح صغير قائم على الأرض على بعد شبرين من المجمرة ليستضيئ به برآات وهو يقطع الحشيش ويبططه ، ويفتت الجمرات، ويرص الحجر ويخشنه ليعد الجوزة، وآان نور المصباح الراقص فى مجرى النسيم ينعكس على وجوه زقلط وحمودة والليثى وأبو سريع الكالحة فيبدى عن أعين متراخية الجفون، انعقدت فى نظراتها الشاردة نوايا معتمة، وتعالى نقيق ضفادع آأنه استغاثات خرس فى هدأة الليل . قال الليثى وهو يتناول الجوزة من برآات ويوجهها نحو زقلط:

أين ذهب الرجل ؟ آأن الأرض بلعته

شد زقلط نفسًا عميقا وهو ينقر الغابة بسبابته ثم زفرة دخانا آثيفا وقال

قدرة بلعته الأرض وهو راقد فى جوفها منذ أسبوع-. .

تطلعت إليه الأبصار باهتمام عدا برآات الذى بدا مسلوبا بعمله

فعاد زقلط يقول:

لا يختفى فتوة لغير ما سبب ، وللموت رائحة أعرفها

فتساءل أبو سريع بعد سماع تقوس له ظهره آأنه سنبلة فى مهب ريح عاتية

ومن قاتله يا معلم ؟-

عجيبة ! ومن يكون غير رجل من حمدان-

لكنهم لا يغادرون بيوتهم وقد فتشناها

فضرب زقلط طرف الشلتة بقبضته وتساءل
ماذا يقول أهل الحارة الآخرون ؟
فقال حمودة
يعتقد حينا بأن لحمدان يدًا فى اختفاء قدرة-! .
أفهموا يا مساطيل ! مادام الناس يعتقدون أن قاتل قدرة فى حمدان فالواجب علينا أن نعتبره آذلك-!
ولو آان القاتل من العطوف-.
ولو آان من آفر الزغاوى، نحن لا يهمنا عقاب القاتل بقدر ما يهمنا إرهاب آالآخرين
فهتف أبو سريع بإعجاب
الله أآبر
فقال الليثى وهو ينفض الحجر فى الكوز ويعيد الجوزة إلى برآات
-الله يرحمكم يا آل حمدان.
فندت عن أفواههم ضحكات جافة اختلطت بنفيق الضفادع وتحرآت منهم الرؤوس حرآات الوعيد على حين هبت نسمة بقوة طارئة أعقبتها خشخشة فى الأوراق الجافة، وصفق حمودة بيديه وهو يقول:
لم تعد المسألة صراعًا بين حمدان والناظر ولكنها آرامة الفتوات
فعاد زقلط يضرب طرف الشلتة بقبضته ويقول
لم يقتل فتوة بيد حرته من قبل.
وتصلبت ملامحه من الغضب حتى خاف شره ندماؤه فحذروا أن تند عنهم آلمة أو حرآة تحول غضبه إليهم، وساد الصمت فلم يعد يسمع إلا قرقرة الجوزة وسعلة أو نحنحة، وإذا ببرآات يسأل:
وإذا عاد قدرة على غير ما نظن؟
فقال زقلط بحنق
-أحلق شاربى يا ابن المسطولة.
آان برآات أول من ضحك ثم عادوا إلى الصمت ، تخايلت للأعين المذبحة، والعصى تحطم الرؤوس، والدماء تسيل حتى تصبغ الأرض ، والصوات يعلو من النوافذ والأسطح ، وعشرات الرجال يصعدون حشرجة الموت، اضطربت فى النفوس رغبة نمرية فى الافتراس ، وتبادلوا نظرات قاسية لم يهمهم قدرة لذاته، بل لم يكن أحد منهم يحبه، ولكن يكن أحد منهم يحب الآخر قط، ولكن جمعتهم رغبة واحدة فى الإرهاب والذود عن الفتونة، وتساءل الليثى:
وبعد ؟

فقال زقلط
ينبغى أن أرجع إلى الناظر آالهد بيننا.
لأول مرة فى مصر
النص الكامل لرائعة نجيب محفوظ .. أولاد حارتنا
بعد 35 عاما من غياها عن الشعب المصرى
***

31

قال زقلط:
-يا حضرة الناظر ، قتل آل حمدان فتوهم قدرة.
ورآز بصره فى الناظر ، ولكنه آان يرى فى الوقت نفسه هدى هانم إلى يمينه وجبل إلى يمينها، وبدا أن الأفندى لم يفجأه الخبر، إذ قال:
بلغتنى أنباء عن اختفائه ولكن هل يئستم حقا من العثور عليه ؟-.
قال زقلط وآان نور الضحى الذى يقتحم باب البهو يؤآد سماجة ملامحه
لن يُعثر عليه ، وأنا خبير هذه المكائد
فقالت هدى بعصبية وهى تلحظ وجه جبل الذى راح ينظر إلى الجدار المواجه له
لو صح أنه قتل لكان ذاك حدثا خطيرًا-. .
فقال زقلط وهو يشد على أصابعه المتشابكة
ويقضىَ عقابا شاملاً أو قولوا علينا وعليكم السلام
فلعبت أصابع الأفندى بحبات مسبحته وقال
إنه يمثل هيبتنا!
فقال زقلط بترآيز مقصود
ويمثل الوقف آله!
وخرج جبل من صمته قائلا
لعلها جريمة مزعومة لم تقع ؟

واندفع الغضب فى صدر زقلط لدى سماعه صوت جبل فقال

لا ينبغى أن نضيع الوقت فى الكلام-. .

هات دليلاً على مقتله

فقال الأفندى بلهجة اصطنع لها القوة ليخفى ماوراءها من ارتياب

لا يختفى أحد من أبناء حارتنا على هذا النحو إلا أن آان قُتل!

و لم تفلح زفرات الخريف الرطيبة فى تلطيف هذا الجو المشحون بالنوايا الدموية فهتف زقلط

الجريمة تنادينا بصوت سوف تسمعه الحوارى المجاورة وما الكلام لإلا مضيعة الوقت.

لكن جبل قال باصرار:

رجال حمدان فى بيوتهم مسجونون!

فضحك زقلط بصوته دون وجهه وقال ساخرًا

فزروة حلوة!

ثم وهو يستريح فى مجلسه ويتحدان بنظرة نافذة

لا يهمك إلا تبرئة أهلك!

ومع أن جبل بذل جهدًا صادقًا لشكم غضبه إلا أن صوته احتد وهو يقول

الأسباب وأحيانا بلا سبب ، وما همك الآن إلا الحصول على إذن لإحداث مذبحة فى-.

قوم مسالمين

يهمنى الحق، إنكم تعتدون لأوهى

وتبدى الحقد فى عينى زقلط وهو يقول:

أهلك مجرمون ، قتلوا قدرة وهو يدافع عن الوقف

فالتفت جبل نحو الأفندى وقال

ياسيدى الناظر لاتسمح لهذا الرجل بإشباع شراهته الدموية

فقال الأفندى

إذا ضاعت هيبتنا ضاعت حياتنا!

وتساءلت هدى وه تنظر نحو جبل

أتريد أن ندفن أحيا فى حارتنا ؟

فقال زقلط بحنق

إنك تنسى فضل أصحاب الفضل عليك وتذآر المجرمين

وارتفعت موجة الغضب فى صدر جبل حتى قلقلت جذور إرادته فقال بصوت شديد

-ليسوا مجرمين وإن غصت حارتنا بالمجرمين!

قبضت يد هدى بشدة على طرف شالها الأزرق، وتحرآت فتحتا أنف الأفندى وقد عبرت وجهه صفرة، فتشجع زقلط بهذه المظاهر وقال بحقد ساخر:

لك عذر فى دفاعك عن المجرمين ما دمت منهم-. .

تهجمك على المجرمين شئ لايصدق ، وأنت شيخ الإجرام فى حارتنا

قام زقلط قومة عنيفة وقد أربد وجهه وقال

لولا مكانتك عند آل هذا البيت لأخرجتك من مجلسك على أجزاء ،

فقال جبل بهدوء مخيف يشف عما تحته

أنت واهم يا زقلط

وصاح الأفندى

أتجرؤون على هذا أمامى ؟

فقال زقلط بخبث

إنى أناطحه دفاعًا عن هيبتك

فأوشكت أصابع الأفندى أن تفتك بالمسبحة، وخاطب جبل بشدة قائلا

لا أسمح لك بالدفاع عن حمدان-. .

هذا الرجل يفترى الكذب عليهم لغاية سوء فى نفسه

دع هذا لتقديرى أنا

وساد الصمت هنيهة ترامت من الحديقة زقزقة لاهية، وتعالت فى الحارة موجة تهليل صاخبة يتخللها سباب فاحش،

وابتسم زقلط قائلا:

أيأذن لى حضرة الناظر فى تأديب الجناة؟

أيقنل جبل أن ساعة المنايا قد دنت فالتفت نحو الهانم وقال يائسا

سيدى ، سأجد نفسى مضطرًا إلى الانضمام إلى أهلى فى سجنهم لألقى معهم مصيرهم

فهتفت هدى فى عصبية ظاهرة

-يالخيبة رجائى!

فتأثر جبل حتى انحنى رأسه، ودفعه شعور مرهف إلى أن ينظر نحو زقلط فرأه يبتسم ابتسامة شماتة آريهة فانطبقت شفتاه فى حنق، ثم قال فى أسى:

لا خيار لى ، ولن أنسى صنيعك معى ما حييت

فحدجه الأفندى بنظرة قاسية وسأله

يجب أن أعرف إن آنت معنا أم علينا ؟

فقال جبل بحزن وهو يشعر بأنه فى الترع الأخير من حياته الراهنة

ما أنا إلا ربيب نعمتك فلا يمكن أن أآون عليك، ولكن من العار أن أترك أهلى يبادون وأنا أنعم بظلك

وقالت هدى وهى تتلوى من انفعال الأزمة التى قمدد أمومتها

يا معلم زقلط فلنؤجل الحديث إلى وقت أخر

فقط زقلط آأنما رآب على وجهه حافر بغل، ونقل عينيه بين الأفندى وزوجته ثم تمتم

لا أدرى ماذا يحدث غدًا فى الحارة؟

فتجنب الأفندى النظر إلى هدى وتساءل

أجبنى يا جبل أأنت معنا أم علينا ؟

وتمادت موجة الغضب به حتى بلغت قمة رأسه فهتف دون ان ينتظر الجواب

فإما أن تبقى معنا آواحد منا وإما أن تذهب إلى أهلك!

وثار جبل وخاصة وهو يلحظ أثر هذا القول فى صفحة وجه زقلط فقال بعزم

يا سيدى إنك تطردنى وإنى ذاهب

وهتفت هدى بصوت معذب

جبل!

وهتف زقلط ساخرًا

-أمامكم الرجل آما ولدته أمه.

وضاق جبل بمجلسه، فقام ، ثم سار بخطوات ثابتة نحو باب البهو ، ووقفت هدى ولكن ذراع الأفندى حالت دون تحرآها، وسرعان ما اختفى جبل ، وفى الخارج هبت ريح تحرآت بها الستائر واصطفت مصاريع نوافذ، وامتلأ جو البهو بتوتر وانقباض،

وقال زقلط بهدوء:

ينبغى أن نعمل-. .

ولكن هدى قالت باصرارا وعصبية ينذران بالعناد

من فوز ، ورفع إلى

الناظر عينا متساله

آلا ، حسبهم الآن الحصار ، وحذار أن يُمس جبل بشر، لم يغب زقلك إذ أنه لم يهضم بعد ما أحرز

فقال الأفندى وهو يبدو آمن يتمسس ليمونه:

-سنعود إلى الحديث مرة أخرى.

32

ألقى جبل نظرة وداع على الحديقة والمنظرة فتذآر مأساة أدهم التى ترويها الرباب آل مساء ، واتجه نحو الباب فوقف له البواب وهو يتساءل:

ماذا يدوعوك إلى الخروج ثانية ياسيدى ؟

فقال جبل بامتعاض

إنى ذاهب بلا عودة ياعم حسنين.

ففغر الرجل فاه وجعل ينظر إليه مليا فى انزعاج ثم غمغم متسائلا:

بسبب آل حمدان ؟

فأحنى جبل رأسه صامتا، فعاد البواب يقول

من يصدق هذا ؟ آيف تسمح به الهانم؟ يارب السماوات وآيف تعيش يابنى ظفعبر جبل عتبة الباب مرسلاً بصره إلى الحارة المكتظة بالناس والحيوان والقاذورات وهو يقول

آما يعيش أهل حارتنا-! .

لم تخلق لهذا

فابتسم جبل ابتسامة ذاهلة وقال

إنما الصدفة وحدها التى انتشلتنى منه-. .

ومضى يبتعد عن البيت وصوت البواب يحذره فى حسرة من التعرض إلى غضب الفتوات

وامتدت أمام عينيه الحارة بأتربتها ودوابها وقططها وغلمانها وجحورها فأدرك مدى الانقلاب الذى جرى على حياته، ما ينتظره

من متاعب، وماخشره من نعيم ، لكن غضبه غطى على آلامه فبدا وآأنه لايبالى بالأزهار والعصافير والأمومة الحانية، ومر فى سبيله بالفتوة حمودة فقال هذا بسخرية ملساء.

ليتك تعيرنا قوتك لنؤدب بها آل حمدان

فلم يعره التفاتا وقصد ربعا آبيرا من ربوع حمدان وطرقه، وإذا بحمودة يلحق به ويسأله فى دهشة واستنكار

ماذا تريد ؟

فأجابه فى هدوء

-إنى أعود إلى أهلى.

وارتسمت الدهشة فى عينى حمودة الضيقتين وبدا أنه لا يصدق ما سمع، ورأهما زقلط وهو يغادر بيت الناظر متجها نحو مسكنه فصاح بحمودة:

-دعه يدخل، وإذا خرج بعد ذلك أدفنه حيا.

فزايلت حمودة دهشة وابتسم ابتسامة بلهاء متشفية، ومضى جبل يطرق الباب حتى فتحت نوافذ فى الربع وفى البوع الملاصقة وأطلت رؤوس آثيرة من بينها حمدان وعتريس وضلمة وعلى فوانيس وعبدون ورضوان الشاعر وتمر حنة، وتساءل ضلمة ساخرًت:

ماذا تريد يا ابن الأآابر ؟

وسأله حمدان

معنا أم علينا ؟

فصاح حمودة

طردوه فعاد إلى أصله القذر!

فتساءل حمدان بلهفة

طردوك حقا ؟

فقال جبل بهدوء

افتح الباب يا عم حمدان

وزغردت تمر حنة ثم صاحت

آان أبوك رجلاً طيبا وأمك امرأة شريفة

فضحك حمودة قائلا

مبارآة عليك شهادة الزانية

فصاحت تمر حنة غاضبة
-اسم الله على أمك ولياليها الملاح عند حمام السلطان.
وأسرعت بإغلاق النافذة فصلت الحجر المنطلق من يد حمودة الضلفة من الخارج محدثا دويا هلل له الصبية فى الأرآان، وفتح باب الربع فدخل جبل مستقبلا جوًا رطبا وهواء غريب الرائحة، واستقبله أهله بالعناق واختلطت الكلمات الطيبات، ولكن قطع الترحيب عليهم جعجعة شجار أتية من أقصى الحوش فنظر جبل فرأى دعبس مشتبكا فى شد وجذب مع رجل يدعى آعبلها، فمضى نحوهما ودفع نفسه بينهما وهو يقول بحدة:
تتشاجران وهم يحبسوننا فى بيوتنا!
فقال دعبس خلال أنفاسه المضطربة
سرق البطاطة من حلة على نافذتى
وصاح آعبلها
هل رأيتنى وأنا أسرق ؟ حرام عليك يا دعبس!
فصاح جبل غاضبا
لفنرحم أنفسنا آى يرحمنا من فى السماء!
فكن دعبس قال باصرار
بطاطتى فى بطنة وسأستخرجها بيدى
فقال آعبلها وهو يعيد طاقيته إلى رأسه
والله ما ذقت البطاطة من أسبوع.
أنت اللص الوحيد فى هذا الربع
فقال جبل:
لا تقض بلا دليل آما يفعل زقلط معكم
فصاح دعبس
لابد من تأديب ابن الخطافة
فصرخ آعبلها
-يادعبس يا ابن بياعة الفجل!
وثب دعبس على آعبلها فنطحه فترنح آعبلها وسال الدم من جبينه، وراح يكيل له الضربات غير مبال بزجر الواقفين حتى غضب جبل فانقض عليه وقبض على عنقه بشدة وعبثا حاول دعبس أن يتخلص من قبضة جبل فقال بصوت مبحوح:

-أتريد أن تقتلني آما قتلت قدرة ؟

فدفعه جبل بقوة فارتمى على الجدار وراح يحدق فيه بحنق وغيظ وردد الرجال أبصارهم بين الرجلين، وتسساءلوا أجبل حقًا الذى قتل قدرة؟ وقبله ضلمة، وصاح عتريس " : فلتحل بك البرآة يا خير آل حمدان " ، وقال جبل لدعبس حانقا:

لم أقتله إلا دفاعا عنك!

فقال دعبس بصوت منخفض

لكن استحليت القتل

فصاح ضلمة

يا لك من جاحد يا دعبس، أخجل من نفسك يا رجل

ثم وهو يجذب جبل من ذراعه

ستنزل ضيفا على فى شقتى .. تعال يا سيد حمدان-. !

طاوع جبل يد ضلمة لكنه شعر بأن الهاوية التى انفتحت اليوم تحت قدميه لا قرار لها

وهمس متسائلا فى أذنه وهما يسيران معا:

ألا يوجد سبيل إلى الهرب ؟

فقال ضلمة باستنكار

اتخاف يا جبل أن يشى بك أحد إلى أعدائك ؟-.

دعبس أحمق-.

نعم أحمق-!

نعم ولكنه ليس بالنذل-!

أخاف أن يثبت عليكم التهمة بسببى

فقال ضلمة بثقة

سأدلك على طريق الهرب إذا أردته، ولكن أين تقصد ؟

الخلاء واسع لا يحيط به خاطر

33

لم يتيسر الفرار لجبل إلا فى الهزيع الخير من الليل، جعل ينتقل من سطح إلى سطح فى هأة الليل، وفى رعاية النوم

المترفق بالأجفان حتى وجد نفسه فى الجمالية، ومضى رغم الظلام الحالك نحو الدراسة ثم مال نحو الخلاء، متجها نحو صخرة هند وقدرة، فلما بلغها على ضوء النجوم الخافت لم يعد بوسعه أن يغالب النوم من فرط ما نال منه الأعياء والسهر، فاستلقى على الرمال ملتفعا بعباءته وغط فى النوم وفتح عينيه مع أول شعاع يضء أعلى الصخرة، فقام من فوره آى يصل إلى الجبل قبل أن يعبر الخلاء عابر ، لكنه انجذب نحو البقعة التى دفن فيها قدرة قبل أن يهم بالسير ارتعدت فرائصه وهو ينظر إليها حتى جف ريقه ثم فر بنفسه وهو فى ضيق شديد، ما قتل إلا مجرما، لكنه بدا آالمطارد وهو يبتعد عن قبره وقال لنفسه " : لم نخلق لنقتل وإن فاق عدد قتلانا الحصر " وعجب لنفسه آيف أنه لم يجد مكانا ينام فيه إلا المكان الذى دفن فيه قتيله، وشعر برغبته فى الابتعاد تتضاعف، وأن عليه أن يودع إلى الأبد من يحب ومن يكره على السواء، أمه وحمدان والفتوات إلى الأبد . وبلغ سفح المقطم ونفسه تفيض بالأسى والوحشة فسار معه نحو الجنوب حتى بلغ سوق المقطم وسط الضحى ، وألقى نظرة طويلة إلى الخلاء وراءه ، وقال فى شئ من الاطمئنان " : الأن بعد ما بيى وبينهم " ، وراح يتفحص

سوق المقطم أمامه، ذلك الميدان الصغير الذى تصب فيه جملة حوارى من جميع نواحيه، وتتساعد من جنباته ضوضاء عالية تختلط فيها أصوات الأدميين بنهيق الحمير، وآان ثمة ما يدل على مولد يقام لإزدحام الميدان بالمارة والباعة والمجذوبين والدراويش والمهرجين، رغم أن حرآة المولد الحقيقية لا تبدأ قبل الغروب، فقلقت عيناه بين أمواج البشر المتلاطمة، ورأى عند حافة الخلاء آوخا من الصفائح صنعت حوله مقاعد خشبية فبدا على حقارته أصلح مقهى فى السوق وأحفله بالزبائن، فاتجه نحو مقعد خال وجلس بجسم اشتد حنينه إلى الراحة، وأقبل نحوه صاحب الكوخ محتفلا بمظهره المتميز بين الجلوس بعباءة فاخرة وعمامة عالية ومرآوب ثمين فطلب قدح شاى وراح يتسلى بمتاعبة الناس، ومالبث أن جذب سمعه ضوضاء، اشتدت حول آشك حنفية مياه عمومية، رأى الناس يتزاحمون أمامها ليملأوا أوعيتهم بالماء، وآان التزاحم آالقتال عنفا وضحايا، فارتفع الصخب وتهاوت اللعنات، ثم ندت صرخات رفيعة حادة من الوسط عن فتاتين غرقتا فى لجة الزحام وراحتا تتراجعان لتنجوا بنفسيهما حتى خرجتا من المعترك بصفيحتين فارغتين، بدتا فى جلبابين فاقعى الألوان ينسدلان على جسميهما من العنق حتى الكعبين، فلم يظهر منهما إلا وجهان يزهر فيهما الشباب، مرت عيناه باقصرهما دون توقف ، ثم ثبتتا على الأخرى ذات العينين السوداتين فلم تتحولا عنها، أقبلتا نحو مكان خال قريب من مجلسه فتبين فى ملامحهما شبها أخويا على تميز جاذبته بقسط أوفر من الحس، فقال جبل لنفسه منتشيا " : ما أبدع هذه الملامحة، لم تقع عينى على مثلها فى حارتنا " ، وقفتا تسويان ما تشعث من شعريهما وتعيدان لخمار إلى رأسيهما، ثم وضعتا الصفيحتين مقلوبتين وجلستا عليهما، والقصيرة تقول مشتكية:

آيف نملأ الصفيحة فى هذا الزحام ؟

فقالت جاذبته:

المولد أجارك الله ! وأبونا ينتظر غاضبا!
فدخل جبل فى الحديث دون وعى منه متسائلا
لماذا لم يحضر بنفسه ليملأ الصفيحتين
فالتفتتا نحوه باحتجاج، ولكن منظره المتميز لم يخل من أثر مسكن فاآتفت فتاته بأن قالت
ما شأنك أنت ! هل شكونا إليك ؟
فسر جبل بخطابها وقال معتذرًا
أردت أن أقول أن الرجل أقدر على اقتحام زحام المولد-. !
هذا عملنا ، وله عمل أشق
فتساءل مبتسما
ماذا يعمل أبوك ؟-.
هذا ليس من شأنك
وقام جبل غير مبال بالأعين المحدقة حوله، حتى وقف أمامهما وقال بأدب
سأملأ لكما الصفيحتين
فقالت جاذبته وهى تدير عنه وجهها
لسنا فى حاجة إليك!
ولكن القصيرة قالت بجرأة
-افعل ولك الشكر.
وقامت وهى تشد الأخرى لتقوم معها، فتناول جبل الصفيحتين من مقبضيهما، وسار بجسمه القوى يشق الزحام ويرتطم بالرجال ويلاقى الجهد، حتى بلغ الحنفية التى يجلس وراءها الساقى فى آشكه الخشبى، فنقده مليمين ، وملأ الصفيحتين وعاد بهما نحو موقف الفتاتين وأزعجه أن يجد الفتاتين مشتبكتين مع بعض الشبان فى معرآة آلامية بسبب معاآستهم لهما، فوضع الصفيحتين على الأرض وتصدى للشبان مهددًا، وتحرش به أحدهم ولكنه صرعه بضربة فى صدره فتجمع الشبان للهجوم عليه وهم يسبونه، غير أن صوتا غريبا صاح بهم:
-أذهبوا يا شين الرجال.
اتجهت الأبصار نحو رجل آهل، قصير مدمج الجمس، براق العينين، يشد جلبابه على وسطه بحزام فهتفوا خجلين " : المعلم البلقيطى " وسرعان ما تفرقوا وهم يرمقون جبل بحنق، ولاذت الفتاتان بالرجل القصير تقول:
اليوم عسير بسبب المولد وهؤلاء الأوغاد.

فقال البلقيطى يجيبها وهو يتفحص جبل
تذآرت المولد لتأخيرآما فجئت ، جئت فى الوقت المناسب
ثم خاطب جبل قائلا
وأنت من أهل الشهامة وما أندرهم فى أيامنا!
فقال جبل فى حياء
-ما هى إلا مساعدة تافهة لاتستحق شكرًا.
وفى أثناء ذلك حملت الفتاتان الصفيحتين وغادرتا المكان صامتتين . ود جبل أن يملأ من المليحة عينيه ولكنه لم يجرؤ على نزعهما من عينى البلقيطى الحادتين، خيل إليه أن هذا الرجل يستطيع أن يرى الأعماق فخشى أن يقرأ رغائبه ولكن المعلم قال:
-دفعت عنهما الأشرار، أمثالك يستحقون الحب، وهؤلاء الشبان آيف تجرأوا على التحرش بابنتى البلقيطى؟ أنها البوظة! ألم تلحظ أنهم سكارى ؟
فهز جبل رأسه نفيًا فقال الآخر:
إنى أشم آالجن الأحمر، ما علينا ألا تعرفنى ؟-.
آلا يا معلم، لم يحصل لى هذا الشرف
فقال بثقة
إذن فأنت لست من هذه الناحية-. .
بلى-.
أنا البلقيطى الحاوى
وأاء وجه جبل بنور التذآر المباغت فقال
-حصل لنا الشرف ، آثيرون يعرفونك فى حارتنا.
وما حارتكم ؟-.
حارة الجبلاوى
فرفع البلقيطى حاجبيه الخفيفين الأبيضين وقال بصوت منغوم
أنعم وأآرم، منذا الذى يجهل الجبلاوى صاحب الوقف؟ أو فتوتكم زقلط ! وهل جئت للمولد يامعلم؟-.
جبل
ثم قال بمكر

-جئت أبحث عن مقام جديد.

هجرت حارتك ؟-.

نعم

فاشتد تفحص البلقيطى له ثم قال:

مادام يوجد فتوات فلا بد أن يوجد مهاجرون ! ولكن خبرنى اقتلت رجلاً أم امرأة ؟

فانقبض قلب جبل وقال بثبات

مزاحك ليس لطيفا لمثلك!

فضحك البلقيطى عن فم خرب وقال

السرقة، فمثلك لا يهاجر من حارته إلا بسب القتل!

فقال جبل بحدة وضيق

لست من الرعاع الذين يعبث بهم الفتوات، ولا أنت من أهل

قلت لك.

فقاطعه قائلا

ياسيدى أنا لا يهمنى أن تكون قاتلا خاصة بعد أن ثبتت لى شهامتك ما من رجل هنا إلا وقد سرق أو نهب أو قتلن ولكن-.

تطمئن إلى صدق قولى فإنى أدعوك إلى فنجان قهوة ونفسين فى دارى

فعاود الأمل جبل وقال:

حبا وشرفا

سارا جنبا إلى جنب يخترقان السوق نحو حارة قلة، وعندما خلفا الزحام ورأهما سأله البلقيطى

أآنت تقصد أحدا فى حيننا؟

لا أعرف أحدًا

ولا مأوى ؟-.

ولا مأوى

فقال البلقيطى فى انبساط

فرقص قلب جبل فرحا وقال

ما أنبلك يا معلم بلقيطى
فقال الرجل ضاحكا
آن ضيفى إذا شئت حتى تجد لنفسك مأوى.
لا تعجب لذلك ، فى دارى تقيم الثعابين والحيات فكيف تضيق عن إنسان؟ هل أفزعك قولى؟ إنى حاوْ وستعرف عندى-.
آيف تستأنس الثعابين
عبرا الحارة فانتهيا إلى خلاء لايحد، ورأى جبل فى مطلع الخلاء دار صغيرة بعيدة عن الحارة، جدرانها أحجار غير مطلية، لكنها تعتبر جديدة بالقياس إلى بيوت حارة قلة المتداعية، فأشار البلقيطى إليها وقال بفخار:
-بيت البلقيطى الحاوى.

34

ولما بلغا البيت قال البلقيطى:
-اخترت هذا المكان المنعزل لبيتى لأن الناس لا يرون فى الحاوى إلا ثعبانا آبيرًا.
دخلا معا إلى دهليز غير قصير يفضى فى نهايته إلى حجرة مغلقة، على حين قامت على الجانبين حجرتان مغلقتان، وأردف البلقيطى وهو يشير إلى الحجرة المواجهة للداخل:
هذه الحجرة توجد أدوات العمل، الحى منها والجامد، لاتخش شيئا فبابها محكم الإغلاق، أوآد لك ان الثعابين أصلح-! للمعاشرة من أناس آثيرين، آالذين فررت منهم مثلا
ثم ضحك آاشفا عن فيه الخرب وقال:
الناس تخاف الثعابين، حتى الفتوات تخافها، أما انا فأدين لها برزقى، وبفضلها أقمت هذا البيت
وأشار إلى الحجرة اليمنى وهو يقول
ماتت أمهما من زمن تارآة إياى لشيخوخة لا تصلح للزواج من جديد) ثم أشار إلى اليسرى (وهنا سننام-.
معًا
هنا تنام ابنتاى،
وترامى صوت الفتاة القصيرة من سلم جانبى يصعد إلى السطح وهى تنادى:
شفيقة، ساعدينى فى العسل ولا تقفى هكذا آالحجر بلا عمل
فصاح البلقيطى

-يا سيدة ! صوتك سيوقظ الثعابين، وأنت يا شفيقة لا تقفى آالحجر ! اسمها شفيقة ! ما أبدع المليحة ! وزجرها غير الجارح

، والشكر الصامت فى عينيها السوداوين، من يخبرها بأنه ما قبل هذه الضيافة الخطيرة إلا من أجل عينيها ؟

ودفع البلقيطى باب الحجرة اليسرى وأوسع لجبل حتى دخل ثم تبعه ورد الباب ومضى الرجل إلى آنبه تمتد بطول الحجرة الصغيرة فى جانبها الأيمن، متأبطا ذراع جبل حتى جلسا معًا، وأحاط جبل الحجرة بنظرة واحدة، فرأى فراشا فى الجانب الآخر مغطى ببطانية ترابية اللون، وفى ارض الحجرة فيما بين الفراش والكنبة حصيرة مزرآشة تتوسطها صينية نحاس حال لونها من آثرة البقع، ويرقد وسطها موقد هرمى الرماد ، مرآونة إلى قائمة جوزة ، وعلى مسطح حافته سيخ وآماشة وحفنة من معسل جاف، ولم يكن يرى من النافذة الوحيدة المفتوحة إلا الخلاء والسماء الشاحبة وجدار شاهق داآن عن بعد من جدران المقطم، على حين ورد منها خلال الصمت المخيم زعيق راعية ونسايم مشبعة بحرارة الشمس الساطعة، وآان البلقيطى يتفحصه لحد المضايقة، ففكر فى أن يشغله عن نفسه بالحديث ، ولكن السقف فوقهما اهتز لوقع أقدام تمشى فوق السطح فاهتز قلب جبل، تخيل أول ما تخيل قدميها ففاض قلبه برغبة آريمة فى أن تحل السعادة بالبيت ولو انطلقت ثعابينه، وقال لنفسه " : قد يغتالنى هذا الرجل ويدفننى فى الخلاء آما دفنت قدرة دون أن تدرى فتاتى إنى ضحيتها هى."

وأيقظه صوت البلقيطى وهو يسأله:

هل لك عمل ؟

فأجابه وهو يتذآر أخر نقود يملكها فى جيبه

-سأجد عملاً ، أى عمل.

لعلك فى غير حاجة عاجلة إلى عمل ؟

فداخله شئ من القلق لهذا السؤال وقال

بل يحسن بى أن أبحث عن عمل اليوم قبل الغد-! !

لك جسم فتوات-!

لكنى أآره العدوان

فضحك البلقيطى وتساءل

ماذا آنت تعمل فى الحارة ؟

فتردد قليلاً ثم قال

-آنت أعمل فى إدارة الوقف.

ياخبر أسود ، وآيف تهجر هذا النعيم ؟

حظى

هل طمعت عينك فى إحدى الهوانم ؟-.

اتق الله يا شيخ-.

إنك شديد الحذر، ولكنك ستانس إلى سريعا وتفضى لى بكل أسرارك

إن شاء الله

معك نقود ؟

فعاوده القلق ولكنه لم يكشف عنه، وقال ببراءة

عندى قليل منها لن يغنى عن السعى

قال البلقيطى وهو يرمش

أنت ذآى آالعفاريت، ألا تدرى إنك تصلح حاويا ؟ لعلنا نتعاون معا ، لا تدهش لقولى، فإنى عجوز فى حاجة إلى المعين

لم يأخذ قوله مأخد الجد ولكنه آان مدفوعا برغبة عميقة إلى توثيق صلته به، وهم بأن يتكلم ولكن الآخر بادره قائلا

سنفكر فى ذلك على مهل ، أما الآن-. ..

ونهض الرجل، ومال فوق الموقد فرفعه ، ومضى به خارجا آأنما ليشعله

وقبيل العصر خرج الرجلان معا، فمضى البلقيطى إلى تجواله، وقصد جبل السوق للفرجة والتسوق، وعاد مع المساء إلى الخلاء، فاهتدى إلى البيت المنعزل على بصيص نور ينبعث من نافذة، ولما بلغ البيت ترامت إلى أذنيه أصوات محتدمة فى نقاش فلم يملك أن يصغى سمع سيدة تقول:

إن صح ما تقول يا أبى فإن وراءه جريمة، ونحن لا قبل لنا بفتوات الحارة

فقالت شفيقة

لايبدو أنه مجرم

فقال البلقيطى بسخرية واضحة

وهل عرفته لهذا الحد يا بنت الأفاعى ؟

فقالت سيدة

لماذا يهرب من النعيم ؟

فقالت شفيقة

من حارة أشتهرت بكثرة فتواتها!

فتساءلت سيدة بسخرية

ليس عجيبا أن يهرب الإنسان

من أين أتتك هذه القدرة على معرفة الغيب ؟

فقال البلقيطى متنهدًا

-معاشرة الثعابين جعلتنى أنجب حيتين!

-أتستضيفه يا أبى وأنت لا تدرى عنه شيئا ؟

لى عينان يعتمد عليهما عند الحاجة، ثم استضفه متأثرا بشهامته ولن أرجع عن-.

رأيى

عرفت عنه أشياء ، وساعرف آل شئ

-ما آان يتردد عن الذهاب فى غير هذا الظرف ألم يهجر بيت النعيم بلا تردد؟ ولكنه يذعن للقوة التى تشده إلى هذا البيت ..وطرف منه الفؤاد حتى سكر لسماع الصوت الذى دافع عنه صوت الحنان الذى بدد وحشة الليل والخلاء وجعل الهلال السابح فوق الجبل يبتسم آمن يزف بشرى فى الظلام ، ولبث ينتظر فى الظلام، ثم سعل، واقبل الباب فطرقه فتح الباب عن وجه البلقيطى الذى انعكس عليه ضوء المصباح فى يده، وذهب الرجلان إلى حجرهما، فجلس جبل بعد أن ترك فوق الصينية النحاس لفة جاء بها، ونظر البلقيطى إلى اللفة متسائلا فقال جبل:

تمر وجبن وحلاوة طحينية وطعمية ساخنة

فابتسم البلقيطى ، وجعل يشير إلى الجوزة تارة وإلى اللفة أخرى ويقول

خير الليل ما مضى بين هذا وذاك

وربت آتفه متوددًا وهو يتساءل

أليس آذلك يا ابن الواقف ؟

وانقبض قلبه على رغمة، وتوالت على مخيلته صور الهانم التى تبنته والحديقة الغناء باعراش الياسمين والعصافير والمياه الجارية، والطمأنينة والسلام والأحلام الناعمة . دنيا النعيم الزائلة، حتى أوشكت الحياة أن تفسد، وإذا بموجة تدفع ذآرياته الغارقة فى الآسى إلى بر الأمان، إلى هذه الصبية الودودة الطيبة إلى القوة الساحرة التى تشده إلى بيت فيه وآر للثعابين ، فقال بحماس غير متوقع آتوهج مصباح أثر هبة نسيم:

-ما أطيب الحياة فى جوارك يا عم.

35

لم يعطف عليه النوم إلا قبيل الفجر إذا عانى من الخوف آثيرًا .. وزارة طيفها فى هلوسة المخاوف آما تساقط أوراق الياسمين على حشائش جافة تسعى بينها الحشرات . آأبد الأوهام التى تلدها الظلماء فى البيت الغريب.

وقال لنفسه فى الظلام " : ما أنت إلا غريب فى بيت الثعابين، تطاردك جريمة ويهتز قلبك بالعشق " ، ولو ترك وشانه ما رغب

فى غير السلام والدعة، وما خاف الثعابين قدر خوفه الغدر من ناحية ذلك الرجل الذى يتعالى شخيره فى فراشه، فمن أدراه ان شخيره صادق؟ وما عاد يطمئن إلى صدق شئ، حتى دعبس المدين له بحياته ستذيع حماقته السر فيثور زقلط وتبكى امه وتندلع النيران فى الحارة التعيسة والحب الذى شده إلى هذا البيت، وإلى حجرة رفيقة مروض الثعابين، من أدراه أنه سيعيش حتى يصرح بمكنونه، هكذا لم يعطف عليه النوم إلا قبيل الفجر بعد أن عانى من الخوف آثيرًا.

وفتح عينيه المثقلتين عندما نضحت النافذة المغلقة بنور الصباح، رأى البلقيطى جالسا فى فراشه متقوس الظهر يدك بيديه المعروقتين ساقية وتحت إبطه وابتسم فى ارتياح رغم الدوخة الململة برأسه لقلة النوم، لعن الأوهام التى تعشش فى الرأس فى الظلام وتتبدد فى النور آالخفافيش، أليست أوهاما جديرة بسوء ظن قاتل؟ أجل، إن أسرتنا الجيدة تجرى فى دماها الجريمة منذ القدم، وسمع البلقيطى يتثاءب بصوت مرتفع متماوج آالحية الراقصة فهاج صدره وراح يسعل طويلاً بشدة حتى خيل إليه أن وجهه سيلفظ عينيه ، ولما سكت السعال تأوه الرجل من الأعمال فقال:

صباح الخير

وجلس على الكنبة فالتفت البلقيطى نحوه ووجهه مازال محتقنا من السعال وقال

-صباح الخير يا معلم جبل . يا من لم ينم من الليل إلا أقله.

لعل وجهى متغير ؟-!

بل أذآر تقلبك فى الظلام والتفاتات رأسك نحوى آالخائف-.

يا لك من ثعبان ! ولكن آن ثعبانا غير سام وحق العينين السوداوين-.

الحق أنى أرقت لتغيير مكان النوم

فضحك البلقيطى قائلا

أرقت لسبب واحد وهو أنك آنت تخافنى على نفسك، قلت سيقتلنى ويسلبنى نقودى ثم يدفنى فى الخلاء آما فعلت-.

أنا بالرجل الذى قتلته

أنت-! ..

اسمع ياجبل، الخوف شديد الإيذاء ، والثعبان لا يلدع إلا عند الخوف

قال جبل فى انهزام خفى
إنك تقرأ ما ليس فى الصدور.
أنك تعلم أننى ما جاوزت الحق يا موظف الوقف السابق
وترامى صوت من الداخل ينادى بقوة " : يا سيدة تعالى " فشعشع روحه بانبساط غير متوقع هذه الحمامة الزاجلة فى وآر الثعابين، التى فضت له بالباءة وجذبته إلى شجرة الآمال المورقفة . وقال البلقيطى وآأنه يعلق على نشاط شفيقة.
النشاط يدب فى بيتنا منذ الصباح الباآر ن فتنطلق هاتان البنتان إلى الطريق لتعودا بالماء والمدمس لتطعما أباهما العجوز-.
ثم ترسلاه بجراب الثعابين ليلتقط لنفسه ولهما الرزق
وحلت السكينة بقلبه، وشعر بأنه عضو فى هذه الأسرة ، وفاضت نفسه بالمودة، فنزع إلى فتح صدره والتسليم إلى مقاديره فى عفوية لا تقاوم فقال:
يا معلم ، بالحق سأقص عليك قصتى
فابتسم البلقيطى وتشاغل بتدليك ساقيه فعاد جبل يقول
إنى قاتل آما قلت، ولكن لى قصة
وقص عليه قصته، ولما فرغ قال الرجل
يا لهم من قوم ظالمين، أما أنت فرجل شهم و لم يخب نظرى فيك
واعتدف فى جلسته باعتزاز ثم قال
من حقك الآن أن أبادلك صراحة بصراحة، فاعلم أنى انتسب فى الأصل إلى حارة الجبلاوى-! .
أنت-!
نعم ، وفررت منها فى صدر الشباب ضيقا بفتواها
فقال جبل والدهشة لم تزايله بعد
هم شقاء حارتنا-. .
-نعم ، لكننا لا ننسى حارتنا رغم فتواها، ولذلك احببتك عندما عرفت أصلك
من اى حى آنت ؟-.
من حى حمدان مثلك
يا للعجب
لاتعجب لشئ فى هذه الدنيا ، فكنه تاريخ مضى من بعيد، فلا أحد يعرفنى الآن ولا تمر حنة نفسها التى تربطنى بها صلة قربى.

أعرف هذه السيدة الشجاعة، ولكن من آان غريمك من الفتوات ؟ زقلط ؟-.

لم يكن فى ذلك العهد إلا فتوة حى حقير-!

قلت هم شقاء جارانا-.

أبصق على الماضى بكل ما فيه

ثم بلهجة فيها إغراء

-اشغل نفسك منذ الساعة بمستقبلك، وها أنذا أآرر لك القول بأنك تصلح حاويًا ماهرًا، ولنا مجال مريح فى الجنوب من هنا بعيدا عن حارتنا، وعلى أى حال ففتواتكم واتباعهم لا يظهرون فى هذا الحى، لم يكن بطبيعة الحال يدرى شيئا عن فن الحواة ولكنه رحب به باعتباره الوسيلة التى ستلصقه بهذه الأسرة فتساءل بنبرات فضحت رضاه:

أترانى أصلح حقا لذلك ؟

فوثب الرجل إلى الأرض فى سرعة بهلوانية ووقف أمامه بجسمه القصير وقد آشف آاق جلبابه عن شعر آث أبيض وقال

أنت موافق ، لم يخب نظرى فى شئ قط

ومد له يده فتصافحا ثم قال الرجل

-أصارحك بأنى أحبك أآثر من أى ثعبان عندى.

فضحك جبل فى نشوة طفل، وشد على يد الرجل ليمنعه من الذهاب حتى وقف متسائلا ثم قال باندفاع لم تجد حيلة فى منعه:

يا معلم ، جبل يطلب القرب منك

فابتسمت عينا البلقيطى المحمرتان وتساءل

حقا ؟-.

نعم ورب السماوات

فضحك البلقيطى ضحكة قائلا

آنت أتساءل متى يا ترى يفاتحنى فى ذلك ! نعم يا جبل فلست أحمق، ولكنك الرجل الذى أعهد إليه بابنتى مطمئنا،-!

ومن حسن الحظ أن سيدة فتاة ممتازة آما آانت المرحومة أمها

واعترى ابتسامة االابتهاك فى فم جبل ارتباك غير خاف آما يعترى أطراف الزهرة اليانعة الذبول، وخاف أن يتبدد حلمه بعد أن صار فى قبضته وغمغم:

لكن.

فقهقه البلقيطى قائلا

لكنك تطلب شفيقة ! اعلم هذا يا ابن والدى ، اخبرتنى به عيناك وحديث الصغيرة ومعاشرة الثعابين والحيات فلا تؤاخذنى-. فهذه هى طريقة الحواة فيما يعقدون من اتفاقات

تنهد جبل من صميم القلب، وشعر ببرد الطمائنينة والسلام ، ووثبت بصدره مشاعر فتوة وحماس وانطلاق حتى بيت النعيم لم يعد يبالى به، ولا الجاه المولى، ولم يعد يخاف ما ينتظره من آد ومرمطة، فليسدل على الماطى ستارًا لا ينضح بضوء، وليبتلع النسيان آافة المتاعب والآلام الماضية، وليبتلع فيما يبتلع حنان القلب إلى الأمومة الضائعة.

فى الضحى زغردت سيدة.

وسرى النبأ السعيد فى الحوارى المجاورة.

ثم شهد سوق المقطم وحيه زفة جبل.

36

قال البلقيطى بلهجة انتقاد ساخرة:

لا يجمل رالرجل أن يرآن إلى حياة الأرنب والديك-! !

وها أنت لم تتعلم شيئا وأوشكت نقودك أن تفرغ

آانا يجلسان على فروة أمام باب الدار، وآان جبل يمد ساقيه على الرمال المشمسة تلوح فى عينيه الغبطة والدعة

فالتفت إلى حميه وقال باسما:

عاش أبونا أدهم ثم مات وهو يتمنى الحياة البرية اللاهية فى الحديقة الغناء!

فضحك البلقيطى ضحكة مرتفعة ونادى بأعلى صوت

ياشفيقة ! أدريكى زوجك قبل أن يقتله الكسل-. .

فظهرت شفيقة على عتبة الباب وهى تنقى عدسا فى طبق على يدها، وقد لفت رأسها بخمار أرجوانى أآد صفاء وجهها

وتساءلت دون أن ترفع عينيها عن الطبق:

ما له يا أبى ؟-.

يتمنى شيئين : رضاك وحياة بلا عمل

فضحكت متسائلة فى إنكار

وآيف يجمع بين إرضائى وقتلى جوعا ؟

فقال جبل

هذا سر الحاوى!

فلكزه البلقيطى فى جنبه قائلا

-لا تستهن بأشفق المهن، آيف تخفى بيضة فى جيب متفرج وتستخرجها من جيب آخر فى الصف الذى يقابله ؟ آيف تحول البلى إلى آتاآيت؟ آيف ترقص الحية ؟

فقالت شفيقة التى بدت منورة بالسعادة:

علمه يا أبى ، أنه لم يعرف من الحياة إلا الجلوس على مقعد ويثير فى إدارة الوقف.

فقام البلقيطى وهو يقول " : جاء وقت العمل " ، ثم دخل البيت وراح جبل يتأمل زوجه بإعجاب ويقول:

زوجة زقلط دونك فى الملاحة ألف درجة لكنها تقطع النهار على أريكة ناعمة، والأصيل فى الحديقة تستنشق عبير الفل-. وتلهو بالمياه الجارية

فقالت بسخرية ومرارة معا:

هذا حال المتخمين بأرزاق الناس

فهرش جانب رأسه متفكرا وقال

-ولكن هناك سبيلاً إلى السعادة الشاملة.

لا تحلم ، لم تكن حالما عندما نهضت للأخذ بيدى فى السوق، ولم تكن حالما عندما طردت عنى ذباب البشر ، ولذلك-. دخلت قلبى

فاشتاق أن يقبلها، ولم يهون من قيمة آلامها اقتناعه بأنه يعرف أآثر منها / وقال:

أما أنا فأحببتك دون ما سبب.

فى هذه الحوارى من حارتنا لا يحلم إلا المجانين

ماذا تريدين منى يا حلوة ؟-.

أن تكون مثل أبى

فتساءل معاتبا

وهذه الحلاوة تقطر منك ما شأنها ؟-.

فانفرجت شفتاها عن ابتسامة وأسرعت أصابع يدها بين حبات العدس

عندما فررت من الحارة آنت أشقى الناس جميعا، ولكن لولا ذلك ما تزوجتك!

فضحكت قائلة

نحن مدينان فى سعادتنا لفتوات حارتك آما يدين ابى فى رزقه للحيات والثعابين

فتنهد جبل قائلا

ومع ذلك فقد أمن خير من عرفته حارتنا من أبنائها بأنه يوجد سبيل يكفل الرزق للناس وهم فى الحدائق يفنون-. .

رجعنا ! ها هو أبى قادما بجرابه ، قم رعاك الله

وجاء البلقيطى بجرابه وقام جبل ومضى الاثنان فى طريقهما المعهود، وجعل البلقيطى يقول له

بعقلك ، انظر ماذا أفعل ولا تسألنى أمام أحد من الناس ، واصبر حتى أوضح لك ما يغمض عليك-.

فهمه

تعلم بعينيك آما تتعلم

ووجد جبل الحرفة شاقة حقا ولكنه لم يستهن بها من أول الأمر ووطن نفسه على الحذق فيها مهما آلفه الجهد، والواقع أنه لم يكن أمامه من مهنة أخرى إلا أن يرضة بمهنة بائع جوال أو الفتوة أو اللصوصية وقطع الطرق ، لم تكن الحوارى فى حيه الجديد لتختلف عن حارته فى شئ عدا الوقف والقصص التى نشأت حوله ، وقد رسبت فى قرارة نفسه حسرة متخلفة من أحلام الماضى وذآريات المجد الغابر والأمل التى يتعذب بسببها آل حمدان آما تعذب أدهم من قبل، وآان مصمما على النسيان بالقاء نفسه فى خضم الحياة الجديدة وتقبلها وفتح الصدر لها، واللواذ بزوجه المحبة المحبوبة آلما خطر له خاطر حزن أن هوان فى تجواله، وتفوق على أحزانه وذآرياته وبربع فى تعليمه حتى أدهش البلقيطى نفسه، وآان يواصل التدريب فى الخلاء ويعمل من النهار والليل، وتمضى الأيام والأسابيع والأشهر فلا تهن له عزيمة ولا يدرآه الكلال ، وقد عرف الحوارى والزقة، واستأنس الثعابين والحيات ولعب أمام آلاف الصبية ، وذاق حلاوة النجاح والربح، وتلقى بشرة الأبوة المقبلة.

واستلقى على ظهره يرعى النجوم حين الراحة، وسهر الليالى يتجاذب مع البلقيطى الجوزة ويقص القصص التى آانت ترويها الرباب بقهوة حمدان، وتساءل من حين إلى حين أين الجبلاوى، وإذا اشفقت شفيقة من أن يفسد عليه الماضى حياته هتف بها إلى هؤلاء ينتسب الشئ الذى فى بطنك، وآل حمدان آله، والأفندى رأس الاغتصاب آما أن زقلط رأس الإرهاب، فكيف تطيب الحياة وبها أمثال أولئك ؟

وبما آان يعرض ألاعيبه فى زينهم وسط حلقة محكمة من الصغار ولاحت منه التفاته فرأى أمامه دعبس وقد شق سبيله إلى الصف الأمامى وراح يحملق فيه بذهول . اضطرب جبل وتجنب النظر إلى وجهه ولم يعد بمستطاعه أن يواصل عمله فأنهاه رغم احتجاج الصغار، ورفع جرابه ومضى.

وما لبث أن لحق به دعبس وهو يصيح:

جبل ! هذا أنت يا جبل!

فتوقف عن السير ملتفتا إليه وقال

نعم ، ماذا جاء بك يا دعبس ؟
ولم يفق دعبس من دهشته وجعل يقول
جبل حاوى ! متى تعلمت هذا وأين ؟-.
فقال جبل باستهانة
-ليس هذا بأعجب ما يقع فى هذه الدنيا.
وسار جبل والآخر يتبعه حتى بلغا سفح الجبل ثم جلسا فى ظل نتوء ، ولم يكن بالمكان إلا أغنام ترعى وراح جلس عاريا يفلى جلبابه وتفرس دعبس فى وجه صاحبه وقال:
لماذ هربت يا جبل ؟ آيف ساء ظنك بى حتى توقعت أن أخونك ؟ الأفندى أم زقلط ؟ فليحرقهم رب السماوات جميعا، آم-.
سألوا عنك آثيرا، وآنت أسمعهم يسألون فأغرق فى عرقى
فسأله جبل باهتمام:
خبرنى آيف تعرض نفسه للانتقام بالتسلل من ربعك ؟
فلوح دعبس بيده فى استهانة قائلا
-رفع الحصار عنا من زمن، لم يعد أحد يسأل اليوم عن قدره أو قاتلة، ويقال إن هدى هانم هى التى أنقذتنا من الموت جوعا، ولكن قضى علينا بالذل إلى الأبد، لا مقهى لنا ولا آرامة، نسعى فى أعمالنا بعيدا عن حارتنا، وإذا عدنا توارينا وراء الجدران، وإذا عثر على أحدنا فتوة عبث به صفعا أو بصقا، إن تراب حارتنا اليوم أآرم عليهم منا يا جبل .. ما أسعدك فى غربتك.
فقال جبل بامتعاض:
دع سعادتى وشأنها وخبرنى ألم يصب أحد بسوء ؟
فقال دعبس وهو يتناول طوبة ويضرب بها الأرض
قتلوا منا عشرة فى عهد الحصار-! !
يارب السماوات-!
ذهبوا فداء لقدره الحقير ابن الحقيرة، ولكنهم ليسوا من أصحابنا
فقال جبل بحنق
ألم يكونوا من آل حمدان يا دعبس ؟
فرمش دعبس حياء وتحرآت شفتاه بعذر غير مسموع فعاد جبل يقول

-والآخرون ينعمون بالصفع والبصق ؟

وشعر الرجل بأنه مسئول عن الأرواح التى زهقت، وعصر الألم قلبه ووجد ندما داميا على آل لحظة سلام مرت به منذ هجرته.

ودهمه دعبس بقوله:

لعلك الوحيد السعيد اليوم من آل حمدان

فهتف

لم لأآف يوما عن التفكير فيكم-. .

لكنك بعيد عن الهم والغم

فقال بحدة

لم أفك من الماضى قط-. .

لا تبدد راحة بالك بلا أمل، لم يعد لنا أمل

فردد جبل قوله الأخير ولكن فى نبرات غامضة

- لم يعد لنا أمل!

فرمقه دعبس باهتمام مستطلعا ولكنه لم ينبس احتراما للحزن المرسوم على وجهه، ونظر إلى الأرض فرأى خنفساء تدب مسرعة حتى اختفت تحت آومة احجار، وآان الراعى ينفض جلبابه ليغطى جسده الذى ألهبته الشمس، وعاد جبل يقول:

-فى الحق لم أآن سعيدًا إلا فى الظاهر.

فقال مجاملاً:

إنك تستحق السعادة عن جدارة.

تزوجت واتخذت لنفسى عملا جديدا آما ترى وما برح نداء خفى يلح فى إقلاق منامى

-فليبارك الله ، أين تقيم ؟

لم يجيبه، وبدا وآانه يخاطب نفسه ، ثم قال

-لا تطيب الحياة وبها أمثال أولئك الأوغاد.

-صدقت ، ولكن آيف التخلص منهم ؟

ارتفع صوت الراعى وهو ينادى أغنامه، ويسير نحوها متأبطًا عصاه الطويلة، ثم ترامى عنه لحن غناء غير واضح، وتساءل دعبس:

آيف أستطيع أن ألقاك ؟-.

سل عن بيت البلقيطى الحاوى عند سوق المقطم ولكم اآتم خبرى إلى حين-.
ونهض دعبس فشد على يده ومضى الآخر يتابعه بعينين محزونتين

37

أوشك الليل أن ينتصف، وآادت حارة الجبلاوى تغرق فى الظلمة لولا أضواء وانية تتسلل من أبواب المقاهى الموارية اتقاء للبرد، و لم يلح فى سماء الشتاء نجم واحد وتوارى الغلمان فى الحجرات، وحتى الكلام والقطط أوت إلى الأفنية، ومن خلال الصمت الشامل انبعثت أنغام الرباب الرتيبة تردد الحكايات، أما حى حمدان فقد تلفع بظلمة خرساء، وجاء شبحان من ناحية الخلاء، فسارا تحت سور البيت الكبير، ثم مرا أمام بيت الأفندى قاصدين حى حمدان، حتى وقفا أمام الربع الأوسط وطرق أحدهما الباب، فرن الطرق فى الصمت مثل قرع الطبول، وفتح الباب عن وجه حمدان نفسه الذى بدا شاحبا على ضوء سراج بيده، ورفع السراج ليتبين وجه الطارق، وما عتم أن هتف فى دهشة:

-جبل!

وتنحى عن الباب فدخل جبل حاملاً بقجة آبيرة وجرابا، وتبعته زوجه حاملة بقجة أخرى، وتعانق الرجلان، وألقى حمدان نظرة سريعة على المرأة فلمح بطنها، وقال:

-زوجتك ! أهلا بكما ، اتبعانى على مهل.

اخترقوا دهليزا طويلا مسقوفا حتى بلغوا الحوش الواسع غير المسقوف، ثم مالوا إلى السلم الضيق ورقوا فيه حتى مسكن حمدان، وادخلت شفيقة إلى الحريم، ومضى حمدان بجبل إلى حجرة واسعة متصلة بشرفة مطلة على حوش الربع، وما لبث خبر عودة جبل أن ذاع فأقبل آثيرون من رجال حمدان على رأسهم دعبس وعتريس وضلمة وفوانيس ورضوان الشاعر وعبدون، فصافحوا جبل بحرارة ، وجلسوا فى الجحرة على الشلت يتطلعون إلى العائد باهتمام وحب استطلاع ، وتتابعت الأسئلة على جبل فقص عليهم طرفا من حياته الأخيرة، وتبادلوا نظرات الأسى ، ورأى جبل أن أرواحهم المضعضعة تنعكس على أجسادهم المهزولة وأن الفناء يدب فى الأوصال، وقصوا عليه ما يلقون من هوان ، فقال دعبس أنه اخبره بكل شئ فى لقاء أتفق لهما منذ شهر، وأنه لذلك يعجب لما جاء به، وسأله ساخرا:

أجت لتدعونا للهجرة إلى مقامك الجديد ؟

فقال جبل بحدة

لا مقام لنا إلا هنا!

وجذب الأسماع فى صوته نبرة قوية حتى لاح الاستطلاع فى عينى حمدان وقال

-ولو آانوا ثعابين لما استعصى عليك ردعهم.
ودخلت تمر حنة باقداح الشاى فحيت جبل تحية حارة، واثنت على زوجه وتنبأت له بأنه سيجب ذآرًا ولكنها قالت مستدرآة :
- لم يعد من فارق بين رجالنا ونسائنا.
ونهرها حمدان وهى تغادر الحجرة، ولكن أعين الرجال عكست اقتناعا ذليلا بقولها، وتكاثفت سحب الأحزان المخيمة على المجلس فلم يذق أحد للشاى طعما وتساءل رضوان الشاعر:
لماذا عدت يا جبل وأنت لم تألف الإهانة ؟
فقال حمدان بصوت ينم عن الانتصار

فقال جبل بقوة
قلت لكم مرارًا ان الصبر على ما نلقى خير من التسكع بين غرباء سيكرهوننا.
ليس الأمر آما ترى
وهز حمدان رأسه دون أن ينبس فساد صمت حتى قال دعبس
يا جماعة فلنترآه ليستريح
ولكنه أشار لهم بالبقاء، وقال
-ما جئت لأستريح ولكن لأحدثكم فى شأن خطير، أخطر مما تتصورون!
وتطلعت إليه الأعين بدهشة وغمغم رضوان متمنيا الخير فيما سيسمع، أما جبل فراح يقلب فى الوجوه عينيه القويتين ، ثم قال:
آان بوسعى أن أمضى العمر آله فى أسرتى الجديدة دون تفكير فى العودة إلى حارتنا
وصمت مليا ثم عاد يقول
بقدمى-.
تقودانني إلى البقعة المشرفة على حارتنا، ولم أآن دنوت منها منذ هروبى
لكنه حدث منذ أيام معدودة ان شعرت برغبة فى المشى وحدى رغم البرد والظلام، فخرجت إلى الخلاء، وإذا تجلى الاهتمام فى العين فواصل الرجل حديثه قائلا:
-مضيت فى تجوالى فى ظلام دامس، فحتى النجوم توارت وراء السحب، وما أدرى إلا وأنا أوشك أن أصطدم بشبح هائل، توهمته أول الأمر أحد الفتوات، ولكنه بدا لى شخصا ليس آمثله أحد فى حارتنا ولا فى الناس جميعا، طويلا عريضا آأنه

جبل، فامتلأت رهبة وهممت بالتراجع وإذا به يقول بصوت عجيب " : قف يا جبل " ، فتسمرت فى مكانى وسألته وجلدى ينضح بالخوف : من؟ من أنت ؟

وتوقف جبل عن الحديث فمالت الرؤوس إلى الأمام فى اهتمام، وتساءل ضلمة:

من حارتنا ؟

ولكن عتريس قال بسرعة معترضا

قال أنه ليس آمثله أحد فى حارتنا ولا فى الناس جميعا

ولكن جبل قال

بل أنه من حارتنا!

وتساءلوا عن هويته جميعا فقال جبل

وقال حمدان

قال لى بصوت عجيب " : لا تخف أنا جدك الجبلاوى " ، وارتفعت صيحات الدهشة من الجميع ورمقوه بنظرات الارتياب.

إنك تهزر دون شك-! .

بل أقول الحق دون زيادة ولا نقصان

فساله فوانيس

ألم تكن مسطولا ؟

فصاح جبل بغضب

إن السطل لم يذهب بعقلى قط

فقال عتريس

له لطشات لا تعرف عزيزا وخصوصا الأصناف الجيدة.

فتبدى الغضب فى وجه جبل آالسحاب المظلم وصاح:

سمعته بأذنى ، وهو يقول لى " : لا تخف أنا جدك الجبلاوى-. ."

فقال حمدان برقة ليسكن غضبه

لكنه لم يغادر بيته من زمن ولم يره أحد-. !

لعله يخرج آل ليلة دون أن يدرى أحد

فعاد حمدان يتساءل فى حذر

لكن أحدًا غيرك لم يصادفه!

صادفته أنا

-لاتغضب يا جبل فما قصدت التشكيك فى صدقك، ولكن الوهم خداع، بالله خبرنى إذا آان الرجل يستطيع الخروج من بيته،

فلماذا نزل عن النظارة لغيره؟ ولماذا يترآهم يعبثون بحقوق أبنائه ؟

فقال جبل مقطبا:

هذا سره وهو به أعلم-. .

إن ما قيل عن اعتزاله لكبره وعجزه أقرب إلى العقول

فقال دعبس

إننا نتخبط بين الأقاويل، دعونا نسمع القصة إن آان لها بقية

فقال جبل

-قلت له : لم أحلم أن اقابلك فى هذه الحياة فقال : ها أنت ذا تقابلنى وحددت بصرى لأتبين وجهه المرتفع فى الظلام فقال لى : لن تستطيع رؤيتى مادام الظلام، فقلت بذهول لرؤيته محاولة رؤيتى له : لكنه ترانى فى الظلام، فقال : إنى أرى فى الظلام منذ أعتدت التجوال يل قبل أن توجد الحارة فقلت بأعجاب : الحمد لرب السماوات على أنك ما زلت تتمتع بصحتك، فقال : أنت يا جبل ممن يرآن إليهك، وأى ذلك إنك هجرت النعيم غضبا لأسرتك المظلومة، وما أسرتك إلا أسرتى،

وهم لهم فى وقفى حق يجب أن يأخذوه، ولهم آرامة يجب أن تصان، وحياة يجب أن تكون جميلة فسألته فى فورة حماس أضاءت الظلام : وآيف السبيل إلى ذلك ؟ فقال بالقوة تهزمون البغى، وتأخذون الحق ، وتحيون الحياة الطيبة، فهتفت من اعماق قلبى : سنكون أقوياء، فقال : وسيكون النجاح حليفك.

وترك صوت جبل وراءه صمتا آالحلم بدوا فيه جميعا مسحورين.

آانوا يفكرون ويتبادلون النظرات ثم يتجهون بأعينهم إلى حمدان حتى خرج عن الصمت قائلا:

لنتدبر هذه الحكاية بعقولنا وقلوبنا!

فقال دعبس بقوة

إنها لا تبدو وهما من أوهام السطل وآل ما تتضمنه حق

فقال ضلمة بإيمان

لن تكون وهما إلا إذا آانت حقوقنا وهما!
فتساءل حمدان فى شئ من التردد
ألم أسأله ، ولم يكن بوسعى أن أسأله ، أنت لم تلقه فى الخلاء ولا الضلمة ولم تستشعر الرهبة فى حضرته، ولو وقع-.
لك ذلك ما فكرت فى مناقشة الحساب ولا داخلك الشك فى أمره
فهز حمدان رأسه فيما يشبه التلسليم وقال:
هذا آلام خليق بالجبلاوى حقا، ولكن ما أخلقه بأن ينفذه بنفسه ؟
فصاح دعبس
انتظروا حتى تموتوا فى هوانكم!
فتنحنح رضوان الشاعر وقال وهو ينظر بحذر فى الوجوه
آلامه جميل ولكن فكروا فيما يجرنا إليه
فقال حمدان بحزن
ذهبنا مرة نستجدى بعض حقنا فكان ما آان
وإذا بعبدون الصغير يصيح
علام نخاف وليس هناك أسوأ مما نحن فيه ؟
فقال حمدان آالمعتذر
لست أخاف على نفسى ولكنى أخاف عليكم
فقال جبل بازدراء
سأذهب إلى الناظر وحدى-. .
فقال دعبس وهو يتزحزح مقتربا من مجلسه
ونحن معك ، لا تنسوا أن الجبلاوى وعده بالنجاح!
فقال جبل
سأذهب وحدى عندما أقرر الذهاب ، ولكننى أريد أن اطمئن إلى أنكم ستكونون ورائى وحدة متماسكة خليقة بمواجهة-.
الشدة والصمود لها
ووثب عبدون واقفا فى حماس وهتف:
-وراءك حتى الموت!
وانتقل حماس الغلام إلى دعبس وعتريس وضلمة وفوانيس وتساءل رضوان الشاعر بشئ من المكر أن آانت زوجة جبل

تدرى بما جاء زوجها من أجله فقص جبل عليهم آيف أنه أفضى بسره إلى البلقيطى ، وآيف نصحه الرجل بتقدير العواقب وآيف أصر على العودة إلى حارته، وآيف اختارت زوجه أن تسير معه إلى النهاية.

وعند ذاك قال حمدان بصوت أنبأ بأنه مع الآخرين:

ومتى تذهب إلى الناظر ؟

فأجاب جبل

عندما تنضج خطتى

فقام حمدان وهو يقول

ما وراءها، ولعل الرباب ترويها غدا موصولة بقصة أدهم،-!

هلموا نتعاهد على الخير والشر

سأدبر لك مقاما فى مسكنى، إنك أعز الأبناء، وهذه ليلة لها

عند ذاك تصاعد صوت حمودة الفتوة العائد مع الفجر، وهو يغنى بلسان مخمور مترنح:

ياواد يا سكرى تشرب تنجلى وتخش الحارة تتطوح تترمى وعاملى فنجر وتمز بجنبرى

فلم يؤخذا بصوته إلا لحظة ، ثم مدوا أيديهم للتعاقد فى حماس ورجاء.

38

وعلمت الحارة بعودة جبل، رأته يسير بجرابه ورأت زوجته وهى تسعى إلى الجمالية لابتياع حوائجها، وتحدثوا عن مهنته الجديدة التى لم يسبقه غليها أحد من أبناء الحارة، على أنه آان يعرض ألاعيبه الحرية فى الأحياء المجاورة دون حارته، وتجنب استعمال الثعابين فى ألاعيبه، فلم يفطن أحد إلى أنه بها خبير، ومر ببيت الناظر مرات وآأنما لم يطرقه فى حياته وهو يكابد فى أعماقه حنينا أليما إلى أمه، ورأه الفتات مثل حمودة والليثى وبرآات وأبو سريع فلم يصفعوه آما يفعلون مع غيره من آل حمدان، ولكنهم عرضوا به وهزئوا بجرابه، وصادفه مرة زقلط فحدجة بنظرة قاسية، ثم اعترض سبيله متسائلا: :

أين آانت غيبتك ؟

فقال فى حلم

فى الأرض الواسعة

فقال الرجل متحرشا

إنى فتوتك ومن حقى أن أسألك عما أريد وعليك أن تجيب.

أجبتك بما عندى

وماذا عاد بك ؟

فقال فى هدوء

ما يعود بالإنسان إلى حارته!

فقال بصوت نم عن وعيد

-لو آنت فى مكانك ما عدت!

وسار فجأة بقوة، فكاد يرتطم به لولا أن تنحى جبل عن سبيله بسرعة، آاظما غيظه، وإذا بصوت بواب بيت الناظر يناديه، فالتفت جبل نحوه دهشا، ثم مشى إليه ، فالتقيا أمام البيت وتصافحا بحرارة، وجعل الرجل يسأله عن أحواله، ثم أخبره بأن الهانم تود رؤته، وآان جبل يتوقع هذه الدعوة منذ ظهوره فى الحارة، آان قلبه يحدثه بأنها أتية لا ريب فيها، ومن ناحيته لم يكن بوسعه أن يزور البيت للحال التى غادره عليها، وفضلا عن ذلك فقد قرر ألا يطلب المقابلة حتى لا يثير الشكوك حولها قبل أن تقع سواء فى نفس الناظر أم فى نفوس الفتوات، ولكنه ما آاد يدل البيت حتى جرى الخبر فى الحراة جميعا،

وألقى نظرة سريعة - عند مسيرة إلى السلاملك - على الحديقة على أشجار الجميز والتوت العالية وشجيرات الأزهار والورود التى تغطى الأرآان، وقد اختفى العبير التقليدى تحت قبضة الشتاء، وغشى الجو نور هادئ وديع آالأصيل آأنه يقطر من السحاب الأبيض المنتشر، وصعد السلم وهو يطرد عن قلبه بقوة أسراب الذآريات، ودخل البهو فرأى فى صدره الهانم وزوجها جالسين منتظرين، نظر إلى أمه فتلاقت نظرتاهما، وقامت المرأة لاستقباله فى تأثر شديد، فهوى على يديها يقبلها، ولثمت جبينه فى حنان، فاجتاحه فى موقفه شعور بالحب والسعادة ، والتفت رأسه إلى الناظر فرأه جالسا فى عباءته يطالعهما بعينين باردتين، فمد له يده فقام نصف قومه ليصافحه وسرعان ما جلس.

وجرت عينا هدى على جبل فى دهشة ممزوجة بانزعاج، وهو يبدو بجسمه الفارع فى جلباب خشن مشمرًا وسطه بحزام غليظ وفى قدميه مرآوب شبه بال، وعلى شعره الغزير طاقية عتماء، فتجلى فى عينيها الرثاء، وتحدثت عيناها - دون اللسان - فأبدت حزنها على مظهره وعلى ما راتضاه لنفسه من حياة، وآأنما آانت تطالع أملا باهرًا تهاوى إلى حطام، وأشارت له بالجلوس فجلس على مقعد قريب منها، وجلست هى فيما يشبه الإعياء، وأدرك ما يدور فى نفسها فحدثها بصوت قوى عن حياته فى سوق المقطم، وعن مهنته وزواجه، حدثها حديث الراضى عن تلك الحياة رغم خشونتها، والقانع بها، فامتعضت لقوله وقالت:

-لتكن حياتك ما تكون، ولكن آيف لم تجعل من بيتى أول بيت تقصده لدى عودتك إلى الحارة؟

آاد يقول لها أنه ليس لعودته إلى الحارة من هدف إلا بيتها، ولكنه اجل ذلك لأن اللحظة لم تكن مناسبة، ولأنه لم يفق بعد من تأثر اللقاء.

وأجاب قائلا:

-آان بيتك أمنيتى ولكنى لم أجد الشجاعة لاقتحامه بعد ما آان ، وإذا بالأفندى يسأله بصوت بارد:

ولماذا عدت ما دام العيش قد طالب لك فى الخارج؟

فندت عن الهانم نظرة عتاب نحو زوجها الذى تجاهلها، أما جبل فقال باسما

لعلى عدى ياسيدى طامعا فى لقياك!

فقالت هدى فى عتاب

و لم تزرنا حتى دعوناك يا جاحد ؟

فقال جبل وهو يخفض رأسه

ثقى يا سيدتى بانى آلما ذآرت الظروف التى اضطرتنى إلى مغادرة هذا البيت لعنتها من صميم قلبى

فحدجه الأفندى بنظرة مريبة وهم بسؤاله عما يعنى ولكن هدى سبقته قائلة

علمت بلا شك بعفونا عن آل حمدان غكراما لك!

وأدرك جبل أنه أن لهذا الموقف العائلة الطيب أن ينتهى آما قدر له من أول الأمر، وأنه أن للكفاح أن يبدأ فقال

الحق يا سيدتى أهم يعانون ذلا العن من الموت، وقد قتل منهم من قتل

فقبض الأفندى بشدة على مسبحته وهتف بحدة

فلوحت هدى بيدها فى رجاء وقالت

إنهم مجرمون ، وقد نالوا ما يستحقون.

فلننس الماضى آله

فقال الأفندى باصرار

ما آان يجوز أن يضيع دم قدره هدرًا

فقال له جبل بثبات

المجرمون حقا هم الفتوات

فوقف الأفندى فى عصبية ووجه الخطاب إلى زوجته قائلا فى لوم

أرأيت نتيجة إذعانى لك فى دعوته إلى بيتنا ؟

فقال جبل بصوت أفصحت نبراته عما وراءه من عزم

سيدى ، آان فى نيتى أن أجئ إليك على أى حال، لعل الاعتراف بالجميل الذى أآنه نحو البيت هو الذى جعلنى انتظر-.

حتى ادعى إليه

فرمقه الناظر بنظرة توجس وارتياب ثم ساله:

-ماذا تريد من مجيئك ؟

فوقف جبل مواجها الناظر فى شجاعة، وهو يدرك تماما أنه يفتح بابا ستهب منه العواصف جامحة، ولكنه آان يستمد من مقابلة الخلاء شجاعة لا تتزعزع ، قال:

جئت مطالبا بحقوق آل حمدان فى الوقف وفى الحياة الأمنة!

أسود وجه الأفندى من الغضب على حين فغرت الهانم فاهام من اليأس، وقال الرجل وهو يحدجة بنظرة محرقة

اتجرؤ حقا على معاودة هذا الحديث ؟ أنسيت أن المصائب تتابعت عليكم منذ جرؤ شيخكم المخرف على التقدم بهذه-.

المطالب الخرافية ؟اقسم على إنك جننت، ولست مطالبا بتضييع وقتى مع المجانين

وقالت هدى بصوت باك:

جبل ، آان فى نيتى أن ادعوك أنت وزجك للإقامة معنا

لكن جبل قال بصوت قوى

إنما رددت على مسامعك رغبة من لا تُرد له رغبة وهو جدك وجدنا الجبلاوى!

نظر الأفندى إلى جبل بامعان وتفرس وذهول، نهضت هدى جزعة فوضعت آفها على منكب جبل وهى تتساءل

جبل ، ماذا دهاك ؟

فقال جبل باسما

بخير يا سيدتى

فقال الأفندى فى ذهول

بخير ! أنت بخير ؟ ماذا حصل لعقلك ؟

فقال جبل بهدوء وسكينة

اسمع قصتى وأحكم بنفسك

وقص عليهما ما سبق أن قصه على آل حمدان، ولما فرغ من قصته قال الأفندى وآان يتفرس وجهه طوال الوقت بريبة

الوقف لم يغادر بيته قط منذ اعتزل

فقال جبل

لكنى قابلته فى الخلاء

فسأله متهكما

ولماذا لم يطلعنى أنا على رغباته ؟

فقال جبل

هذا سره وهو به أعلم

فضحك الأفندى ضحكة حانقة وقال

تقنع بألاعيب الحواة وإنما تطمع فى اللعب بالوقف آله!

فقال جبل دون أن يزايله هدوؤه

إنك حاو بحق وجدارة، ولكنك لا

علم الله إنى ما جاوزت الحق، فلنحتكم إلى الجبلاوى نفسه إن استطعت ، أو إلى شرطة العشرة

فانفجر غضب الأفندى ، أربد وجهه وارتعشت أطرافه وصاح

أيها اللص المحتال ! لن تنجو من مصيرك الأصود ولو اعتصمت بقمة الجبل

وهتفت هدى

يا للشقاء ! ما آنت أتوقع أن تجيئنى بهذه التعاسة آلها يا جبل.

فتساءل جبل فى عجب:

أيحدث هذا آله لا لشئ إلا لأننى طالبت بحق آلى المشروع ؟

فصرخ الأفندى باعلى صوته

اخرس يا محتال ، يا حشاش ، ياحارة حشاشين يا أولاد الكلبن اخرج من بيتى، وأن عدت إلى هذيانك قضيت على نفسك-.

وعلى أهلك بالذبح آالنعاج

فقطب جبل غاضبا وصاح:

احذر أن يحيق بك غضب الجبلاوى

فهجم الأفندى على جبل ولكمه فى صدره العريض بأقصى قوته ولكن جبل تلقاها بثبات وصبر، والتفت إلى الهانم قائلا

إنما اآرمه إآراما لك-. .

ثم ولى لهما ظهره وذهب

39

توقع آل حمدان أن شرًا داهمًا وخالفت تمر حنة الاجماع فظنت أنه ما دام جبل على رأس آل حمدان هذه المرة فلن تسمح الهانم بالقضاء عليه ، لكن جبل نفسه لم يؤمن بظن تمر حنة وأآد أنه إذا هدد الوقف طامع فلن يقاوم وزن لجبل ولا لأحد من الناس ولو آان أقربهم إلى الأفندى نفسه، وذآرهم جبل بوصية جدهم بان يكونا أقوياء وأن يصمدوا للملمات، ومضى دعبس يقول أن جبل آان يرفل فى النعيم وإنه ينبذه مختارًا إآراما لهم فلا يصح أن يخذله أحد، وأن التذرع بالقوة إذا لم ينفع فلن يدفع بهم إلى أسوأ مما هم فيه بحال، والحق آل حمدان استشعروا الخوف وتوترت منهم الأعصاب ، ولكنهم وجدوا فى اليأس قوة وعزيمة فكانوا يرددون المثل القائل " : لطابت لاتنين عور ." رضوان الشاعر وحده راح يقول متحسرًا : لو شاء

الوقف لأعلن آلة العدل وقضى لنا بالحق ونجانا من الهلاك المبين، وقد غضب جبل لما بلغه قوله، فقصده عابسا هائجا ثم هزه من منكبيه حتى آاد يقتلعه من مجلسه وصاح به : أهذا هو حال الشعراء يا رضوان؟ تروون حكايات الأبطال وتغنون على الرباب فإذا جد الجد تقهقرتم إلى الجحور وأشعتم التردد والهزيمة، ألا لعنة الله على الجبناء، والتفت إلى الجالسين قائلا : لم يكرم الجبلاوى حيا من أحياء هذه الحارة آما أآرمكم، ولو لم يكن يعتبرآم أسرته الخاصة مالا قانى ولا آلمنى، ولكنه نور السبيل ووعد بالتأديد، والله لأآافحن ولو آنت وحدى، لكن بدا أنه لم يكن وحده، أيده آل رجل، أيدته آل امرأة،

وانتظروا جميعا المحنة وآأنهم لايبالون بالعواقب، واحتل جبل مكان الزعامة فى حيه بطريقة عفوية أملتها الحداث دون قصد منه أو تدبير، ودون ممانعة من حمدان الذى ارتاح إلى تخيله عن موضع سيصير هدفا لهجوم لن يعرف مداه، ولم يقبع جبل فى الربع فخرج - مخالفا نصيحة حمدان - ليتجول آعادته، آان يتوقف شرًا عند آل خطوة ولكن أحدًا من الفتوات لم يتعرض له

بسوء، فعجب لذلك غاية العجيب، ولم يجد له من تفسير إلا أن يكون الأفندى قد آتم أنباء المقابةل على أمل ان يسكت هو أيضا عن مطالبه فينتهى الأمر وآأنه ما آان، وأشفق من أن ينتهى الأمر وآأنه ما آان، ورأى وراء هذه السياسة وجه الهانم المحزون وأمومتها الصادقة، وخاف أن يثبت حنانها أنه أقسى عليه من غلظة زوجها ، ففكر طويلا فيما ينبغى أن يفعل لينفض الرماد عن الجمر.

وجرت فى الحارة احداث غريبة، فذات يوم ترامت استغاثة امرأة من بدروم، وتبين أن ثعبانا زحف بين قدميها فخرجت تجرى إلى الطريق وتطوع الرجال للتفتيش عن الثعبان فدخلوا مسآآنهم بعصيهم وفتشوا عن الثعبان حتى عثروا عليه، فانهالوا عليه ضربا حتى قتلوه، وطرحوه على أرض الحارة فتلقفه الغلمان وراحوا يلعبون به مهللين، ولم يكن الحادث بالغريب فى الحارة ولكن لم تكد تمضى ساعة حتى ارتفعت صرخة استغاثة ثانية من بيت فى مطلع الحارة فيما يلى الجمالية . وما جثم الليل حتى تعالت ضجة فى ربوع حمدان، إذ رأى البعض ثعبانا ولكنه اختفى قبل أن يلحق به أحد، وضاعت جهود القوم

للعثور عليه، وعند ذاك تطوع جبل نفسه لاستخراجه مستعينا بالخبرة التى آتسبها عند البلقيطى ، وتحدث آل حمدان عن وقفة جبل عاريا فى الحوش، وعن لغته السرية التى خاطب بها الثعبان حتى جاءه طائعا وآادت تنسى تلك الأحداث مع صباح اليوم التالى لولا أن تكرر وقوعها فى بيوت أناس من ذوى الشأن، فقد ذاع ومل الأسماع أن ثعبانا لدغ حمودة الفتوة وهو يقطع دهليز الربع الذى يقيم فيه، فصرخ الرجل على رغمه حتى ادرآه أصحابه وأسعفوه، هنا انقلب الحادث احدوثة، وقال الناس فى الثعابين واعادوا، غير أن نشاط الثعابين العجيب لم يتوقف فقد راى بعض الصحاب فى غرزة الفتوة برآات ثعبانا بين عمد السقف، لاح نصف دقيقة ثم اختفى، فهبوا مذعورين وتقوض المجلس وغطت اخبار الثعابين على حكايات الشعراء فى المقاهى، وبدا أن نشاطها قد جاوز حدود الأدب إذ ظهر ثعبان ضخم فى بيت حضرة الناظرن ومع أن خدم البيت الكثيرين انتشروا فى أرآانه للتفتيش عن الثعبان المختفى إلا أهم لم يقفوا له على أثر، ورآب الخوف الناظر والهانم حتى فكرت جديا فى مغادرة البيت إلى أن تطمئن إلى خلوه من الثعابين، وبينما البيت مقلوب رأسا على عقب ترامى من بيت زقلط فتوة الحارة صراخ وضجة وذهب البواب ليستطلع الخبر ثم عاد ليخبر سيده بان ثعبانا لدغ أحد أبناء زقلط ثم اختفى، وتملك الخوف النفوس، وتتابعت الاستغاثات من الثعابين من آل ربع فصممت الهانم على مغادرة الحارة، وقال عم حسنين البواب إن جبل حاو وللحواة خبرة باصطياد الثعابين، وأآد أنه استخرج ثعبانا من أحد ربوع حمدان، وامتقع لون الأفندى و لم ينبس، أما الهانم فأمرت البواب بأن يستدعى جبل ، ونظر البواب إلى سيده مستأذنا، فغمغم الأفندى بكلمات حانقة دون أن يبين ، وخيرته الهانم بين دعوة جبل وبين مغادرة البيت فأذن للرجل بالذهاب وهو ينتفض حنقا وغضبا.

وتجخع آثيرون فيما بين بيتى الناظر والفتوة، وتوافد ذوو الشأن على بيت الناظر وفى مقدمتهم الفتوات، زقلط وحمودة وبرآات والليثى وأبو سريعن و لم يكن للمجتمعين من حديث إلا الثعابين، فقال أبو سريع:

لابد أن شيئا فى الجبل دفع بالثعابين إلى بيوتنا

فصاح زقلط وقد بدا وآأنه يقاتل نفسه لأنه لا يجد من يقاتله

-طول عمرنا جيران للجبل وما حصل منه شئ.

آان زقلط ثائرا لما أصاب ابنه، وآان حمودة ما يزال يعرج من إصابة ساقه ، على حين تملك الخوف الجميع فقالوا إن بيوهم لم تعد صالحة للمبيت ، وإن السكان تجمهروا فى الحارة.

وجاء جبل حاملا جرابه، فحيا الجميع، ووقف أمام الناظر والهانم فى أدب وثقة.

و لم يستطع الناظر أن ينظر إليه، أما الهانم فقالت له:

قيل لنا يا جبل إنك تستطيع استخراج الثعابين من بيوتنا ؟

قال جبل بهدوء

تعلمت ذلك فيما تعلمت يا صاحبة الفضل-. .

دعوتك لتطهر البيت من الثعابين

فنظر جبل إلى الأفندى متسائلا

هل يأذن لى حضرة الناظر ؟

فغمغم الناظر وهو يدارى حنقه وقهره

نعم

وهنا تقدم الليثى بإيحاء خفى من زقلط وسأله

وبيوتنا وبيوت الأخرين ؟

قال جبل

إن خبرتى تحت أمر الجميع

وارتفعت أصوات بالشكر، فأجال جبل عينيه الكبيرتين فى الوجوه مليا ثم قال

ولعلى فى غير حاجة إلى تذآريرآم بأن لكل شئ ثمنه آما تجرى المعاملات فى حارتنا!

فتطلع إليه الفتوات فى دهشة فقال

علام تدهشون ؟ إنكم تحمون الحياء نظير الإتاواتن وحضرة الناظر يدير الوقف نظير التصرف فى ريعه!

والظاهر أن حرج الموقف لم يسمع للأعين بالإفصاح عما فى الصدورن غير أن زقلط سأله

ماذا تطلب نظير عملك ؟

فقال بهدوء

-لن أطلب نقودًا، ولكن أطلب آلمة شرف باحترام آل حمدان فى آرامتهم وحقهم فى الوقف.

وساد الصمت فبدا أن الجو يتنفس بالحقد المكتوم ، وتضاعف قلق الهانم على حين أخفى الناظر عينيه فى الأرض، وعاد جبل يقول:

لا تظنوا أننى أتحداآم بما يليه عليكم الحق والعدل نحو غخوانكم المغلوبين على أمرهم ، عن الخوف الذى أخرجكم من-.

ديارآم ما هو إلا جرعة مما يتجرع إخوانكم آل يوم من أيام حياقم التعيسة

التمعت فى الأعين نظرات غضب سريعة آالبرق فى السحاب وسرعان ما اختفت تحت غيم الكظم غير أن أبو سريع صاح:

استطيع أن أتيكم بأحد الرفاعية ولو نبيت خارج بيوتنا يومين أو ثلاثة أيام حتى يحضر من قريته

فتساءلت الهانم

آيف لحارة بأآملها أن تبيت خارج بيوقما يومين أو ثلاثة ؟

وآان الأفندى يفكر بكل قواه مغالبا ما استطاع عواطف الغضب والحقد التى تستعر فى صدره، وإذا به يقول مخاطبا جبل

-إنى معطيك آلمة الشرف التى تطلب فأبدا عملك.

وذهل الفتوات غير أن الموقف لم يسمح لهم بإعلان ما فى نفوسهم ، وران على صدورهم هم قاتل، أما جبل فأمر الجميع بالابتعاد إلى أقصى الحديقة فخلا له المكان وابيت وتجرد من ثيابه فانقلب آيوم التقطته الهانم من الحفرة المترعة بمياه الأمطار، ومضى ينتقل من مكان إلى مكان، ومن حجرة إلى حجرة وهو يصفر صفيرًا خافتا تارة أو يغمغم بكلام غير مبين ، واقترب زقلط من الناظر وقال له:

إنه هو الذى بعث بالثعابين إلى بيوتنا

فأشار الناظر إليه بالسكوت وتمتم

-دعه يخرج ثعابينه.

وأذعن لجبل ثعبان آان مختفيا فى المنور، وأخرج أخر من حجرة إدارة الوقف، فلف الثعابين على ذراعه، وظهر بهما أمام السلاملك حيث أودعهما جرابه، وارتدى ملابسه ووقف ينتظر حتى جاء الجميع، فقال موجها خطابه لهم:

هلموا إلى بيوتكم لاطهرها . والتفت نحو الهانم وقال بصوت خافت:

لولا تعاسة أهلى ما اشترطت فى خدمتك شرطا قط

واقترب من الناظر فرفع يده تحية وقال بشجاعة

وعد الحر دين عليه-. .

ومضى خارجا والجميع يسير وراءه صامتا

40

وفق جبل فى تطهير الحارة من الثعابين على مرأى من جميع أهلها . وآان آلما أذعن له ثعبان تعالى الهتاف والزغاريد حتى باتت حديث الحارة من البيت الكبير إلى الجمالية، ولما فرغ من عمله ومضى إلى ربعه تجمع حوله الغلمان والشبان وراحوا يتغنون مصفقين:

جبل يا نصير المسآين

جبل يا قاهر الثعابين

وتواصل الغناء والتفصفيق حتى بعد ذهابه ، غير أنه آان لذلك رد فعل شديد فى أنفس الفتوات، فما لبث أن خرج للمتظاهرين حمودة والليثى وأبو سريع وبرآات، فانهالوا عليهم لعنا وسبًا وصفعا ورآلاً حتى تفرقوا لائذين بالبيوت، فلم يبق فى الطريق إلا الكلاب والقطط والذباب وتساءل الناس عن سر هذه الحملة، آيف يجزى الفتوات صنيع جبل بالاعتداء على

المتظاهرين من أجله، وهل يحافظ الأفندى على وعده لجبل أو تكون حملة الفتوات بداية لحملة انتقام عاتية؟ ودارت هذه الأسئلة برأس جبل فدعا رجال حمدان إلى الربع الذى يقيم فيه ليتدبروا الأمر معا، وآان زقلط مجتمعا فى ذات الوقت بالناظر وحرمه، وآان يقول باصرار والحنق يلتهمه:

-لن نبقى منهم على أحد . وبدأ الارتياح فى وجه الأفندى ، غير أن الهانم تساءلت:

وآلة الشرف التى أعطاها الناظر ؟

فعبس زقلط حتى انقلب وجهه أقبح من أى وجه أدمى وقال

فقالت بامتعاض

الناس يخضعون للقوة ولا للشرف.

-سيقولون فينا ويعيدون.

فليقولوا ما حلا لهم ، حتى سكتوا عنكم أو عنا؟ إن الغرز تضج آل ليلة بالقفش والتنكيت علينا، ولكن إذا خرجنا إلى الطريق وقفوا خاشعين ، وهم يخشعون بنظرة ممتعضة وقال

-ذلك، فمن ذا الذى يطالب باحترام آلمة أعطيت

لمحتال نصاب محتال ؟

جبل هو الذى دبر مؤامرة الثعابين ليملى علينا شروطه، آل أحد يعرف

وقال زقلط محذرا ووجه مازال متشبثا بقبحه:

تذآرى يا هانم أنه إذا نجح جبل فى استخلاص حق آل حمدان فى الوقف فلن يهدأ بال أحد فى الحارة حتى ينال حقه-.

أيضا، بذلك يضيع الوقف ونضيع جميعا

وقبض الأفندى على المسبحة فى يده بشدة حتى طقطت حباتها وهتف بزقلط:

-لا تبق على أحد منهم.

ودعى الفتوات إلى بيت زقلط ثم لحق بهم أعوانهم المقربون وذاع فى الحارة أن أمرًا خطيرًا يدبر لآل حمدان، فامتلأت النوافذ بالنشساء وازدحم الطريق بالرجال، وآان جبل قد أعد خطته، فاحتشد رجال حمدان فى حوش الربع الأوسط مدججين بالنبابيت ومقاطف الطوب على حين توزعت النساء فى الحجرات وفوق السطح، وآان لكل أحد منهم عمله المرسوم ، غير أن أى خطأ فى التنفيذ أو انقلاب فى التدبير لم يكن يعنى إلا هلاآهم إلى الأبد . لذلك اتخذوا أماآنهم حول جبل وهم فى غاية من التوتر والجزع، ولم تغب حالهم عن فطنة جبل فمضى يذآرهم بتأييد الواقف له ووعده للأقوياء بالنجاح، فوجد منهم قلوبا مصدقة، بعضها عن إيمان والبعض عن يأس، ومال الشاعر رضوان على أذن المعلم حمدان وقال

له:

أخف ألا تنجح خطتنا، والأوفق عندى أن نحكم إغلاق البوابة ونضرب من السطح والنوافذ!

فهز حمدان منكبيه امتعاضا وقال

إذن نقضى على أنفسنا بالحصار حتى نهلك جوعا!

وقصد حمدان جبل وسأله

أليس الأفضل أن نترك البوابة مفتوحة ؟

فقال جبل

-دعها آما هى وغلا شكوا فى الأمر.

وآانت ريح باردة تهب بشدة باعثة عواء، ورآضت السحب فى السماء آأنها مطاردة ، فتساءلوا هل ينهمل المطر؟ وترامت ضجة المتجمهرين فى الخارج حتى ابتلعت مواء القطط ونباح الكلاب، وهتفت تمر حنة محذرة : جاء الشيطان!

وحقا غادر زقلط بيته وسط هالة من الفتوات يتبعهم الأعوان، ومقابضهم على نبابيتهم ، ساروا على مهل حتى البيت الكبير، ثم عرجوا نحو حى حمدان فقابلهم المتجمهرون بالتهليل والهتاف، وآان المهللون الهاتفون أحزابا ، منهم قلة تبتهج للعراك وتتسلى بمشاهدة الدم المسفوك، ومنهم من يحقد على آل حمدان لإذلام بمكانة لم يعترف لهم بها أحد، وأآثرهم حانق على الفتونة والبغى فهو يبطن الكراهية ويظهر التأييد خوفا ونفاقا، ولم يلق زقلط إلى احد منهم بالأ، ومضى فى مسيره حتى وقف أمام ربع حمدان وصاح:

أن آان فيكم رجل فليخرج إلى!

فجاء صوت تمر حنة من وراء النافذة

اعطنا آلمة شرف جديدة حتى لا يغدر بالخارج غادر!

فغضب زقلط لتعريضها لكلمة الشرف وصاح

أليس عندك من مجيب غير هذه الزانية ؟

فصاحت تمر حنة

-الله يرحم أمك يا زقلط.

وصرخ زقلط امرًا رجاله بالهجوم على البوابة، وهجم على البوابة رجال ورمى آخرون النوافذ بالطوب حتى لا يجرؤ أحد على فتحها واستعماله فى الدفاع، وتكتل الهاجمون على البوابة وراحوا يدفعونها بمناآبهم بقوة وعزيمة، وواصلوا الدفع بشدة حتى أخذ الباب فى الاهتزاز.

واشتدت عزيمتهم حتى ارتج الباب وتخلخل، وتراجعوا متحفزين ثم اندفعوا نحوه بقوة وصكوه صكة واحدة فانفتح على

مصراعيه، وتراءى من خلال الدعليز الطويل الممتد وراء باب الحوش جبل ورجال حمدان وقد رفع الجميع نبابيتهم ، ولوح زقلط

بيده فى حرآة فاضحة واصلق ضحكة هازئة ، ثم اندفع إلى الدهليز ورجاله خلفه، وما آادوا يتوسطون الدهليز حتى مادت أرضه بهم بغتة وهوت بمن عليها إلى قاع حفرة عميقة، وفى سرعة مذهلة فتحت نوافذ الدور على جانبى الدهليز وانصبت المياه من الأآواز والحلل والطوشت والقرب، وتقدم رجال حمدان دون تردد ورموا الحفرة بمقاطف الطوب، ولأول مرة سمعت الحارة الصراخ يصدر عن فتواها، ورأت الدم يتفجر من رأس زقلط والنبابيت تتخطف رؤوس حمودة وبرآات والليثى وأبو سريع

وهم يتخبطون فى المياه المطينة ورأى الأعوان ما حال بفتواهم فلاذوا بالفرار، وترك الفتوات لمصيرهم دون معين، واشتد انصباب الماء والأحجار، وهاوت النبابيت بلا رحمة وترامت إلى الناس استغاثات ندت عن حناجر لم تألف طوال حياها غلا السب والقذف ، وآان رضوان الشاعر يهتف بأعلى صوته:

-لا تبقوا منهم على أحد.

واختلط المياه المطينة بالدم، وآان حمودة أول الهالكين، وعلا صراخ الليثى وأبو سريع، وتشبثت يدا زقلط بجدار الحفرة يريد أن يثب وقد تجلى الحقد فى عينيه وراح يغالب الإعياء والخور، ويزفر أنات آالخوار، فانهالت عليه النبابيت حتى هاوى إلى الوراء وتراخت يداه عن الجدار فسقط فى الماء وفى آل راحة من راحتيه قبضة من طين ! وساد الصمت الحفرة، ولم تند عنها حرآة ولا صوت واصطبغ سطحها بالطين والدم ، ووقف رجال حمدان ينظرون وهم يلهثون ، وتزاحم عند مدخل الدهليز

المتجمهرون وهم يرددون فى الحفرة نظرات ذاهلة، وصاح رضوان الشاعر:

-هذه عاقبة الظالمين.

وجرى الخبر فى الحارة آالنار ، وقال المتجمهرون إن جبل قد أهلك الفتوات آما أهلك الثعابين ! وهتف له الجميع باصوات آالرعد، ولفحهم الحماس فلم يبالوا بالريح الباردة، ونادوا به فتوة لحارة الجبلاوى، وطالبوا بجثث الفتوات ليمثلوا بها، وصفقت الأيدى وراح قوم يرقصون ولم ين جبل عن التفكير لحظة، وآان آل شئ مدبرا فى رأسه.

فصاح أهله:

-هلموا الساعة إلى بيت الناظر.

41

فى الدقائق التى سبقت خروج جبل وأهله من الربع تفجرات الأنفس عن براآين حامية.
غادرت النسوة البيوت منضمات إلى الرجال ، وهاجم الجميع بيوت الفتوات فاعتدى الأيدى والرجال على أهاليهم حتى فروا بأرواحهم وهم يتحسسون أقفيتهم وخدودهم مصعدين التأوهات سافحين الدموع ، أما البيوت فقد نهب آل ما فيها من أثاث وطعام ولباس وحطم آل قابل للتحطيم من أخشابها وزجاجها حتى انقلبت خرابا يبابا، وانطلقت الجموع الغاضبة نحو بيت الناظر فتكتلت أمام بوابته المغلقة وراحت تهتف وراء مناد منها بأصوات آالرعد:
هاتوا الناظر..
وإن ما جاش
ثم يختمون الهتاف بالتهليل الساخر الهازئ، واتجه البعض إلى البيت الكبير منادين جدهم الجبلاوى أن يخرج عن عزلته ليعالج ما فسد من أمورهم وأمور حارتهم، وراح أخرون يدقون بوابة الناظر بأآفهم ويدفعونها بمناآبهم محرضين المترددين المهيبين على اقتحامها، وفى تلك اللحظة المحرجة جاء جبل على رأس أهله نساء ورجالا يسيرون فى قوة وعزم بما أحرزوا من فوز مبين، وأوسعت الجموع لهم، وتعالى الهتاف والزغاريد حتى أشار جبل لهم بالسكوت، فأخذت أصواتهم تخفت رويدا رويدا حتى ساد الصمت وعاد عواء الريح يصك الأذان مرة أخرى.
ونظر جبل فى الوجوه المتطلعة إليه وقال:
يا أهل حارتنا أحييكم وأشكرآم
فارتفعت الأصوات بالهتاف ثانية حتى رفع يده مطالبا بالسكوت، ثم قال
لم يتم عملنا حتى تتفرقوا فى هدوء- .
فترامى إليه من حناجر شتى
نريد العدل يا سيد حارتنا- .
فقال بصوت سمعه الجميع
-اذهبوا فى هدوء ولسوف تتحقق إرادة الوقف.
وتعالى الهتاف للواقف ولأبنه جبل، ووقف جبل يحث بنظراته الجموع على الذهاب، وآانوا يودون لو يبقى فى أماآنهم ولكنهم لم يجدوا بدا أمام نظراته من التفرق فأخذوا يذهبون واحدا فى إثر واحد حتى خلا المكان منهم، عند ذاك مضى جبل إلى باب الناظر وطرقه صائحا:
افتح يا عم حسنين
فجاءه صوت الرجل المرتعد وهو يقول
الناس .. الناس.

لا أحد هنا غيرنا

وفتح الباب فدخل جبل، ودخل وراءه أهله واخترقوا الممر المعروش إلى السلاملك فرأوا الهانم واقفه أمام الباب البهو فى استسلام ، على حين بدأ الأفندى على عتبة الباب خافض الرأس شاحب الوجه، آأنه ملثم بكفن أبيض وندت عن الأفواه لدى رؤيته دمدمه فقالت هدى هانم متأوهه:

إنى بحال سيئة يا جبل

فأشار جبل نحو الأفندى بازدراء وقال

لو نجحت مكيدة هذا الرجل الفاقد الشرف لكنا الأن جميعنا جثثا ممزقة

فأجابت الهانم بتنهيدة مسموعة دون آلام، فحدج جبل الناظر بنظر قاسية وقال

ها أنت ترى نفسك ذليلاً بلا حول ولا قوة، لا فتوة يحميك ولا شجاعة تؤيدك، ولا مروءة تشفع لك، ولو شئت أن أخلى-.

بينك وبين أهل حارتنا لمزقوك إربا ولداسوك بالأقدام

ارتعدت فرائص الرجل وبدا وآأنه تقوص وضؤل غير أن الهانم تقدمت من جبل خطوة وقالت برجاء:

لا أحب أن أسمع منك غير ما عهدت من طيب الكلام، ونحن فى حال عصيبة تستحق من مروءتك الرحمة فى المعاملة

فقطب جبل ليدارى تأثره وقال

لولا مترلتك عندى لجرت الأمور بغير ما جرت به-. .

لا شك فى ذلك يا جبل، إنك رجل لا يخيب عنده الرجاء

فقال جبل متأسفا

ما آان أيسر أن يقوم العدل دون إراقة نقطة من الدم-. .

فندت عن الأفندى حرآة غامضة فضحت تخاذله وازداد انكماشا

فقالت الهانم:

قد آان ما آن، ولن تلقى منا إلا أذانا صاغية!

وبدا أن الناظر يريد أن يخرج من صمته بأى ثمن فقال بصوت ضعيف

-ثمة فرصة لإصلاح ما سلف من أخطاء.

أرفهت الآذان لسماع آلامه رغبة فى الاطلاع على حال الجبار إذا تخلى عنه جبروته وآانوا يرمقونه بتشف قليل وإنكار وحب استطلاع لا حد لهما ، وتشجع الأفندى بتغلبه على الصمت فقال:

تستطيع اليوم أن تحتل مكانة زقلط عن جدارة

فتجهم وجه جبل وقال بازدراء

ليست الفتونة مطلبى، فابحث لحمايتك عن غيرى، وما أريد إلا حقوق آل حمدان آاملة-. .

هى لكم دون نقصان، ولك إدارة الوقف إن شئت

فقالت هدى برجاء

آما آنت يا جبل من قبل

وهنا صاح دعبس من بين آل حمدان

ولم لا يكون الوقف آله لنا ؟

وسرت همهمة فى آل حمدان حتى أصفر وجه الناظر وزوجه حتى الموت، غير أن جبل قال بقوة غاضبة

باغتصاب حقوق الآخرين

فتساءل دعبس

أمرنى الواقف باسترداد حقكم لا

ومن أدراك أن الآخرين سيأخذون حقوقهم ؟

فصاح به جبل

لا شأن لك بذلك، وإنك لا تكره الظلم إلا إن وقع عليك!

فقالت الهانم بتأثر

نعم الرجل الأمين أنت يا جبل، ولشد ما أرجو أن تعود إلى بيتى

فقال جبل بتصميم

سأقيم فى ربوع حمدان-. .

إنها لا تليق بمقامك-.

عندما يجرى الخير بين أيدينا سنرفعها إلى مقام البيت الكبير، وتلك رغبة جدنا الجبلاوى

ورفع الناظر عينيه فى شئ من التردد إلى وجه جبل وقال

إن ما بدر اليوم من أهل الحارة يهدد أمننا

فقال جبل باحتقار

لا شان لى بما بينك وبينهم

وإذا بدعبس يقول

وإذا احترمت عهدنا فلن يجرؤ أحد منهم على تحديك!

فقال الناظر بحماس

سيسجل حقكم على رؤوس الأشهاد

وهنا قالت هدى برجاء

ستتناول عشاءك معى الليلة ، هذه رغبة أم!

وفطن جبل إلى ما ترمى إليه من إعلان المودة بينه وبين بيت الناظر، و لم يكن فى وسعه أن ينبذ رغبتها، فقال

-لك ما تشائين يا سيدتى.

42

وابيضت الأيام التالية بأفراح آل حمدان أو آل جبل آما باتوا يدعون ، فتحت قهوتهم أبوابها وتربع رضوان الشاعر على الأريكة يلعب بأوتار الرباب ، وجرت البوظة أنهارا وانعقدت فى سماء الحجرات سحب الحشيش ، ورقصت تمر حنة حتى انحل وسطها، و لم يبالوا بان يكشفوا عن قاتل قدرة، وصو لقاء الجبلاوى بجبل فى هالات من نور الخيال، وآانت تلك الأيام بالنسبة لجبل وشفيقة أطيب الأيام، وقد قال لها:

ما أجمل أن ندعو البلقيطى للإقامة معنا

فقالت وهى تعانى متاعب المخاض الوشيك

نعم آى يستقبل حفيده ببرآته

فقال الرجل ممتنا

أنت قدم السعد يا شفءيقة، وستجد سيدة زوجا آفؤا من آل حمدان-. .

قال آل جبل آما يقولون فإنك خير من عرف هذا الحى

فقال باسما

بل أدهم خيرنا جميعا، آم تمنى حياة النعيم حيث لا عمل للإنسان إلا الغناء، وسوف يتحقق لنا حلمه الكبير

وتراء دعبس وهو سكران يرقص فى جمع من آل جبل، فلما رأى جبل مقبلا لوح بنبوته جذلا وقال له-.

-إنك لا تبغى الفتونة، سأآون أنا الفتوة-.

فصاح به ليسمع الجميع

لا فتونة فى حمدان ، ولكن ينبغى أن يكونوا فتوات جميعا على من يطمع فيهم

ومضى الرجل إلى القهوة فتبعه الجميع وهم يترنحون من السكر، وآان جبل سعيدا فقال لهم

إنكم أحب أهل الحارة إلى جدآم ، فأنتم سادة الحارة دون منازع، ولذلك ينبغى أن يسود بنكم الحب والعدل والاحترام،-.
ولن ترتكب جريمة فى حيكم أبدًا

وترامى الطبل والغناء من بيوت حمدان، وأشرقت أنوار الأفراح فى حيهم، على حين غرقت الحارة فى ظلمتها المألوفة، وتجمع صغارها عند مشارف حى حمدان يتفرجون من بعيد، وإذا برجال من أهل الحارة يفدون على القهوة بوجوههم الكالحة، استقبلوا بالمجاملة ودعوا إلى الجلوس وقدم لهم الشاى، وحدس جبل أنهم لم يجيئوا لخالص التهنئة.

وصدق حدسه إذ قال له زناتى وآان أآبرهم سنا:

يا جبل أننا أبناء حارة واحدة ، وجد واحد، وأنت اليوم سيد الحارة ورجلها الأقوى، وأن يسود العدل الأحياء جميعا خير من أن-.

يسود حى حمدان وحده

لم يتكلم جبل، وبدا الفتور فى وجه آل جبلن ولكن الرجل قال بعزم:

-بيدك أن تجرى العدل فى الحارة آلها.

لم يهتم جبل بأهل الحارة من أول الأمر، ولم يكن يهتم بهم أحد من أله ، بل أنهم شعروا بالاستعلاء عليهم حتى فى أيام محنتهم وقال جبل برقة:

وصانى جدى بأهلى-. .

ولكنه جد الجميع يا جبل

فقال حمدان

فى هذا الكلام موضع للنظر

وتفرس فى الوجوه ليتابع أثر قوله فرأى انقباضها يشتد فاستطرد

أما عقتنا به فقد أآدها بنفسه فى لقاء الخلاء!

وبدا زناتى لحظة وآأنه يود أن يقول " : فى هذا الكلام موضع للنظر " ولكن غلبه الإنكسار فقال مسائلا جبل

أريدضيك ما نحن فيه من فقر وذل ؟

فقال جبل دون حماس

آلا ولكن لا شأن لنا بذلك

فتساءل الرجل فى إصرار

-وآيف لا يكون لكم شأن بذلك ؟

وساءل جبل نفسه بأى حق يكلمه ذلك الرجل على هذا النحو ؟

ولكنه لم يغضبن وجد نفسه جانبا يكاد أن يعطف على الرجلن غير أن جانبا آخر منه استنكر أن يخوض متاعب جديدة من أجل الآخرين.

ومن هم هؤلاء الآخرون ؟ وجاء الجواب على لسان دعبس حين صاح بالرجل:

أنسيتم ما آنتم تعاملوننا به يوم محنتنا ؟

فغض الرجل بصره مليا ثم قال

منذا الذى آان يستطيع أن يجهر برأى أو يعلن عاطفة فى أيام الفتوات؟ وهل آان الفتوات يعفون عن أحد يعامل الناس بغير ما يرضون ؟فزم دعبس شفتيه فى استعلاء وإنكار وقال

آنتم وما زلتم تحسدوننا على مكانتنا فى الحارة، ولعلكم سبقتم الفتوات إلى ذلك!

فاحنى زناتى رأسه فى قنوط وقال

سماحك الله يا دعبس!

فصاح دعبس دون رحمة

-اشكروا رجلنا لأنه لم يقبل أن يوجه لكم يد الانتقام!

وتوزعت الأفكار المتضاربة جبل فلاذ بالصمت ، أشفق من أن يمد يد العون، ولم يرتح إلى الجهر بالرفض، ووجد الرجال أنفسهم حيال تأنيب قارع من دعبس ، ونظرات باردة تعكسها أعين آاخرين، وصمت لا لأمل فيه عند جبل، فنهضوا خائبين،

وذهبوا من حيث أتوا، وصبر دعبس حتى اختفوا ثم حرك قبضة يمناه فى بذاءة وهتف:

إلى حيث القت يا أولاد الخنازير

فصاح جبل

-الشماتة ليست من شيم السادة!

43

آان يوما مشهودا يوم تسلم جبل حصة أله من الوقف ، واتخذ فى حوش الربع - ربع النصر - مجلسه ودعا إليه آل حمدان، وأحصى ما فى آل أسرة من أنفس ووزع الأموال بالتساوى فيما بينهم، وحتى شخصه لم يخصه بامتياز، ولعل حمدان لم يرتح إلى هذه العدالة آل الارتياح ، ولكنه عبر عن مشاعره بطريقة غير مباشرة فخاطب جبل قائلا:

ليس العدل أن تظلم نفسك يا جبل!

فقطب جبل قائلا:

أخذت نصيب اثنين، أنا وشفيقة-. .

ولكنك رئيس هذا الحى-.

فقال جبل بصوت سمعه الجميع

ما ينبغى لرئيس القوم أن يسرقهم

وبدا دعبس وهو ينتظر المحارة فى قلق، ثم قال

جبل غير حمدان، وحمدان غير دعبس، ودعبس غير آعبلها!

فقال جبل معارضا فى غضب

تريد أن تجعل من الأسرة الواحدة سادة وخدما!

ولكن دعبس تشبث برأيه وقال

فينا صاحب القهوة والبائع الجوال والمتسول ، فكيف تسو بين هؤلاء ، وأنا آنت أول من خرج على الحصار حتى تعرضت-. لمطاردة قدرة، وأول من لاقاك فى غربتك، وأول من تحمس لرأيك بعد

ذلك القوم مترددون واشتد الغضب بجبل فصاح به:

-مادح نفسه آذاب، والله إن أمثالك يستحقون الظلم الذى حاق بهم.

وأراد دعبس مواصلة الجدلن ولكنه تبين فى عينى جبل غضبا من نار فتراجع، وغادر المجلس دون أن ينبس وقصد عند المساء غرزة عتريس الأعمش، وجلس فى حلقة الجالسين يدخن مجترا همومه . وأراد أن يتسلى فدعا آعبلها إلى المقامرة، فلعبا السيجة، ولم تكد تمضى نصف ساعة حتى خسر نصيبه من ريع الوقف ! وضحك عتريس وهو يغير ماء الجوزة وقال:

يا سوء بختك يا دعبس ! الفقر مكتوب عليك ولو رغم إرادة الواقف!

فغغم دعبس بحقد وقد طير الخسران السطل من مخه

ليس بهذه السهولة تضيع الثروات!

فأخذ عتريس نفسا من الجوزة ليضبط آمية المياه بها ثم قال

-لكنها ضاعت يا ابن والدى!

آان آعبلها يسوى الأوراق المالية بعناية، ثم رفع يده بها ليدسها فى صدره، لكن دعبس منعه بيده وأشار بالأخرى إشارة خاصة أن يرد النقود ! وقطب آعبلها وقال:

فصاح دعبس

لم تعد نقودك ولا حق لك عليها!

دع النقود يا ابن الزبالة!

ونظر عتريس نحوهما بقلق وقال

لا تتشاجرا فى بيتى

فصاح دعبس وهو يشد على يد آعبلها

لن يسرقنى ابن الزانية!

اترك يدى يا دعبس ، أنا لم أسرقك

-يعنى ربحتها فى تجارة؟

لماذا قامرت ؟

فلطمه بشدة وهو يقول

نقودى قبل أن آآسر عظامك-. .

ونتش آعبلها يده فجأة فثار غض دعبس لحد الجنون وضربه بسبباته فى عينه اليمنى

صرخ آعبلها صرخة عالية، وانتفض واقفا، ثم غطى عينيه بكفيه تارآا الأوراق تتهاوى إلى حجر دعبس وترنح من الألم، ثم سقط وراح يتلوى ويئن أنينا موجعا، والتفت حوله الجالسون على حين جمع دعبس النقود وأعادها إلى صدره، وإذا بعتريس يقترب منه قائلا فى هلك:

صفيت عينه-. !

فارتاع دعبس مليا، ثم وقف فجأة وغادر المكان

ووقف جبل فى حوش النصر فى جمع من رجال حمدان، والغضب يتفجر من عينيه وشدقيه، وجلس آعبلها القرفصاء، وقد شد على عينه رباطا محكما على حين وقف دعبس يتلقى ثورة جبل فى صمت وخذلان.

وأراد حمدان أن يهدىء من ثورة جبل فقال بلين:

سيرد دعبس النقود إلى آعبلها-. .

فصاح جبل بأعلى صوته

فليرد إليه بصره أولا-. .

فبكى آعبلها وقال الشاعر رضوان متاوها : ليت فى الإمكان رد البصر

فقال جبل وقد أظلم وجهه آالسماء الراعدة البارقة:

ولكن فى الإمكان أن تؤخذ عين بعين!
وحملق دعبس فى وجه جبل متوجسا ، وأعطى النقود لحمدان وهو يقول
آنت فاقد العقل من الغضب وما قصدت إيذاءه
فتفرس جبل وجهه بحنق طويلا ثم قال بصوت رهيب
عين بعين والبادى أظلم.
تبودلت نظرات الحيرة لم يُر جبل أغضب منه اليوم، وقد برهنت الأحداث على قوة غضبه آغضبته يوم وآل بيت النعيم، وآغضبته يوم قتل قدرة ، حقا إنه لشديد الغضب إذا غضب لم يردعه عن هدفه رادع.
وهم حمدان بالكلام ولكنه بادره قائلا:
فوضى لن تبقى على أحد، لذلك-.
أصر على تصفية عينك يا دعبس
إن الواقف لم يؤثرآم بحبة ليعتدى بعضكم على بعض ، فإما حياة تقوم على النظام وإما
ورآب الرعب دعبس فصاح:
-لن تمسنى يد ولو قاتلتكم جميعا.
فانقض عليه جبل آالثور الهائج وضربه بجماع يده فى وجه ضربة هائلة سقط على أثرها دون حراك، وأقامه وهو فاقد الوعى واحتضنه من الخلف شادا ذراعيه حول جسمه، والتفت نحو آعبلها قائلا بلهجة امرة:
قم فخذ حقك
وقام آعبلها ولكنه وقف مترددا، على حين تعالى الصراخ من مسكن دعبس وحدج جبل آعبلها بنظرة قاسية وصاح به
-تقدم قبل أن أدفنك حيا.
واتجه آعبلها نحو دعبس، وبسبابته ضرب عينه اليمنى حتى انفقات عينه على مرأى من الجميع، وأشتد الصراخ من بيت دعبس وبكى بعض أصدقاء دعبس مثل عتريس وعلى فوانيس فصاح بهم جبل:
يا لكم من جبناء وأشرار ، والله ما آرهتم الفتونة إلا لأنها آانت عليكم، وما أن يأنس أحدآم فى نفسه قوة حتى يبادر إلى-.
الظلم والعدوان، وما للشياطين المستترة فى أعماقكم إلا الضرب بلا رحمة ولا هوادة، فإما النظام وإما الهلاك
وترك دعبس بين أيدى أصحابه وذهب، وآان لذلك الحادث فى النفوس أثر وأ أثر ، آان جبل من قبل رئيسا محبوبا، وآان يظنه أله فتوة لا يريد أن يتخذ لنفسه اسم الفتونة أو شعارها، فأصبح من بعده مخوفا مرهوبا، وهامس أناس بقسوته وظلمه ولكن وجد هؤلاء دائما من يرد عليهم قولهم ويذآر بالوجه الاخر لقسوته، وهو الرحمة بالمعتدى عليهم، والرغبة الصادقة فى إقامة نظام يضمن العدل والنظام والإخاء فى آل حمدان، ووجد هذا الراى الأخير آل يوم ما يسنده فى فعال

الرجال وأقواله حتى أنس إليه من استوحش وأمن من خاف، ومال من جفا، وحرص الجميع على النظام فلم يجاوز حدوده حد، وسادت الاستقامة والأمان فى أيامه، فلبث بينهم رمزا للعدالة والنظام حتى غادر الدنيا دون أن يحيد عن مسلكه قيد أنملة.

هذه قصة جبل..

آان أول من ثار على الظلم فى حارتنا وأول من حظى بلقيا الواقف بعد اعتزاله، وقد بلغ من القوة درجة لم ينازعه فيها منازع، ومع ذلك تعفف عن الفتونة والبلطجة وأُراء عن سبيل الاتاوة وتجارة المخدارات ولبث بين أله مثالا للعدل والقوة والنظام أجل لم يهتم بالآخرين من أبناء حارتنا ولعله آان يضمر لهم احتقارا وازدراء آسائر أهله ، لكنه لم يعتد منهم على أحد ولا تعرض له بسوء وضرب للجميع مثالا جديرا بالاحتذاء.

ولولا أن آفة حارتنا النسيان ما انتكس بها مثال طيب.

لكن آفة حارتنا النسيان

رفاعة

44

أوشك الفجر أن يطلع وأوى إلى المضاجع آل حى فى الحارة حتى الفتوات والكلاب والقطط، واستقر الظلام بالأرآان آأنه لن يبرح أبدًا، وفى رعاية الصمت الشامل فتح باب ربع النصر بحى آل جبل فى حذر شديد، فتسلل منه شبحان سارا فى سكون نحو البيت الكبير، ثم تابعا سوره العالى إلى الخلاء، نقلا خطواهما فى حذر وجعلا يتلفتان وراءهما من حين إلى حين ليطمئنا إلى أن أحدا لا يتبعهما، وأوغلا فى الخلاء مهتدين بنور النجوم المتناثرة حتى تبينا صخرة هند آقطعة من ظلام أشد آثافة مما حوله، آانا رجلا فى أواسط العمر وامرأة شابة حبىل، وآلاهما يحمل بقجة مكتظة وعند الصخرة تنهدت المرأة وقالت بإعياء:

عم شافعى ، تعبت

فتوقف الرجل عن المسير وهو يقول فى غيظ

-استريحى ، ربنا يتعب المتعب.

وضعت المرأة البقجة على الأرض وجلست عليها مفرجة ما بين فخذيها لتريح بطنها المنداحة، ووقف الرجل لحظة ينظر فيما حوله، ثم جلس على بقجة أيضا وهبت عليهما نسائم معبقة بأنفاس الفجر الرطيبة، لكن المرأة لم تغفل عما يشغلها فتساءلت:

أين سألد يا ترى ؟

فقال شافعى ساخطا

أى مكان يا عبدة خير من حارتنا اللعينة

ورفع عينيه إلى شبح الجبل الممتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وقال

سنذهب إلى سوق المقطم ، إليه قصد جبل أيام محنته، وسأفتح دآان نجارة وأعمل آما آنت أعمل فى الحارة، لى-.

يدان يدران الذهب ومعى نقود للبدء لا بأس بها

فشدت المرأة خمارها حول رأسها ومنكبيها وقالت بحزن:

23

Page-سنعيش فى غربة آمن لا أهل له ، ونحن من آل جبل أسياد الحارة!
فبصق الرجل متأففا وقال محنقا:
أسياد الحارة ! ما نحن إلا عبيد أذلاء يا عبدة، ذهب جبل وعهده الحلو، وجاء زنفل أجحمه الله، فتوتنا وهو علينا لا لنا،-.
يلتهم أرزاقنا ويفتك بمن يشكو
لم ينكر عبده شيئا من قوله، آلها ما زالت تعيش فى أيام المرارة وليالى الأحزان، لكنها حين ضمنت الابتعاد عن مكاره الحارة حن قلبها إلىذآرياتها الطيبة فقالت متحسرة.
لا توجد حارة آحارتنا لولا أشرارها، أين تجد بيتا آبيت جدنا؟ أو جيرانا آجيراننا؟ أين تسمع حكايات أدهم وجبل وصخرة-.
هند؟ ألا لعنة الله على الأشرار
فقال الرجل بصوت مرير:
-والنبابيت تهوى لأتفه سبب وأصحاب الوجوه المستكبرة يختالون بيننا آالقضاء والقدر!
وذآر زنفل اللعين وآيف أخذ بتلابيبه وهزه بعنف حتى آاد يقتلع ضلوعه، ثم مرغه فى التراب أمام الخلق لا لشئ إلا لأنه جعل مرة من الوقف حديثه ! ضرب الأرض بقدمه واستطرد قائلا:
المجرم الملعون خطف وليد سيدهم بياع لحمة الرأس ثم لم يسمع عن الوليد بعد ذلك أبدا، لم تأخذه رحمة بطفل فى-.
شهره الأول، وتتساءلين أين سالد، ستلدين بين أناس لا يقتلون الأطفال
فتنهدت عبدة وقالت برقة آأنما لتخفف من مضمون حديثها.
ليتك رضيت بما رضى به الآخرون!
فقطب غاضبا وراء قناع الظلمة وقال
ماذا جنيت يا عبدة؟ لا شئ آنت أتساءل أين جبل ، وعهد جبلن أين القوة العادلة؟ ماذا أرجع آل جبل إلى الفاقة والذل-.
فحكم دآانى وضربنى آاد يفتك بى لولا الجيران، ولو بقينا ببيتنا حتى تلدى لانقض على الويد آما فعل بوليد سيدهم
فهزت رأسها فى حزن وقالت:
-أه لو صبرت يا معلم شافعى ! ألم تسمعهم يقولون إن الجبلاوى لابد أن يخرج يوما من عزلته لينقذ أحفاده من الظلم والهوان ؟
فنفخ المعلم شافعى طويلا وقال بسخرية:
-هكذا يقولون ! طالما سمعتهم مذ آنت غلاما، لكن الحقيقة أن جدنا فى البيت اعتزال، وأن ناظر وقفه بريع الوقف استأثر، إلا ما يهب للفتوات نظير حمايته، وزنفل فتوة آل جبل يتسلم نصيبهم ليدفنه فى بطنه، آان جبل لم يظهر فى هذه الحارة

وآأنه لم يأخذ عين صديقه دعبس بعين المسكين آعبلها.
وسكتت المرأة لتسبح فى أمواج الظلام سيطلع عليها الصباح بين قوم غرباء، سيكون الغرباء جيرالها الجدد، وتستقبل أيديهم وليدها وينمو الوليد فى أرض غريبة آغصن مقطوع من شجرة وما آانت إلا قانعة فى آل جبل تحمل الطعام إلى زوجها فى الدآان وتجلس فى الليل وراء النافذة لتسمع رباب عم جواد الشاعر الضرير ، ما أحلى الرباب وما أحلى قصة جبل ليلة التقى الجبلاوى فى الظلام فقال له ألا تخف، حياه بالعطف والتأييد حتى انتصر ، وعاد إلى حارته مجبور الخاطر، وما أحلى العودة بعد الاغتراب.
وآان شافعى يقلب وجهه فى السماء فى النجوم الساهرة ويرنو إلى طلائع الضياء فوق الجبل آسحابة بيضاء فى أفق سماء مكفهرة.
وقال محذرا:
ينبغى أن نسير آى نبلغ السوق قبيل الشروق-. .
مازلت فى حاجة إلى الراحة
الله يتعب المتعب
ما أجمل الحياة لولا وجود زنفل الحياة عامرة بالخيرات والهواء النقى والسماء المرصعة بالنجوم والمشاعر الطيبة ولكن فيها أيضا ناظر الوقف أيهاب الفتوات بيومى وجابر وحندوسة وخالد وبطيخة وزنفل.
وفى الإمكان أن يصير آل ربع آالبيت الكبير وان ينقلب الأنين الحانا ، ولكن المساآين يتمنون المحال آما تمناه أدهم من قبل ومن هم المساآين ؟ إنهم أقفيه متورمة من الصفع وأدبار ملتهبة من الرآل وأعين يرعاها الذباب ورؤوس يعشش فيها القمل.
لماذا نسينا الجبلاوى
غمغمت امرأة-.
الله يعلم بحاله-.
فصاح الرجل فى حسرة وغضب
يا جبلاوى
فردد الصوت صوته، وقام وهو يقول
توآلى على الله-. .
قامت عبدة ، تناول آفها فى يده ، وسارا نحو الجنوب نحو سوق المقطم

45

قالت عبدة بفرح تألق فى عينيها وثغرها:

ها هى حارتنا، وها نحن نعود غليها بعد غربة، فالحمد لله رب العالمين-. .

فابتسم عم شافعى وهو يجفف جبينه بكم عباءته وقال برزانة

حقا ما أبهج العودة!

وآان رفاعة يصغى إلى والديه ، ووجهه الصافى الجميل يعكس دهشة ممزوجة بالحزن، فقال آالمحتج

-ول ينسى سوق المقطم وجيرانه؟

ابتسمت الأم وهى تحبك طرف الملاءة حول شعرها الذى وخطه المشيب، أدرك أن الفتى يحن إلى مولده آما تحن هى إلى مولدحا، وأنه بما جبل عليه من رقة ومودة لا يستطيع أن يسلو الصداقات وأجابته:

هنا اهلك، سادة الحارة سنحبهم وسيحبونك، ما اجمل حى-..

جبل بعد وفاة زنفل

الأشياء الطيبة لا تنسى ابدًا، ولكن هذه هى حارتك الأصلية

فهتف عم شافعى محذرا:

لن يكون خنفس خيرا من زنفل-. .

لكن خنفس لا يضمر لك عداوة-.

عدوات الفتوات تنشا بسرعة نشوء الطين عقب المطر

فقالت عبدة برجاء

انك عشت تحت سيطرة فتوة-.

بسوق المقطم، ففى آل مكان فتوة يخضع له الناس

لا تفكر هكذا يا معلم ، عدنا لنعيش فى سلام، ستفتح الدآان وسيجئ الرزق ولا تنس

واصلت الأسرة مسيرها نحو الحارة يتقدمها عم شافعى حاملا جوالا، وتبعه عبدة ورفاعة حاملا بقجة ضخمة وبدا رفاعة بقامته الطويلة وعوده اللنحيل ووجهه الوضاء فتى جذاب المنظر ينضج بالوداعة والرقةن غريبا فى الأرض الذى يسير فوقها، وتأملت عيناه ما حوله فى شغف حتى انجذبتا إلى البيت الكبير الذى يقف عند رأس الحارة منفردًا، ورؤوس الأشجار تهتز من فوق سوره، رنا إليه طويلا ثم تساءل:

بيت جدنا.

فقالت عبدة بابتهاج

نعم ، أرأيت ما حدثتك عنه؟ فيه جدك صاحب هذه الأرض آلها وما عليها الخير خيره والفضل فضله ولولا عزلته لملأ الحارة نورًا.

واآمل عم شافعى ساخرا:

-وباسمه ينهب ناظر الوقف ايهاب حارتنا، ويعتدى الفتوات علينا تقدموا نحو الحارة محاذين للسور الجنوبى للبيت الكبير، لم ترتد عينا رفاعة عن البيت المغلق ثم تراءة لهم بيت ناظر الوقف إيهاب وبوابه المقتعد أريكة عند بابه المفتوح وفى مقابله قام بيت فتوة الحارة بيومى الذى وقف أمامه عربة آارو محملة بمقاطف الأرز وسلال الفاآهة، وقد مضى الخدم يحملونها للداخل تباعا، وبدت الحارة ملعبا للغلمان الحفاة، على حين افترشت أسر الأرض او الحصر أمام مداخل البيوت لينقوا الفول أو يخرطوا الملوخية، وتبودلت أحاديث ونكات وزجر ونهر ، وتعالت ضحكات وصرخات ومالت أسرة عم شافعى إلى حى جبل

فصادفها فى عرض الطريق شيخ ضرير، يتلمس طريقه بعصاه على مهل، فأنزل عم شافعى الجوال من فوق ظهره ومضى نحوه منبسط الأسارير حتى وقف أمامه وهو يهتف:

عم جواد الشاعر ، السلام عليكم!

توقف الشاعر وهو يرهف أذنيه فى انتباه ، ثم هز رأسه فى حيرة قائلا

-وعليكم السلام ! صوت غير غريب على!

أنسيت صاحبك شافعى النجار ؟

فتهلل وجه الرجل وصاح

-عم شافعى ورب السماوات!

وفتح ذراعيه فتعانق الرجلان بشوق وحنان حتى تطلعت إليهما انظار القريبين وحاآى عناقهما غلامان عابثان، وقال جواد وهو يشد على يد صاحبه:

هجرتنا عشرين عاما أو يزيد يا له من عمر، وآيف زوجك؟

فقالت عبدة

-بخير يا عم جواد سألت عليك العافية، وها هو ابننا رفاعة قبل يد عمك الشاعر.

واقترب رفاعة من الشاعر مبتهجا فتناول يده فلثمها ، وربت الرجل آتفه وتحسس رأسه فى استطلاع وقسمات وجهه وقال :

بديع .. بديع ، ما أشبهك بجدك!

فنور الثناء وجه عبدة وضحك عم شافعى قائلا
-لو رأيت جسده النحيل ما قلت ذلك.
حسبه ما أخذ ، أن الجبلاوى لا يتكرر ، ماذا يعمل الفتى ؟-.
قليلا ويهم على وجهه فى الخلاء، والجبل آأثر الوقت
فقال الشاعر باسما
علمته النجارة لكنه ابن وحيد مدللك يمكث فى دآانى
لايستقر الرجل حتى يتزوج، وأين آنت يا معلم شافعى-. .
فى سوق المقطم
فضحك الرجل ضحكة عالية وقال
آما فعل جبل، لكنه عاد حاويا وتعود نجارا آما ذهبت، على أى حال مات عدوك ولكن الخلف آالسف
فقالت عبدة بسرعة
-آلهم آذلك، وما نطمع فى شيء إلا أن نعيش آما يعيش المسالمون.
وعرف رجال شافعى فهرعوا إليه، ودار العناق وارتفعت الأصوات وعاد رفاعة يتفحص ما حوله باهتمام وشغف وأنفاس قومة تتردد من حوله، فتخفف آثيرا من وحشة القلب التى غشيته مذ فارق سوق المقطم، ومضت عيناه فى التجوال حتى وقفتا عند نافذة فى الربع الأول، تطل منها فتاة راحت تحملق فى وجهه باهتمام، فلما التقت عيناهما رفعت ناظريها إلى الأفق، ولمح ذلك رجل من أصحاب والده فهمس قائلا:
عيشة بنت خنفس ، نظرة إليها تسبب مذبحة!
فتورد وجه رفاعة وقالت أمه
-ليس هو من هؤلاء الشبان ولكنه يرى حارته لأول مرة.
ومن الربع الأول خرج فى متانة الثور، يرفل فى جلباب فضفاض، وينطلق من فوق فيه شارب متحرش فى وجه آثير الندوب والبقع فتهامس الناس " خنفس .. خنفس " ، وأخذ جواد عم شافعى من يده واتجه نحو الربع وهو يقول
- -سلام الله على فتة آل جبل، إليك أخانا المعلم شافعى النجار، عاد إلى حارته بعد غربة عشرين عاما.
أن يلين وجهه ثم تمتم فى
برود
ألقى خنفس نظرة حافزة على وجه شافعى متجاهلا يده الممدودة مليا، ثم مد له يده دون
-أهلا.

وتامله رفاعة بامتعاض فهمست أمه فى أذنه أن يذهب للسلام عليه، وذهب رفاعة متضايقا فمد له يده، وقال عم شافعى :

-ابنى رفاعة.

ونظر خنفس إلى رفاعة نظرة استنكار وأزدراء أولها الحاضرون بانها احتقار لرقته غير المألوفة فى الحارة، وصافحة بعدم اآتراث ثم التفت إلى أبيه متسائلا:

ترى هل نسيت فى غربتك سنة الحياة فى حارتنا ؟

فأدرك شافعى ما يرمى إليه، وقال مداريا ضيقه

نحن فى الخدمة دائما يا معلم

فتفرس فى وجهه بريبة وسأله

لماذا هاجرت من حارتك ؟

فصمت شافعى ريثما يجد جوابا مناسبا ، فقال خنفس

هربا من زنفل ؟

فقال جواد الشاعر مبادرا

لم يكن ذلك لخطأ لا يغتفر

فقال خنفس لشافعى محذرا

لن تجد منى مهربا عند الغضب

فقالت عبدة برجاء

-ستجدنا يا معلم من أطيب الناس.

ومضى شافعى وأسرته وسط الأصحاب إلى دهليز ربع النصر ليتسلم مسكنا خاليا دله عليه عم جواد، وتراءت فى نافذة مطلة على الدهليز فتاة حسناء ذات جمال وقح، وقفت تمشط شعرها أمام زجاج النافذة ، فلما رأت القادمين تساءلت فى دلال:

من القادم آالعريس فى الزفة ؟

فتضاحك آثيرون وقال رجل

فى الدهليز أمامك

فهتفت ضاحكة

جار لك جديد يا ياسمينة سيقيم

-ربنا يزيد فى الرجال.

ومرت عيناها بعبدة دون اآتراث، لكنها وقفت على رفاعة باهتمام وغعجاب، ودهش رفاعة لنظرتها أآثر من دهشته لنظرة عيشة بنت خنفس، وتبع والديه إلى باب المسكن المقابل لمسكن ياسينة على الجانب الآخر للدخهليز، وصوت ياسمينة يغنى:

أه من جماله يا مة.

46

فتح عم شافعى دآان النجارة عند مدخل ربع النصر، ومع الصباح خرجت عبدة تتسوق، ومضى عم شافعى وابنة رفاعة إلى الدآان، وجلسا على عتبة الدآان ينتظران الرزق، وآان فى حوزة الرجال مال يكفيه شهرا أو يزيد فلم يطوقه القلق فراح ينظر إلى الدهليز المسقوف بالمساآن المفضى إلى الحوش الكبير ويقول:

هذا هو الدهليز المبارك الذى أغرق فيه جبل أعداءنا

فتأمله رفاعة بعينين حالمتين وثغر باسم ، فعاد الرجل يقول

-وف هذه البقعة أقام أدهم آوخه وحدثت الأحداث ، وفيها رارك الجبلاوى ابنه وعفا عنه.

فازداد الثغر الجميل ابتساما وأغرقت العينان فى الحلم الذآريات الجميلة آلها، ولدت فى هذا المكان لولا الزمن لبقيت أثار أقدام الجبلاوى وأدهم، ولردد الهواء أنفاسهم ومن هذه النوافذ انصبت المياه على الفتوات فى الحفرة من نافذة ياسمينة انصبت المياه على الأعداء، اليوم لا ينصب منها إلا نظرات مرعبة، ويعبث الزمان بكل جليل، أما جبل فانتظر داخل الحوش بين رجال ضعفاء، لكنه انتصر.

انتصر جبل يا أبى ولكن ما جدوى النصر ؟

فتنهد الرجل قائلا

تعاهدنا على ألا نفكر فى ذلك أرأيت خنفس ؟

وعلا صوت غنج مناديا

-يا عم يا نجار:

فتبادل الأب وابنه نظرة إنكار، ونهض الأب رافعا رأسه فرأى ياسمينة تطل من النافذة وضفيرتاها الطويلتان تتدليان وتتأرجحان فهتف:

يا نعم

فقالت بصوت متهالك من العبث

ابعث صبيك ليأخذ ترابيزة لإصلاحها-" .

عاد الرجل إلى مجلسه وهو يقول لأبنه " توآل على الله " وجد رفاعة باب المسكن مفتوحا فى انتظاره فغمغم قائلا " : أحم فأذنت له بالدخول فدخل، وجدها فى جلبا بنى ذى آلفة بيضاء حول الطوق وفوق هضة النهدين، وحافية وعارية الساقين وجدها أيضا، ولبثت صامتة مليا آأنما لتمتحن أثر منظرها فى نفسه، فلما رأت صفاء عينيه لا يتغير أشارت إلى ترابيزة صغيرة قائمة على ثلاث أرجل فى رآن الصالة وقالت:

الرجل الرابعة تحت الكنبة، رآها وحياتك وأدهن الترابيزة من جديد

فقال بصوت ذى موقع عذب

-فى الخدمة يا ست.

والثمن ؟-.

سأسأل أبى

فشهقت متسائلة

وأنت ؟ لا تعرف الثمن ؟-.

هو الذى يخاطب فيه

فتفرست فى وجهه بقوة وسألته

ومن يصلحها-. :

أنا ، ولكن باشرافه ومعاونته

فضحكت دون مبالاة وقالت

بصغية أصغر فتواتنا دونك فى السن لكنه يستطيع أن يدوخ زفة برمتها، وأنت لا تستطيع ان ترآب رجل ترابيزة بمفردك!

فقال رفاعة بصوت من يروم اهاء الكلام

المهم أنها ستعود إليك آأحسن ما يكون

وتناول الرجل الرابعة من تحت الكنبة وحمل الترابيزة على آتفه واتجه نحو الباب قائلا

فتك بعافية

ولما وضعها أمام أبيه فى الدآان قال الرجل بامتعاض وهو يتفحص الترابيزة

أقول الحق إنى آنت أفضل أن يجئ اول رزق من ناحية أنظف

فقال رفاعة فى سذاجة

ليست قذرة بحال يا أبى، لكنها وحيدة فيما يبدو-. .
ليس أخطر من امرأة وحيدة-.
لعلها فى حاجة إلى هداية
فقال عم شافعى ساخرا
-حرفتنا النجارة لا الهداية ، هات الغرا.

وعند المساء ذهب عم شافعى ورفاعة إلى قهوة جبلن آان الشاعر جواد متربعا على أريكته يحسو قهوته، وجلس شلضم صاحب القهوة عند المدخل، على حين احتل خنفس مكان الصدارة وسط هالة من المعجبين ، وقصد شافعى وابنة الفتوة ليؤديا إليه تحية الخضوع ثم اتخذا مكانا خاليا جنب شلضم، وما لبث ان تناول عم شافعى الجوزة وقدم لإبنه قدح قرفة بالبندق.

وبدا جو القهوة ناعسا، تنعقد فى سمائه سحب الدخان، وتنتشر فى هوائه الساآن روائح المعسل والنعناح والقرنفل، اما الوجوه ذات الشوارب المستنفرة فلاحت شاحبة ثقيلة الجفان وتلاقى السعال والنحنحة بالضحكات الغليظة والنكات الفاجرة وترامى فى بطن الحارة هتاف غلمان يترنمون:

يا ولاد حارتنا توت توت
انتو نصاره ولا يهود
تاآلو أيه ناآل عجوة
تشربوا أيه نشرب قهوة

وآانت عند مدخل القهوة هرة تتربص فانقضت نحو أسف أريكة وندت وسوسة، ثم ظهرت راآضة نحو الحارة قابضة بأسنانها على فأرة ورد رفاعة عن فيه قدح القرنفل متقززا، ورفع عينيه فوقعتا على خنفس وهو يبصق، وصاح خنفس مخاطبا الشاعر جواد:

-متى تبدأ يا راس الدواهى ؟

فابتسم جواد وهو يهز رأسه ثم تناول الربابة وبعث من أوتارها انغام الافتتاح، وبدا بتحية للناظر ايهاب، فتحية ثانية لبيومى فتوة الحارة والثالثة توجهت خليفة جبل الفتوة خنفس، ومضى يقول وجلس أدهم فى إدارة الوقف يستقبل مستأجرى الحكار الجدد، وآان ينظر فى الدفتر حينما جاءه صوت الرجل الأخير يقول معلنا عن اسمه:

إدريس الجبلاوى-. .

فرفع أدهم رأسه فى فزع فرأى أخاه واقفا أمامه

وواصل الشاعر الحكاية فى جو من الانصات وتابعه رفاعة بشغف.

هذا هو الشاعر وهذه هى الحكايات آم سمع أمه وهى تقول : حارتنا حارة الحكايات، وحقا آانت جديرة بالحب هذه الحكايات لعل فيها عزاء عن ملاعب سوق المقطم وخلواته، وراحة لقلبه المحترق بهيام غامض .. غامض آهذا البيت الكبير المغلق، لا أثر فيه لحياة إلا رءوس أشجار الجميز والتوت والنخيل، وأى دليل على حياة الجبلاوى إلا الأشجار والحكايات؟ وأى

دليل على أنه حفيده سوى الشبه الذى لمسه الشاعر جواد بيديه؟ وآان الليل يتقدم وعم شافعى يدخن جوزة ثالثة،

واختفت من الحارة نداءات الباعة وهتافات الغلمان، ولم يعد يبقى سوى انغام الرباب ودقة دربكة أتية من بعيد، وصراخ امرأة ينهال عليها زوجها ضربا، أما ادهم فقد جره إدريس إلى مصيره إلى الخلاء تتبعه أميمة البآية، آما خرجت امى من الحارة وأنا فى بطنها اضطراب ، اللعنة على الفتوات وعلى القطط حين تلفظ الفئران أنفاسها بين أسنانها، وعلى آل نظرة ساخرة أو ضحكة باردة، وعلى من يستقبل أخاه العائد بقوله لا مهرب منى عند الغضب، وعلى صانعى الرعب وخالقة النفاق، أما أدهم فلم يبق له إلا الخلاء وها هو الشاعر يغنى أغنية من أغانى إدريس المخمورة، ومال إلى أذن أبيه وقال:

أريد أن أزور المقاهى الأخرى

فقال عم شافعى متعجبا

-قهوتنا خير قهوة فى الحارة.

ماذا يقول الشعراء هناك؟-.

الحكايات نفسها ولكنك تسمعها هنالك وآأنها غير الحكايات

وترامى التهامس إلى شلضم فمال نحوه رفاعة قائلا

ليس أآذب من أهل حارتنا، والشعراء اآذب الكاذبين ستسمع فى القهوة التالية أن جبل قال إنه ابن الحارة، والله ما قال-.

غلا إنه ابن حمدان

فقال عم شافعى:

الشاعر يريد أرضاء السامعين باى ثمن

فقال شلضم همسا

-بل يريد أرضاء الفتوة.

وغادر الأب والأبن القهوة عند منتصف الليل، وآانت الظلمة آثيفة تكاد أن تتجسد ، وهناك أصوات رجال آأنما تصدر عن لا شئ.

وسيجارة تتوهج فى يد غير مرئية آأنها نجم تهاوى نحو الرض.

وتساءل الأب:

أعجبتك الحكاية ؟-.

نعم ، ما اجمل الحكايات

فضحك الأب قائلا

عم جواد يحبك، ماذا قال لك فى الاستراحة ؟-.

دعانى إلى زيارته فى بيته-.

ما أسرع أن تُحب، ولكنك صبى بطء التعلم

فقال معتذرا

لدى عمر آامل للنجارة، ولكن يهمنى الآن أن أزور المقاهى جميعا

وتلمسا طريقهما إلى الدهليز فترامت غليهما من بيت ياسمينة ضجة آمخمورة وصوت يغنى

يا بو الطاقية الشبيكة قل مين شغلها لك

شبكت قلبى الهى ينشغل بالك

فهمس رفاعة فى أذن ابيه:

ليست وحيدة آما ظننت

فتنهد الأب قائلا

ما أآثر ما ضيعت من عمر فى الخلوات!

وراحا يرقيان فى السلم على مهل وحذر، وإذا برفاعة يقول

-أبى ، سأزور عم جواد الشاعر.

47

طرق رفاعة باب جواد الشاعر بالربع الثالث بحى جبل، وآان يتصاعد من الحوش سباب حاد تتبادلة نسوة ممن اجتمعن للغسل والطهى فاطل من فوق درابزين الطرقة المستديرة المشرفة على فناء الربع، وآانت المعرآة الأساسية تدور بين امرأتين، وقفت أولاهما وراء طشت غسيل تلوح بيدين مغطاتين برغوة الصابون، ووقفت الأخرى عند مدخل الدهليز مشمرة عن ساعديها ترد السب بأفظع منه وترقص وسطها استهزاء، أما النساء الأخريات فانقسمن إلى فرقتين، وتلاطمت الأصوات حتى تجاوبت جدارن الربع بالشتائم المقذعة والقذف العاهر، وسرعان ما جفل مما يرى ويسمع فتحول عن موقفه إلى باب الشاعر متقززا، حتى النساء، حتى القطط، ودعك من الفتوات فى آل يد مخلب وفى آل لسان سم، وفى القلوب الخوف

والضغائن، أما الهواء النقى ففى خلاء المقطم أو فى البيت الكبير حيث ينعم الواقف بالسلام وحده، وفتح الباب عن وجه الضرير المستطلع فحياه فابتسمت أسارير الرجل ، وأوسع له وهو يقول:

-اهلا يا ابن أخى.

وتلقى رفاعة أول ما دخل شذى بخور نافذ آأنه أنفاس ملاك ومضى وراء الرجل إلى حجرة صغيرة مربعة، اصطفت باضلاعها الشلت وانبسط فوق أرضها حصيرة مزرآشة، وبدا جوها خلف خصاص النوافذ المغلقة فى سمرة الأصيل، وقد زين سقفها حول الفانوس المدلى لصور العصافير والحمام، تربع الشعر على شلته فجلس رفاعة إلى جانبه.

وقال الرجل:

آنا نعد القهوة

ونادى زوجته فجاءت امرأة حاملة صينية القهوة فقال جواد

تعال يا أم بخاطرها، هذا رفاعة ابن عم شافعى

فجلست المراة إلى جانب زوجها من الناحية الأخرى، وراحت تصب القهوة فى الفناجيل وهى تقول

-أهلا بك يا ابنى.

بدت فى منتصف الحلقة السادسة، مستقيمة العود قوية البنية ، تلفت النظر بعينين نافذتين ووشم فوق الذقن، وأشار جواد ناحية الضيف وقال:

إنه سميع يا أم بخاطرها، شغوف بالحكايات، وبمثله يتحمس الشاعر ويرضى، أما الآخرون فسرعان ما يغلبهم نعاس-.

المترول والحشيش

فقالت المرأة بدعابة:

حكاياتك جديدة عليه، معادة عليهم

فقال الشاعر بغيظ

-هذا صوت عفريت من عفاريتك) ثم موجها الخطاب إلى رفاعة (الولية آودية زار..

فتطلع رفاعة نحو المراة باهتمام فالتفت عيناهما وهى تمد له يدها بفنجال القهوة آم آانت تجذبه دقة الزار فى سوق المقطم، وآان قلبه يتابعها راقصا فيقف فى الطريق رافعا رأسه نحو النوافذ، متطلعا إلى البخور السابع فى الفضاء والرءوس المترنحة وسأله الشاعر:

-ألم تعرف فى غربتك شيئا عن حارتنا ؟

حدثنى ابى عنها آما حدثتنى أمى، ولكن قلبى آان هنالك ، فلم أآترث آثيرا للموقف ومشاآله، وعجبت من آثرة-. ضحاياه فملت إلى رأى أمى فى ايثارها الحب والسلامة

فتساءل جواد وهو يهز رأسه فى حزن:

-وآيف يتسنى للحب والسلام أن يعيشا بين الفقر ونبابيت الفتوات؟

فلم يجبه رفاعة لا لأنه لم يكن ثمة جواب، ولكن لأن عينيه رأتا لأول مرة صورة غريبة فوق الجدار الأيمن للحجرة، صورة مرسومة بالزيت على الجدار آالصورة التى تزين جدارن المقاهى، وتمثل رجلا هائلا تبدو إلى جانبه ربوع الحارة ضئيلة آلعب الأطفال فتساءل الشاب:

من صاحب هذه الصورة ؟

فأجابت أم بخاطرها

-الجبلاوى.

هل رأه أحد ؟

فقال جواد

آلا ، لم يره أحد من جيلنا، حتى جبل لم يتبينه فى ظلمة الخلاء .. ولكن المبيض رسمه على مثال ما يرد من أوصافه فى-. الحكايات

فتساءل رفاعة متنهدا:

لماذا أغلق أبوابه فى وجه أحفاده؟-.

يقولون الكبر، من يدرى آيف تمضى به الأيام، والله لو فتح أبوابه ما بقى أحد من اهل حارتنا فى داره القذرة-..

ألا تستطيع أن

ولكن أم بخاطرها قاطعته قائلة

تقع المصائب أشكالا وألوانا

فهز رأسه فى حيرة متسائلا

لا تشغل به نفسك ، فإن اهل حارتنا إذا بدأوا بالكلام عن الواقف جرهم الكلام إلى الوقف ثم

وآيف لا تشغل النفس بمثل هذا الجد العجيب؟-.

لنفعل مثله، فإنه لايشغل بنا نفسه

فرفع رفاعه بصره إلى الصورة ثم قال

لكنه قابل جبل وآلمه-. !

نعم، ولما مات جبل جاء زنفل ثم خنفس، وآأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا

فضحك جواد وقال لامرأته

إن الحارة فى حاجة إلى من يخلصها من شياطينها آما تخلصين الممسوسين من عفاريتهم

فابتسم رفاعة وقال

-ياعمتى إن العفاريت حقا هم أولئك النس لو رأيت آيف آانت مقابلة خنفس لأبى.

لا شان لى بأولئك عفاريتى الأخرون يذعنون لى آما آانت تذعن الثعابين لجبل، وعندى لهم جميع ما يحبون من بخور-. سودانى وتعاويذ حبشية وأغان سلطانية

فسألها رفاعة باهتمام:

ومن أين أتتك هذه القدرة على العفاريت ؟

فحدجه بنظرة حذرة وقالت

هى حرفتى آما أن النجارة حرفة أبيك جائتنى من وهاب الفن

فأفرغ رفاعة ثمالة الفنجان فى فيه وهم بالكلام غير أن صوت عم شافعى تصاعد من الحارة صائحا

يا رفاعة ، يا ولد يا آسول

فقام رفاعة إلى النافذة ففتحها وأطل منها حتى التقت عيناه عينى أبيه وهتف

-أمهلنى نصف ساعة يا أبى.

فرفع الرجل منكبيه فيما يشبه الياس ورجع إلى دآانه، وعندما اخذ رفاعة يغلق النافذة راى عيشة فى موقفها بالنافذة آما رها أول مرة، ترنو إليه باهتمام ، خيل إليه أنها ابتسمت أو أن عينها تكلمت، وتردد لحظة، لكنه أغلق النافذة وعاد إلى مجلسه وإذا بجواد يضحك قائلا:

أبوك يريد لك النجارة، ولكن فيم ترغب أنت؟

فتفكر رفاعة مليا ثم قال

على أن أآون نجارا آأبىن ولكنى احب الحكايات، وهذه الأسرار حول العفاريت، فحدثيني عنها يا عمتى

فابتسمت المرأة وبدت آانها سمحت بان تهبه قليلا من علمها فقالت

-لكل إنسان عفريت هو سيدهن ولكن ليس آل عفريت بشر يجب أن يخرج.

وآيف نميز بين هذا وذاك؟-.

عمله يدل عليه، أنت مثلا ولد طيب فما يستحق سيدك إلا الجميل، وليس هكذا عفاريت بيومى وخنفس وبطيخة

فقال ببراءة

وعفريت ياسمينة هل يجب أن يخرج؟

فضحكت أم بخاطرها وقالت

جارتكم ؟لكن رجال جبل يريدونها آما هى

فقال باهتمام جدى

أريد أن اعرف هذه الأشياء فلا تبخلى على

فقال جواد

منذر الذى يبخل على الابن الطيب

وقالت أم بخاطرها

ما لهذا الولد الطيب والعفاريت،-.

ولكن أعلم ألا داء للناس إلا العفاريت

جميل أن تلازمنى آلما سمح الوقت، ولكن على شرط ألا يغضب أبوك، وسيتساءل الناس

وآان رفاعة يستمع وهو يرنو إلى صورة الجبلاوى.

48

النجارة مهتنة ومستقبلة، لا مهرب منها فيما يبدو، إن تكن نفسه لا ترتاح إليها فأى شئ ترتاح إليه نفسه؟ إنها افضل من السعى الكادح وراء عربات اليد أو من حمل المقاطف والسلال، أما المهن الأخرى آالبلطجة والفتونة فما أبغضها وامقتها، أم بخاطرها أثارت خياله آما لم يثره شئ من قبل اللهم إلا صورة الواقف المرسومة على جدار الحجرة فى بيت جواد الشاعرن وحض أباه يوما على رسم صورة مثلها فى بيتهم أو فى الدآان فقال له الرجل نحن أولى بنفقاتها، وهى خيال وما قيمة الخيال؟ فما آان منه إلا أن قال له : بودى لو أراه ! فضحك الرجل ضحكة عالية وقال له معاتبا اليس الأفضل أن ترى عملك ! لن

اعيش لك إلى الأبد، وعليك أن تتأهب ليوم تحمل فيه وحدك أعباء أمك وزوجك وأطفالك، لكنه لم يكن يفكر فى شئ آما آان يفكر فيما تقول أو تفعل أم بخاطرها، بدت له احاديثها عن العفاريت غاية من الهمية، ولم تزايل وعيه حتى فى الأوقات السعيدة التى تردد فيها على مقاهى الحارة واحدة بعد أخرى حتى الحكايات نفسها لم ترسب فى نفسه آما رسبت

أحاديث أم بخاطرها ، لكل إنسان عفريت هو سيده، وآما يكون السيد يكون العبد .. هكذا تردد أم بخاطرها وآم من ليلة قضاها فى حضرة الست يتابع دقات الزار ويشهد ترويض العفاريت، ومن المرضى من يساق إلى البيت فى حال خمود

وإعياء، ومنهم من يحمل مقيدا فى الغلال اتقاء لشره ويحرق البخور المناسب إذ لكل حال بخورها، وتدق الدقة المطلوبة إذ لكل عفريت دقة يطلبها، ثم تحدث العاجيب، إذن عرفنا لكل عفريت دواءه ولكن مادواء ناظر الوقف وفتواته؟ هؤلاء الأشرار

يسخرون من الزار ولعله لم يخلق إلا لهم ! القتل هو الوسيلة إلى الخلاص منهم أما العفريت فيستكين بالبخور الزآى والنغمة الطيبة، آيف يؤخذ العفريت الشرير بالجميل الطيب؟ ألا ما أجمل ما نتعلمه من الزار والعفاريت ! وقال لأم بخاطرها إنه يرغب من أعماق قلبه فى تلقى أسرار الزار، فسالته أتطمع فى المال الكثير؟ فأجابها بأنه فى تطهير الحارة يرغب لا فى المال الكثير، وضحكت المراة قائلة إنه أول رجل يرغب فى هذا العمل فماذا استهواه فيه؟ فأآد قائلا إن احكم ما فى عملك إنك تهزمين الشر بالطيب الجميل، ولما مضت تبيح له أسارها طاب نفسا وإعرابا عن مسرته آان يصعد إلى سطح الربع فى نشوة الفجر ليشهد يقظة النور، ولكن يستأثر البيت الكبير بلبه دون النجوم والسكون وصياح الديكة، ويرنو إلى البيت الراقد بين الأشجار طويلا، ثم يتساءل : أين أنت يا جدى؟ لماذا لا تظهر ولو لحظة ! لماذا لاتخرج ولا مرة؟ لماذا لا تتكلم

ولو آلمة؟ ألا تدرى أن آلمة منك تغير حارتنا من حال إلى حال؟ أم يرضيك ما يجرى بها؟ وما اجمل الأشجار حول بيتك! أنى احبها لأنك تحبها، وانظر إليها لألتقى نظراتك المطبوعة عليهان وآلما أفضى بخواطره إلى أبيه سمع عتابا وقال له:

"وعملك يا آسلان "! عن امثالك من الشبان يجوبون الأحياء سعيا وراء الرزق أو يهزون الحارة إذا رفعوا النبابيت، ويما آانت

الأسرة مجتمعة عقب الغداء إذ بعبة تقول لزوجها باسمة:

قل له يا معلم

أدرك رفاعة أنه المقصود بالكلام فنظر إلى أبيه مستطلعا لكن الرجل خاطب زوجته قائلا

حديثه أنت بما عندك أولا

فنظرت عبدة إلى ابنها باعجاب وقالت

-خبر سعيد يارفاعة، زارتنى ست زآية زوجة فتوتنا خنفس!

ورددت لها الزيارة بطبيعة الحال فاستقبلتنى بحفاوة وقدمت إلى ابنتها عيشة، بنت جميلة آالقمر، ثم زارتنى مرة أخرى ومعها عيشة.

ولحظ عم شافعى ابنه بطرف خفى وهو يرفع فنجال القهوة إلى فيه ليرى أثر الحكاية فى نفسه، ثم هز رأسه هزة من قدر الصعوبة التى تنتظره، وقال بتفخيم:

هذا شرف لم يحظ بمثله بيت من حى جبل، تصور أن زوجة خنفس وابنته يزوران بيتنا هذا!

رفع رفاعة عينيه إلى أمه حائرا فقالت بحماس

ما أفخم مسكنهم المقاعد الوثيرة، السجاد الفاخر، حتى الستائر تنسدل فوق النوافذ والأبواب

فقال رفاعة ممتعضا

آل هذا الخير من أموال آل جبل المغتصبة
فدارى عم شافعى ابتسامة وهو يقول
تعاهدنا على ألا نتكلم فى هذا الموضوع
وقالت عبدة باهتمام
فلنذآر فقط أن خنفس سيد آل جبل، وأن صداقة أهله دعاء مستجاب
فقال رفاعة فى ضجر
مبارآة عليك هذه الصداقة
فتبادلت الأم مع زوجها نظرة ذات معنى، قالت على أثرها
إن مجئ عيشة مع أمها حدث له معنى!
فتساءل رفاعة وهو يشعر بانقباض
ما معناه يا أمى ؟
فضحك شافعى وهو يلوح بيده يائسا وقال مخاطبا عبدة
آان ينبغى أن نقص عليه آيف تم زواجنا
فهتف رفاعة بضيق
-آلا ! آلا يا أبى.
ماذا تعنى ؟ ومالك تبدو آالعذراء؟
وقالت عبدة بإغراء ورجاء
أنت الذى بيدك أن تدخلنا نظارة وقف آل جبل ، سيرحبون بك إذا تقدمت، حتى خنفس سيرحب بك إذ لولا ثقة المرأة فى-.
مكانتها عنده ما أقدمت على تلك الخطوة، أمامك جاه ستحسدك الحارة عليه من أولها إلى أخرها
وقال الأب ضاحكا:
-من يدرى فلعلنا نراك يوما ناظرا لوقف جبل أو ترى أنت أحد أبنائك فيه.
أنت الذى تقول ذلك يا أبى؟ انسيت لماذا هاجرت من الحارة منذ عشرين عاما؟
فرمش عم شافعى فى شئ من الارتباك وقال
نحن نعيش اليوم آما يعيش غيرنا، فلا يجوز أن نهمل انتهاز فرصة تجئ بنفسها إلينا
وتمتم رفاعة وآأنه يحادث نفسه

آيف أصهر إلى عفريت وانا لا هم لى اليوم إلا مطاردة العفاريت!

فصاح شافعى محتدا

-ما طمعت يوما فى أن أجعل منك أآثر من نجار، ولكن الحظ يعرض عليك درجة مرموقة فى حارتنا، ولكنك تريد ان تكون آودية زار، يا للعار، أى عين أصابتك؟

قل إنك ستتزوجها ودعنا من الهزر:

لن أتزوجها يا أبى

فقال شافعى دون مبالاة

سأزور خنفس لأطلب القرب منه

فهتف رفاعة بحرارة

لا تفعل يا أبى

فسأله أبوه فى جزع

خبرنى ما شأنك يا ولد ؟

وتوسلت عبدة إلى زوجها قائلة

لا تشتد عليه ! أنت أعلم بحاله-. .

يا سوء ما أعلم ، حارتنا تعيرنا برقته-.

ترفق به حتى يفكر فى الأمر-.

أقرانه أباء، والأرض تهتز عند وقع أقدامهم

وحدجة بنظرة مغيظة ثم استطرد محتدا

-لماذا يهرب الدم من وجهك ؟ إنك من صلب رجال!

وتنهد رفاعة ، الصدر منقبض لحد البكاء، وشائج الأبوة يمزقها الغضب، والبيت يقسو حينا فيرتد سجنا آئيبا، ومرادك ليس فى هذا المكان ولا بين هؤلاء الناس، وقال بصوت مبحوح:

لا تعذبنى يا أبى-. .

أنت الذى تعذبنى ، آما عذبتنى منذ ولدت-.

واحنى رفاعة رأسه حتى اختفى وجهه عن والديه وأخفض الرجل من صوته وسكن ما استطاع غضبه، ثم سأله

هل تخاف الزواج؟ ألا تحب أن تتزوج؟ صارحنى بما فى نفسك، أم اذهب إلى أم بخاطرها فلعلها تعرف عنك ما لا نعرف

فهتف بحدة

آلا-. .

وقام فجأة فغادر الحجرة

49

ونزل عم شافعى ليفتح الدآان فلم يجد رفاعة هناك آما توقع، لكنه لم يناد عليه وقال لنفسه : إنه من الحكمة أن يتظاهر بالبرود لغيابه ، ومضى النهار يزحف رويدا وضوء الشمس ينحسر عن أرض الحارة، والنشارة تتكاثف حول قدمى شافعى دون

أن يظهر رفاعة، وأتى المساء فأغلق الرجل الدآان وهو فى غاية من الضيق والغضب، وقصد آعادته قهوة شلضم واتخذ مجلسه ولما رأى جواد الشاعر قادما وحده تولاه العجب وسأله:

إذن أين رفاعة ؟

فأجابه الرجل وهو يتلمس طريقه إلى أريكته

لم أره منذ أمس

فقال شافعى بقلق

لم أره منذ ترآنا بعد الغداء

رفع جواد حاجبيه الأشيبين ثم تساءل وهو يتربع على الأريكة ويضع الرباب إلى جانبه

هل وقع بينكما شئ؟

و لم يجبه شافعى، وقام فجأة فغادر القهوة وتعجب شلضم لقلق شافعى وقال ساخرا

هذه طراوة لم تعرفها حارتنا مذ أقام إدريس آوخه فى الخلاء . آنت اتغيب فى صغرى عن الحارة أياما فلا يسأل عنى-." أحد، وعند عودتى يصيح بى أبى الله يرحمه " : ما الذى عاد بك يا ابن اللئيمة؟

فعلق خنفس على آلامه من صدر القهوة قائلا:

-أصله لم يكن على يقين من أنك ابنه.

وضجت القهوة بالضحك، وهنأ آثيرون خنفس على جميل دعابته ! أما عم شافعة فمضى إلى بيته وسأل عبدة : هل عاد رفاعة فاستحوذ القلق على المراة ، وقالت : إنها آانت تظنه بالدآان آعادته، واشتد قلقها حين أخبرها أنه لم يذهب آذلك إلى بيت جواد الشاعر، وراحت المرأة تتساءل فى قلق:

-إذن أين ذهب؟

وترامى إليهما صوت ياسمينة وهى تزعق منادية على بياع تين فنظرت عبدة إلى شافعى نظرة مريبة فهز الرجل رأسه برما وأطلق ضحكة جافة مقتضبة ساخرة ولكن المرأة قالت:

-فتاة مثلها تحل العقد.

وذهب الرجل إلى بيت ياسمينة مدفوعا باليأس وحده، طرق الباب ففتحت ياسمينة بنفسها، ولما عرفته تراجع رأسها فى دهش مقرون بالظفر وقالت:

أنت ! ياما تحت الساهى دواهى!

فغض الرجل بصره أمام شفافية قميصها وقال بانكسار

رفاعة عندك ؟

فازدادت دهشة وقالت

رفاعة ! لمه ؟

فعلا الرجل الارتباك ، فأشارت إلى الداخل وهى تقول

ابحث عنه بنفسك

لكن الرجل استدار ليذهب فسألته ساخرة

هل أدرآه البلوغ اليوم ؟

وسمعها تخاطب شخصا فى الداخل قائلة

فى هذا الزمان الفتى يخشى عليه أآثر من الفتاة

ووجد عم شافعى عبدة تنتظره فى الدهليز، فقالت له

سنذهب معا إلى سوق المقطم

فصاح الرجل بغضب

-الله يتعبه ! أهذا جزائى بعد يوم عمل شاق!

واستقلا عربة آاروا إلى سوق المقطم وسألا عنه عند جيرانهما الأقدمين، وعند المعارف فلم يعثرا له على أثر، أجل آان يتغيب ساعات فى العصارى أو الأصائل فى الخلوات أو الجبل، ولكن لايتصور أحد أن يلبث حتى هذه الساعة من الليل فى الخلاء، وعادا إلى الحارة آما ذهبا ولكن على حال من الجزع أشد، ولاآت الألسن اختفاءه خاصة بعد أن مضت عليه أيام، صار دعبة فى القهوة وبيت ياسمينة وفى حى جبل، تندر الجميع بفزع والديه ، ولعل أم بخاطرها وعم جواد آانا الوحيدين اللذين شارآا والديه حزنهما، وقال عم جواد : أين ذهب الفتى؟ ليس هو من أولئك الشبان، لو آان على شاآلتهم ما

جزعنا ! وصاح بطيخة مرة وهو سكران جدع تايه يا اولاد الحلال، آأنما ينادى على طفل تائه، فضحكت الحارة وراح الغلمان

يرددونها، ومرضت عبدة من الحزن، وعمل شافعى فى دآانه بعقل شارد وعينين محمرتين من الأرق، أما زآية زوجة خنفس فقد انقطعت عن زيارة عبدة وتجاهلتها فى الطريق . ويوما آان شافعى مكبا على نشر قطعة من الخشب إذ صاحت به ياسمينة وهى عائدة من مشوار:

-عم شافعى .. انظر..

وجدها تشير إلى نهاية الحارة عند الخلاء، فغادر الدآان والمنشار فى يده ليرى ما تشير إليه، فرأى ابنه رفاعة يتقدم نحو الربع فى استحياء، وترك الرجل المنشار أمام الدآان وهرع نحو ابنه وهو يتفحصه بدهشة.

ثم قبض على عضديه هاتفا:

رفاعة ! أين آنت ؟ ألا تدرى ما يعنى غيابك لنا؟ لأمك المسكينة التى تكاد أن تموت جزعا

و لم ينبس الشاب ، ووضح للأب هزاله فسأله

هل آنت مريضا ؟

فأجاب فى ارتباك

آلا ، دعنى أرى أمى

واقتربت ياسمينة منهما وسألت الشاب فى ارتياب

ولكن أين آنت ؟-.

فلم ينظر نحوها، وتجمع حوله الغلمان فسار به أبوه إلى البيت

وسرعان ما تبعهما عم جواد وأم بخاطرها، ولما رأته أمه وثبت من الفراش وضمته إلى صدرها وهى تقول بصوت ضعيف:

سامحك الله .. آيف هانت عليك أمك ؟

فتناول راحتها بين يديه واجلسها على الفراش وجلس إلى جانبها وهو يقول

إنى أسف.

فرفع أبوه وجها متهجما نقيض الارتياح السارى فى أعماقه آالغمامة السوداء المظلة لوجه القمر وقال بعتاب

ليس إلا أننا قصدنا إسعادك

فتساءلت عبدة بعينين مغرورقتين

توهمت أننا نجبرك على الزواج ؟

فقال بحزن

إنى متعب

فسأله أآثر من صوت

أين آنت ؟

فتنهد قائلا

لشراء الطعام

فضرب الأب جبهته بيده وصاح

ضقت بحياتى فذهبت إلى الخلاء ، شعرت برغبة فى الوحدة والخلاء، و لم أآن أتر آه إلا

ما هكذا يفعل العقلاء!

وإذا بام بخاطرها تقول فى إشفاق

دعوه أنا خبيرة بهذه الأحوال، ولا يصح أن يفرض على مثله شئ يأباه

فقالت عبدة وهى تشد على يده

آانت سعادته أملنا، ولكن ما قدر آان، آم ضمرت يا بنى!

توتساءل عم شافعى فى غيظ

دلونى على شئ آهذا حصل من قبل فى حارتنا!

فقالت أم بخاطرها فى لوم

ليس حالة بالغريب على يا عم شافعى ، صدقنى، إنه شاب نادر المثال

فغمغم عم شافعى فى حزن

صرنا أحدوثة فى الحارة

فقالت أم بخاطرها غاضبة

ليس فى الحارة آلها فتى مثله

فقال عم شافعى

هذا موضع الأسى

فصاحت أم بخاطرها

-وحد الله يا رجل ، أنت لا تدرى ماذا تقول ولا تفهم ما يقال.

50

أصبح للدآان منظر يوحى بالنشاط والنجاح، فعند طرف الطاولة وقف عم شافعى ينشر الخشب، وعند طرفها الآخر قبض رفاعة على القدوم وراح يدق المسامير، اما أسفل الطاولة فبدا إناء الغراء مغروسا فى رآام النشارة حتى منتصفه، وأسند إلى الجدران ضلفات نوافذ ومصاريع ابواب، يتوسطها صف عمودى من الصناديق الجديدة بلون الخشب الباهت المصقول لا ينقصها إلا الدهان، وامتلأ الجو برائحة خشبية وأصوات النشر والدق والحك وقرقرة الجوز يدخنها أربعة زبائن جلسوا عند مدخل الدآان يتحادثون، وقال حجازى مخاطبا عم شافعى:

-سأجرب مهارتك فى هذه الكنبة وإن شاء الله سيكون العمل القادم جهاز البنت) ثم مخاطبا أصحابه (وأعود فأقول لكم إننا

نعيش فى أيام لو عاد إليها جبل لجُن.ً

فهزوا رؤوءهم فى أسى وهم يدخنون، أما برهوم الترابى فسأل عم شافعى باسما:

لماذا لا تريد أن تصنع لى تابوتا؟ أيس آل شئ بثمنه

فكف عم شافعى يده عن المنشار لحظة وقال ضاحكا

يفتح الله ، وجود التابوت فى الدآان يهرب الزبائن

فقال فرحات مؤمنا على قوله

صدقت قطع الموت وسيرته

فعاد حجازى يقول

-عيبكم أنكم تخافون الموت أآثر مما ينبغى : لذلك سيطر عليكم خنفس، وتسلط بيومى ، وصادر إيهاب أرزاقكم.

وأنت ألا تخاف الموت مثلنا ؟

فبصق ثم قال

العيب عيبنا جميعا ، آان جبل قويا، وبالقوة والعنف استخلص لنا حقنا الذى أضاعه الجبن

وإذا برفاعة يتوقف عن الدق فيخرج المسامير من فيه ويقول

إراد جبل استخلاص حقنا بالحسنى، و لم يعمد إلى القوة إلا دفاعا عن نفسه

فضحك حجازى واستهزاء وقال متسائلا

بالقوة ؟

فقال رفاعة باهتمام جدى

خبرنى يا ابنى هل تستطيع دق المسامير إلا

ليس الإنسان آالخشب يا معلم

وحدجة أبوه بنظرة فعاد إلى عمله، واستطرد حجازى قائلا

الحق أن جبل آان فتوة من أشد الفتوات الذين عرفتهم حارتنا، وآم حث آل جبل على الفتونة

فقال فرحات مصححا

أراد منهم أن يكونوا فتوات عل الحارة لا على آل جبل-. .

وما هم اليوم إلا فئران أو أرانب

وتساءل عم شافعى وهو يجفف أنفه بظهر يده

وألا الألوان تفضل يا عم حجازى؟-.

اختر لونا لايتوسخ بسرعة، فهذا أضمن للنظافة

وواصل حديثه للأصحاب قال

جبل عينه، فبالجبروت أقام العدل

وتنهد رفاعة بصوت مسموع وقال

ويوم فقأ دعبس عين آعبلها فقأ

لا يعوزنا الجبروت ، آل ساعة من نهار أو ليل نرى أناسا يضربون ويجرحون ويقتلون حتى النساء ينشبن الأظافر حتى-.

تسيل الدماء، ولكن أين العدل؟ ألا ما أقبح هذا آله

ووجم الجميع لحظة ثم قال حنورة ، وآان يتكلم لأول مرة:

-هذا المعلم الصغير يحتقر حارتنا ! إنه رقيق آأثر من اللازم وأنت السبب يا معلم شافعى.

أنا ؟-.

نعم ، إنه شاب مدلع

والتفت حجازى نحو رفاعة وقال ضاحكا

خير من هذا أن تجد لنسفك عروسا

وتعالى الضحك ، فقطب عم شافعى وتورد وجه رفاعة، وعاد حجازى يقول مؤآدا-.

-القوة .. القوة ، بغيرها لا يسود العدل

فقال رفاعة بإصرار رغم نظرات أبيه إليه

الحق أن حارتنا فى حاجة إلى الرحمة

فضحك برهوم الترابى قائلا

أتريد أن تخرب بيتى

وضجوا بالضحك، وأعقب ذلك نوبات سعال، حتى قال حجازى وقد صارت عيناه فى لون الغرا

قديما ذهب جبل إلى الأفندى يسأله العدل والرحمة، فأرسل إليه زقلط ورجاله ولولا النبابيت - لا الرحمة - لهلك جبل وآله

وهتف عم شافعى محذرا

يا هوه ! للحيطان أذان، لو سمعوآم ما وجدتم من يسمى عليكم:

فقال حنورة

فيكم، ولو مر أمامكم الآن خنفس لسجدتم بين يديه

ثم وهو يلتفت نحو رفاعة

صدق الرجل، ما أنتم إلا حشاشون لا خير

لا تؤاخذنا يا بنى، فليس على الحشاش حرج، ألم تجرب الحشيش يا رفاعة؟

فقال عم شافعى ضاحكا

لايميل إلى مجالسة ، وإن زاد على نفسين لهث أو نام

فقال فرحات

شاعرًا لتعلقه بالحكايات:

فقال فرحات

ما ألطف هذا الشاب ، يظنه البعض آودية زار لملازمته لأم بخاطرها ويظنه أخرون

-ويكره مجالس الحشيش آما يكره الزواج!

ونادى برهوم صبى القهوة ليأخذ الجوز، ثم قاموا مسلمين فأنفض المجلس، وترك عم شافعى المنشار لينظر إلى ابنه فى عتاب ثم قال

-لا تحشر نفسك فى أحاديث أولئك الناس.

وجاء غلمان ليلعبوا أمام الدآان فدار رفاعة حول الطاولة حتى وقف أمام أبيه، ثم تناول يده وتراجع به إلى رآن الدآان بعيدا عن الآذان:

بدا منفعلا قلقا لكن تطابقت شفتاه فى تصميم وشع من عينيه نور عجيب حتى تساءلت عينا الرجل، وإذا برفاعة يقول:

-لن أستطيع السكوت بعد اليوم.

فتضايق الأب ، يا له من متعب هذا الأبن العزيز، ينفق وقته الغالى فى بيت أم بخاطرها، ويخلو الساعات الطوال إلى نفسه عند صخرة هند، وإذا مكث فى الدآان ساعة أثار المشاآل بمناقشاته.

هل تجد تعبا ؟

فقال بهدوء غريب حل محل القلق

-لايجوز أن أخفى عليك ما فى نفسى.

ماذا عندك ؟

فاقترب منه أآثر وقا ل

أمس عقب خروجى من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت برغبة فى الانطلاق فقصدت الخلاء، مشيت فى الظلام-.

حتى تعبت، ثم اخترت مكانا أسفل سور البيت الكبير المشرف على الخلاء فجلست مسندا ظهرى إلى السور

فبدا الاهتمام فى عينى الرجل ، وحثه بنظرة على متابعة الحديث فقال:

سمعت صوتا غريبا يتكلم، آأنما آان يحدث نفسه فى الظلام، فدهمنى شعور مشرق بأنه صوت جدنا الجبلاوى

فحملق الرجل فى وجه ابنه وتمتم فى ذهول

صوت الجبلاوى ؟ ما الذى حملك على هذا الظن ؟

فقال رفاعة بحرارة

الوراء لأتمكن من-.

رؤيته ولكنى لم أر إلا ظلاما

ليس ظنا يا أبى، سيجيئك الدليل، وقد قمت حال سماعى الصوت فاستدرت نحو البيت وتراجعت إلى

-الحمد لله!

صبرًا يا أبى، سمعت الصوت وهو يقول : أما جبل فقد قام بمهمته وآان عند حسن الظن به، ولكن الأمور ارتدت إلى أقبح-!

مما آانت عليه

شعر شافعى بصدره يحترق وتفصد جبينه عرقا، وقال بصوت متهدج:

ما أآثر الذين جلسوا مجلسك تحت السور فلم يسمعوا شيئا-. .

لكنى أنا سمعت يا أبى-!

لعله أحد آان راقدا فى الظلام

فهز رأسه بعزم وقال

-بل جاء الصوت من البيت!

آيف عرفت هذا ؟-.

هتفت قائلا : يا جدى ، جبل مات، وخلفه أخرون، فمد إلينا يدك

فقال شافعى باضطراب
-الله أسأل ألا يكون أحد سمعك.
فقال رفاعة بعينين مضيئيين : جدى سمعنى ، وجاءنى صوته قائلا : ما أقبح أن يطالب شاب جده العجوز بالعملن والابن الحبيب من يعمل . فسألته : وما حيلتى حيال أولئك الفتوات أنا الضعيف؟ فأجابنى : الضعيف هو الغبى الذى لا يعرف سرقوته وأنا لا أحب الغبياء.
فتساءل عم شافعى فى فزع:
أتظن أن هذا الكلام دار بينك وبين الجبلاوى ؟-!
نعم ورب السماوات
فند عن الرجل أنين ، وقال متوجعا
يا للأوهام خلاقة المصائب-. !
أقول شك
فقال الرجل متحسرًا
صدقنى يا أبى، ليس فيما
لا تقطع أملى فى أن نجد شكا-. .
فقال رفاعة بوجه يتألق نشوة آالنغمة الحلوة
وأعرف الآن ما يراد منى
فضرب الرجل جبينه بغيظ وصاح متسائلا
وهل أيضا يراد منك شئ ؟-!
نعم ، إنى ضعيف ولكن لست غبيا، والأبن الحبيب من يعمل
فهتف شافعى وهو يشعر آأن المنشار ينشر صدره
سيكون عملك أسود، وسوف تهلك وتجرنا معك إلى الهلاك!
فقال رفاعة باسما
-إنهم لايقتلون إلا من يتطلع إلى الوقف!
وهل تتطلع إلى شئ غير الوقف ؟
فقال رفاعة بصوت ملئ بالثقة
الحياة الصافية الغناء، لكن

35

Page-آان أدهم ينشد الحياة الصافية الغناء، آذلك جبل وهو لم يطالب بحقه فى الوقف إلا سعيا وراء غلب علينا الظن بأن هذه الحياة لن تتيسر لأحد إلا إذا توزع الوقف على الجميع فنال آل حقه واستثمره حتى يغنيه عن الكد فتخلص له الحياة الصافية الغناء، ولكن ما أتفه الوقف إن أمكن بلوغ هذه الحياة بدونه، وهو أمر ممكن لمن يشاء، وبوسعنا أن نغنى منذ الساعة!

فتنهد عم شافعى فى شئ من الارتياح وتساءل:

-هل قال لك جدك ذلك ؟

-قال إنه لايحب الأغبياء، وقال إن الغبى هو الذى لايعرف سر قوته، وإنى أخر من يدعو إلى قتال فى سبيل الوقف، الوقف لا شئ يا أبى وسعادة الحياة الغناء هى آل شئ ولا يحول بيننا وبين السعادة إلا العفاريت الكامنة فى أعماقنا، ولم يكن عبثا أن أشغف بطب العفاريت وأن أحسنه لعلها إرادة رب السماوات هى التى دفعتنى إليه.

ارتاح شافعى بعد عذاب، ولكن بعد أن استنفد العذاب قواه، فانحط على النشارة، مادا ساقيه مسندا ظهره إلى ضلفة نافذة منتظرة دورها فى الإصلاح، ثم ساءل ابنه فى شئ من السخرية:

لكن آيف لم نبلغ الحياة الغناء وفينا أم بخاطرها من قبل أن تولد أنت ؟

فقال رفاعة بالصوت الملئ بالثقة

لأنها تنتظر حتى يجئ إليها المرضى الموسرون ولا تذهب بنفسها إلى المساآن

فنظر عم شافعى فى أرآان دآانه وقال بارتياب

لنا الغد من تحت رأسك ؟

فقال رفاعة بابتهاج

انظر إلى إقبال الرزق علينا فماذا يجبى

آل خير يا أبى ، إن شفاء المرضى لن يقلق إلا العفاريت-. .

وتوهج ضياء فى الدآان منبعثا من مرأة صوان قرب الباب عاآسا شعاع الشمس المائلة

51

وانتقل القلق ليلا إلى بيت عم شافعى ومع أن الحديث تناهى إلى عبدة فى إطار من الطمأنينة ومع أنها لم تعلم سوى أن رفاعة سمع صوت جده وهو يتكلم وأنه قرر بعد ذلك أن يزور المساآين ليطرد عنهم العفاريت، إلا أن القلق اجتاح نفسها

ولبثت تقلب وجوه العواقب آان رفاعة فى الخارج، وآان فى أقصى الحارة - بعيدا عن حى جبل - عرس تترامى منه أصوات طبل وزمر وزغاريد وأرادت المرأة أن تواجه الحقيقة فقالت بحزن.

رفاعة لا يكذب

فقال شافعى بامتعاض

-ولكن قد تخدعه الأوهام، آلنا عرضة لذلك.

-وماذا ترى فيما سمع؟

آيف لى بأن أجزم ؟-

لا محال فى الأمر مادام جدنا حيا-

الويل لنا لو عرف الخبر

فقالت برجاء

-فلنكتم الخبر، ولنحمد الله على أنه رآز اهتمامه بالنفوس لا بالوقف، ومادام لايؤذى أحدًا فلن يؤذيه أحد.

فقال شافعى بفتور ك

-ما أآثر الذين يؤون فى حارتنا دون أن يؤذوا أحدًا.

واختفت أنغام العروء وراء ضجة انفجرات فى الدهليز، وأطلا من النافذة فرأيا الدهليز مزدحما بالرجال، وتبينا على ضوء مصباح

فى يد أحدهم وجوه حجازى وبرهوم وفرحات وحفورة وأخرين، وآان آل لسان يتكلم أو يصرخ فاختلطت الأصوات وعمت الضوضاء، وعلا صوت هاتا : شرف آل جبل فى الميزان، ولن نسمح لأحد بتلويثه.

وهمست عبدة فى أذن زوجها وهى ترتعد:

سر أبننا انكشف

فتراجع شافعى عن النافذة متأوها وهو يقول

لم يكذبنى قلبى قط

واندلع الرجل خارج بيته غير مبال بالخطر فتبعته زوجه على الأثر وشق الرجل فى الزحام سبيلا متسائلا بصوت مرتفع

-رفاعة ! أين أنت يا رفاعة ؟

ولم ير الرجل ابنه فى مجال ضوء المصباحن ولم يسمع صوته ولكن حجازى اقترب منه وسأله بصوت مرتفع ليسمعه رغم الضوضاء:

هل أتاه ابنك مرة أخرى ؟

وصاح به فرحات

تعال أسمع ما يقال وانظر آيف يعبث العابثون بآل جبل على أخر الزمان!

فهتفت عبده جزعا

-وحدوا الله ، والمسامح آريم.

فتعالت أصوات الغضب يهتف بعضها : هذه المرأة مجنونة، ويهتف أخرون : إنها لا تعرف معنى الشرف، وامتلأ قلب شافعى رعبا وسأل حجازى مستعطفا:

أيو الولد ؟

فشق حجازى سبيله حتى الباب وصاح بأعلى صوته

يارفاعة ، تعالى يا ولد آلم عم شافعى.

فاختلط الأمر على عم شافعى الذى آان يظن أبنه مقبوضا عليه فى رآن الدهليز، إذا برفاعة يظهر فى مجال الضوء فيجذبه أبوه من ذراعه ويتقهقر به إلى موقف عبدة، وسرعان ما تراى فانوس فى يد شلضم يسير به بين يدى خنفس الذى تقبض وجهه حنقا وتجهما، واتجهت النظار نحو الفتوة وساد الصمت وتساءل خنفس بصوت غليظ:

ماذا وراءآم ؟

فأجابه أآثر من صوت فى أن واحد

ياسمينة لوثتنا!

فقال خنفس

فليتكلم الشاهد منكم!

فتقدم زيتونة - سائق عربة آارو - حتى وقف أمام خنفس وقال

-منذ قليل رأيتها خارجة من باب بيت بيومى الخلفى، تبعتها إلى هنا ثم سألتها عما آانت تفعل فى بيت الفتوة فتبين لى سكرها، آانت رائحة الخمر تخرج من فيها فتملأ الدهليز، أفلتت مى وأغلقت على نفسها الباب، والآن سلوا أنفسكم عما يكن أن تفعله امرأة سكرانة فى بيت فتوة.

استرخت أعصاب شافعى وعبدة من ناحية، وتوترت أعصاب خنفس من ناحية أخرى، أدرك الرجل أن فتونته تتعرض لامتحان قاس، فلو تهاون فى معاقبة ياسمينة سيفقد آرامته أمام آل جبل، ولو ترك الغاضبين ليعتدوا عليها فسيدفع بنفسه إلى موقف التحدى أمام بيومى فتوة الحارة آلها، ما العمل؟ وآان رجال جبل يتوافدون من الربوع ويحتشدون فى الحوش، وفى الحارة أمام ربع النصر فازداد مرآز خنفس حرآا وتتابعت الأصوات فى غضب:

اطردوها من حى جبل-. .

يجب أن تُجلد قبل طردها
اقتلوها قتلا
وترامت صرخة ياسمينة التى آانت تنصت فى الظلام وراء النافذة واحدقت الأعين بخنفس لكن رفاعة سمع وهو يسأل أباه
:
أليس الأولى بهم يا أبى أن يصبوا غضبهم على بيومى المعتدى؟
وغضب آثيرون من بينهم زيتونة الذى أجابه قائلا
هى التى ذهبت إلى بيته بنفسها
وصاح به آخر
وإذا لم يكن عندآك آرامة فمن الخير أن تسكت
وزجره أبوه بنظرة لكن رفاعة قال باصرار
لم يفعل بيومى إلا مثلما تفعلون
فصرخ فيه زيتونة بجنون
هى من آل جبل فليست للآخرين-. .
هذا الولد سفيه وبلا آرامة
فلكزه عم شافعى آى يسكت على حين صاح برهوم
-الكلمة الآن للمعلم!
وغلى الغيظ فى قلب خنفس حتى آاد أن يختنق وصرخت ياسمينة صرخات استغاثة، وانتشر الغضب فاتجهت الأنظار نحو بيت الفتاة وتوثب فيها الهجوم، وتتابعت صرخات ياسمينة حتى تقطع قلب رفاعة ولم يعد فى وسعه الاحتمال ، فأفلت من يد أبيه وشق طريقه إلى بيت ياسمينة وهتف برجاء:
رحمة بضعفها وذعرها-. .
فصاح به زيتونة
أنت مرة!
وناده شافعى بحرارة لكنه لم يباله وأجاب زيتونة
الله يسامحك) ثم للجميع (ارحموها، افعلوا بى ما تشاءون ، ألا تحرك الاستغاثات قلوبكم؟
فعاد زيتونة يصيح
لا تلتفتوا لهذا الرقيع) ثم مخاطبا خنفس (الكلمة آلمتك يا معلم!

فتساءل رفاعة

هل يرضيكم أن أتزوج منها ؟

فاختلط صراخ الغضب بصيحات الاستهزاء، وقال زيتونة

لا يهمنا إلا أن تنال جزاءها

فاستقتل رفاعة قائلا

سيكون العقاب من شأني أنا.

بل هو من شأن الجميع

ووجد جنفس فى اقتراح رفاعة منقذا له من ورطته، لم يكن فى قلبه مقتنعا به ولكن لم يكن عنده خير منه، وغالى فى تجهمه مداريا ضعفه، وقال:

الولد ارتبط أمامنا بزواجها فله ما يطلب

زاغ بصر زيتونة وأعماه الغضب فصاح

-ضيع الجبن الشرف!

وإذا بقبضة خنفس تحطم أرنبة أنفه، فتراجع مولولا والدم يسيل من منخريه بغزارة، وأدرك الجميع أن خنفس سيغطى على موقفه الضعيف بإرهاب من يخالفه، وقلب عينيه فى الوجوه التى آشف ضوء الفانوس عن خوفها فلم تند من أحد منهم حرآة عطف على محطم الأنف ، بل وبخ فرحات زيتونة قائلا : عيبك فى لسانك، وقال برهوم لخنفس : لولاك ما أهتدينا إلى حل، وقال له حنورة : زعلك بالدنيا يا معلم، وأخذوا فى التفرق فلم يبق فى النهاية إلا خنفس وشلضم وشافعى وعبدة ورفاعة، ومضى عم شافعى إلو خنفس ليحييه فمد له يده ولكن الآخر استشاط غضبا وضرب يده بظاهر آفه فتأوه الرجل مقهقرا، وهرع إليه ابنه وزوجته على حين غادر خنفس الدهليز وهو يسب الرجال والنساء، وآل جبل بل وجبل نفسه، ونسى عم شافعى فى ألمه الورطة التى عثر فيها ابنه، ونقع الرجل يده فى ماء ساخن وراحت عبدة تدلكها وهى تقول:

ترى هل أوغرت زآية صدر زوجها علينا ؟

فقال عم شافعى متوجها

-نسى الجبان أن ابننا الأحمق هو الذى أنقذه من نبوت بيومى.

52

آان رفاعة معقد أمال والديه فشد ما خبت اآمال بزواجه من ياسمينة سينتهى الشاب إلى لا شئ، أما الأسرة فصارت

مضغة للأفواه ولما يتم الزواجن وبكت عبدة خفية حتى أضر بها البكاء وتجهم وجه شافعى إذ تجهمته الدنيا، لكنهما حيال الشاب أنطويا على نفسيهما وتجنبا المغاضبة، ولعل ياسمينة هونت من الخطب بسلوآها عقب المظاهرة إذ هرعت إلى بيت عم شافعى وجثت أمام الرجل وزوجه بآية وسكبت على قدميهما بعض ما فاض به قلبها من الامتنان، ثم أعلنت فى حرارة وجد توبتها، ولم يكن من الممكن العدول عن الزواج بعد أن ارتبط به الشاب جهارا أمام آل جبل، فسلم عم شافعى زوجه بالأمر ووطنا النفس على تقبله وتنازع قلبى الوالدين رغبتان واحدة تود أن ترعى التقاليد فى الاحتفال بعر رفاعة وموآب زفته، والأخرى ترى الاقتصار على حفل بيتى حتى لا يتعرض الموآب بسخرية آل جبل الذين باتوا يعرضون بالزواج فى آل ناد، وقالت عبدة فى حسرة معربة عن عواطفها المكبوتة:

طالما منثت نفسى برؤية زفة رفاعة، ابنى الوحيد، وهى تجوب الأحياء

فقال عم شافعى بامتعاض

لن يرضى بالاشتراك فيها أحد من آل جبل

فقضبت عبدة قائلة

العودة إلى سوق المقطم خير من البقاء بين أناس لا يحبوننا!

فقال رفاعة وهو يمد ساقية تحت النافذة المفتوحة متشمسا

لن نغادر الحارة يا أمى

فصاح شافعى بحدة

ليتنا لم نعد) ثم مخاطبا ابنه (ألم تكن حزينا يوم عدنا؟

فابتسم رفاعة قائلا

اليوم غير الأمس إذا ذهبنا فمنذا الذى يخلص آل جبل من العفاريت ؟

فقال شافعى محتدًا

فلترآهم العفاريت إلى الأبد

ثم بعد تردد

أنت نفسك ستجئ إلى بيتنا ب.

وقاطعة رفاعة

المسكن الآخر

فهتفت الأم

لن أجئ إلى بيتنا أحد سأذهب أنا إلى

لا يعنى أبوك ذلك.
لكننى أعينه يا أمى ، ليست البيت الجديد بالبعيد، وفى وسعنا أن نتصافح آل صباح من النافذة
ورغم أحزان عم شافعى قرر الاحتفال بيوم الزفاف ولو فى أضيق الحدود أقام الزينات بالدهليز وفوق بأبى المسكنين وجاء بمغن وطباخ، ودعا جميع المعارف والأصدقاء ولكن لم يلب الدعوة إلا عم جواد وأم بخاطرها وعم حجازى وأسرته وبعض الفقراء الذين حرصوا على الطعام وآان رفاعة أول فتى يتزوج بلا زفة، وانتقلت الأسرة عبر الدهليز إلى بيت العروس وغنى المطرب بفتور لقلة المدعوين، وفى أثناء تناول الطعام أثنى جواد الشاعر على شهامة رفاعة وخلقه، وقال إنه فتى زآى حكيم صافى السريرة ولكنه فى حارة لا تقيم لغير البلطجة والنبابيت وزنا، وإذا بغلمان يقفون أمام الربع ويغنون معا:
يا رفاعة يا وش القملة مين قلك تعمل دى العملة . ويختمون بالتهليل والعربدة، ونظر رفاعة فى الأرض على حين اصفر وجه شافعى وغضب عم حجازى وقال
الكلاب أولاد الكلاب!
ولكن عم جواد قال
-ما أآثر القاذورات فى حارتنا ولكن الطيب لا ينسى فيها ابدا، آم من فتوى استكبر فيها؟ لكنها لا تذآر بالجميل إلا أدهم وجبل، ثم حث المطرب على الغناء ليغطى غناءه على الأصوات المعربدة ومضى الحفل فى مغالبة للوجوم حتى انصرف الجميع ولم يبق فى البيت إلا رفاعة وياسمينة، بدت الفتاة فى ثوب العرس أية فى الجمال، وإلى جانبها جلس رفاعة فى جلباب حريرى مهفهف، وعلى الرأس لاسة مزرآشة، وفى القدمين مرآوب فاقع الاصفرار جلسا على آنبة يقابلها فى الناحية الخرى الفراش المورد، وقد لاحت فى مرأة الصوان صورة الطشت والبريق تحت الفرا، والظاهر أنها آانت تتوقع من جانبه هجوما، أو على الأقل تمهيدا للهجوم المنتظر، ولكنه لبث يردد البصرر بين الفانوس المدلى من السقف والحصيرة الملونة.
ولما طال الانتظار أرادت أن تبدد آثافة الصمت المخيم فقالت برقة:
لن أنسى فضلك، إنى مدينة لك بحياتى
فنظر نحوها فى مودة وقال بصوت من لايود الرجوع إلى هذا الحديث
-آلنا مدينون بحياتنا لغيرنا.
ما أطيبه ! ليلة الحادث أبى أن يبيع لها يديه تقبلهما، وهو الان لا يود تذآيره بالجميل الذى صنع ليسم آمثل طيبته، إلا صبره لكن فيم يفكر يا ترى؟ هل ساءه أن تدفعه طيبته إلى الزواج من مثلها؟
لست شريرة بالدرجة التى يظنها الناس، أما هم فقد أحبونى واحتقرونى لشئ واحد
فقال مواسيا

أعرف ذلك ، ما أآثر الأخطاء بحارتنا

فقالت بحنق

يفاخرون دائما بأنهم من صلب أدهم، وفى نفس الوقت يباهون بالكبائر

فقال فى يقين-.

-مادام التخلص من العفاريت ميسورا فما أقربنا من السعادة

و لم تدرك مرماه ولكنها استشعرت فجأة مدى السخرية التى تحيط بها فى مجلسها فقالت ضاحكة

-ما أعجبه من حديث فى ليلة الزفاف!

وفعت رأسها فى شئ من الكبرياء فبدا أنها تناست حال الامتنان، وأزاحت عن منكبيها الوشاح، ونظرت نحوه نظرة مفعمة بالدلال ، فقال برجاء:

ستكونين أول من يسعد حارتنا

فقالت ياسمينة

حقا ؟ عندى شراب-. !

شربت قليلا مع العشاء وفيه الكفاية

فتفكرت قليلا فى حيرة ثم قالت

عندى حشيش طيب-. !

جربته فوجدتنى لا اطيقه

فقالت فى ارتياح

-أبوك حشاش قارح، رأيته مرة خارجا من غرزة شلضم وهو لايميز بين الليل والنهار!

فابتسم دون أن ينبس، فردت عنه طرفها فى انكسار وتميزت غيضا، وقامت فمضت حتى الباب ثم استدارت عائدة حتى وقفت تحت الفانوس، وشف ثوبها الرقيق عن جسدها البارع، وجعلت تنظر فى عينيه الهادئتين حتى داخلها الياس وتساءلت:

لماذا انقذتنى-. .

لا أطيق أن يتعذب إنسان

فغلبها الغيظ وقالت فى حدة

من اجل هذا تزوجتنى من أجل هذا وحده!

فقال برجاء

لا عودى إلى أيام الغضب!

فغضت شفتها فيما يشبه الند وقالت بصوت منخفض

ظننتك أحببتنى

فقال فى صدق وبساآة

إنى أحبك يا ياسمينة

فلاح التعجب فى عينيها وغمغمت

حقا ؟-.

نعم، ما من مخلوق فى حارتنا إلا واحبه

فتنهدت فى خيبة، ورمقته بريبة قائلة

فهمتك ، ستبقى إلى جانبى أشهر ثم تطلقنى

فاتسعت عيناه وتمتم

-لا تعودى إلى الأفكار الماضية.

حيرتنى ! ماذا عنك لى ؟-.

السعادة الحقيقة

فقالت بامتعاض

عرفنها أحيانا من قبل أن أراك-. .

لا سعادة بلا آرامة

فقالت وهى تضحك على رغمها

ولكننا لا نسعد بالكرامة وحدها

فقال بصوت حزين

لم يعرف أحد من حينا السعادة الحقيقة

اتجهت بخطوات ثقيلة نحو الفراش، وجلست على حافته فى فتور ودنا إليها بحنان، وقال

إنك آجميع أهل حينا لا تفكرين إلا فى الوقف الضائع ! فلاح فى وجهها السخط وقالت:

ربنا يقدرنى على حل الغازك-. .

ستحل نفسها بنفسها عندما تتخلصين من عفريتك

فهتفت بحدة

أنى راضية عن نفسى آما هى
فقال رفاعة بأسى
هكذا يقول خنفس والآخرون
ونفخت فى ضيق وتساءلت
-هل نتكلم على هذا النحو حتى الصباح ؟
نامى ! أسعد الله أحلامك ؟
وتزحزحت إلى الوراء ثم استلقت على ظهرها، ورددت عينيها بين الفراغ جنبها وبين عينيه فقال
خذى راحتك ، سأنام أنا على الكنبة
وانتبتها نوبة ضحك لكنها لم تستسلم لها طويلا، وقالت ساخرة
أخاف أن تزورنا امك غدا لتحذرك من الإفراط
ونظرت نحوه لتتشفى برؤة الخجل فى وجهه ولكنه طالعها بعينين هادئتين صافيتين، وقال
أود أن اخلصك من عفريتك-. .
فصاحت غاضبة
-دع اعمال النساء للنساء.
وأدارت وجهها للحائط وآان صدرها يحترق غيظا وقلقا، وقام رفاعة إلى الفانوس وأخفض ذبالته ثم نفخه فانطفأ وساد الظلام .

53

وشهدت الأيام التالية للزواج حرآة دائبة فى حياة رفاعة، انقطع عن الدآان أو آاد، ولولا حب أبيه وعطفه لما وجد ما يمسك به حياته، ومضى يدعو من يصادفه من آل جبل إلى أن يثق به آى يخلصه من عفريته فيحقق لذلك سعادة صافية لم يحلم بها من قبل وتهامس آل جبل بان رفاعة ابن شافعة قد خف عقله وامسى من زمرة المجذوبين، وعلل البعض ذلك بما عرف عنه من غرابة أطوار، آما علله أخرون بزواجه من امرأة مثل ياسمينة، ودارت الأحاديث عن ذلك فى القهوة والبيوت وحول عربات اليد وفى الغرز، وشد ما دهشت أم بخاطرها حين مال رفاعة على أذنها وقال برقته المعهودة:
هلا سمحت لى بأن أطهرك ؟
فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت

-ومن أدراك بأن على عفريتا شريرا؟ أهذا هو رأيك عن المراة التى أحبتك آابنها؟فقال جادا:

أنا لا اعرض خدماتى إلا على الذين أحبهم واحترمهم، وأنت مصدر خير وبرآة ولكنك لا تخلين من طمع يحملك على-!
الاتجار بالمرضى، فلو تخلصت من سيدك لوهبت الخير بلا ثمن

و لم تتمالك المرأة من الضحك وهى تقول:

أتود خراب بيتى ! الله يسامك يارفاعة

وتناقل الناس حديث أم بخاطرها ضاحكين حتى عم شافعى ضحك ضحكة بلا مسرة ولكن رفاعة قال له

أنت نفسك يا أبى فى حاجة إلى ومن البر أن ابدا بك

فهز الرجل رأسه فى آمد ، وراح يدق المسامير بين يديه بقوة وشت بانفعاله ثم قال

ربنا يصبرنى

وحاول الشاب اقناعه فتساءل الرجل متألما

أما آفاك أن جعلتنا احدوثة الحى ؟

وانزوى رفاعة فى رآن الدآان مكتئبا فرمقه الرجل بريبة وسأله

أحقا دعوت زوجك إلى ما تدعونا إليك ؟

فقال بأسف

-وهى مثلكم لا ترغب فى السعادة.

ومضى رفاعة إلى غرزة شلضم فى الخرابة وراء القهوة فوجد حول المحجرة شلضم وحجازى وبرهوم وفرحات وحنورة وزيتونة تطلعوا إليه بغرابة وقال شلضم:

أهلا بابن عم شافعى، ترى هل أقنعك الزواج بفائدة الغرز ؟

فوضع رفاعة على الطبلية لفة آنافة وقال وهو يتخذ مجلسه

فقال شلضم وهو يدير الجوزة

جئتكم بهذه التحية للمجلس.

مرحبا بالكرم

لكن برهوم ضحك فجأة وقال بلا هوادة

وسوف يعرض علينا بعد ذلك أن يقيم لنا حفلة زار ليطهرنا من العفاريت

وهتف زيتونة حانقا بصوته الخنف وهو يلتهمه بنظرة حاقدة

على زوجتك عفريت اسمه بيومى فخلصها منه إن استطعت

وبهت الرجل ووضح فى وجوههم الحرج فقال زيتونة وهو يشير إلى أنفه المحطم

بسببه فقدت أنفى

وبدا أن رفاعة لم يغضب، فنظر فرحات نحوه بأسى وقال

أبوك رجل طيب ونجار ماهر، ولكنك بسلوآك هذا تجر عليه المتاعب والسخرية، لم يكد الرجل يفيق من زواجك حتى-.

هجرت دآانه لتخلص الناس من العفاريت ! شفاك الله يا بنى

لست مريضا ولكنى أود لكم السعادة

فشد زيتونة نفسا طويلا وهو يرمقه بقسوة ثم نفث الدخان متسائلا

ومن اخبرك باننا غير سعداء ؟

فقال الشاب

أراد جدنا لنا غير ما نحن عليه

فقال فرحات ضاحكا

دع جدك فى حاله، من أدراك انه لم ينسنا!

وحدجه زيتونة بنظرة حانقة حاقدة ولكن ححازى لكزه قائلا فى تحذير

ينبغى أن تحترم المجلس فلا تفكر فى الاعتداء

وأراد الرجل أن يغير الجو فهز رأسه وأشار إلى أصحابه إشارة خاصة فراحوا يغنون

مرآب حبيبى فى المية جاية

راحية شعورها على الميه

وغادر المكان وبعضهم ينظر نحوه فى رثاء، وعاد إلى بيته بفؤاد آسير فاستقبلته ياسمينة بابتسامة هادئة وآانت تلومه أول الأمر على سلوآه الذى جعل منه - ومنها بالتالى - نادرة لكنها آفت عن لومه يائسة، وصبرت على تلك الحياة التى لم تدر على أى وجه ستنتهى، بل وعاملته بلطف ورقة، ودق الباب، وإذا بالقادم خنفس فتوة آل جبل، دخل الرجل دون استئذان فقام له رفاعة مرحبا فقبض الفتوة على منكبه بيد شديدة آأنها فكا آلب غاضب، وسأله دون مقدمات:

ماذا قلت عن الوقف فى غرزة شلضم ؟

ارتاعت ياسمينة حتى هرب دمها لكن رفاعة قال بهدوء رغم أنه بدا آعصفور بين مخالب نسر

قلت إن جدنا يود لنا السعادة

فهزه هزة عنيفة وسأله

-ومن أدراك بذلك ؟

ورد ذلك ضمن أقواله لجبل

فازدادت يده شدة على منكبه وقال

إنه آلم جبل عن الوقف

فقال رفاعة وقد أنهكه تحمل الألم

-لا يعنيني الوقف فى شئ السعادة التى لم استطع أن احققها بعد لأحد شئ غير الوقف، وغير الخمر، وغير الحشيش ،

قلت ذلك فى آل مكان بحى جبل، وسمعنى الجميع وأنا أقوله

فهزه مرة أخرى وقال:

-آان أبوك عاصيا ثم تابن إحذر أن تعيد سيرته وإلا هرستك آما تهرس البقة.

ودفعه فهوى على ظهره فوق الكنبة، ثم ذهب، وهرعت ياسمينة إليه لتواسيه وتدلك منكبه الذى مال عليه رأسه من الوجع، وبدا فى شبه غيبوبة وغمغم آأنما يحادث نفسه:

-إنه صوت جدى الذى سمعته.

ونظرت فى وجهه بإشفاق وذعر وتساءلت هل ضاع عقله حقا ؟

ولم تعد عليه ما قال وساورها قلق لم تشعر به من قبل، ويما غادر الربع فاعترضت سبيله امرأة من غير آل جبل، وقالت له باستعطاف:

صباح الخير يا معلم رفاعة

ودهش لرنة الاحترام فى صوتها وللقب الذى قرنته باسمه فسألها

ماذا تريدين؟

فقالت بضراعة

لى ابن ممسوس أرجو أن تخلصه!

وآان آال جبل جميعا يحتقر أهل الحارة فاستنكف أن يضع نفسه فى خدمة المرأة فيضاعف من ازدراء أله له، فقال لها

ألا توجد آودية فى الحارة ؟

فقالت المراة بصوت بالك

بلى ولكنى امرأة فقيرة

ورق لها قلبه آما أسره لجوؤها غليه هو الذى لم يلق من أله إلا الهزء والاحتقار، ونظر إليها فى تصميم وهو يقول

-إنى طوع أمرك.

54

آانت ياسمينة تطل من النافذة على الحارة متسلية بالمنظر الجديد، وآان فى أسفل الربع غلمان يلعبون وبائعة دوم تنادى، على حين أمسك بطيخة بتلابيب رجل وراح يضرب وجهه بكفه والآخر يستعطفه دون جدوى، وسألها رفاعة وهو جالس على الكنبة يقص أظافر قدميه:

هل يعجبك بيتنا الجديد؟

فالتفتت نحوه قائلة

هنا تحتنا الحارة، أما هنالك فلم نكن نرى إلا الدهليز المعتم

فقال رفاعة بأسى

ليت الدهليز بقى لنا، إنه دهليز مبارك، إذ فيه تقرر النصر لجبل على أعدائه، ولكن لم يكن فى الإمكان مواصلة الإقامة بين-. أناس يستهزئون بنا فى آل خطوة أما هنا فالفقراء طيبون، والطيب هو السيد لا آل جبل

فقالت ياسمينة باستهانة:

وأنا آرهتم مذ عزموا على طردى

فسألها باسما

لماذا إذن تقولين للجيران إنك من آل جبل!

فضحكت ضحكة آشفت عن أسنانها اللؤلؤية وقالت فى مباهاة

ليعلموا أننى فوقهم جميعا

فوضع المقص على الكنبة وطرح ساقية على الحصيرة وهو يقول

-ستكونين أجمل وأفضل عندما تقهرين الغرور، ليس آل جبل بخير حارتنا، خير الناس اطيبهم، وآنت مخطئا مثلك فخصصت آل جبل باهتمامى، ولكن السعادة لا يستحقها إلا من ينشدها مخلصا، انظرى إلى الطيبين آيف يقبلون على وآيف يبرأون من العفاريت.

فقالت باحتجاج:

لكن آل أحد هنا يعمل بأجر إلا أنت-. .

لولا ما وجد الفقراء من يشفيهم ، إنهم يقدرون الشفاء لكنهم لا يملكون ثمنه، وأنا ما عرفت الأصدقاء حتى عرفتهم وأمسكت عن الجدل بوجهه ممتعض فقال رفاعة

آه لو تذعنين لى آما يذعنون ! إذن لخلصتك مما يعكر صفو الحياة

فتساءلت غاضبة

أتجدنى مزعجة لهذا الحد ؟-.

من الناس من يعشق عفريته وهو لا يدرى

فهتفت بحدة

ما ابغض هذا الحديث إلى

فقال باسما

إنك من آل جبلن وآلهم أبى أن يسلم لدوائى حتى أبى نفسه-. !

وعندما دق الباب أدرآا أن زبونا جديدا قد قدم فتهيأ رفاعة لاستقباله

والحق أن رفاعة لم يلق من عمره أسعد من هذه اليام ، آان يدعى فى الحى الجديد بالمعلم رفاعة، وآانوا يدعونه فى اخلاص ومحبه، وعرف بانه يخلص من العفاريت ويهب الصحة والسعادة لوجه الله وحد، وهذا سلوك نقى لم يعرف عن أحد قبلهن فلذلك أحبه الفقراء آما لم يحبا أحدًا قط، وطبيعى أن بطيخة فتوة الحى الجديد لم يحبه لسلوآه الطيب من ناحيته ولأنه لم يكن من القادرين على أداء اية أتاوة من ناحية أخرى، ولكنه فى الوقت نفسه لم يجد مسوغا للاعتداء عليه . أما الذين برئوا على يديه فكان لكل منهم قصة يرددها، فأم داود آانت إذا رآبتها النوبة العصبية عضت وليدها، وهى اليوم مثال للهدوء والاتزان، وسنارة الذى لم يكن له من هواية إلا الشجار والنقار أصبح وديعا حليما آأنه تحية سلام، وطلبة النشال تاب توبة صادقة واشتغل صبى مبيض نحاس، وعويس تزوج بعد الذى آان، واصطفى رفاعة من مرضاه اربعة وهم زآى وحسين وعلى وآريم، اصطفاهم لصداقته فصاروا إخوة، لم يعرف أحد منهم الصداقة ولا الحب قبل أن يعرفه، آان زآى برمجيا ، وآان حسين مدمن أفيون لا يفيق، وعلى يتدرب على الفتونة، وآريم قوادان فانقلبوا رجالا ذوى قلوب آبيرة ، وآانوا يجتمعون عند صخرة هند حيث الخلاء والهواء النقى فيتبادلون أحاديث المودة والصفاء، ويتطلعون إلى طبيبهم بأعين تفيض بالحب والإخلاص، ويحلمون جميعا بسعادة ستظل الحارة بأجنحتها البيضاء . ويوما تساءل رفاعة وهم بمجلسهم ينظرون إلى حمرة الشفق فى هدوء المغيب:

لماذا نحن سعداء ؟

فأجاب حسين بحماس

أنت أنت سر سعادتك

فابتسم ابتسامة شكر وقال

الحقد والطمع والكراهية وسائر الشرور التى تفتك باهل حارتنا

فقال على مؤمنا على قوله

بل لأننا تخلصنا من العفاريت فتطهرنا من

سعداء بالرغم من أننا فقراء ضعفاء لا حظ لنا فى الوقف أو الفتونة

فهز رفاعة رأسه أسفا وقال

آم يتعذب الناس من أجل الوقف الضائع والقوة العمياء، فالعنوا معى الوقف والفتونة

فاستبقوا إلى لعنهما، وتناول على طوبة فرماها بأقصة قوته صوب الجبل، وعاد رفاعة يقول

-ومذ قال الشعراء إن الجبلاوى حث جبل على أن يجعل من ربوع آل جبل بيوتا تضارع البيت البير فى جلاله وجماله طمح الناس إلى قوة الجبلاوى وجاهه، وتناسوا مزياه الخريات، لذلك لم يستطع جبل أن يغير النفوس بنيله حقه فى الوقف ، ولما رحل عن الدنيا انقلب الأقوياء مغتصبين الضعفاء حاقدين وأطبق الشقاء على الجميع، أما أنا فافتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جاه.

وهو آريم بوجهه غليه فقبله، فمضى يقول:

وغدا عندما يلمس الأقوياء سعادة الضعفاء سيدرآون أن قوتهم وجاههم وأموالهم المغتصبة لا شئ-. .

وصدرت عن الأصدقاء آلمات الثناء والحب وحمل الهواء غناء راع فى أقصى الخلاء

وتجلس فى السماء نجم واحد، ونظر رفاعة فى وجوه الأصحاب وقال:

بأنفسكم ، وأن تتعلموا الأسرار لتخلصوا المرضى من العفاريت

فبدت الغبطة فى الوجوه وهتف زآى

ولكنى لا اآفى وحدى لعلاج أهل حارتنا، أن لكم أن تعملوا

ذلك أعز أمانينا

فابتسم إليهم قائلا

-ستكونون مفاتيح السعادة فى حارتنا.

ولما عادوا إلى حيهم وجوده يضئ بأنوار عرس فى أحد الربوع، ورأى آثيرون رفاعة فأقبلوا عليه مصافحين، وتغيظ بطيخة فقام من مجلسه بالقهوة وهو يسب ويلعن، ويصبع هذا وذاك ، ثم تحول إلى رفاعة متسائلا فى وقاحة:

ماذا ترى فى نفسك يا ولد ؟

فقال رفاعة برقة

صديق المساآين يا معلم

فصاح الرجل

إذن امشى آما يمشى المساآين لا آعريس الزفة، أنسيت أنك طريد حى وزوج يامينة وآودية زار؟-.
وبصق فى تحرش، وتباعد الناس وساد الوجوم لكن زغاريد الفرح غطت على آل شئ

55

وقف بيومى فتوة الحارة وراء باب حديقته الخلفى الذى يفتح على الخلاء . آان الليل فى أوله وآان الرجل ينتظر وهو يتصنت وعندما طرق إصبع الباب بخفة فتح الباب فتسللت إلى داخل الحديقة امرأة آألها بملاءها ونقاها قطعة من الليل، تناول يديها وسار بها فى ممشى الحديقة متجنبا الاقتراب من البيت حتى بلغ المنظرة فدفع الباب ودخل وهى فى اثره، وأشعل شمعة فأقامها على حافة نافذة فبدت المنظرة فى شبه مغيبن والكنبات مصطفة بأضلعها ، وفى الوسط صينية آبيرة محملة بالجوزة ولوازمها فى دائرة من الشلت، ونزعت المرأة عنها ملاءها والنقاب، فضمها بيومى إليه بقوة نفذت إلى عظامها حتى رمقته بنظرة استرحام، وتخلصت منه برشاقة فضحك ضحكة خافتة وجلس على شلته، وراح يعبث بأصبعه فى رماد المجمرة حتى تكشف عن جمر يومض، وجلست إلى جانبه وقبلت أذنه ثم أشارت إلى المجمرة وهى تقول:
آدت أنسى رائحته
فراح يمطر خدها وعنقها بالقبل ثم قال وهو يرمى قطعة فى حجرها
-هذا الصنف لا يدحنه فى حارتنا إلا الناظر والعبد لله.
وترامى من الحارة صوت معرآة تحتدم، سب وارتطام عصى وتحطيم زجاج، ووقع أقدام جارية، وأصوات امرأ ' ثم نباح آلب، ولاح تساؤل مترعج فى عينى المرأ ' ولكن الرجل راح يقطع الصنف فى غير مبالاة فقالت المرأة:
آم يشق على المجىء ! فلكى أمن العيون أسير من الحارة إلى الجمالية ومن الجمالية إلى الدراسة، ومن الدراسة إلى-.
الخلاء حتى بابك
فمال نحوها دون أن تكف أصابعه عن العمل وتشمم أبطها فى تلذذ وقال:
لن أبالى أن أزورك فى بيتك
فابتسمت قائلة
لو فعلت ما تعرض لك أحد من الجبناء ، حتى بطيخة سيفرش لك الرمل ثم يصبون غضبهم على وحدى
وعبث بشاربه الغليظ وقالت فى دعابة
لكنك تسللت إلى المنظرة فى بيتك خوفا من زوجتك
فترك القطعة وطوقها بذراعه فضمها غليه بعنف حتى أنت ثم همست

الله احفظنا من عشق الفتوات

فاطلقها وهو يرفع رأسه ويبرز صدره آالديك الرومى وقال

لا يوجد إلا فتوة واحد، أما الاخرون فصبيانه

فلاعبت شعر صدره المحور عنه طوق جلبابه وقالت

فتوة على الناس لا على أنا

فقرصها فى صدرها بخفة وقال

أنت تاج رأس الفتوة

ومد يده إلى ماوراء الصينية فتناول ابريقا وهو يقول

بوظة عجيبة

فقالت أسفة

لها رائحة قوية قد يشمها زوجى العزيز

فتجرع من الأبريق حتى روى، ومضى يرص الحجر وهو يقول مقطبا

يا له من زوج ! لمحته مرات وهو يهيم على وجهه آالمجنون، أول آودية زار من جنس الرجال فى هذه الحارة العجيبة

فتابته وهو يدخن وقالت

إنى مدينة له بحياتى، لذلك أتصبر على معاشرته، ولا ضرر منه إذ ليس أيسر من خداعه.

وقدم إليها الجوزة فالتقمت فوهتها بشوق وشدت أنفاسا بشراهة ثم زفرت الدخان مغمضة العينين ثملة الحواس، وراح بدوره يدخن، فياخذ أنفاسا منقطعة وبين آل نفس وآخر يتكلم قائلا:

تترآينه ... يعبث .. بك .. عبث .. الأطفال.

فهزت منكبيها هازئة وقالت

-لا عمل لزوجى فى هذه الدنيا غلا تخليص الفقراء من العفاريت.

وأنت ألا تخلصينه من شئ ؟-.

مظلومة وحياتك ! نظرة واحدة إلى وجهه تغنى عن الكلام-!

ولا مرة آل شهر

ولا آل سنة ، إنه مشغول عن زوجته بعفاريت الناس

فلترآبه العفاريت ! وأى فائدة يجنيها من وراء ذلك ؟

فهزت رأسها فى حيرة وقالت

-لايجنى شيئا، ولولا أوه لهلكنا جوعا، وهو يعتقد بأنه مكلف بإسعاد الفقراء وتطهيرهم.

ومن الذى آلفه ؟-.

يقول إن هذا ما يريده الواقف لأبنائه

وتجلى الاهتمام فى عينى بيومى الضيقتين فوضع الجوزة فى الكوز وسألها

أقال إن الواقف يريد ذلك ؟

نعم

ومن أدراه بما يريد الواقف ؟

وشعرت المرأة بضيق وانزعاج، وخافت أن يفسد الجون أو أن تحدث أمور خطيرة فقالت

هكذا يؤول أقواله التى يتغنى بها الشعراء

ومضى يرص حجرًا جديدًا وهو يقول

-حارة بنت آلب، وحى جبل أنجها، فيهم ظهر أآبر دجال، وينشرون الخبار الغريبة عن الوقف والشروط العشرة، آأن الواقف جدهم وحدهم، وبالأمس جاء دجالهم جبل بكذبة سرق بها الوقف، واليوم يؤول هذا المعتوة آلاما لا يقبل التأويل، وسيزعم أنه سمعه من الجبلاوى نفسه.

فقالت بقلق:

إنه لا ينشد سوى تخليص الفقراء من العفاريت

فشخر الفتوة هازئا ثم تساءل

ومن يدرينا فلعل فى الوقف عفريتا!

ثم بصوت ارتفع لدرجة لا تتفق وسرية الاجتماع

-الواقف ميت أو فى حكم ذلك يا أولاد الكلب.

وانزعجت ياسمينة ، خافت أن تفلت الفرصة المتاحة وأن يتعكر الجو، ومدت يدها إلى الفستان لتترعه رويدا، وانبسطت أسارير الرجل بعد تجهز ورنا إليها بعينين متوثبتين.

56

بدا الناظر فى عباءته ضئيلا وآان الاهتمام بارزا فى وجهه البيض المستدير بروز الذبول الذى اعتور جفنيه والشيخوخة المبكرة الواضحة فى نظرة عينيه وفى التجاعيد المرسومة تحتهما منأثر التهالك فى الشهوات، أما وجه بيومى الممتلئ

فلم يش بالارتياح الباطنى، الذى سرى ففيه نتيجة لقلق سيده، ذلك القلق الذى يدل على خطورة النباء التى نقلها غليه، فبدل بالتالى على خطورة الدور الذى يؤديه للناظر وللوقف، وآان يقول الناظر:

على رغمى أزعجك بهذه الأخبارن ولكن لم يكن فى وسعى أن اتصرف دون الرجوع غليك فى أمر يتعلق بالوقف، ومن- ناحية اخرى فهذا المشاغب المعتوه من آل جبل، وعلينا عهد بألا يتعدى أحد منا على أحد منهم إلا بعد أذنك

وتساءل الناظر إيهاب بوجهه مكفهر:

وهل زعم حقا أنه اتصل بالواقف ؟

تأآد لدلا ذلك من أآثر من مصدر، إن مرضاه يؤمنون بذلك ولو أنهم يتكتمون الأمر بحرص شديد

-لعله مجنون آما آان جبل دجالا، ولكن هذه الحارة القذرة تحب المجانين والدجالين، ماذا يريد آل جبل بعدما نهبوا الوقف بلا حق؟ لماذا لا يتصل الواقف باحد غيرهم؟ لماذا لا يتصل بى وأنا أقرب الناس إليه؟ إنه قعيد حجرته، ولا يفتح باب بيته غلا عندما تحمل إليه حوائجه، لايراه أحد، ولا يرى هو إلا جاريته، ولكن ما أيسر أن يقابله آل جبل أو أن يسمعوه.

فقال بيومى بحنق:

لن يرتاح لهم بال حتى يستولوا على الوقف آله

فاصفر وجه الناظر غضبا ، وتوثب لإصدار الأوامر، ولكنه تراجع متسائلا

أقال عن الوقف شيئا أم قصر نشاطه على إخراج العفاريت ؟

فقال بيومى بحنق

مثل جبل آان نشاطه قاصرا على إخراج الثعابين

ثم فى تهكم

ما للواقف والعفاريت ؟

فوقف إيهاب وهو يقول بحدة

-لا أريد أن تصيبنى اللعنة التى أصابت الأفندى.

ودعا بيومى جابر وحندوسة وخالد وبطيخة إلى غرزته وقال لهم إن عليهم أن يجدوا علاجلا لجنون رفاعة ابن شافعى النجار، وتساءل بطيخة فى انزعاج:

أمن اجل هذا دعوتنا يا معلم ؟

فهز بيومى رأسه بالإيجاب فضرب بطيخة آفا على آف وهتف

يا هوه ! فتوات الحارة تجتمع من أجل مخلوق لا هو ذآر ولا هو أنثى

فرماه بيومى بنظرة ازدراء وقال

مارس نشاطه تحت سمعك وبصرك فلم تدرك له خطرا . وطبعا لم تسمع عن مزاعمه عن الاتصال بالواقف

وتبادلوا نظرات نارية من خلال الدخان المنتشر وقال بطيخة بذهول

ابن الهرمة ! ما للواقف والعفاريت ! هل آان جدنا آودية زار؟

وشرعوا فى الضحك ولكن سرعان ما عدولا عن لتجهم بيومى الذى قال

أنت شمام يا بطيخة، الفتوة يسكر ويحشش ولكن لا يليق به الشم!

فقال بطيخة مدافعا عن نفسه

الدم وجهى وعنقى، ولكن نبوتى لم يسقط من يدى

وهنا قال حندوسة فى رجاء

يا معلم أنا فى زفة عنتر آنت الهدف لنبابيت عشرين رجلا فغطى

فلندع له الأمر يعالجه بما يرى، وإلا فقد هيبته، وليته يجد طريقة غير الاعتداء على المعتوه، فإن الاعتداء على مثله مهين- للفتوة

ونامت الحارة ولا أحد يدرى بما يبيت فى غرزة بيومى، وفى صباح اليوم التالى غادر رفاعة الربع فرأى بطيخة فى طريقه فحياه قائلا:

صباح الخير يا معلم بطيخة

فرماه الرجل بنظرة مقت وصاح

صباح القطران يا ابن القديمة ، عد إلى بيتك ولا تخرج منه وإلا آسرت رأسك

فتساءل رفاعة فى دهشة

ماذا أغضب فتوتنا ؟

فصاح مزمجرا

-أنت تكلم الآن بطيخة لا الواقف فاذهب بلا تردد.

وهم رفاعة بالكلام فلطمة الفتوة لطمة دفعته إلى جدار الربع مترنحا، ورأت امرأة الموقعة فصوتت حتى ملأ صوتها الحارة وتبعها نسوة أخريات، وارتفعت أصوات استغاثة من أجل رفاعة . وفى لمح الصر جرى نحو المكان آثيرون من بينهم زآى وعلى وحسين وآريم، ثم جاء عم شافعى، آما جاء جواد الشاعر متلمسا طريقة بعصاه، وما لبث أن ازدحم الموقع بمحبى رفاعة من الرجال والنساء، ودهش بطيخة الذى لم يتوقع شيئا مما حدث، ورفع يده وهوى بها على وجه رفاعة فتلقاها هذا دون دفاع، ولكن الواقفين تصايحوا فى انظعاج، واعتراهم انفعال شديد، فتوسل البعض إلى بطيخة أن يترآه، وردد أخرون حسنات رفاعة ومزياه ، وتساءل آثيرون عن أسباب الاعتداء، وتعالت احتجاجات فاستشاط بطيخة غضبا وصاح:

-أنسيتم من أآون ؟

والحق أن حب المتجمعين لرفاعة الذى دفعهم بغير وعى إلى التجمع هو الذى شجعهم على الرد على إنذار بطيخة، فقال أحد الواقفين فى الصف الأول:

فتوتنا وتاج رأسنا، وما جئنا إلا لنسألك العفو عن الرجل الطيب

وصاح رجل من وسط المظاهرة متشجعا بالزحام وبمكانه فيه

فتوتنا على العين والرأس، ولكن ماذا فعل رفاعة ؟

وصاح ثالث فى أخر المظاهرة مطمئنا إلى تواريه عن متناول عين الفتوة

رفاعة برئ والويل لمن يمد له يدا بسوءا!

وثار غضب بطيخة فرفع نبوته فوق رأسه وهو يصيح

-يا نسوان ، سأجعلكم عبرة.

وإذا بصوت النساء يرتفع من الأرآان حتى انقلب الحى مأتمان وقذفت الأفواه الغاضبة بالإنذارات الدموية، وأخذ الطوب يتساقط أمام بطيخة ليمنعه من التقدم، ووجد الرجل نفسه فى مرآز حرك لم يقع له ولا فى الكابوس، آان الموت أهون عليه من الاستنجاد بأحد الفتوات، وآان الهجوم يهدد بالقضاء عليه تحت وابل الطوب، وآان فى السكوت الاجهاز على فتونته ، وتطاير الشرر من عينيه، واستمر تساقط الطوب ، وتمادى القوم فى تحديهم، ولم يكن حدث شئ آهذا لأحد من الفتوات من قبل.

واندفع رفاعة فجأة حتى وقف أمام بطيخة ولوح الناس بيديه حتى ساد السكوت، وهتف بصوت قوى:

لم يخطئ فتوتنا وأنا الملوم

لاحت نظرات افنكار فى الوجوه ولكن أحدًا لم ينبس بكلمة فقال رفاعة

-تفرقوا قبل أن تتعرضوا لغضبه.

وفهم الناس أنه يريد أن ينقذ آرامة الفتوة حلا للأزمة فتفرقوا، وتبعهم اخرون وهم فى حيرة من المرن ثم سارع الباقون بالتفرق خشية أن ينفرد بطيخة بأحد منهم، فأقفر الحى.

57

اشتد التوتر بالحارة بعد تلك الواقعة، وآان أخوف ما يخاف الناظر أن تعتقد الحارة بأن فى تضامنها قوة تكفل الصمود أمام الفتوات، لذلك وجب - فى نظره - القضاء على رفاعة ومن تحدثهم انفسهم بالوقوف إلى جانبه على أن يتم ذلك بالاتفاق مع

خنفس فتوة آل جبل تجنبا لنشوب عراك شامل فى الحراة، وقال الناظر لبيومى : ليس رفاعة بالدرجة التى تظنها من الضعف، فوراءه محبون استطاعوا انقاذه رغم أنف الفتوة، فماذا يكون من امره لو تعلقت به الحارة آما تعلق به حية؟ هنالك سيدع العفاريت جانبا ويجاهر بأن الوقف غايته ! وصب بيومى غضبه على بطيخة فهزه من منكبيه بعنف وقال له : أترآنا الأمر

لك وحدك فماذا فعلت يا شين الفتوات ! وعض بطيخة على نواجذه بحنق وقال : سأريحكم منه ولو بقتله فصاح به بيومى: خير ما تفعل أن تختفى من الحارة إلى الأبد، وأرسل إلى خنفس من يدعوه إلى مقابلته، ولكن عم شافعى اعترض سبيل خنفس وهو فى حال من الفزع لم تسبق له من قبل، وآان قد حاول اقناع ابنه بالعودة إلى الدآان والاقلاع عن العمل الذى يجر عليه المتاعب ولكنه فشل فى مسعاه وعاد خائبا، ولما علم باستدعاء خنفس إلى مقابلة بيومى اعترض سبيله وقال له : يا معلم خنفس، أنت فتوتنا وحامينا، وإنهم يطلبونك لتتخلى عن رفاعة فلا تتخل عنه، تعهد لهم بما يشاءون ولكن لا تتخل عنه، مرنى فأهجر الحارة مصطحبا إياه ولو بالقوة ولكن لا تتخل عنه ! فقال خنفس فى حذر واحتياط : أنى أعلم الناس بما يجب على وبما تقتضيه مصالح آل جبل، والحق أن خنفس توجس خيفة من ناحية رفاعة مذ علم بوقعه بطيخة، وقال لنفسه إنه هو الذى ينبغى له أن يحذر لا الناظر ولا بيومى.

ومضى إلى بيت بيومى فاجتمع به فى المنظرة وصارحه الفتوة بأبه دعاه بصفته فتوة آل جبل ليتفقا على رأى فى مشكلة رفاعة ، قال:

لا تستهن بشأنه فإن الأحداث تقطع بخطورة أثره

ووافق خنفس على ذلك ولكنه قال برجاء

أرجو ألا يعتدى عليه أمامى

فقال بيومى

نحن رجال يا معلم، ومصالحنا واحدة، ولا نعتدى على أحد فى بيوتنا، وسيجئ هذا الولد الآن لاستجوابه على مسمع- منك

وجاء رفاعة بوجهه المشرق فحيا الرجلين، وجلس حيث أشار له بيومى أن يجلس على شلته أمامهما، وتفرس بيومى فى وجهه الجميل المطمئن وهو يعجب آيف أمسى هذا الطفل الوديع مصدرا للقلاقل المفزعة، وساله بصوت غليظ:

لماذا هجرت حيك وأهلك ؟

فقال ببساطة

- لم يستجب لى منهم أحد.

ماذا آنت تريد منهم ؟-

أن أخلصهم من العفاريت التى تفسد عليهم سعادهم

فوشى صوت بيومى بغيظه وهو يساله

وهل أنت مسئول عن سعادة الناس ؟

فقال رفاعة بصراحة وبراءة

نعم مادمت قادرا على تحقيقها

فتوجهم وجه بيومى وهو يقول

سمعوك وأنت تحتقر الجاه والقوة؟-.

لكى أبرهن لهم على أن السعادة ليست فيما يتوهمون ولكن فيما أفعل

فتساءل خنفس غاضبا

أليس فى ذلك تحقير لأصحاب القوة والجاه؟

فقال دون ان يضطرب لغضب الرجل

وتفحصه بيومى بنظرة نافذة وهو يسأله

آلا يا معلم ولكن فيه تنبيه بان السعادة غير ما يملكون من قوة وجاه.

وسمعوك أيضا وأنت تؤآد أن ذلك ما يريده لهم الواقف

فتجلى الاهتمام فى العينين الصافيتين وقال

-هم يقولون ذلك ؟

وماذا تقول أنت ؟

فقال بعد تردد لأول مرة

على قدر فهمى أتكلم

فقال خنفس متهكما

المصائب تجئ من العقل الزنج

وقال بيومى وهو يضيق عينيه

لكنهم يقولون إنك تعيد عليهم ما سمعته من الجبلاوى نفسه!

فبدت الحيرة فى عينيه، وتردد للمرة الثانية ثم قال

هكذا فهمت أقواله لأدهم وجبل

فصاح خنفس غاضبا

أقواله لجبل لا تحتمل التأويل.

وأشتد الحنق ببيومى، وقال لنفسه، آلكم آذابون، وجبل أول آذاب فيكم يا لصوص، وقال:

-أنت تقول إنك سمعت الجبلاوى، وتقول هذا ما يريده الجبلاوى، وليس لأحد أن يتكلم باسم الجبلاوى إلا ناظر وقفه ووريثه،

ولو أراد الجبلاوى أن يقول شيئا لقاله له، هو الأمين على وقفه ومنفذ شروطه العشرة يا معتوه آيف تحقر القوة والجاه والثراء باسم الجبلاوى وهى مزاياه وصفاته؟

فنمت الأسارير الصافية عن ألم وقال:

إنى أخاطب أهل حارتنا لا الجبلاوى، وهم الذين ترآهم العفاريت، وهم الذين تعذبهم المطالب

فصاح به بيومى

ما أنت إلا عاجز عن القوة والجاه، فلذلك تلعنهما، ولترفع مكانتك الحقيرة فى نظر الغبياء من أهل حارتنا فوق مكانة-.

السادة، وعندما تجدهمخ طوع يديك تنهب بهم القوة والجاه

فاتسعت عينا رفاعة دهشة وتساءل:

لا غاية لى إلا سعادة أهل حارتنا

فصاح بيومى

-يا ابن المآرة ، أنت توهم الناس بأنهم مرضى، بأننا جميعا مرضى فلا صحيح غيرك فى هذه الحارة!

لماذا تكرهون السعادة وهى بين أيديكم ؟

-يا ابن المآرة ! ملعونة السعادة التى تجئ من مثلك ! فتساءل رفاعة متنهدا

لماذا يكرهنى أناس وأنا ما آرهت أحد قط ؟

فصرخ فيه بيومى

الأغبياء ، وأقلع عن خداعك، وافهم أن أمرى لا يخالف، وأحمد الله على أنك فى بيتى وإلا ما خرجت-.

سالما

لا تخدعنا بما تخدع به

وقف رفاعة يائسا ، فحياهما وانصرف ، وقال خنفس:

دعه لى

لكن بيومى قال

-للمعتوه محبون آثيرون، ونحن لا نريد مذبحة.

58

خرج رفاعة من بيت بيومى قاصدا بيته، آانت السماء متلفعة بأردية الخريف وفى الجو نسيم معتدل وازدحمت الحارة حول مقاطف الليمون آانما تحتفل بموسم النخيل، وترامت الأحاديث والضحكات على حين اشتبك غلمان فى معرآة يتقاذفون بالتراب، وتلقى رفاعة تحيات الكثيرين وأصابه رشاش تراب فمضى إلى بيته وهو ينفضه عن آتفه ولاسته، ووجد زآى وعلى وحسين وآريم فى انتظاره فتعانقوا آما يتعانقون عند آل لقاء، ثم قص عليهم - وعلى زوجته التى انضمت إلى المجلس- فلما فرغ من قصته تجهمت الوجوه، وساءلت ياسمينة نفسها ترى عم يتمخض هذا الموقف الدقيق؟ واليس هناك حل يقى الرجل الطيب من الهلاك دون أن يهدد سعادتها؟ وبدا التساؤل فى الأعين جميعا، أما رفاعة فأسند رأسه إلى الحائط فى شئ من الإعياء وقالت ياسمينة:

لا يجوز الاستهانة بامر بيومى

وآان على أحدهم طبعا فقال

لرفاعة أصدقاء هزموا بطيخة فاختفى من الحارة

فقال ياسمينة مقطبة

بطيخة لا بيومى ! إذا تحديتم بيومى فقل عليكم السلام!

فالتفت حسين إلى رفاعة قائلا

فلنستمع أولا إلى المعلم!

فقال رفاعة وهو شبه مغمض العينين

لاتفكروا فى العراك فإن الذى يشقى لإسعاد الناس لا يهون عليه سفك دمائهم

وتهلل وجه ياسمينة، آانت تكره فكرة الترمل خشية أن تحدق بها العين فلا تجد منقذا إلى رجلها الرهيب، وقالت

خير تفعل أن ترحم نفسك من ذلك العناء

فقال زآى محتجا

لن نترك ها العمل ولكن نترك الحارة

فخفق قلب ياسمينة جزعا لتخيل البعد عن حارة رجلها وقالت بحدة

لن نعيش غرباء ضائعين بعيدا عن حارتنا

وترآزت العين فى وجه رفاعة فاعتدل رأسه رويدا وقال

-لا احب أن أهجر حارتنا.

وهنا دق الباب دقات متتابعة فى لهفة فذهبت ياسمينة تفتحه، وسمع الجالسون صوتى عم شافعى وعبدة يسألان عن ابنهما، وقام رفاعة فتلقى والديه بالعناق وجلسوا وهما يلهثان ووجهاهما ينطقان بملا يحملان من أنباء مزعجة ، وسرعان ما قال الأب:

يا بنى تخلى عنك خنفس فحياتك فى خطر، وأخبرنى أصحابى بأن أعوان الفتوات يحومون حول بيتك

وجففت عبدة عينين حمراوين وقالت

ليتنا ما عدنا إلى هذه الحارة التى تباع فيها الأرواح بلا ثمن ، فقال على متحمسا:

لا تخافى ياسيدتى، فحينا آله أصدقاء يحبوننا

وقال رفاعة متاوها

-ماذا فعلنا مما نستحق عليه العقاب؟

فهتف عم شافعى جزعا:

أنت من حى جبل الكروه لديهم، وآم توجس قلبى خيفة مذ جاء ذآر الواقف على لسانك!

فقال رفاعة متعجبا

بالأمس حاربوا جبل لمطالبته بالوقف واليوم يحاربوننى لاحتقارى الوقف

فلوح شافعى بيده جزعا وقال

قل فيهم ما تشاء فلن يغير هذا منهم شيئا، ولكن اعلم أنك ها لك إن غادرت بيتك، ولست أمن عليك إن بقيت فيه-. .

تسرب الخوف إلى قلب آريم أول ما تسرب لكنه داراه بإرادة قوية

وقال مخاطبا رفاعة:

بيتى من-.

فوق الأسطح وهناك نفكر فيما ينبغى عمله

إنهم يتربصون لك فى الخارج، وإذا لبثت هنا فسيجيئون إليك، هؤلاء هم فتوات حارتنا آما عرفناهم، فلنهرب إلى

فصاح شافعى:

ومن هناك تهربون من الحارة ليلا

فتاوه رفاعة متسائلا

واترك بنائى يتهدم ؟

فتوسلت إليه أمه بآية

عليك وأرحم أمك

فقال الأب محتدا

افعل ما يشير به

وأستأنف عملك فيما وراء الخلاء إذا شئت

وقام آريم فى اهتمام وقال

-فلنتدبر أمرنا، سيبقى المعلم شافعى وحرمه قليلا ثم يذهبان إلى ربع النصر آأهما راجعان بعد زيارة عادية، وتخرج ست ياسمينة إلى الجمالية آانما لتتسوق، وعند عودهما تتسلل إلى مسكنى وهذا أيس لها من الهرب عبر الأسطح، ارتاح شافعى إلى الخطة، فقال آريم:

لا ينبغى أن نضيع دقيقة سدى، سأذهب لاستكشف السطح-. .

وغادر الحجرة، وقام شافعى أخذا رفاعة فى يده، وأمرت عبدة ياسمينة بأن تجمع الثياب فى بقجة

وأخذت ياسمينة فى جمع الثياب القليلة بصدر مختنق وقلب مكتوم، وثورة من الحنق فى باطنها تتجمع، وأقبلت عبدة على ابنها تقبلة وترقية بأعين بآية، ومضى رفاعة يفكر فى حالة بقلب حزين، آم أحب الناس بكل قلبه وآم شقى لإسعادهم وآيف يعانى من بغضائهم وهل يسلم الجبلاوى بالفشل؟ ورجع آريم وهو يقول لرفاعة وصحبه:

اتبعونى

وقالت عبدة وهى تفحم فى البكاء

سنلحق بك ولو بعد حين

وقال له شافعى وهو يضغط على مخارج الدمع

فلتصحبك السلامة يا رفاعة

عانق رفاعة والديه ثم التفت إلى ياسمينة قائلا

احبكى الملاءة والبرقع آيلا يعرفك أحد

ثم وهو يميل إلى أذنها

-لا أطيق أن تمتد لك يد بسوء.

59

غادرت ياسمينة الربع ملتفة فى السواد آلمات عبدة تتردد فى أذنيها حين قالت لها وهى تودعها : مع السلامة يا بنتى، وربنا يحفظك ويصونكن رفاعة عهدتكن سأدعو لكما فى النهار والليل ، آانت طلائع الليل تزحف وفوانيس المقاهى تشتعل والغلمان يلعبون حول الأنوار المنبعثة من مصابيح عربات اليد على حين احتدم عراك القطط والكلاب - آشأنه فى ذلك الوقت من اليوم - حول أآوام الزبالة.

مضت ياسمينة نحو الجمالية وليس فى قلبها العاشق مكان للرحمة ، لم يساورها التردد ولكن ملأها الخوف فخيل إليها أن اعينا آثيرة تراقبها، ولم تشعر بشئ من الاطمئنان حتى عرجت من الدراسة إلى الخلاء، لكنها لم تجد الاطمئنان الحقيقى إلا فى المنظرة بين يدى بيومى ، ولما نزعت النقاب عن وجهها تفحصها باهتمام وتساءل:

خائفة ؟

فأجابت وهى تلهث

-نعم.

آلا ، الجبن ليس من صفاتك ! خبريني ماذا وراءك ؟

قالت بصوت لا يكاد يسمع

هربوا من فوق الأسطح إلى بيت آريم، وسيغادرون الحارة عند الفجر

فغمغم بيومى ساخرا

عند الفجر يا أولاد الهرمة-. !

أقنعوه بالذهاب فلماذا لا تدعه يذهب

فابتسم ساخرا وقال

قديما ذهب جبل ثم عاد، هذه الحشرات لا تستحق الحياة

فقالت وهى شاردة اللب

أنه ينكر الحياة ولكنه لا يستحق الموت

فتقلص فوه اشمئزازا وقال

فى الحارة آفايتها من المجانين

فنظرت إليه فى استعطاف ثم غضت بصرها وهمست وآأنما تحث نفسها

انقذنى يوما من الهلاك

فضحك فى سخرية غليظة وقال

وها أنت تسليمنه للهلاآن واحدة بواحدة والبادى أظلم!

فشعرت بقلق موجع آالمرضن ورمقته بعتاب وهى تقول

فعلت ما فعلت لأنك اغلى من حياتى

فربت خدها برقة وقال

سيخلو لنا الجو، وأذا ضايقتك الظروف فلك هذا فى البيت مكان ، فارتفعت روحها من هبوطها درجات وقالت-. :

لو عرضوا على بيت الواقف من دوك ما قبلته

أنت بنت مخلصة

وشكتها مخلصة فعاودها القلق الذى هو آالمرض، وتساءلت ترى هل يسخر منها الرجل؟ ولم يكن ثمة وقت لمزيد من الكلام فقامت وقام ليودعها، حتى تسللت من الباب الخلفى، ووجدت زوجها وأصحابه فى انتظارها، فجلست إلى جانب زوجها وهى تقول لرفاعة:

بيتنا مراقب، ومن الحكمة إن أمك ترآت المصباح مشتعلا وراء النافذة، وسيكون الهرب ميسورا عند الفجر

فقال لها زآى وهو يلحظ رفاعة فى حزن

لكنه حزين، أليس المرضى فى آل مكان واليسوا هم فى حاجة آذلك إلى الشفاء ؟

فقال رفاعة

تشتد الحاجة إلى الدواء حيث يستفحل المرض-. .

ونظرت ياسمينة نحوه فى رثاء وقالت لنفسها أن من الظلم تقله

وتمنت لو آان فيه جانب واحد يستحق العقاب، وذآرت أنه الوحيد فى هذه الدنيا الذى أحسن إليها وإن جزاءه على ذلك سيكون القتل، ولعنت فى سرها هذه الأفكار وقالت ليفعل الخير من يجد فى حياته الخير، ولما رأته يبادلها النظرات قالت آالمشفقة:

حياتك أغلى من حارتنا اللعينة

فقال رفاعة باسما

هذا ما يقوله لسانك غير أنى اقرأ الحزن فى عينيك

وارتعدتن وقالت لنفسها يا ويلى لو آانت قدرته على قراءة العين آقدرته على إخراج العفاريت، وقالت له

ليس ما بى حزن، ولكنه الخوف عليك!

وقام آريم وهو يقول

-سأعد العشاء.

ورجع حاملا الطبلية فدعاهم إلى الجلوس فجلسوا حولها، وآان العشاء مكونا من الخبز والجبن والمش والخيار والفجل وثمة

أبريق من البوظة، وملأ آريم الأآواب وهو يقول:

ليلتنا نحتاج إلى التدفئة والتشجيع

وشربوا ، ثم قال رفاعة باسما

الخمر توقظ العفاريت، ولكنها تنعش من تخلص من عفريته

ونظر نحو ياسمينة إلى جانبه فأدرآت مغزى نظرته وقالت

-ستخلصنى من عفريتى غدا إن مدا الله فى العمر.

فتهلل وجه رفاعة سرورا وتبادل الأصدقاء التهانى، ومضوا يتناولون العشاء، قطعت الأرغفة، وتلاقت الأيدى فوق الأطباق، وبدأوا وآأنهم تناسوا الموت المحيط بهم، وإذا برفاعة يقول:

ولكنهم أبوا ألا أن يكونوا مثل العفاريت، إنهم أغبياء، وهو لا يحب الأغبياء آما قال لى

أراد صاحب الوقف لأبنائه أن يكونوا مثلهن

فهز آريم رأسه أسفا ، وبلغ لقمته ثم قال:

لو آان على شئ من قوته الأولى لسارت الأمور آما يشاء

فقال على حانقا

لو .. لو .. لو ، ماذا أفدنا من لو ! علينا أن نعمل

فقال رفاعة بقوة

ما قصرنا قط حاربنا العفاريت دون هوادة، وآلما ترك عفريت فراغا ملأ الحب ، وليس وراء ذلك غاية.

فقال زآى متحسرا:

ولو ترآونا نعمل لملأنا الحارة صحة وحبا وسلاما

فقال على معترضا

إنى أعجب آيف نفكر فى الهرب على آثرة ما لنا من أصدقاء!

فقال رفاعة باسما

إن عرق عفريتك ما زال لاصقا بجوفك، فلا تنس أن غايتنا الشفاء لا القتل ، ولخير للإنسان أن يُقتل من أن يقتل

والتفت رفاعة إلى ياسمينة فجاة وقال

إنك لا تأآلين ولا تصغين!

فتقلص قلبها خوفا، بيد أنها تغلبت على انفعالها وقالت

إنى أعجب لكم آيف تتحادثون فى مرح آأنكم فى عرس-. !
ستالفين البهجة عندما تتخلصين من عفريتك غدا
ثم نظر إلى أخوانه وقال
بعضكم يخجل من المسألة، فنحن أبناء حارة لا تحترم إلا الفتنة . ولكن الفتونة ليست قاصرة على الإرهاب، فمصارعة-.
العفاريت أشق عشرات المرات من الاعتداء على الضعفاء أو منازلة الفتوات
فهز على رأسه أسفا وقال:
وآان جزاء الإحسان هذا الموقف التعيس الذى وجدنا أنفسنا فيه
فقال رفاعة بيقين
لن تنتهى المعرآة آما يتوهمون، ولسنا ضعفاء آما يتصورون ! إنما نقلت المعرآة من ميدان إلى ميدان، وميداننا يتطلب-.
شجاعة أسمى وقوة أشد
وواصلوا العشاء وهم يفكرون فيما سمعوا، وبدا لأعينهم هادئا مطمئنا قويا بقدر ما بدا جميلا وديعا، وفى فترة الصمت تجلى صوت شاعر الحى وهو يحكى قائلا : ومرة جلس أدهم فى حارة الوطاويط عند الظهر ليستريح فنعس، واستيقظ على حرآة فرأى غلمانا يسرقون عربته فنهض مهددا ورأه غلام فنبه أقرانه بصفير ودفع العربة ليشغله بها عن مطاردهم فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين آالجراد، وغضب أدهم غضبا شديدا حتى قذف فوه المهذب بسيل من أقذع الشتائم، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذى لوث بالطين، وتضاعف غضبه دون أن يجد له متنفسا فراح يقول بتأثر وانفعال:
-لماذا آان غضبك آالنار تحرق بلا رحمة؟ لماذا آانت آبرياؤك أحب إليك من لحمك ودمك؟ وآيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا نداس بالأقدام آالحشرات؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها فى بيتك الكبير أيها الجبار ! وقبض على يد العربة وهم بدفعها بعيدا عن الحارة اللعينة وإذا بصوت يقول متهكما:
-بكم الخيار يا عم ؟
رأى أدريس واقفا يبتسم ابتسامة ساخرة، وإذا بصوت امرأة يرتفع مغطيا على صوت الشاعر وهى تصرخ : ولد تائه يا اولاد الحلال.

60

مضى الوقت والخوان فى سمر وياسمينة فى عذاب، أراد حسين أن يلقى على الحارة نظرة ولكن آريم اعترضه أن يلمحه

احد فيشك فى الأمر، وتساءل زآى ترى هل هاجموا بيت رفاعة، فقال رفاعة أنهم لايسمعون إلا نواح الرباب وتهليل الغلمان، آانت الحارة تحيا حياتها فليس ثمة ما يشى بسر جريمة تدبر، ودارت بياسمينة دوامة الفكر حتى خافت أن فتضحها عيناها، وتمنت أن ينتهى عذابها على أى وجه وباى ثمن، وتمنت أن تملأ جوفها بالخمر حتى تذهل عما حولها، وقالت لنفسها إنها ليست أول امرأة فى حياة بيومى ولن تكون أخرهن، وأنه حول أآوام الزبالة تكثر بالكلاب الضالة، ولكن فلينته هذا العذاب بأى ثمن، وبتقدم الوقت أخذ الصمت يبتلع الضوضاء رويدا فسكتت أصوات الأطفال ونداءات الباعة و لم يبق

إلا نواح الرباب، ودهمتها آراهية مفاجئة لهؤلاء الرجال ، لا لشئ إلا لأنهم على نحو ما يعذبونها.

وتساءل آريم:

هل أعد المجمرة ؟

فقال رفاعة بجزم

نحن فى حاجة إلى وعينا-. !

ظننت أن به نستعين على تحمل الوقت-.

أنت خائف أآثر مما ينبغى

فنفى التهمة عن نفسه قائلا

-يبدو ألا داعى هناك للخول.

أجل لم يقع حادث ولم يُهاجم بيت رفاعة ، وسكتت الأنغام وذهب الشعراء وترامت أصوات الأبواب وهى تغلق، وأحاديث العائدين إلى البيوت، وضحكات وسعلات ثم ساد الصمت، واستمر الانتظار والترقب حتى صاح أول ديك ، وقام زآى إلى النافذة ينظر إلى الطريق ثم التفت إليهم قائلا:

صمت وخلاء ، الحارة آما آانت يوم طرد إليها إدريس

فقال آريم

-أن لنا أن نذهب.

ورآب الجزع ياسمينة فتساءلت فى نفسها ماذا يكون من أمرها لو تأخر بيومى عن موعده أو لو عدل عنه؟ وقام الرجال وآل يحمل بقجة وقال حسين:

-الوداع يا حارتنا الجهنمية.

سار فى المقدمة، ودفع برقة رفاعة ياسمينة أمامه وتبعها واضعا يده على منكبها آأنما يخشى أن يفقدها فى الظلام، ثم جاء آريم فحسين ثم زآى، تسللوا من باب الشقة واحدا فى إثر أخر، ورقوا فى السلم مهتدين بالدرابزين فى الظلم

الحالكة، وبدا السطح أرق ظلمة رغم أنه لم يبد فى السماء نجم واحد، ونضحت سحابة بنور القمر المتوارى خلفها فسجلت لوحتها رآض السحب وقال على:

أسوار الأسطح شبه متلاصقة وسنساعد الست إن لزم الأمر تتابعوا داخلين، ولما دخل زآى - وهو أخرهم - احس حرآة وراءه فالتفت نحو باب السطح فراى أربعة أشباح فتساءل مذعورا

من هناك ؟

تسمر الجميع والتفتوا وجاء صوت بيومى وهو يقول

-قفوا يا أولاد الزنا.

وانتشر عن يمينه وعن يساره جابر وخالد وحندوسة، وندت عن ياسمينة أهه، وأفلتت من يد رفاعة ثم جرت نحو باب السطح فلم يعترضها احد من الفتوات، حتى قال على مخاطبا رفاعة فى ذهول:

خانتك المرأة

وفى لحظة أحاطوا بهم وراح بيومى يتفحصهم عن قرب واحدا بعد أخر متسائلا

أين آودية الزار ؟

حتى تبينه فقبض على منكبه بيد من حديد وهو يسأله متهكما

أين أنت ذاهب يا نديم العفاريت ؟

فقال رفاعة فى وجوم

يضايقكم وجودنا فأثرنا الرحيل

فانطلق ضحكة قصيرة ساخرة ثم التفت إلى آريم وقال

وأنت هل أجدى اخفاؤك لهم فى بيتك؟

فازدرد آريم ريقه الجاف وقال وفرائصة ترتعد

- لم أآن أعلم بشئ مما بينك وبينهم!

فلطمه بيده الخرى على وجهه فسقط على الأرض، ولكن سرعان ما وثب قائما ورآض فى رعب نحو سطح الربع الملاصق، وفجأة جرى وراءه حسين وزآى ، وانقض حندوسة على عل فرآله فى بطنه فتهاوى على الأرض وهو يئن من أعماقه، وفى ذات الوقت هم جابر وخالد باللحاق بالهاربين ولكن بيومى قال باستهانة:

لا خوف من هؤلاء فلن ينبس أحدهم بكلمة وإلا هلك، وقال رفاعة وقد انحنى راسه نحو قبضة بيومى لشدة ضغطها-. :

لم يفعلوا شيئا يستحق العقاب

فهوى بيومى بكفه على وجهه وهو يقول متهكما

خبرنى ألم يسمعوا الجبلاوى آما سمعته؟

ثم دفعه أمامه وهو يقول

-سر أمامى ولا تفتح فاك.

سار مستسلما للمقادر، هبط السلم المظلم محاذرا ووقع الأقدام الثقيلة يتبعه، وغشية الظلام والحيرة والشر الذى يتهدده فلم يكد يفكر فيمن هرب ولا فيمن خان، وران عليه حزن شامل عميق فغطى حتى على مخاوفه وخيل إليه أن ذلك الظلام سيمسى صفة الدنيا الملازمة، وانتهوا إلى الحارة فقطعوا الحى الذى لم يبق فيه مريض بفضله وتقدمهم حندوسة نحو حى جبل فمروا تحت ربع النصر المغلق حتى خيل إليه أنه يسمع تردد أنفاس والديه، وساءل نفسه لحظة عنهما فخيل إليه أنه يسمع نحيب عبدة فى الليل الصامت ولكن سرعان ما استرده الظلام والحيرة والشر الذى يتهدده، وبدا حى جبل هياآل أشباح عمالقة غارقة فى الظلامن ما أشد الظلام وما اعمق النوم، أما وقع أقدام الجلادين فى الظلمة الحالكة وأطيط نعالهم فكأنه ضحكات شياطين تعبث فى الليل، ومضى حندوسة نحو الخلاء بحذاء سور البيت الكبير فرفع رفاعة عينيه إلى البيت لكنه رأه مظلما آالسماء، ولا شبح فى نهاية السور فتساءل حندوسة:

المعلم خنفس:

فأجابه الرجل

-نعم.

وانظم إلى الرجال دون آلام، وظلت عينا رفاعة مرفوعتين نحو البيت، ترى هل يدرى جده بحاله؟ إن آلمة منه تستطيع أن تنقذه من مخالب هؤلاء الجبارين، وترد عنه آيدهم . إنه قادر على أن يسمعهم صوته آما أسمعه إياه فى هذا المكان، وجبل وجد نفسه فى مازق مثل مأزقه ثم نجا وانتصر لكنه جاوز السور دون أن يسمع شيئا سوى وقع أقدام الجبارين وتردد أنفاسهم وأوغلوا فى الخلاء فثقلت خطواتهم فوق الرمال، وشعر رفاعة بالغربة فى الخلاء وذآر أن المراة خانته وأن الأصحاب لاذوا بالفرار، أراد أن يلتفت إلى الوراء صوب البيت ولكن يد بيومى دفعته فى ظهره بغتة فسقط على وجهه ورفع بيومى نبوته وهتف:

معلم خنفس ؟

فرفع الرجل نبوته قائلا

معك إلى النهاية يا معلم . وتساءل رفاعة فى يأس:

لماذا تبغون قتلى ؟-!

فهوى بيومى بنبوته على رأسه بشدة فصرخ رفاعة صرخة عالية وهتف من أعماقه : يا جبلاوى

وفى اللحظة التالية آان نبوت خنفس يصيب عنقه واستبقت النبابيت.

وساد صمت لم تسمع خلاله إلا حشرجة.
وأخذت الأيدى تحفر الأرض بقوة فى الظلام.
لأول مرة فى مصر
النص الكامل لرائعة نجيب محفوظ .. أولاد حارتنا
بعد 35 عاما من غيابها عن الشعب المصرى
***

61

غادر القتلة المكان متجهين نحو الحارة فسرعان ما ذابوا فى الظلام.
وإذا بأربعة أشباح تنهض قائمة من موضع غير بعيد من موقع الجريمةن ندت عنهم تنهدات وأصوات بكاء مكتوم حتى صاح أحدهم:
يا جبناء ، أمسكتم بى وآتمتم أنفاسى فقتل دون دفاع
فقال له اخر
لو أطعناك لهلكنا جميعا دون أن ننقذه
فعاد على يقول غاضبا
يا جبناء ! ما انتم إلا جبناء
فقال آريم بصوت باك
لا تضعيوا الوقت فى الكلامن أمامنا عمل شاق يجب أن ننجزه قبل الصباح
ورفع حسين راسه إلى السماء يقلب فيها عينيه الدامعتين وتمتم بجزع
الفجر قريب فلنسرع
فهتف زآى متأوها
يا له من وقت قصير آالحلم لكننا فقدنا فيه أعز من عرفنا فى الحياة
واتجه على نحو موقع الجريمة وهو يصر على أسنانه مغمغما
يا جبناء- .
فمضوا خلفه ، ثم جلسوا جميعا على رآبهم فى هيئة نصف دائرة وراحوا يتحسسون الرض مفتشين

وبغتة صرخ آريم آالملدوغ:

هنا!

وتشمم يده وهو يقول

إن هذا هو دمه!

وفى ذات الوقت صاح زآى

-وهذا الموضع الهش مدفنه.

وتجمعوا حوله واخذوا يزيلون الرمال براحاهم ولم يكن فى الأرض من هو أتعس منهم، لضياع العزيز، ولموقف العجز الذى وقفوه عند مصرعهن وعبرت آريم لحظة جنون فقال فى بلاهة:

لعلنا نجده حيا!.

فقال على بازدراء ويداه لا تكفان عن العمل

اسمعوا اوهام الجبناء!

وامتلت خياشيمهم برائحة التراب والدم وترامى من ناحية الجبل عواء، وهتف على باشفاق

-تمهلوا ، فهذا جسده.

فانخلعت قلوبهم ، ورقت أيديهم وتلمسوا أطراف ثوبه بجزع، ثم ارتفعت أصواهم بالبكاء وتعاونوا على استخلاص الجثة من الربمال وقاموا بها فى رفقن وآان صياح الديكة يترامى من الحارات والأزقة حث البعض على الإسراع ولكن لفتهم على إلى وجوب ردم الحفرةن فخلع جريم جلبابه وفرشه على الأرض فجرحوا الجثة عليه، وتعاونوا مرة أخرى على ردم الحفرة ، وخلع حسين جلبابه فغطى به الجثة ثم حملوها وساروا نحو باب النصر، وأخذ الظلام يخف فوق الجبل ويشف عن السحاب، وتساقط الندى فوق الجباه والدموعن وآان حسين يدلهم على طريق مقبرته حتى بلغوها، وانهمكوا فى فتح القبر هاميتن والضياء ينتشر رويدا حتى تراءى للأعين الجثمان المسجى وايدهم الملطخة بالدم، وأعينهم المحمرة من البكاء وحملوا الجثة وهبطوا بها إلى جوف القبر، وقفوا حولها خاشعين وهم يضغطون جفوهم ليزيلوا لدموع التى تحول دون رؤيتها.

وهمس آريم والعبرات تخنقه:

-آانت حياتك حلما قصيرا، لكنها ملت قلوبنا بالحب والنقاء، وما آنا نتصور أن تغادرنا بهذه السرعة فضلا عن أن تقتل بيد أحد

من الناس، أحد من أبناء حارتنا الجاحدة التى داوايتها وأحببتها ، حارتنا التى أبت إلا أن تقتل الحب والرحمة والشفاء ممثلة فى شخصك فقضت على نفسها باللعنة حتى أخر الزمن.

وتساءل زآى منتحبا:

لماذا يذهب الطيبون؟ لماذا يبقى المجرمون؟

وتأوه حسين قائلا

لولا حبك الباقى فى قلوبنا لمقتنا الناس إلى الأبد!

عند ذاك قال على

لن يرتاح لنا بال حتى نكفر عن جبننا- .

وعندما غادروا القبرة متجهين نحو الخلاء آان النور يصبغ الآفاق بمثل ذوب الورد الأحمر

62

لم يعد أحد من الصحاب الأربعة يظهر فى حارة الجبلاوى ، وظن ذووهم أنهم غادروا الحارة خفية وراء رفاعة اتقاء لتحرش الفتوات، وعاش الرفاق فىأطراف الخلاء فى حالة نفسية متوترة، يصارعون بكل قواهم وطاة الألم وحز الندم، آان فراق رفاعة أشد من الذبح على قلوبهم، وآان تخليهم عنه معذبا قاتلا، لم يبق لهم من أمل فى الحياة إلا أن يتحدوا موته بغحياء رسالته وأن يترلوا العقاب بقاتلية آما صمم على، أجل لم يكن فى وسعهم العودة إلى الحارة ولكن آان فى مأمولهم أن يقابلوا من يشاءون خارجها . وذات صباح استيقظ ربع النصر على صوات عبدة فهرع الجيران إليها يستطلعون الخبر فصاحت بصوت مبحوح:

قتل ابنى رفاعة- .

ووجم الجيران وتطلعوا إلى عم شافعى الذى آان يجفف عينيه

فقال الرجل:

قتله الفتوات فى الخلاء

وعادة عبدة تنوح هاتفة

ابنى الذى لم يؤذ أحدا فى دنياه

فتساءل البعض

وهل علم بذلك فتوتنا خنفس ؟

فقال شافعى غاضبا

آان خنفس ضمن القاتلين

وقالت عبدة بأآية

وخانته ياسمينة فدلت بيومى عليه!
فلاح الاستنكار فى الوجوه وقال صوت
لذلك فهى تقيم فى بيته بعد أن هجرته زوجته- .
وانتشر الخبر فى حى جبل فجاء خنفس إلى بيت شافعى وصاح به
أجننت يارجل ؟ ماذا قلت عنى؟
فوقف شافعى أمامه دوم مبالاة وقال بشدة
إنك اشترآت فى قتله وأنت فتوته وحاميه!
فتظاهر خنفس بالغضب وصاح
-أنت مجنون يا شافعى، لا تدرى عما تقول شيئا، ولن أبقى حتى لا أضطر إلى تأديبك.
وغادر الربع وهو يرغى ويزبد، وانتقل الخبر إلى حى رفاعة الذى أقام فيه عقب مغادرته لحى جبل فذهل الناس له، وارتفعت الأصوات بالسخط والبكاء، ولكن الفتوات خرجوا إلى الحارة يقطعوها ذهابا وإياب، النبابيت فى أيديهم والشر يتقد فى نظراهم ، ثم سرى نبأ يقول : إن الرمال غربى صخرة هند وجدت ملخطة بدم رفاعة، وذهب عم شافعى وخاصة أصحابه للبحث عن الجثة هنالك، ففتشوا وحفروا ولكنهم لم يعثروا على شئ ولغظ الناس بالخبر وتبلبلت الأفكار وتوقع آثيرون أن تحدث فى الحارة أمور، وراح الناس فى حى رفاعة يتساءلون ماذا فعل رفاعة حتى يقضى عليه بالقتل؟ وقال آل جبل رفاعة قتل وياسمينة مقيمة فى بيت بيومى، وتسلل الفتوات باليل إلى المكان الذى قتل فيه رفاعة، وحفروا مدفنة على ضوء مشعل، ولكنهم لم يعثروا للجثة على أثر ، وتساءل بيومى:
هل أخذها شافعى؟
ولكن خنفس أجابه
آلا ، لم يعثر على شئ آما أخبرتنى العيون
فضرب بيومى الأرض بقدمه وصاح
إهم أصحابه ، لقد أخطأنا بترآهم يفلتون، وها هم يحاربوننا من وراء وراء
وعند عودهم مال خنفس على أذن بيومى وهمس قائلا
إن احتفاظ المعلم بياسمينة لما يسبب لنا المتاعب
فقال بيومى ساخطا
-بل اعترف أنك فتوة ضعيف فى حيك!
وودعه خنفس ساخطا، واشتد التوتر بحى جبل ورفاعة، وتكرر اعتداء الفتوات على الساخطين، وساد الإرهاب فى الحارة

حتى آره أهلها الخروج إليها إلا لضرورة ، وفى ليلة من الليالى - وآان بيومى فى قهوة شلضم - تسلل أهل زوجته إلى بيته بقصد الاعتداء على ياسمينة، فشعرت بهم وفرت بجلبابها إلى الخلاء ، وهم يطاردونها، وظلت تعدو فى الظلام آالمجنونة
حتى بعد أن آف المطاردون عن مطاردتها، وظلت تعدو حتى أوشكت أنفاسها أن تنقطع فاضطرت إلى التوقف وهى تلهث بعنف وقد طرحت رأسها إلى الوراء وأغمضت عينيها، ولبثت آذلك حتى استردت أنفاسها، ونظرت وراءها فلم تر شيئا ولكنها
جفلت من فكرة العودة إلى الحارة ليلا، ونظرت أمامها فرأت عن بعد نورًا ضئيلا لعله ينبعث من آوخ فسارت نحوه أملة أن تجد عنده مأوى ياويها حتى الصباح، وطال بها المسير قبل أن تبلغه، وآان آما ظنت آوخا فاقتربت من بابه وهى تنادى أهله، وبغتة وجدت نفسها أمام أصدقاء زوجها الحميمين : على وزآى وحسين وآريم.

63

تسمرت ياسمينة بالأرض وهى تقلب فى وجوههم بصرا زائغا تراءوا لها آجدار يعترض مطاردا فى آابوس آانوا يحدقون فيها باشمئزاز، وبدا الاشمئزاز فى عينى على فى إطار حديدى من القسوة وهتفت بلا وعى:

إنى بريئة ، ورب السماوات بريئة، ذهبت معكم حتى حاجمونا فهربت آما هربتم!

وآلحت الوجوه، وتساءل على حانقا:

ومن أدراك بأننا هربنا ؟

فقالت بصوت متهدج

لولا الهرب ما بقيتم على قيد الحياة، لكنى بريئة، وما فعلت شيئا إلا أنى هربت!

فقال على وهو يعض على أسنانه

هربت إلى سيدك بيومى-. .

أبدًا ، دعونى أذهب ، إنى بريئة

فصاح بها على

ستذهبين إلى جوف الأرض

فهمت بالهرب لكنه وثب عليها فقبض على منكبيها بشدة فصرخت

أعتقنى إآراما له فإنه لم يكن يحب القتل ولا القاتلين!

فقبض على عنقها بيديه حتى قال آريم جزعا

انتظر حتى نفكر فى الأمر

فصاح به

-اصمتوا ياجبناء!

وشج على عنقها بكل ما يعتلج فى صدره من حنق وحقد وألم وندم ، حاولت التخلص من قبضته عبثا ، قبضت على ساعديه، رآلته، هزت رأسها، آان آل مجهود عبثا ضائعا فخارت قواها، وجحظت عيناها، ثم نفث أنفها دما، وارتج جسدها بعنف، وسكتت إلى الأبد، وترآها تسقط جثة تحت قدميه.

وفى صباح اليوم التالى وجدت جثة ياسمينة ملقاة أمام بيت بيومى، وانتشر الخبر آغبار الخماسين فجرى الناس نساء ورجالا نحو بيت الفتوة وارتفعت الضوضاء، واختلط التعليقات ودارى الجميع مشاعرهم الحقيقية، وفتح باب بيت بيومى، واندفع من الرجل آالثور الهائج، وراح يضرب بنبوته آل من يصادفه فرآض الجميع فى فزع، ولاذوا بالدور والمقاهى، ووقف الرجل فى الحارة الخالية يسب ويلعن ويهدد ويتوعد ويضرب الهواء والجدران وأديم الأرض.

وفى اليوم نفسه هجر عم شافعى وزوجته الحارة، وبدا أن أى أثر لرفاعة قد اختفى.

ولكن ثمة أشياء آانت تذآر به على الدوام، آبيت عم شافعى بربع النصر ودآان النجارة ومسكن رفاعة فى الحى الذى أطاقوا عليه دار الشفاء، ومصرعه غربى صخرة هند، وفوق آل أولئك أصحابه المخلصون الذين واصلوا اتصالاتهم بمحبيه، ولقنوهم أسرار علمه بتخليس الأنفس من العفاريت ليزاولوها فى مداواة المرضى، واقتنعوا أنهم بذلك يعيدون رفاعة إلى الحياة، أما على فلم يكن ليدأ له بال حتى يقضى على المجرمين، وقد قال له حسين معاتبا:

رفاعة فى شئ!

فقال على بقوة

إنك لست من

إنى أعرف رفاعة أآثر مما تعرفونه، قضى حياته القصيرة فى قتال عنيف مع العفاريت

فقال آريم

إنك تريد العودة إلى الفتونة وما آان أبغضها إليه

فهتف على بحماس

-آان فتوة ولا آل الفتوات ولكن خدعتكم رقته.

وتوثب آل فريق للعمل على رأيه بإيمان صادق، وتناقلت الحارة قصة رفاعة على حقيقتها التى آان يجهلها الأآثرون، وتنوقل أيضا أن جثته ظلت ملقاة فى الخلاء حتى حملها الجبلاوى بنفسه فوارها التراب فى حديقته الغناء، وآادت الحداث الخطيرة تتلاشى عند ذلك لولا أن اختفى الفتوة حندوسة اختفاء مريبا، وأذا بجثته تكتشف ذات صباح ملقاة مشوهة أمام بيت

الناظر إيهاب، وتزلزل بيت الناظر آما تزلزل بيت بيومى، ومرت بالحارة فترة رهيبة من الرعب، انصب الاعتداء آالمطر على آل من له صلة أو شبهة صلة برفاعة أو باحد من رجاله، انهالت النبابيت على الرءوس وهرست الأقدام البطون، وحفرت الكلمات الصدور، وألهبت الأيدى الأقفية، حتى حبس نفسه فى الدور من حبس وهجر الحارة من هجر وقتل فى الخلاء من استهان بالخطر، فضجت الحارة بالصوات والعويل وغشيها السواد والظلام، وفاحت منها رائحة الدم ومن عجب أن ذلك آله لم يقض على عمل العاملين فقد قتل الفتوة خالد وهو خارج من بيت بيومى قبيل الفجر واشتد غضب الإرهاب حتى بلغ الجنون، لكن حارتنا استيقظت فى الهزيع الأخير من الليل على حريق هائل التهم بيت الفتوة جابر وأهلك أسرته، وصاح بيومى:

-إن مجانين رفاعة منتشرون آالبق، والله ليقتلن ولو فى بيوتهم.

إذاع فى الحارة أن البيوت ستهاجم بالليل فرآب الفزع الناس حتى جدوا وخرجوا من الربوع فى ثورة هوجاء يحملون العص والمقاعد وأغطية الحلل والسكاآين والقباقيب والطوب، وصمم بيومى على أن يضرب قبل أن يستفحل الأمر فرفع نبوته وخرج من بيته فى هالة من الأعوان.

وظهر على لأول مرة ومعه رجال أشداء على رأس الثائرين، وما أن رأى بيومى قادما حتى أمر بقذف الطوب فأرسل الهائجون أسراب الطوب آالجراد فانصبت على بيومى ورجاله وتفجرت الدماء، وهجم بيومى بجنون وهو يصرخ آالوحش، ولكن حجرا أصاب أعلى رأسه فتوقف رغم الغضب ورغم القوة ورغم الفتونة، ثم ترنح وسقط مقنعا بدمه، وسرعان ما فر الأعوان، واآتسحت أمواج الغاضبين بيت الفتوة حتى ترامت أصوات الكسر والتحطيم إلى مثوة الناظر فى بيته واستطار الشر، وانقض العقاب على من بقى من الفتوات وأعوانهم وخربت بيوتهم، واستفحل الخطر، وأوشك أن يفلت الزمام ، عند ذاك أرسل الناظر فى طلب على فذهب على لمقابلته، وآف رجال على عن الانتقام والتخريب انتظارا لما تسفر عنه المقابلة فهدأت الأحوال وسكنت الخواطر.

وتمخضت المقابلة عن عهد جديد فى الحارة، فقد اعترف بالرفاعيين آحى جديد مثل حى جبل فيما له من حقوق وامتيازات، ونصب على ناظرا على وقفهم، وبمعنى فتوة لهم، يتسلم نصيبهم فى الوقف ويوزعه عليهم على أساس المساواة الشاملة، وعاد إلى الحى الجديد جميع المهاجرين الذين فروا من الحارة فى فترات الإرهاب، وعلى رأسهم عم شافعى وزوجته وزآى وحسين وآريم، وحظى رفاعة فى موته بما لم يكن ليحلم به فى حياته من التكريم والإجلال والحب حتى سار قصة باهرة يرددها آل لسان، وتتغنى بها الربابب وبخاصة رفع الجبلاوى بجثته ودفنها فى حديقته الغناء وقد أجمع الرفاعيون على ذلك آما أجمعوا على الولاء والتقديس لوالديه، لكنهم اختلفوا فيما عدا ذلك فأصر آريم وحسين وزآى على أن رسالة رفاعة يجب أن تقتصر على مداوة المرضى واحتقار الجاه والقوة، فساروا ومن تبعهم فى الحياة مساره، وغالى منهم قوة فتجنبوا الزواج حبا فى محاآاته واستعادة لسيرته، أما على فتمسك بكافة حقوقه فى الوقف

وتزوج ودعا إلى تجديد حى رفاعة ، لم يكره الوقف لذاته ولكن ليبرهن على أن السعادة الحقة متاحة بدونه، وليقضى على الشرور التى يستثيرها الطمع ، فإذا وزع الريع بالعدل ووجه للبناء والخير فهو الخير آل الخير.

وعلى أى حال استبشر الناس خيرًا ، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة، وقالوا بثقة واطمئنان إن اليوم خير من الأمس، وإن الغد خير من اليوم.

فلماذا آانت أفة حارتنا النسيان ؟

قاسم

64

لم يكد يتغير شئ فى الحارة الأقدام مازالت عارية تطبع أثارها الغليظة على التراب والذباب مازال يلهو بين الزبالة والأعين والوجوه مازالت ذابلة مهزولة ، والثياب مرقعة والشتائم تتبادل آالتحيات والنفاق يصم الأذان، والبيت الكبير مازال قابعا وراء أسواره غارقا فى الصمت والذآريات، وإلى اليمين بيت الناظر وإلى اليسار بيت الفتوة ثم يجيئ حى جبل، ويليه حى رفاعة فى وسط الحارة، أما بقية الحارة وهى الناحية المنحدرة إلى الجمالية فكانت مقام من لاصفة لهم ولا نسب، أو الجرابيع آما آانوا يدعونهم وهم أتعس أهل الحارة وأضيعهم، وفى هذا العهد ولى النظارة السيد رفعتن وآان آسابقيه من النظار، وآان فتوتها لهيطة وهو رجل قصير دقيق لا يوحى مظهره بالقوة لكنه ينقلب عند المعرآة لسانا من نار فى سرعته وحدته وتدميره، وقد نال الفتونة بعد سلسلة من المعارك سالت لها الدماء فى جميع الأحياء أما فتوة جبل فكان يدعى جلطة، ومازال حيه معتدا بنفسه مباهيا بقرابته للواقف وبأنه خير حى، وأن رجلهم جبل آان أول وأخر من آلمه الجبلاوى وفضله، ولذلك قل أن أحبهم أحد، وآان حجاج فتوة آل رفاعة ، لكنه لم يحتذ مثال على فى نظارته وإنما سار على درب خنفس وجلطة وغيرهما من المغتصبين آان يستأثر بالربع ويضرب المتذمرين ويحث أله على اتباع سنة رفاعة فى احتقار الجاه والثراء وحتى الجرابيع آان لهم فتواهم، ويدعى سوارس لكنه لم يكن طبعا بناظر وقف على هذا النحو استقرت الأوضاع، وأآد حملة النبابيت وشعراء الرباب أنه نظام عادل جرت به شروط الواقف العشرة وسهر على تنفيذه ورعايته الناظر والفتوات، وفى حى الجرابيع عرف عم زآريا بياع البطاطة بالطيبةي وامتاز بين الناس رقرابته البعيدة للمعلم سوارس فتوة الحى، آان يطوف بأحياء الحارة سائقا عربته مناديا على البطاطة وفى وسط العربة تقوم الفرن نافثة دخانا معبقا برائحة شهية تجذب غلمان رفاعة وجبل، آما تجذب الغلمان بالجمالية والعطوف والدراسة وآفر الزغارى وبيت القاضى، وآانت قد مضت فترة غير قصيرة من حياة عم زآريا الزوجية دون أن يرزق بمولود ولكن أنس وحشته فى تلك الفترة صغير يتيم هو قاسم - ابن شقيق زآريا - عقب وفاة والديه ، ولم يجد الرجل فى الصغير عبئا يؤوده، إذ أن الحياة وخاصة فى هذا الحى من الحارة لم تكن تعلو آثيرا عن حياة الكلاب والقطط والذئاب التى تعثر على رزقها فى النفايات وأآوام الزبالة، وأحب زآريا قاسم آما آان يحب أباه من قبل، ولما حملت زوجته عقب انظمام الصغير للأسرة تفاءل به خيرا وازداد عليه عطفا، ولم يقل عطفه عندما رزق بابنه حسن، ونشأ قاسم شبه وحيد، إذ آان اليوم يمضى وعمه بعيد عن الحارة وزوجه عمه مشغولة بدارها ووليدها، ثم اتسع عالمه بنموه فأخذ يلعب فى حوش الربع أو فى الحارة وصادق أقرانه فى حيه وحى رفاعة وجبل،

وذهب إلى الخلاء فلعب حول صخرة هند وشرق فى الصحراء وغرب ورقى فى الجبل، وآان يتطلع مع الصغار إلى البيت الكبير مفاخرا بجده ومقام جده، ولكنه لم يكن يجد ما يقوله إذا تلكم البعض عن جبل والبعض الآخر عن رفاعة، آما لم يكن يجد ما يفعله إذا انقلب الكلام تشاتما وتماسكا وعراآا، وآم نظر إلى بيت الناظر بهش وإعجاب، وآم رمق الثمار فوق الأشجار برغبة واشتهاء ويوما رأى البواب ناعسا فتسلل إلى الحديقة بخفة دون أن يرى أحدا أو يراه أحد، وراح يقطع المماشى فى بهجة وسرور، ويلتقط ثمار الجوافة من فوق الحشائش ويأآلها بلذة حتى وجد نفسه أمام الفسقية، وعلقت عيناه بعمود الماء المتصاع من النافوة استخفه الفرح فخلع جلبابه ونزل إلى الماء ومضى يخوض فيه ويضرب سطحه بيده ويدلك به جسده وقد ذهل عما حوله، وما يدرى إلا وصوت حاد يصيح بغضب : يا عثمان يا ابن الكلب، تعالى يا أعمى يا ابن

الأعمى، التفت رأسه نحو مصدر الصوت فرأى على السلاملك رجلا متلفعا بعباءة حمراء يشير نحوه بأصبعه المرتجف والغضب يشتعل فى وجهه فاندفع نحو حافة الفسقية وصعد إلى أرض الحديقة مرتكزا على مرفقية، وعند ذاك لمح البواب قادما مهرولا فجرى نحو عريشة الياسمين الملاصقة للسور ناسيا جلبابه حيث خلعه، ورآض نحو الباب فمرق إلى الحارة عدا بكل قواه ورأاه أطفال فتبعوه مهللين فنبحت آلاب ثم خرج عثمان البواب إلى الحارة وراح يجرى وراءه حتى أدرآه فى منتصف حيه، فقبض على ذراعه، وتوقف وهو يلهث وعلا صراخ قاسم حتى ملأ الحى وسرعان ما جاءت زوجة عمه حاملة وليدها، وخرج المعلم سوارس من القهوة دهشت زوجة عمه لمنظره وأمسكت بيده وهى تقول للبواب:

الولد، ماذا فعل وأين جلبابه؟

فصاح البواب فى تكبر

وحد الله يا عم عثمان، أرعبت

-رأه حضرة الناظر وهو يستحم فى الفسقية هذا العفريت يجب جلده دخل الملعون وأنا نائم لماذا لا تريحوننا من عفاريتكم ؟

فقالت المرأة برجاء:

السماح يا عم عثمان الولد يتيم وحقك على

واستنقذته من يده قائلة

سأضربه عنك ولكن وحياة شبيتك إلا ما أعدت له جلبابه الوحيد

فلوح البواب بيده متسخطا وولاها ظهره راجعا وهو يقول

بسبب هذه الحشرة لعنت وسببت أولاد عفاريت وحارة بنت آلب-. .

وعادت المرأة إلى الربع متورآة حسن جارة قاسم من يده وهو يشهق باآيا

وقال عم زآريا لقاسم وهو يرمقه باعجاب:

لم تعد طفلا يا قاسم، فأنت تقارب العاشرة وأن لك أن تعمل

فالتمعت عينا قاسم السوداوان ابتهاجا وقال

طالما رجوتك أن تأخذني معك يا عمى

فضحك الرجل قائلا

.-

فهرع الغلام إلى العربة محاولا دفعها لكن عم زآريا منعه، وقالت زوجة عمه

آان غرضك اللعب لا العمل، أما اليوم فأنت ولد عاقل وتستطيع أن تعاوننى.

حاسب أن تتزلق البطاطة فنموت جوعا

وقبض زآريا على يدى العربة وهو يقول له

سر أمام العربة وناد : بطاطة العمدة .. بطاطة الفرن، وخد بالك من آل ما أقول أو أعمل، وستصعد بالبطاطة إلى الزبائن-.

بالأدوار العليا، وعلى العموم فتح عينك

فقال قاسم وهو ينظر إلى العربة بحسرة:

-افعل آما أمرتك ولا تكن عنيدا، آان أبوك الطف الناس.

اندرت العربة نحو الجمالية وقاسم يصيح بصوت رفيع آالصفير : بطاطة العمدة ، بطاطة الفرن، لم يكن آمثل فرحة شئ وهو ينطلق إلى الأحياء الغربية ويعمل آالرجال، ولما بلغت العربة حارة الوطاويط نظر قاسم فيما حوله وقال لعمه:

هنا اعترض إدريس سبيل أدهم!

فهز زآريا رأسه بلا أآتراث فعاد الغلام يقول ضاحكا

-آان أدهم يسوق عربته مثلك يا عمى.

ومضت العربة فى تجوالها اليومى، من الحسين إلى بيت القاضى، ومن بيت القاضى إلى الدراسة، وقاسم يتطلع بدهش إلأى العابرين والدآاآين والجوامع حتى انتهت إلى ميدان صغير قال العم إنه سوق المقطم، فتأمله الغلام بإعجاب وقال:

أهذا سوق المقطم حقا ؟ إلى هنا هرب جبل، وهنا ولد رفاعة

فقال زآريا بلا حماس

هذا ولا ذاك!

فقال قاسم

نعم ، لا لنا فى

لكننا جميعا أولاد الجبلاوى فلماذا لا نكون مثلهم ؟

فضحك الرجل وقال ساخرا

-على الأقل جميعنا فى الفقر سواء!

ووجه الرجل عربته نحو أطراف السوق المشرفة على الخلاء، وبخاصة نحو آوخ من الصفائح على هيئة دآان لبيع المسابح والبخور والأحجبة، جلس أمامه على فروة عجوز ذو لحية بيضاء.

أوقف زآريا العربة أمام الكوخ وصافح العجوز بحرارة، فقال الرجل:

عندى اليوم آفايتى من البطاطة

فجلس زآريا إلى جانبه وهو يقول

مجالستك خير عندى من الربح

ونظر العجوز نحو الغلام مستطلعا فصاح به زآريا

-تعال يا قاسم وقبل يد المعلم يحيى.

فاقترب الغلام من العجوز وتناول يده المعروقة فلثمها فى أدب، وراح يحيى يداعب قصة قاسم ويتأمل وجهه الوسيم ثم تساءل:

من الغلام يا زآريا ؟

فقال زآريا وهو يمد ساقيه فى الشمس

ابن المرحوم أخى

فأجلسه إلى جانبه على الفروة وهو يسأله

هل تذآر أباك يا أبنى ؟

فهز قاسم رأسه قائلا

آلا يا عمى- .

آان أبوك صديقا لى ، وآان لطيفا

ورفع قاسم عينيه إلى البضائع يتأمل ألوانها فمد يحيى يده إلى رف قريب وتناول حجابا ، ثم علقه بعنق الغلام وهو يقول

احتفظ به فيحفظت من آل سوء

وإذا بعم زآريا يقول لقاسم

المعلم يحيى آان من حارتنا ومن حى رفاعة

فنظر قاسم إلى يحيى وتساءل

لماذا ترآت حارتنا ياعمى ؟

فأجاب زآريا قائلا

غضب عليه فتوة رفاعة منذ عهد بعيد فأثر الهجرة

فقال قاسم بدهش

فعلت آما فعل عم شافعى والد رفاعة ؟

فضحك يحيى عن فم فارغ طويلا ثم قال

-أعرف ذلك يا غلام؟ ما أعرف أولاد حارتنا بالحكايات فما بالهم لا يعتبرون!

وجاء صبى قهوة حاملا صينية شاى فوضعها أمام يحيى ثم رجع وأخرج يحيى من صدره لفافة صغيرة وجعل يفكها قائلا برضى:

لدى شئ ثمين ، مفعوله أآيد حتى الصباح

فقال زآريها باهتمام

دعنا نجربه-. .

ما سمعتك تقول لا قط-!

آيف أرفض النعمة يا عمى

وتقاسما القطعة وراحا يلوآوها ، وقاسم يتابعهما بشغف حتى أضحك عمه، وأخذ العجوز يحسو الشاى ، ويسأل قاسم

هل تحلم بالفتونة آأهل حارتنا ؟

فقال قاسم مبتسما

نعم

فقهقه زآريا وقال آالمعتذر

فقال يحيى متأوها

أعذره يا معلم يحيى فأنت تعلم أنه فى حارتنا أما أن يكون الرجل فتوة وإما أن يعد قفاه للصفع.

ليرحمك الله يارفاعة، آيف نبت فى حارتنا الجهنمية-. .

لذلك آانت نهايته آما تعلم

فقال يحيى مقطبا

رفاعة لم يمت يوم مصرعه ولكنه مات يوم انقلب خليفته فتوة!

فسأله قاسم باهتمام

أين دفن يا عمى ؟ أهله يقولون إن جدنا دفنه فى حديقته، ويقول آل جبل إن جثته ضاعت فى الخلاء

فصاح يحيى غاضبا

الملاعين الأشقياء ، مازالوا يحقدون عليه حتى اليوم!

ثم مستدرآا فى تساؤال

خبرنى يا قاسم هل تحب رفاعة ؟-"

فنظر الغلام نحو عمه فى حذر ولكنه قال ببساطة

-نعم يا عمى ، أحبه آثيرا.

أيهما أحب إليك أن تكون مثله ام أن تكون فتوة ؟

فرفع إليه عينين تمتزج فيهما الحيرة والابتسام وتحرآت شفتاه للكلام، ولكنه لم ينبس، فقال زآريا مقهقها

-فليقنع مثلى ببيع البطاطة!

وساد الصمت بينهم على حين قامت ضجة حول حمار طرح أرضا فمال بالكارو المربوطة به، وأخذت الراآبات يثبن منها ، أما

السائق فقد انهال على الحمار ضربان ونهض زآريا وهو يقول:

أمامنا مشوار طويل، سلام عليكم يا معلم

فقال يحيى

احضر الغلام معك آلما جئت

وصافح قاسم وهو يداعب قصته قائلا

-ما أظرفك!

66

لم يكن فى الخلاء من مكان يستظل به من وقدة الشمس الغاضبة إلا صخرة هند، هنالك اقتعد قاسم الأرض ولا أنيس له إلا الغنم، بدا فى جلباب أزرق نظيف - نظيف بالقدر المتاع لراع - متلح الرأس بلاسة غليظة وقاية من الشمس، ومنتعلا

مرآوبا قديما باليا هتكت أطرافه، وآان يخلو إلى نفسه حينا أخ ويراقب النعاج والخرفان والمعز والجداء حينا أخر، وعصاه مطروحة إلى جانبه، ولاح المقطم من مجلسه القريب عاليا ضخما متجهما ، آأنه المخلوق الوحيد تحت القبة الصافية الذى يتحدى غضبة الشمس فى عناء وإصرار آما ترامى الخلاء حتى الآفاق مشمولا بصمت ثقيل وهواء ساخن، وآان إذا أضنته أفكاره وأحلامه ونوازع شبابه الفائز سرح الطرف فى الغنم ملاحظا لهوها وعبثها، وتخاصمها وتوادداها، ونشاطها وآسلها وخاصة البهم والحملان منها بنظراتها آأنما تخاطبه، وآان بدوره يخاطبها فيقارن بين ما تلقى فى رعايته من عطف وما يلقى أولاد حارته تحت غطرسة الفتوات من هوان، ولم تهمه نظرة الاستعلاء التى يلقيها أهل الحارة على الرعاة ، إذ أمن من بادئ الأمر بأن الراعى خير من البلطجى والبرمجى والمتسول، وفضلا عن ذلك فقد أحب الخلاء والهواء النقى وأنس إلى المقطم وصخرة هند وقبة السماء ذات الأطوار العجيبة، إلا أن الرعى آان يقوده دائما إلى المعلم يحيى ! وتساءل المعلم يحيى أول ما رأه راعيا:

من باع بطاطة إلى راعى غنم!

فقال قاسم دون حرج

-ولم لا يامعلم ! إنه عمل يحسدنى عليه مئات من التعساء فى حينا.

ولماذا ترآك عمك ؟

ابن عمى حسن آبر وهو أحق بمرافقة عمى فى تجواله، ورعى الغنم خير من التسول

ولم يكن يمر يوم دون أن يزور معلمه، آان يحبه ويسعد بأحاديثه، ووجد فيه رجلا محيطا باخبار حارته حاضرها وماضيها، ويعرف ما يتغنى به شعراء الرباب وأآثر ، ويعرف أيضا ما يتجاهلونه أحيانا وآان يقول ليحيى " إنى أرعى أغناما من آل حى، عندى غنم لجبل وأخرى لرفاعة وثالثة للموسرين من حينا، ومن عجب أنها ترعى جميعا فى إخاء لا ينعم بمثله أصحابها القساة من أولاد حارتنا ! وقال له أيضا : آان همام راعيا ومن الذين يحتقرون الرعاة ! إنهم متسولون وعاطلون وتعساء وهم فى الوقت نفسه يحترمون الفتوات، وما الفتوات إلا لصوص فجرة وسفاآو دماء سامحكم الله يا أولاد حارتنا، ومرة قال له فى دعابة:

إنى فقير قانع، لم تمتد يدى بالأذى لإنسان، حتى غنمى لا تلقى منى إلا المودة أفلا ترى أننى مثل رفاعة؟

فرمقه الرجل باستنكار وقال

رفعاة ! أنت مثل رفاعة ! رفاعة قضى عمره فى تخليس إخوانه من العفاريت آى تخلص لهم السعادة

ثم ضحك العجوز واستدرك قائلا

وأنت شاب مولع بالنساء ، ترصد عند المغيب فتيات الخلاء!

فابتسم قاسم متسائلا

وهل فى ذلك من عيب يا معلمى ؟-.

أنت وشانك، ولكن لا تقل إنك مثل رفاعة

فتأمل قوله مليا ثم قال

وجبل ألم يكن آرفاعة من أبناء حارتنا الطيبين؟ آان آذلك يا معلمى، وقد أحب وتزوج واستخلص حق أله فى الوقف ووزعه-.

بالعدل

فقال يحيى بحدة:

لكنه جعل من الوقف غايته!

فتفكر الشاب قليلا ثم قال بصراحة

بل حسن المعاشرة والعدل والنظام أيضا آانت غاياته

فتساءل يحيى فى استياء

إذن فأنت تفضل جبل على رفاعة؟

فامتلأت العينان السوداوان بالحيرة، وتردد طويلا ثم قال

آلاهما آان رجلا طيبا، وما أقل الطيبين فى حارتنا أدهم وهمام وجبل ورفاعة، أولئك هم آل حظنا من الطيبة، أما الفتوات-! فما أآثره

فقال يحيى فى أسى:

-وأدهم مات آمدا، همام قتل، ورفاعة قتل!

أولئك هم الطيبون حقا من أهل الحارة، سيرة عطرة ونهاية مؤسفة، هكذا آان يناجى نفسه وهو جالس فى ظل الصخرة الكبيرة، وانبعثت من صدره رغبة حارة فى أن يكون مثلهم، أما الفتوات فما أقبح فعالهم . وداخله حزن غامض وساوره قلق وقال لنفسه ليهدهد خاطره : آم شهدت هذه الصخرة من أحداث وأناس، آغرام قدرى وهند، ومقتل همام، ولقاء جبل والجبلاوى، وحديث رفاعة وجده، ولكن أين الأحداث وأين الأناس؟ إن الذآرى الطيبة تبقى وهى أثمن من قطعان المعز والضأن ! وشهدت أيضا جدنا العظيم وهو يجوب هذه الآفاق وحده، يمتلك مايشاء ويرهب الأشقياء، ترى آيف حاله فى عزلته.

وعند الأصيل نهض ثم تمطى متثائبا وتناول عصاه وهو يصفر صفيرا منغما، ثم لوح بعصاه ونعق بالغنم فمضت تتجمع وتتحرك قافلتها نحو العمران، وبدأ يشعر بالجوع ولم يكن تناول فى نهاره إلا سردينة ورغيفا، ولكن عشاء طيبا ينتظره فى بيت عمه، وحث السير حتى بدا له أول ما بدا من بعيد البيت الكبير بأسواره العالية ونوافذه المغلقة ورءوس أشجاره، ترى ما شكل

الحديقة التى يتغنى بها الشعراء والتى مات أدهم حسرة عليها . ولدى اقترابه من الحارة ترامت إلى مسامعه الضوضاء ومضى بحذاء السور الكبير إلى الداخل والمغي يضفى على الجو سمرته، وشق طريقه بين جماعات من الغلمان يلعبون ويتقاذفون بالطين، وملت أذنيه نداءات الباعة وأحاديث النساء وسخريات الساخرين وشتائمهم واستغاثات المجذوبين وجرس عربة الناظر، على حين أفعم أنفه برائحة المعسل النافذة والزبالة العطنة والتقلية المثيرة، وعرج إلى الربوع بحى جبل يعيد إليها أغنامها، آذلك فعل بحى رفاعة، فلم يبق لديه إلا نعجة واحدة، تملكها ست قمر السيدة الوحيدة التى تلك مالا فى حى الجرابيع وآانت تقيم فى بيت مكون من دور واحد ذى حوش متوسط تتوسطة نخلة وفى رآنه الأقصى شجرة جوافة، ودخل الحوش سائقا أمامه " نعمة " فصادف فى طريقه الجارية سكينة بشعرها المفلفل الذى وخطه المشيب فحياها فردت تحيته بابتسامة وسألته بصوت نحاسى:

-آيف حال نعمة ؟

فأعرب لها عن إعجابه بالنعجة، وترآها لها، ومضى فى سبيله، وإذا بصاحبة البيت والنعجة تدخل الحوش عائدة من الحارة، بدت أمامه فى ملاءة لف حوت جسمها الملئ، طالعته من برقعها عينان سوداوان يندبان بالحنان، تنحى جانبا وهو يغض بصره فقالت له برقة مهذبة:

مساء الخير-. .

مساء الخير يا ستى

وتمهلت المرأة فى سيرها وهى تتفحص نعمة، ثم نظرت نحوه وقالت

نعمة تسمن يوما بعد يوم والفضل لك!

فقال متأثرا من نظرتها الحنونة قبل آلماتها الطيبة

الفضل للمولى ولرعايتك

والتفت ست قمر نحو سكينة وقالت

احضرى له عشاء!

فرفع يديه بالشكر إلى رأسه وقال

-خير سابق ياستى.

وفاز بنظرة أخرى وهو يحيها مودعا ثم ذهب، ذهب شديد التاثر برقتها وعطفها آحالة آلما أسعده الحظ بلقائها وذلك عطف لم يعرف مثله إلا فيما يسمع أحيانا عن عطف الأمهات الذى لم يجربه، ولو امتد العمر بامه لكانت اليوم فى مثل عمر هذه السيدة الأربعينية، وآم بدا هذا العطف عجيبا فى حارة التى تتباهى بالقوة والعنف، وليس أعجب منه إلا جمالها المحتشم وما ينفحه فى روحه من بهجة غامرة ، ليست آذلك مغامرات الخلاء المحرقة، بجوعها الملتهب الأعمى وشبعها الخامد

المكتئب ، وهرول نحو دار عمه ملقيا عصاه على آتفه، لا يكاد يرى ما بين يديه من شدة انفعاله، وجد أسرة عمه مجتمعة فى الشرفة المطلة على حوش الربع تنتظره، جلس مع ثلاثتهم حول الطبلية وقد أعد عليها عشاء من طعمية وآرات وبطيخ وآان حسن فى السادسة عشر من عمره، طويل القامة متين البناء حتى حلم عم زآريا بأن يراه يوما فتوة الجرابيع، ولما انتهى العشاء، رفعت المرأة الطبلية وغادر عم زآريا الربع، ولبث الصديقان فى الشرفة حتى ترامى إليهما صوت من الحوش ينادى:

يا قاسم

فقام الشابان وقاسم يجيبه

-نحن قادمان يا صادق.

وتلقاهما صادق ببشر متألق وآان مقاربا لقاسم فى سنة وطوله ولكنه أنحل منه عودا، وآان يعمل مساعدا لمبيض النحاس فى أول دآان بحى الجرابيع فيما يلى الجمالية، مضى الأصدقاء إلى قهوة دنجل وطالعهم لدى دخولهم الشاعر طازة متربعا على أريكته فى الصدر، على حين جلس سوارس على آثب من مجلس دنجل عند المدخل، فاتجهوا نحو الفتوة وصافحوه فى خضوع رغم ما يعتز به قاسم وحسن من قرابته، واتخذوا مجلسهم على أريكة واحدة وسرعان ما جاء لهم صبى القهوة المألوفة، وآان قاسم مغرما بالجوزة الشاى المنعنع، وإذا بسوارس يتفحص قاسم بنظرة ازدراء وتساءل بغلظة:

ما لك يا ولد متأنقا آالبنت ؟

فتورد وجه قاسم حياء وقال فى نبرة المعتذر

ليس فى النظافة ما يعيب يا معلم!

فقطب فى أستياء وقال

-لكنها فى مثل سنك قلة أدب!

وساد الصمت فى القهوة آأن روادها وأدواتها وجدرانها تنصت لكلمات الفتوة، ولحظ صادق صاحبه بعطف لما يعلم عن رقة مشاعره أما حسن فأخفى وجهه فى قدح الزنجبيل حتى لا يكتشف فيه الفتوة الغضب، وتناول ظازه الرباب فأنبعثت من أوتارها النغام وتتابعت التحيات لرفعت الناظر ولهيطة الفتوة وسوارس سيد الحى، ومضى الشاعر يقول:

"وخيل إلى أدهم أنه يسمع وقع أقدام ، أقدام بطيئة وثقيلة استثارت ذآريات غامضة آرائحة ذآية مؤثرة تستعصى عل الإدراك والتحديد، حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح ثم راه يمتلئ بشئ آجسم هائل حملق فى دهش، وأحد بصره فى أمل يكتنفه يأس، وندت عنه آهة عميقة، وغمغم متسائلا:

أبى ؟

وخيل إليه أنه يسمع الصوت القديم وهو يقول

مساء الخير يا أدهم-. .

فاغرورقت عيناه ، وهم بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم يجدهما منذ أآثر من عشرين عاما

67

قالت سكينة الجارية:

-انتظر يا قاسم ، عندى شئ لك.

فوقف قاسم حيث ربط النعجة بجذع النخلة، وقف ينتظر الجارية التى ذهبت إلى الداخل وآان قلبه يخفق وحدثته نفسه بأن الخير الذى وعد به صوت الجارية إنما يجئ من خير أنبل فى قلب صاحبة الدار، ووجد تشوقا عميقا إلى أن يرى نظرتها أو يسمع صوتها ليبرد بالبهجة جسده الذى احترق فى الخلاء طيلة النهار، وعادت سكينة بلفافة فأعطته إياها وهى تقول:

فطيرة بالهنا والشفا!

فتلقاها بيديه قائلا

إشكرى عنى السيدة الكريمة

فجاءه صوتها من وراء النافذة وهى تقول برقة

الشكر للمولى يا ابن الطيبين.

فرفع بالشكر يده دون بصره ومضى وردد قولها : يا ابن الطيبين، فى سعادة مخدرة لم يسمع راعى الغنم قولا آهذا من قبل، ومن قائلته؟ السيدة المحترمة فى حيه البائس، وألقى نظرة وردية على الحارة المسربلة بالمغيب، وقال لنفسه:

رغم تعاسة حارتنا فهى لا تخلو من أشياء تستطيع إذا شاءت أن تبعث السعادة فى القلوب المتعبة، وانتبه من حمله

مترعجا على صوت يصرخ : نقوى .. نقودى سرقت، رأى رجلا معمما يهرول فى جلباب أبيض فضفاض نحو داخل الحارة قادما

من أول حيهم وتحولت الحارة نحو الرجل الصارخ، فجرى نحوه الصغار واشرأبت أعناق الباعة والجالسين بالأبواب وأطلت الرءوس من النوافذ، وارتفعت أوجه من تحت الأرض خلال آوات البدرومات وخرج رواد المقاهى وأحيط بالرجل من آل ناحية،

ورأى قاسم رجلا قريبا منه يحك ظهره بعود خشبى من طوق جلبابه ، ويتابع المنظر بعينين آليلتين فسأله عن الرجل قائلا :

من الرجل ؟

فأجاب ويده لا تمسك عن الحك

-نجاد آان يعمل فى بيت الناظر!

واتجه نحو الرجل سوارس فتوة الجرابيع وحجاج فتوة رفاعة وجلطة فتوة جبل، وسرعان ما أمروا الناس بالابتعاد فتراجعوا خطوات بلا تردد ، وقالت امرأة من نافذة ربع فى حى رفاعة:

عين أصابت الرجل

فقالت امرأة أخرى من نافذة باول ربوع جبل

-صدقت ما من أحد إلا وحسدوه على ربحه المنتظر من تنجيد فرض الناظر، اللهم أآفنا شر العين.

فقالت امرأة ثالثة واقفة أمام باب بيت وهى تفلى رأس غلام : وآان يا عينى يضحك وهو خارج من بيت الناظر ، لم يكن يدرى أنه سيصرخ ويبكى، قطعت الفلوس وقرها!

وآان الرجل يصيح بأعلى صوته:

البيت والدآان والأولاد، عشرون جنيها

،

.-

الله يخرب بيت أولاد الحرام

سرق آل ما آان معى من نقود، اجرة عمل أسبوع، وأخرى آانت فى جيبى، نقود

وقال جلطة فتوة جبل:

هس ، الكل يسكت ، اسكتوا يا غنم، سمعة الحارة فى الميزان، وأى عيب فى النهاية سيلبس الفتوات

فقال حجاج فتوة رفاعة

حارتنا ؟

فهتف النجاد بصوت مبحوح

وربك لن يقع عيب ، ولكن من أدرانا أنه فقد نقوده فى

على الطلاق ما سرقت إلا فى حارتكم، تسلمتها من بواب حضرة الناظر، وتحسست صدرى فى أخر الحارة فلم أجد لها-. أثرا

وارتفعت الأصوات فصاح حجاج:

اسكتوا يا مواشى ! واسمع يا راجل، أين عرفت أن نقودك ضاعت؟

فأشار الرجل إلى أخر حى الجرابيع وقا ل

أمام دآان مبيض النحاس، لكنى والحق يقال لم يقترب منى أحد هناك

فقال سوارس

إذن سرق قبل أن يدخل حينا!

فقال حجاج فتوة رفاعة

آنت فى القهوة حين مروره فلم أر أحدا فى حينا يقترب منه فصاح جلطة بحنق-. :

ليس فى آل جبل لص، إنهم أسياد هذه الحارة

فأجابه حجاج غاضا

حاسب يا معلم جلطة، عيب قولك أسياد الحارة-! .

لا ينكر ذلك إلا مكابر

فصاح حجاج بصوت آالرعد

لا توقظ عفاريتى ! ملعود دين قلة الذوق-. .

فصاح جلطة بنفس القوة-!

فى حينا

وهنا قال النجاد بصوت بالك

ألف لعنة، ألف لعنة على قلة الذوق التى لا توجد

يا رجال ! نقودى فقدت فى حارتكم، آلكم أسياد على العين والراس، لكن أين نقودى، يا خراب بيتك يا فنجرى

فقال حجاج بتحد

آل جيب ، آل رجل آل مرة آل ولد آل رآن

فقال جلطة بازدراء

عليكم بالتفتيش ، فلنفتش

فتشوا ، وستسود وجوه غير وجوهنا!

فقال حجاج

خرج الرجل من بيت الناظر فمر أول ما مر بحى جبل فلنبدأ بالتفتيش فى حى جبل

فشخر جلطة وقال

لن يكون هذا وجلطة حى ، يا حجاج أذآر من تكون أنت ومن أآون أنا-. .

يا جلطة ، إن ندوب الطعنات فى جسدى أآثر من شعره-.
أما أنا فلا مكانا للشعر فى جسدى
اللهم أبعدك ياشيطان-! !
إلى يا شياطين الأرض جميعا
وعاد فنجرى يصيح
يا هو نقودى ، ألا يسيئكم أن يقال إنى سرقت فى حارتكم ؟
وغضبت امرأة فصاحت به
غر يا وجه البومة، ستهلك الحارة بسببك
وإذا بصوت يتساءل
سرقت فى حى الجرابيع وأآثرهم لصوص وشحاذون؟
فصاح سوارس
ولماذا لا تكون النقود قد
-لصوص لا يسرقون فى حارتنا!
ومن أدرانا بذلك ؟
فقال سوارس بعينين محمرتين من الغضب
لا حاجة بنا إلى مزيد من قلة الأدب، سيكشف التفتيش عن اللص ، وإلا فقولوا على حارتنا السلام
ونادى أآثر من صوت
ابدوا بحى الجرابيع!
فصاح سوارس
-أ خروج عن الترتيب الطبيعى للتفتيش سيلقى نبوتى فى وجهه ، ورفع سوارس نبوته فانحاز إليه رجاله، وفعل حجاج مثله، وتراجع جلطة إلى حية وفعل مثلهما فلاذ النجاد بباب الربع وهو يبكى، وآان الليل على وشك الهبط وتوقع الجميع أن تبدأ معرآة دامية، وإذا بقاسم يندفع إلى وسط الحارة ويصيح بأعلى صوته:
انتظروا ، لن يكشف الدم عن النقود المفقودة، وسيقال فى الجمالية والدراسة والعطوف أن داخل حارة الجبلاوى مسروق ولو احتمى بناظرها وفتواتها!
فتساءل أحد رجل جبل:
ماذا يريد راعى الغنم ؟

فقال قاسم بسماحة

عندى حيلة ترد بها النقود إلى صاحبها دون عراك!

فجرى النجاد نحوه هاتفا : أنا فى عرض دينك، فقال قاسم يخاطب الجميع

سترد النقود إلى صاحبها دون ان يفتضح أمر السارق

وساد الصمت ، وترآزت الأعين فى قاسم باهتمام شديد، فعاد فقال

-فلننتظر حتى يستحكم الظلام وهو قريب، لن تضاء شمعة واحدة فى الحارة، ثم نسير جميعا من أول الحارة إلى أخرها آيلا تنحصر الشبهة فى حى دون أخر، وفى أثناء ذلك سيجد حائز النقود فرصة للتخلص منها فى الظلام من غير أن يفتضح أمره، فنعثر على النقود وتنجو الحارة من شر العراك.

وشد النجاد على ذراع قاسم فى ضراعة يائس وهتف : نعم الحل ، اقبلوه جبرا لخاطرى، وصاح صوت : حل معقول يا جدعان!

وصاح أخر : هذه فرصة للسارق آى ينجو وينجى الحارة.

وزغردت امرأة طويلا ونقل الناس اعينهم بين الفتوات الثلاثة وهم بين الرجاء والخوبن وأبى أى فتوة أن يكون البادئ بالإعلان بالقبول علوا واستكبارا ، فلبث أهل الحارة يتساءلون هل يغلب العقل أو تتلاطم النبابيت وتسيل الدماء، وإذا بصوت يرفعه الجميع يصيح:

-هوه!

فانجذبت الرءوس نحو مصدره، حيث وقف لهيطة فتوة الحارة غير بعيد من بيته ، وساد الصمت وقد تعلقت بما سيقول القلوب جميعا وقال الرجل بازدراء:

-اقبلوا الحل يا غجر، لولا غباوتكم ما آن منقذآم راعى غنم وسرت فى القوم همهمة ارتياح، وتعالت زغاريد فاشتد خفقان قلب قاسم ولحظ دار قمر وهو موقن بأن عينيها السوداوين تراقبانه من وراء أحد الشبآين المطلين على الحارة، فداخله زهو سعيد، وشعر بلذة فوز آبير لا عهد له به، وبدأ الجميع وهم يترقبون الظلام فينظرون إلى السماء تارة وينظرون صوب الخلاء تارة أخرى، وتابعوا هبوطه درجة فدرجة ومضت المعالم تتوارى والوجوه تختفى والناس ينقلبون أشباحا أما الممران حول البيت الكبير المفيضان إلى الخلاء فقد أغلقتهما الظلمة ودبت الحرآة بين الأشباح فمشوا نحو البيت الكبير ثم قطعوا الحارة مهرولين حتى الجمالية، ثم تفرقوا آل إلى حيه ، عند ذاك صاح لهيطة بصوته الأمر:

-نوروا!

وآان أول ما لاح من نور فى دار قمر بحى الجرابيع، ثم أضيئت مصابيح عربات اليد، ثم آلوبات المقاهى، فعادة الحارة إلى الوجود وراح قوم يتفحصون الأرض على ضوء آلوب حتى تعالى صوت قائلا:

-ها هى المحفظة!

وجرى فنجرى من فوره نحو الضوء فتناول المحفظة، وعد نقوده ثم هرول لا يلوى على شئ نحو الجمالية مخلفا وراءه ضجة عالية من الضحكات والزغاريد ووجد قاسم نفسه محط أنظار، ومرز استقبال للتهانى والمزاح، ومحور تعليقات شتى تساقطت عليه آالورود ، وعندما ذهب قاسم وحسن وصادق إلى قهوة الجرابيع ذلك المساء استقبله سوارس بابتسامة ترحيب وقال:

-جوزة على الحساب لقاسم.

68

مورد الوجه متألق النظرات صافى القسمات، مبتهج القلب دخل حوش قمر ليأخذ النعجة وهو يقول : يا ساتر ، وراح يفك رباط النعجة فى بئر السلم، وإذا بصرير باب الحريم يسمع وهو يفتح وصت الست تقول:

صباح الخير

فقال بفؤاده ولسانه

صبحك المولى بالسعادة يا ستى-. .

صنعت أمس خيرًا آبيرًا لحارتنا

فقال وروحه ترقص طربا

الله هو الهادى-. .

فقالت فى نغم وشى بإعجاها

علمتنا أن الحكمة أجل من الفتونة

وعطفك أجل من الحكمة، هكذا قال لنفسه، ثم قال لها

-ربنا يكرمك.

رأيناك ترعى أولاد الحارة آما ترعى الغنم، صحبتك السلامة.

ذهب بنعمة، وآلما مر بربع انظم إلى قافلته ماعز أو ماعزة أو جدى أو تيس، وآان يلقى بالترحاب، حتى الفتوات ردوا على تحياته وآانوا يتجاهلوها واخترق الممر الملاصق لسور البيت الكبير وراء طابور طويل من الأغنام فى طريقه إلى الخلاء، واستقبل شمسا لافحة تتربع فوق الجبل، وجوا يزفر أنفاسا حارة فى الصباح المشرق، وتراءى عند سفح الجل بعض الرعاة، ومر رجل مهلهل الثياب ينفخ فى ناى، وانطلقت فى القبة الصافية حداى مدومة، وفى آل نسمة استنشق صفاء نقيا

وخال الجبل الضخم يحوى آنوزا من الآمال الواعدة ، وسرح الطوف فى الخلاء بارتياح عجيب حتى استخفه طرب جواد فراح يغنى:

يا يحلو يا زين يا صعيدى اسمك منجوش على إيدى

وجالت عيناه بين صخرة قدرى وهند وبين البقاع التى جرت بها مصارع همام ورفاعة ، ولقاء الجبلاوى وجبل ! هنا الشمس والجبل والرمال والمجد والحب والموت وقلب يترغ فيه الحب لكنه يتساءل عن معنى هذا آله، ما مضى منه وما هو أت عن الحارة ذات الأحياء المتخاصمة والفتوات المتنابذين عن الحكايات التى تروى فى آل مقهى على شكل.

وقبيل الظهيرة ساق أغنامه نحو سوق المقطم ثم مضى إلى آوخ المعلم يحيى وجلس وهتف به العجوز:

ما هذا الذى يقال عما فعلت أمس بحارتنا ؟

ودارى قاسم حيءه باحتساء الشاى فعاد المعلم يقول

يهلكوا جميعا

فقال دون أن يرفع عينيه

ما تقول هذا إلا بلسانك

فقال يحيى محذرا

آان الأفضل أن تترآهم يتطاحنون حتى

-تجنب المعجبين خشية أن تستفز الفتوات.

وهل يستفز الفتوات أمثالى ؟

فتنهد العجوز قائلا

ومن آان يتصور أن يغدر غادر برفاعة؟

فقال قاسم بدهشة

وما وجه التشابه بين رفاعة العظيم وبينى أنا ؟

وعندما هم بالعودة ودعه العجوز قائلا

-احتفظ دائما بحجابى.

وعند العصر آان يجلس فى الظل المحدود وراء صخرة هند، وإذا به يسمع صوت سكينة وهى تناى " : نعمة " فوثب قائما ودار حول الصخرة فرأى الجارية واقفة عند رأس النعجة تداعب زلمتها، حياها بابتسامة فقالت بصوتها النحاسى:

أنا ذاهبة فى مشوار فى الدراسة فمررت من هنا اختصارا للطريق

فقال قاسم

لكنه طريق شديد الحرارة

فقالت ضاحكة

لذلك سأستريح قليلا فى ظل الصخرة

وجلسا متقاربين فى الظل حيث ترك عصاه وقالت سكينة

بالأمس امنت بأن أمك دعت لك من قلبها قبل وفاتها

فتساءل مبتسما

عندما شهدت صنيعك

وأنت ألا تدعين لى ؟

فقالت وهى تدارى نظرة ماآرة

لمثلك يدعى ببنت الحلال!

فقال ضاحكا

ومنذا الذى يرضى براعى غنم ؟-

الحظ يصنع العجائب، وأنت اليوم بمنزلة الفتوات دون حاجة إلى سفك دماء-

أقسم أن لسانك أحلى من الشهد

فرمقته بنظرة من عينيها الذابلتين وقالت:

هل أدلك على طريق عجيب؟

فتولاه انفعال طارئ وهو يقول

نعم

فقالت بصراحة زنجية

جرب بختك واخطب سيدة حينا!

وبدا آل شئ غير نفسه وتساءل

من تعنين يا سكينة ؟-

لا تجاهل ما أعنى ، فليس فى حينا إلا سيدة واحدة-

ست قمر-!

دون غيرها

فقال بصوت متهدك

آان زوجها من الأآابر، ولست إلا راعى غنم-. !

لكن الحظ إذا ضحك، ضحك معه آل شئ حتى الفقر

وتساءل وآأنما يسأل نفسه

ألا يغضبها طلبى ؟

قامت سكينة وهى تقول

لا يدرى أحد متى ترضى النساء، ومتى تغضب، فتوآل على الله

ثم وهى تمضى

فتك بعافية-. .

رفع رأسه نحو السماء ، وأغمض عينيه آأنما دهمه نعاس

69

حملق عم زآريا فى وجه قاسم بذهول ومثله فعلت زوجته ومثلها فعل حسين وهم يستريحون فى الدهليز أمام شقتهم عقب العشاء.

وقال العم:

قل آلاما غير هذا الكلام، عرفتك مثال العقل والكرامة رغم فقرك ، رغم فقرنا فماذا انتاب عقلك ؟

وتجلى فى عينى زوجة عمه نهم الاستطلاع فقال قاسم

لدى ما شجعنى فجاريتها هى التى فتحت لى الباب!

جاريتها

ندة الكلمة عن زوجة عمه وصرخت عيناها بطلب المزيد، أما العم فانطلقت من فيه ضحكة مقتضبة أآدت حيرته ثم قال فى ارتياب:

لعلك أساءت فهمها!

فقال قاسم بهدوء يغطى به على انفعاله

آلا يا عمى:

فهتفت زوجة عمه

فهمت إذا قالت الجالية فقد قالت السيدة-. .

وقال حسن مدفوعا بحبه لأبن عمه الذى لا يخفى على أحد-.
وقاسم رجل ولا آل الرجال-."
فهز عم زآريا رأسه وغمغم " : بطاطة العمدة .. بطاطة الفرن
ثم قال:
لكنك لا تملك مليما
فقالت زوجته
إنه يرعى نعجتها فهى لا تجهل ذلك) ثم وهى تضحك (انذر يا قاسم ألا تذبح نعجة فى حياتك إآراما لنعمة!
وقال حسن فى تفكير

فقالت أمه
عم عويس البقال هو عم ست قمر، أغنى رجل فى حينا سيكون نسيبنا آما آان سوارس قريبنا ، ما أجمل ذلك!
ست قمر على قرابة مع أمينة هانم حرم الناظر، آان المرحوم زوجها قريبا للهانم
فقال قاسم بقلق
هذا مما يزيد الأمر عسرًا-. .
وإذا بعم زآريا يقول بحماس طارئ آأنما قدر ما يعود عليهم من رفعة النسب المرتقب
تكلم آما تكلمت يوم واقعة النجاد ، إنك شجاع حكيم، وسنذهب معا إلى السيدة لنفاتحها فى الأمر ثم نكلم عويس، إذ-.
أننا لو بدأنا بعويس لأرسلنا إلى مستشفى المجاذيب
وجرت الأمور آما رسم زآريا لذلك ، جلس عم عويس فى حجرة الاستقبال بدار قمر ينتظر مجيئها وهو يعبث بشاربه الغزير مدارة لاضطراب خاطره، وجاءت قمر فى ثوب محتشم مغطاة الرأس بمنديل بنى فصافحته بأدب وجلست وفى عينيها نظرة جمعت بين الهدوء والتصميم قال عويس:
حيرتنى يا بنتى ! بالأمس رفضت يد عم مرسى وآيل أعمالى بحجة أنه غير آفء لك واليوم ترضين براعى غنم!
فأجابت ووجهها يتورد حياء
عمى إنه رجل فقير حقا ولكن ليس من أحد فى حينا إلا ويشهد له ولأهله بالطيبة
فقال عم عويس مقتضبا
شئ أخر
فقالت قمر بأدب

نعم ولكن على نحو ما نشهد لخادم بالأمانة أو النظافة والكفاءة فى الزواج

-دلنى يا عمى على رجل مهذب مثله فى حارتنا، دلنى ولو على رجل واحد لا يباهى بعمل من أعمال البلطجة أو الخسة أو الوحشية؟

أخيه فحسب ولكن المرأة التى تسهم فى تجارته بمال غير

قليل ، لذلك قال برجاء

وآاد الرجل أن ينفجر غاضبا لولا تذآره بأنه لا يخاطب ابنة

-قمر ، لو شئت زوجتك من أى فتوة فى الحارة ليهطة نفسه يودك لو قبلت أن تقاسمية مع زوجاته.

لا احب هؤلاء الفتوات ! ولا هذا النوع من الرجال ، آان أبى رجلا طيبا مثلك، وآم قاسى من عنتهم حتى أورثنى آراهتهم-.

أما قاسم فهو رجل مهذب لا ينقصه إلا المال وعند منه الكفاية

فتنهد عويس ثم نظر إليها طويلا ثم قال برجاء أخير:

أنى مبلغك رسالة أمينة هانم حرم حضرة الناظر ، قالت لى قل لقمر أن تعقل وأنها مقدمة على غلطة ستجعل منا-. أحدوثة الحارة

فقالت قمر بحدة:

أنا لا تهمنى أوامر الهانم، ويبدو للأسف أنها لا تعرف من هم الذين تجعلهم أفعالهم أحدوثة فى الحارة-. .

يا بنت أخى إنها تود لك الكرامة-.

يا عمى لا تصدق أنها تهتم بنا أو حتى تذآرنا، ومنذ وفاة المرحوم من عشرة أعوام لم أجر لها على خاطر

فتردد الرجل مليا فى حرج ظاهر ثم قال فى تأفف ظاهر

إنها تقول أيضا إنه ليس من العقل أن تتزوج امراة من رجل غير آفء لها خاصة إذا آان لظرف ما يتردد على بيتها!

فانطلقت قمر واقفة بوجه مصفر من الغضب وهتفت

قطع لسانها ، لقد ولدت ونشأت وتزوجت وترملت فى هذه الحارة، الكل يعرفنى وسيرتى آالعطر على آل لسان-. .

-طبعا يا بنتى ! ليس إلا أنها تشير إلا ما قد يقال

عمى دعنا من الهانم فلا يجئ منها إلا وجع الدماغ، إنى أخبرك وأنت عمى بانى قبلت الزواج من قاسم، وسيكون ذلك-. برضاك وحضورك

وصمت عويس متفكرا لم يكن فى الوسع منعها، ولا من الهين إغضابها للحد الذى تسحب عنده أموالها من تجارته، وراح ينظر بين قدميه فى ارتباك وحزن، وفتح فاه ليقول شيئا ولكن لم تخرج منه غير غمغمة مبهمة، ولبثت قمر تنظر إليه فى

ثبات وصبر.

70

وهب عم زآريا ابن أخيه بضعة جنيها - اقترض أآثرها - ليصلح بها شأنه قبل الزواج، وقال العم:

-لو آنت قادرا لغطيتك بالمال يا قاسم، آان أبوك أخا آريما، ولا أنسى فضله على يوم زواجى.

وابتاع قاسم جلبابا وثيابا داخلية، ولاسة مزرآشة ومرآوبا فاقع الأصفرار، وعصار خيزران، وحق نشوق، وذهب فى أعقاب الفجر إلى الحمام فاستسلم للبخار، وغاص فى المغطس ثم مضى إلى الملك ، ثم استحم، ثم تبخر، ثم تمدد فى الخلوة يحتسى الشاى ويحلم بالهناء.

أما قمر فتكفلت بالفرح، أعدت سطح الدار لاستقبال المدعوات ودعت عالمة معروفة واستأجرت أمهر طاه فى المنطقة وأقيم فى الحوش سرادق للمدعوين والمطرب، وجاء أهل قاسم وأصحابه ورجال الحى وعلى رأسهم المعلم سوارس ، ودارت أقداح البوظة وعشرون جوزة حتى غامت الكلوبات بالدخان وسطعت رائحة الحشيش المفتخر، وتجاوبت الأرآان بالزغاريد والتهليل والقهقه وراح عم زآريا يقول فى فخفخة من دارت الخمر برأسه:

نحن أسرة آريمة أصلها عريق!

فكتم عم عويس غيظه وهو يجلس بين سوارس وزآريا وقال باقتضاب

حسبكم قرابتكم يا معلم سوارس!

فصاح زآريا بقسوة

-المعلم سوارس ألف مرة.

فحيا التخت سوارس من فوره حتى جاء الرجل بابتسامة ولوح بيده، وآان الفتوة فيما مضى يضجر من تمسح زآريا بقرابته البعيدة منه، ولكنه أخذ يغير من مشاعره مذ علم بزواج قاسم من قمر، بل قرر فيما بينه وبين نفسه ألا يعتق قاسم من الأتاوة، وعاد زآريا يقول:

وقاسم شاب محبوب، من فى حارتنا لا يحبه

وآأنما قرأ شيئا من الاستياء فى نظرة سوارس فأردف يقول

لولا حكمته يوم السرقة ما وجدت رءوس رفاعة وجبل من يدفع عنها نبوت فتوتنا سوارس

وانبسطت أسارير سوارس وصدق عويس على قول زآريا قائلا

صدقت ورب السماوات والأرض-. .

وغنى المطرب : زمان الوصل قرب بالتهانى

وازداد قاسم اضطرابا ففطن صادق إلى حاله آشأنه دائما فقدم إليه قدحا جديدا من الشراب وما زال به حتى أفرغه فى جوفه حتى الثمالة، وآانت الجوزة ما تزال فى يده وأفرط حسن فى الشراب حتى تراقصت تاويل السرادق أمام عينيه ، ولاحظ عويس ذلك فخاطب عم زآريا قائلا:

حسن يشرب أآثر مما يليق بسنه

فوقف زآريا والقدح بيده وقال لأبنه وآأنما ينصحه

يا حسن لا تشرب هكذا

وترجم " هكذا " بافراغ القدح فى جوفه فى ضجة من الضحك والانبساط فتلوى الغيظ فى باطن عويس حتى قال لنفسه لولا حماقة ابن اخى لكفلك ما شربت الليلة جميع ما تملك.

وعند منتصف الليل دعى قاسم للزفة فقصد المعوون قهوة دنجل وعلى رأسهم سوارس سيد الزفة وحاميها، آان الحى خارج الدار مكتظا بالغلمان والمتسولين والقطط التى تجمعت تلبية لرائحة المطبخ، وجلس قاسم بين حسن وصادق فحياهم دنجل قائلا لصبيه:

يا ليلة الهنا، جوزة دنجل يا ولد للجدعان-. .

ثم أن آل موسر قدم جوزة على حسابه للجميع

وجاء المنشدون يتقدمهم حاملوا المزامير والطبول فوقف سوارس وقال بصوت أمر:

-لنبدأ الزفة.

تقدم آعبورة الزفة، فى جلباب على اللحم يرقص حافيا ومرآزا على قمة رأسه نبوتا، وخلفه سار المنشدون فسوارس ثم موآب العريس بين صاحبيه، وأحاط بالجميع حملة المشاعل وراح المنشد يغنى بصوت مليح:

الأولى أه من عينى دى

والتانية أه من إيدى دى

والتالتة أه من رجلى دى

أصل اللى شبكتنى مع المحبوب عينى دى

لما سلمت عليه سلمت بإيدى دى

وادى اللى ودتنى للمحبوب رجلى دى

وتعالت الآهات من الأفواه المخمورة المخدرة والموآب يشق طريقة إلى الجمالية فبيت القاضى فالحسين ثم الدراسة، والليل ينطوى فى غفلة من السعداء، وعادت الزفة آما ذهبت فى بهجة وانشراح، فكانت أول زفة فى الحارة تمر بسلام،

فلا نبوت ارتفع ولا دم سال وبلغ الطرب من زآريا منتهاه فتناول عصاه وراح يرقص لعب بالعصا وتمايل فى اختيال وهز الرأس
مرة والصدر أخرى آما هز الوسط وصور بحرآاته المرنة هيئة القتال وهيئة الوصال ، ثم دار حول نفسه مؤذنا بحسن الختام بين التهليل والتصفيق.
عند ذاك انتقل قاسم إلى الحريم راى قمر جالسة عند ملتقى صفين من المدعوات فاتجه نحوها يخوض أمواجا من الزغاريد وتناول يدها فقامت ثم سارا معا تتقدمهما راقصة آأنما تلقى عليهما الدرس الأخير حتى احتوقمما حجرة العرس، وبإغلاق باب الحجرة انفصلا انفصالا آليا عن العالم الخارجى الذى سارع إليه الصمت عدا قمامس خفيف أو وقع أقدام وفى لمحة عين مر قاسم بالفراش الوردى والأريكة الوثيرة والسجادة المنمنمة أشيا لم تقع له فى خيال، ثم استقر بصره على المرأة التى جلست تنزع الزينة عن رأسها، بدت فخيمة مليئة بضة مليحة ذات بهاء، آانت الجدران تنظر غليه متلألئة بالضياء، وآان يرى آل شئ من خلال اضطراب وجيشان وهناء زاد عن حده، اقترب منها بجلبابه الحريرى وجسده ينفث حرارة ممزوجة بسطول حتى وقف أمامها ينظر من عل وهى غاضة البصر فيما يشبه الانتظار، وتناول وجهها بين راحتيه ثم هم بأن يقول شيئا لكنه فيما بدا عدل ، وانحنى حتى اضطربت خصلات شعرها تحت أنفاسه ثم لثم الجبين والخدين.
وسرت إلى أنفه رائحة بخور تسربت من عقب الباب، وترامى إلى سمعه صوت سكينة وهى تتلو رقية مبهمة.

71

أيام وليال مرت فى محبة ومودة وراحة بال، فما أعذب السعادة فى هذه الدنيا، لم يكن ليغادر الدار إلا استحياء أن يقال أنه لا يغادر - منذ تزوج - الدار ارتوى قلبه من أفانين المسرة حتى ثمل، وحظى بكل ما تمناه من الحنو والعطف والرعاية ، آان يهوى النظافة فرأى منظرا مهندما، ووجد جوا معبقا بالبخور، وامرأة لا تطالعه إلا أخذة زينتها، مشرقة الوجه بأدية الود وقالت
له يوما وهما جالسان جنبا إلى جنب فى حجرة الجلوس:
أراك آالحمل الوديع لا تطلب ولا تأمر ولا تزجر، وجميع ما فى الدار ملك يديك
فداعب خصلة من شعرها المصبوغ بالحناء وقال
بلغت حالا لا يطلب عندها شئ
فشدت على يده بقوة وقالت
-ذلك

يؤلمنى؟

حدثنى قلبى من بادئ الأمر بأنك خير الرجال فى حينا لكنك لأدبك تبدوا أحيانا آالغريب فى دارك، ألا تدرى أن إنك تخاطبين رجلا نقله حظه السعيد من الرمال المحرقة إلى جنة هذا البيت السعيد

فتظاهرت بالجد وإن غلبها الابتسام وقالت

عمى فى إدارة أملاآى، فهل تستثقل ذلك يا ترى؟

فضحك قائلا

لا تظن أنك ستلقى راحة فى بيتى ستحل اليوم أو غدا محل

-إنه اللهو بالقياس إلى رعى الغنم.

وتولى إدارة أملاآها الموزعة بين حى الجرابيع والجمالية، وآانت معاملة السكان الشرسين تتطلب لباقة لكن مرونته عالجت الأمور بخير ما يمكن ان تعالج به ، ولم يكن العمل يشغل من وقته إلا أياما آل شهر، وفيما عدا ذلك وجد فراغا لم يألفه من قبل، ولعل أآبر نصر أحرزه فى حياته الجديدة آان آتسابه لثقة عويس عم زوجته، أولاه من بادئ الأمر احتراما وعناية، وتطوع لمعاونته فى بعض أعماله، حتى أنس الرجل إليه وبادله ودا بود واحترام باحترام، ولم يملك الرجل أن قال له يوما فى صراحه:

-حقا عن بعض الظن إثم.

ألا تدرى أننى آنت أظنك من برمجية حارتنا؟ وإنك لا ستستغل عاطفة ابنة أخى لتبتز أموالها فتبعثرها فى ملذاتك أو تتزوج بها امرأة أخرى، ولكنك أثبت أنك رجل أمين حكيم وأنها احسنت الاختيار.

وفى قهوة دنجل آان صادق يضحك فى سرور ويقول له:

لقدم لنا جوزة على الحساب آما ينبغى للأعيان أمثالك

وآان حسن يقول له

لماذا لا تذهب بنا إلى الحانة؟

لكنه أجابهما جادا

لا مال لى إلا ما استحقه نظير إدارة أملاك زوجتى أو مقابل خدمات أؤديها لعم عويس

فتعجب صادق ثم قال ناصحا

المرأة المحبة لعبة فى يد الرجل!

فقال قاسم غاضبا

إلا إذا آان الرجل محبا مثلها

ثم وهو يحددة بنظرة عتاب
أنت يا صادق آأهل حارتنا لا يرون فى الحب غلا وسيلة للاستغلال
فابتسم صادق فى حياء وقال آالمعتذر
هكذا يفكر الضعفاء ! لسنا فى قوة حسن ولا حتى فى مثل قوتك أنت، فلا مطمع لى بحال فى الفتونة، وفى حارتنا إما-.
أن تكون ضاربا وإما أن تكون مضروبا
فغير قاسم من حدة نبرته آأنما قبل عذره وقال:
يا لها من حارة عجيبة، صدقت يا صادق، عن حال حارتنا يبعث على الأسى
فقال حسن باسما
أه لو آانت آما يشعر الناس نحوها فى الخارج
فقال صادق مصدقا لقوله
-يقولون حارة الجبلاوى حارة الفتوات المجدع.
فلاحت الكآبة فى وجه قاسم، واختلس نظرة إلى مجلس سوارس فى أول القهوة ليطمئن إلى أنهم بمنجاة من سمعه
وقال:
آأنهم لا يسمعون عن تعاستنا-. !
الناس يعبدون القوة حتى ضحاياها
فتفكر قاسم مليا ثم قال
العبرة بالقوة التى تصنع الخير، آقوة جبل وقوة رفاعة ، لا قوة البلطجية والمجرمين
وآان الشاعر طارة يواصل حكايته قائلا
وهتف به أدهم:
أحمل أخاك!
فقال قدرى بصوت آاالأنين
لا استطيع-. .
أنك استطعت أن تقتله-.
لا أستطيع يا أبى-.
ولا أخ له-.
لا استطيع

فشد قبضته عليه وقا ل

لا تقل أبي ، قاتل أخيه لا أب له ، ولا أم له ،

على القاتل أن يحمل ضحيته

ثم تناول الشاعر الرباب وأخذ فى الانشاد وعند ذاك قال صادق مخاطبا قاسم

اليوم أنت تحيا الحياة التى آان بها يحلم أدهم

فبان الاحتجاج فى وجه قاسم وقا ل

لكن يصادفنى عند آل خطوة بسبب من أسباب الكدر وتنغيص الصفوة، وأدهم لم يحلم بالفراغ والرزق الموفور إلا-. باعتبارهما طريق السعادة الصافية

ولاذ ثلاثتهم بالصمت مليا حتى قال حسن فى براءة:

هذه السعادة الصافية لا يمكن أن توجد أبدا

فلاحت فى عينى قاسم نظرة حالمة وقال

-إلا إذا توفرت أسبابها للجميع!

وفكر فى الأمر، فى انه يحظى بالمال والفراغ، ولكن تعاسة الأخرين تفسد عليه سعادته، وها هو يؤدى الأتاوة لسوارس صاغرا لذلك يود أن يشغل بالغمل فراغه، آأنما ليهرب من نفسه أو يهرب من حارته القاسية، ولعل أدهم لو نال ما تمنى وهو على مثل حالة هذه لضاق بالسعادة ذرعا ولتاقت للعمل نفسه.

وفى تلك الأيام طرأت أعراض غريبة على قمر فقالت سكينة إنها أعراض الوحم.

و لم تكد تصدق آأن أملها فى الحبل حلما من الأحلام لذلك استخفها الفرح، وامتلأ قلب قاسم بالغبطة حتى اذاع الخبر فى آل رآن له فيه حبيب فعلم به بيت عمه ودآان مبيض النحاس وبقالة عم عويس وآوخ المعلم يحيى، وغالت قمر فى العناية بنفسها حتى قالت لقاسم بلهجة ذات معنى:

ينبغى أن أتجنب أى مشقة

فقال وهو يبتسم ابتسامة المدرك لما تعنى

على سكينة أن تحمل عنك أعباء البيت ، وعلى أن أتجمل بالصبر ، فقبلته قائلة فى جذل الأطفال-. :

-أود أن أقبل الأرض شكرا

وانطلق إلى الخلاء ليزور المعلم يحيى لكنه توقف عند صخرة هند، فمضى إلى ظلها وجلس وراى على مرمى البصر راعيا يرعى غنما فامتلأ قلبه بالعطف وتمنى لو يقول له لا يسعد الإنسان بالفتونة وحدها، بل لايسعد الإنسان بالفتونة إطلاقا، لكن أليس الأدر أن يقول ذلك للفتوات من أمثال لهيطة وسوارس؟ ما أعطفه على أولاد حارته الذين يحلمون بالسعادة عبثا

ثم سرعان ما تلقى الأيام بأحلامهم مع النفايات فى أآوام الزبالة، لماذا لا ينعم بالسعادة المتاحة ويغمض العين عما حوله؟ لعل هذا التساؤل حير يوما جبل آما يحير يوما أخر رفاعة، آآن فى وسعهما أن ينعما بالراحة ويخلدا إلى السكينة والسلام، فما سر هذا العذاب الذى يطاردنا؟ آآن يتأمل وهو نيظر إلى السماء فوق الجبل سماء صافية فيما عدا قطع صغيرة من السحب متفرقة آأوراق الورد الأبيض.

وخفض رأسه فيما يشبه الإعياء ، فوق بصره على شئ يتحرك وضح أنها عقرب تسرح نحو جحر، ورفع عصاه بسرعة وهوى بها عليها فهرسها، وتفرس فيها مليا يتقزز ، ثم قام ليواصل رحلته.

72

استقبل بيت قاسم حياة جديدة شارك فى فرحتها فقراء الحى . وسميت إحسان آأمه التى لم يرها ، ولمولدها ألف البيت ألوانا جديدة من البكار والقذارة والأرق ، ولكنه ازداد بها غبطة ورضى، لكن لماذا يبدو الأب أحيانا شارد اللب والنظرة آأن هموما تتناوبه؟ شد ما ساورها لذلك القلق حتى سألته مرة:

أليست الصحة على ما يرام ؟-

بلى-!

لكنك لست آعادتك-.

فقال وهو يغض البصر

المولى أدرى بحالى

تساءلت بعد تردد

تكره ؟

فقال بقوة

هل بدا لك منا ما

ليس أحب إلى منك ولا حتى العزيزة الصغيرة

فتنهدت قائلة

لعلها عين!

فقال باسما

-لعلها.

فرقته وبخرته وهى تدعو له من صميم قلبها واستيقظت ذات ليلة على بكاء إحسان فلم تجده إلى جانبها ظنت لأول وهلة أنه لم يرجع بعد من سهرته فى القهوة، ولكن لما آفت الصغيرة عن البكاء تنبهت المرأة إلى أن الحارة غارقة فى صمت عميق لا يستحكم بها عادة إلا بعد إغلاق المقاهى بفترة غير قصيرة ، فداخلها ارتياب، فقامت إلى النافذة وأطلت منها فرأت ظلاما شاملا يلف حارة مستغرقة فى النوم، وعادت إلى الصغيرة التى عاودت البكاء فألقتها يديها، وراحت تتساءل عما أخره إلى هذا الوقت لأول مرة فى حياتهما المشترآة ، ونامت إحسان فغادرت الفراش إلى النافذة مرة أخرى، ولما لم تسمع نأمه، خرجت إلى الصالة فأيقظت سكينة، وجلست الجارية آالمسطولة، ثم هبت واقفة فى جزع، فأخبرتها سيدتها بما دفعها إلى الائتناس بها، وقررت الجارية من فورها أن تذهب إلى عم زآريا لتسأل عن سيدها، وساءلت قمر نفسها عما يبقية فى بيته عمه حتى هذا الوقت، فجاء الجواب قاطعا للأمل، ولكنها مع ذلك لم تمنعها من الذهاب، ربما جريا وراء غير المنتظر، أو فى الأقل استعانة بالعم على حيرتها، ولما ذهبت سكينة جعلت تتساءل مرة أخرى عما أخره ، ألذلك السبب بما طرا على مزاجه من تغير؟ أله علاقة بترهاته فى الخلاء التى يقوم بها فى الأصائل والأماسى؟

واستيقظ عم زآريا وحسن مترعجين على نداء سكينة، وقال حسن إن قاسم لم يشارآه سهرته الليلة، وسأل عم زآريا متى غادر ابن أخيه بيته فأجابته سكينة بأن ذلك آان قبيل العصر وغادر ثلاثتهم الربع، ومضى حسن إلى الربع المجاور ثم عاد ومعه صادق الذى قال فى نبرة قلقة:

الفجر يوشك أن يطلع ! أين ذهب؟

فقال حسن

-لعل النوم غلبه عند الصخرة.

وأمر عم زآريا الجارية أن تعود إلى سيدتها لتخبرها فى أنهم ذاهبون للبحث عنه فى فطانة ومضى ثلاثتهم صوب الخلاء واستشعروا رطوبة ليل الخريف فحبكوا اللاسات فوق رءوسهم، وساروا على هدى هلال أخر الشهر، وقد تجلى فى رقعة مرصعة بالنجوم انحسرت عنها سماء متشحة بالسحب ، وصاح حسن بصوت شق الفضاء آالشهاب " : قاسم .. قاسم" فارتد إليه الصدى من جانب المقطم مكررًا النداء، وحثوا السير حتى بلغوا صخرة هند داروا حولها متفحصين المكان ولكنهم لم يعثروا له على أثر، وتساءل عم زآريا بصوت غليظ:

أين ذهب ؟ لا هو من أهل المجون ولا من ذوى العداوات؟

فتمتم حسن فى حيرة

ولا من سبب أخر يدعوه للهرب!

وتذآر صادق أن الخلاء لا يخلو من قطاع طرق فغاص قلبه فى صدره دون أن ينبس ، وإذا بزآريا يتساءل فى قتور أيكون عند المعلم يحيى ؟

وهتف الشابان معا فيما يشبه استغاثة يائس

المعلم يحيى!

لكن زآريا تساءل فى نكد

-وماذا دعاه للبقاء عنده؟

ومضوا نحو أطراق الخلاء صامتين تتناوبهم الأفكار السود وترامى إلى مسامعهم من بعيد صياح الديكة، لكن الظلام لم يخف لتكاثف السحب، وند عن صادق صوت آالزفرة وهو يقول : أين أنت يا قاسم ! وبدت الرحلة عقيما لكنهم واصلوا السير حتى

وقفوا أمام آوخ يحيى الغارق فى النوم، وتقدم زآريا يدق الباب بقبضته حتى جاءه صوت المعلم وهو يتساءل:

من بالباب ؟

وفتح الباب فبدأ شبحه متوآئا على عصاه فقال زآريا بأسف

عدم المؤاخذة جئنا نسأل عن قالم

فقال المعلم بهدوء

زيارة متوقعة!

فحيا قوله نفوسهم لأول وهلة، لكن سرعان ما ارتد إليهم القلق فتساءل زآريا

عندك أخبار عنه ؟

هو نائم فى الداخل

بخير ؟-.

إن شاء الله

ثم مردفا فى بساطة مقصودة

هو الآن بخير، لكن بعض جيرانى آانوا قادمين من العطوف فعثروا عليه عند صخرة هند وهو مغمى عليه، فحملوه إلى-.

فرششت على وجهه عطرا حتى أفاق، لكنه بدا متعبا فترآته لينام، وما لبث أن استغرق فى النوم

فقال زآريا معاتبا:

ليتك أبلغتنا الخبر!

فقال بالهدوء نفسه

جاءوا به عند منتصف الليل فلم أجد من أرسله إليك

فقال صادق فى قلق

إنه مريض بلا شك ؟

فقال العجوز

سيصحو على أحسن حال-. .

فلنوقظه لنطمئن عليه

فقال حسن .. ولكن يحيى قال بحزم

-بل علينا أن ننتظر حتى يستيقظ بنفسه.

73

آان جالسا فى الفراش، مسند الظهر إلى وسادة، ساحبا الغطاء عليه حتى أعلى الصدر، تعكس عيناه نظرة متفكرة، وآانت قمر متربعة عند قدميه، حاملة على صدرها إحسان، وهذه تحرك يديها الصغيرتين دون توقف، وتصدر أصواتا رقيقة غريبة لا يدرى أحد عن سرها شيئا، وتصاعد من مبخرة فى وسط الحجرة بخور يتلوى ثم ينكسر ثم ينتشر، نافثا عبقا آأنما يبوح بسر لطيف، ومد الرجل يده إلى خوان قرب الفراش فتناول قدح آراوية، واحتسى منه قليلا قليلا ثم أعاده وليس به إلا ثمالة، والمرأة تناغى الطفلة وتداعبها ، ولكن نظراتها القلقة المسترقة إلى زوجها دلت على أن مناغاتها ومداعباتها ليست إلا مداراة لمشاعرها، وأخيرا سألته:

آيف أنت الآن ؟

فاتجه رأسه بحرآة عفوية نحو باب الحجرة المغلق، ثم أعاده إليها وقال بهدوء

ليس ما بى مرض

فتجلت فى عينيها نظرة حائرة وقالت

يسرنى أن أسمع هذا ، ولكن خبرنى بالله عما بك!

فبدا آالمتردد قليلا ثم قال

لا أدرى ! آلا فليس هذا ما ينبغى أن يقال ، إنى أدرى آل شئ، ولكن الحق أنى أخشى أن تكون أيام الراحة قد ولت

وبكت إحسان فجأة فألقمتها ثديها فى عجلة، ثم نظرت إليه مستطلعة فى قلق وتساءلت

لماذا ؟

تنهد وأشار إلى صدره قائلا

لدى هنا سر آبير ، أآبر من أن أحمله وحدى

فازدادت المرأة قلقا وقالت بلهفة

خبرنى عنه يا قاسم

اعتدل فى جلسته قليلا وعكست عيناه جدا وتصميما وقال

سأبوح به لأول مرة ، أنت أول شخص يسمعه، لكن ينبغى أن تصدقنى، فما أقول إلا الحق، ليلة أمس حدث شئ عجيب،-.

هنالك تحت صخرة هند، وأنا وحدى فى الليل والخلاء

وازداد ريقه وهى تستحثه بنظرة حارة ، ثم قا ل:

-آنت جالسا أتابع سير الهلال الذى سرعان ما وارته السحب، وساد الظلام حتى فكرت فى القيام وإذا بصوت قريب يقول بغتة : مساء الخير ياقاسم، فارتعدت من المفاجأة التى لم يسبقها صوت أو حرآة، ورفعت رأسى فرأيت شبح رجل واقفا على بعد خطوة من مجلسى لم اتبين وجهه ولكنى ميزت لاسته البيضاء والعباءة التى يتلفع بها، وقلت له وأنا أدارى غيظى : مساء الخير، من أنت؟ فأجابنى : ولكن لم تظنيه أجاب؟

فحرآت قمر رأسها فى جزع وقالت:

تكلم فلم يعد لى صبر-! .

قال لى : أنا قنديل ! فعجبت لشأنه وقلت له : لا تؤاخذنى فأنا .. فقاطعنى قائلا : أنا قنديل خادم الجبلاوى

وهتفت المرأة

ماذا قال الرجل؟

قال أنا قنديل خادم الجبلاوى

وآان الثدى قد أفلت من ثغر إحسان أثناء اضطراب الأم فتقلص وجهها إيذانا بالبكاء، ولكن المرأة أعادته إليه، ثم قالت بوجه شاحب:

-.

يحملها خدمه إلى البيت الكبير ليتسلمها بعض خدم الواقف فى الحديقة

قنديل خادم الوقف؟ لا يدرى أحد عن خدم الواقف شئ ، حضرة الناظر هو الذى يتولى بنفسه إعداد لوازم البيت الكبير، ثم

-نعم ، هذا ما تعرفه حارتنا، لكنه قال لى ذلك.

-وهل صدقته ؟

-وقف من فورى، تأدبا من ناحية واستعداد للدفاع عن نفسى إن لزم الأمر من ناحية أخرى، وقلت له متسائلا من أدرانى أنه صادق فيما يقول، فقال لى بهدوء مطمئن : اتبعنى إذا شئت حتى ترانى وأنا أدخل البيت الكبير، فاطمأن قلبى ، وقلت

لنفسى فلأصدقه حتى يتبين لى أمره، ولم أخف عنه فرحى بلقياه، وسألته عن جدنا آيف حاله، وماذا يفعل.
فقاطعه صوت قمر قائلا فى ذهول:
-آل ذلك دار بينك وبينه ؟
-نعم ، بالله انصتى ، قال لى إن جدنا بخير ، ولم يزد على ذلك شيئا، فسألته هل يدرى بما يجرى فى حراتنا؟ فأجاب بأنه يعلم آل شئ، وبأن المقيم فى البيت الكبير يستطيع أن يطلع على آل صغيرة وآبيرة مما يقع فى حارتنا، وأنه لذلك أرسله إلى.
إليك أنت!
فقطب قاسم فيما يشبه الاستياء وقال
-هكذا قال، وند عنى ما يفصح عن دهشتى ولكنه لم يبال بى وقال : لعله اختارك لحكمتك يوم السرقة ولأمانتك فى بيتك، وهو يبلغك بأن جميع أولاد الحارة أحفاده على السواء، وأن الوقف ميراثهم على قدم المساواة وأن الفتونة شر يجب أن يذهب وأن الحارة يجب أن تصير امتدادا للبيت الكبير، وساد الصمت وآأنما فقد القدرة على النطق، ولمحت عيناى المرفوعتان إلى هامته السحب وهى تنحسر عن الهلال فى رقة صافية فسألته بأدب : ولماذا يبلغنى ذلك، فأجاب : لكى تحققه بنفسك.
أنت!
بذلك هتفت قمر، فقال قاسم بصوت متهدج
-هكذا قال، وهممت بأن استوضحه ، ولكنه حيانى وذهب، فتبعته حتى خيل إلى أننى رأيته يصعد إلى أعلى السور المشرف على الخلاء على سلم خارق الطول أو شئ شبيه بذلك، فوقفت ذاهلا، ثم عدت إلى مكانى السابق وفى نيتى أن أقصد المعلم يحيى، لكنى غبت عن الوجود، ولم أعد إلى رشدى إلا فى آوخ المعلم.
وعاد الصمت يغشى الحجرة وقمر لا تحول عن وجهه عينيها الذاهلتين وتسلل النوم إلى أجفان إحسان وهى ترضع فمال رأسها إلى أسفل من فوق ساعد أمها فأرقدتها برفق على الفراش، وعادت تنظر إلى زوجها بعين قلقة ووجه شاحب، وارتفع من الحارة صوت سوارس الأجش وهو يسب رجلا، وصراخ الرجل وتأوهاته التى وشت بما ينهال عليه من ضرب أو صفع، ثم صوت سوارس مرة أخرى وهى يبتعد منذرا متوعدا وصوت الرجل وهو يرتفع فى نبرة حنق ويأس هاتا : يا جبلاوى،
وساءل قاسم نفسه المرهقة بنظرات زوجته ترى ماذا تظن به ، حدثت المرأة نفسها أنه صادق لم يكذبنى قط، فلماذا يختلق هذه الحكاية وهو أمين لم يطمع فى مالى مع ما فى ذلك من أمان فكيف فى مال الوقف على ما فى ذلك من خطر، وترى هل ولت أيام الراحة حقا، وقالت:

أنا أول ما أفضيت إليه بسرك ؟

فاحنى رأسه بالإيجاب ، فعادت تقول

-قاسم حياتنا واحدة وأنا لا تهمنى نفسى بقدر ما تهمنى أنت، وسرك هذا شئ خطير، وعواقبه لا تخفى عليك، ولكن إعمل ذاآرتك جيدا وخبرنى أآان واقعا ما رأيت أم لعله آان حلما؟

فقال بتصميم وفى شئ من الامتعاض:

-آان واقعا ملموسا و لم يكن حلما!

وجودك مغمى عليك ؟-.

آان ذلك بعد اللقاء

فقالت باشفاق

ربما اختلط الأمر عليك!

فتنهد فى عذاب لم تدر به وقا ل:

لم يختلط شئ على آان اللقاء واضحا آالنهار المشمس

فتردد قليلا ثم تساءلت

من يدرينا أنه حقا خادم الواقف ورسوله إليك؟ ولماذا لا يكون مسطولا من مساطيل حارتنا وما أآثرهم!

فقال فى نبرة عناد

سور البيت الكبير

فتنهدت قائلة

رأيته وهو يصعد إلى

ليس فى حارتنا سلم يمكن أن يصل إلى نصف ارتفاع السور-. !

لكنى رأيته

بدت آفأر فى مصيدة ، لكنها أبت أن تستسلم وقال

-لست إلا أننا أخاف عليك، وأنت تعلم ما أعنى، أخاف عليك وعلى بيتنا وابنتنا وسعادتنا، وإنى اسائل نفسى لماذا قصدك أنت بالذات؟ ولماذا لا يحقق إرادته بنفسه وهو صاحب الوقف وسيد الجميع ؟

فتسائل بدوره:

ولماذا قصد جبل ورفاعة ؟

اتسعت عيناها، وتقلص رآن فمها آالطفل الموشك على البكاء وغضت بصرها فى جفول فقال

-أنت لا تصدقيننى وأنا لا أطالبك بتصديقى.
فأجهشت فى البكاء ، واسترسلت فيه آأنما تهرب من أفكارها ، فمال قاسم نحوها ثم مد يده إلى يدها بجذبها نحوه، وسألها فى رقة:
لماذا تبكين ؟
فنظرت إليه خلال دموعها، وقالت وهى تشهق شهقات متقطعة
أننى أصدقك ، نعم أصدقك ، أخشى أن تكون أيام الراحة قد ولت
ثم فى صوت خافت مشفق
-ماذا أنت فاعل ؟

74

شحن جو الحجرة بالقلق والتوتر / بدا عم زآريا مفكرا مقطبا، وراح عم عويس يعبث بشاربه، وآأن حسن آان يحادث نفسه، أما صادق فلم يحول ناظريه عن وجه صديقه قاسم، على حين انزوت قمر فى رآن حجرة الاستقبال وعى تدعو الله أن يهدى الجميع إلى السداد والرشاد، وآانت فناجيل القهوة قد فرغت وأخذت ذبابتان تحومان حولها فنادت قمر سكينة لتأخذ الصينية فجاءت الجارية وحملتها ثم ذهبت وأغلقت الباب وراءها آما آان ، وقال عويس وهو ينفخ:
-يا له من سر يهد الأعصاب هدا!
وعوى آلب فى الحارة آأنما أصيب بطوبة أو عصا ، وارتفع صوت بياع ينادى مترنما بالبلح وامرأة عجوز هتفت فى أسى : يا رب خلصنا من عيشتنا، والتفت زآريا إلى عويس قائلا:
يا معلم عويس إنك أآبرنا مقاما وجاها فصارحنا برأيك
فنقل الرجل عينيه بين زآريا وقاسم وقا ل
أقول الحق إن قاسم رجل ولا آل الرجال، ولكن حديثه أدار رأسى
فقال صادق بعد توثب طويل للكلام
إنه رجل صادق ، أتحدى أى مخلوق أن يذآرنا بكذبه صدرت عنه، فهو عندى مصدق، وأقسم لكم على ذلك بتربة أمى!
وقال حسن بحماس
وأنا آذلك ، وسيجدنى دائما إلى جانبه
وابتسم قاسم لأول مرة فى امتنان وهو يرمق جسم ابن عمه القوى بإعجاب ، لكن زآريا ألقى على ابنة نظرة انتقاد، وقال

ليس الأمر لعبا ، فكروا فى حياتنا وسلامتنا.

فأمن عويس على قوله بإحناءة من رأسه وقال:

صدقت، لم يسمع أحد من قبل مثل ما سمعنا اليوم

فقال قاسم

بل سمعوا مثله وأآثر عن جبل ورفاعة!

فدهش عويس وحدجه بإنكار متسائلا

أتظن أنك مثل جبل ورفاعة ؟

وغض قاسم بصره متألما وقمر تراقبه باشفاق ، ثم قالت

عمى ! من يدرى آيف تقع هذه الأمور ؟

فعاد الرجل يعبث بشاربه وقال زآريا

-وأى خير فى أن يظن نفسه آجبل أو رفاعة؟ قتل رفاعة شر قتله، وآاد جبل أن يقتل لولا انضمام أهله إليه، ومن لك أنت يا قاسم ؟ أنسيت أنهم يدعون حينا بحى الجرابيع وأن أآثره ما بين متسول وتعيس؟

قال صادق بقوة:

لا تنسوا أن الجبلاوى اختاره من دون الجميع بما فيهم الفتوات، ولا أظنه يتخلى عنه عند الشدة

فقال زآريا ممتعضا

هكذا قيل عن رفاعة فى أيامه، ولقد قتل رفاعة على بعد أذرع من بيت الجبلاوى.

وقالت قمر محذرة:

-لا ترفعوا أصواتكم.

واسترق عويس إلى قاسم النظر وهو يفكر ما اعجب ما يسمع وما يقال ، هذا الراعى الذى جعلت منه ابنة أخى سيدا أقر له بالصدق والأمانة ولكن هل يكفى هذا ليجعل منه جبل أو رفاعة وهل يجئ الرجال الكبار بهذه البساطة؟ وماذا يحدث لو صدقت الأحلام، وقال عويس:

يبدو أن قاسم لا يتأثر بتحذيراتنا، ترى ماذا يريد الفتى؟ هل عز عليه أن يبقى حينا وحده الذى لا نصيب له فى الوقف؟ أتريد يا قاسم أن تكون فتوة وناظرا لحينا؟فبان الاحتداد فى وجه قاسم وقال

لم يبلغنى ذلك، وإنما قال : إن جميع أولاد الحارة أحفاده، وأن الوقف لهم على قدم المساواة، وأن الفتونة شر!

برق الحماس فى عينى صادق وحسن وذهل عويس، أما زآريا فتساءل

أتعرف ماذا يعنى هذا ؟

فقال عويس بغضب

قل له-! .

أن تتحدى قوة الناظر ونبابيت لهيطة وجلطة وحجاج وسوارس

فامتقع وجه قمر، أما قاسم فقال بهدوء آالحزن

هو ذلك!

فندت عن عويس ضحكة انعكس صداها استياء فى وجوه قاسم وصادق وحسن، ولم يحفل زآريا بذلك ومضى يقول

-سيقضى علينا جميعا بالهلاك، سنوطأ بالأقدام آالنمل، ولن يصدقك أحد، إنهم لم يصدقوا من قابل الواقف ولا من سمع صوته وحاوره فكيف يصدقون من أرسل إليه خادما من خدمه؟

وقال عويس بنبرة جديدة:

-دعونا مما تقول الحكايات ، لم يشهد أحد لقاء الجبلاوى وجبل، ولا الجبلاوى ورفاعة، تلك الأخبار تروى عادة ولكن لم يشهدها أحد غير أنها عادت بالخير على أصحابها فصار لحى جبل آيانه المحترم، آذلك حى رفاعة، ومن حق حينا أن يكون مثلهما، لم لا ؟ آلنا من صلب ذلك الرجل المعتكف فى بيته الكبير، ولكن علينا أن نأخذ الأمر بالحكمة والحذر، فاهتم يا قاسم بحيك، دعك من الأحفاد والمساواة وما هو خير وما هو شر، ومن اليسير أن نضم سوارس إلينا وهو قريبك، ويمكن الاتفاق معه على أن يترك لنا نصيبا من الريع، وقطب قاسم غاضبا وقال:

يا معلم عويس أنت فى واد ونحن فى واد ، أنا لا أروم مساومة ولا نصيبا فى الريع ولكن عقدت العزم على تحقيق إرادة-. جدنا آما أبلغتها

وتأوه زآريا قائلا:

-يا ساتر يا رب.

لم يزل قاسم مقطبا ، ذآر أشجانه وخلواته وأحاديث معلمة يحيى وآيف جاءه الفرج على يد خادم لم يعرفه من قبل، وآيف تلوح الخطوب فى الأفق، وآيف أن زآريا لا يفكر إلا فى السلامة، وأن عويس لا يفكر إلا فى الريع، وآيف أن الحياة لن تطيب إلا بمواجهة الأفق المليئ بالخطوب وتنهد قائلا:

عمى آان يجب أن أبدا بمشاورتكم ولكنى لن أطالبكم بشئ، فشد صادق على يده قائلا-. :

-إنى معك

وآور حسن قبضته قائلا

وأنا معك فى الخير والشر معك

فقال زآريا فى ضدجر

لا تغتر بكلام العيال ! عندما ترتفع النبابيت تمتلئ الجحور بامثالكم وفى سبيل من تعرض نفسك للهلاك؟ ليس فى حارتنا-.
إلا حيوان أو حشرة، ولديك من الأسباب ما يضمن لك حياة رغيدة طيبة فاعقل وتمتع بحياتك
وساءل قاسم نفسه ماذا يقول الرجل؟ آأنما يستمع لبعض هواتف نفسه عندما تقول له ، أبنتك، زوجتك، بيك، نفسك،
لكنك اخترت آما اختير جبل ورفاعة فليكن جوابك آما آان جوابهما قال:
فكرت يا عمى طويلا ثم اخترت سبيلى
فضرب عويس آفا بكف وقال
لا حول ولا قوة إلا بالله
وقال عويس محذرا
-سيقتلك الأقوياء ويهزأ بك الضعفاء.
وقلبت قمر عينيها بين عمها وبني عم زوجها فى حيرة، مشفقة من خذلان زوجها وفى الوقت نفسه خائفة عليه عواقب
التمادى فى رأيه ، وقالت مخاطبة عمها:
عمى ، أنت سيد الأعيان، وبوسعك أن تؤيده بنفوذك
فسألها عويس مستهجنا
فيم تطمعين يا قمر؟ لك مال وابنة وزوج فماذا يعنيك وزع الوقف على الجميع أم أسأثر به الفتوات؟ إننا نعد الطامح إلى
الفتونة مجنونا ، فما بالك بمن يطمح إلى نظارة الحارة جميعا ! فهب قاسم واقفا فى تألم شديد وقال
-أحدا فى
الحارة مهما بلغت قوته يستطيع إذا تكلم الواقف أن يرفع نحوه عينا أو إصبعا؟
أين هو جدنا؟ فليخرج إلى الحارة ولو محمولا على أعناق خدمه ثم فليحقق شروط وقفه آما يشاء ، أتحسب أن
وقال زآريا مكملا:
وهل هو إذا وثب الفتوات لذبحنا سيحرك ساآنا أو يكترث لما يصيبنا؟
فقال قاسم فى وجوم شديد
-لن أطالب أحدا بتصديقى أو بتأييدى، فقام زآريا إليه ووضع يده على منكبه بعطف وقال:
- -يا قاسم، أصابتك عين، أنا أعلم بهذه الشرور، طالما تحدثوا عن عقلك وسعيد حظك، حتى أصابتك العين استعذ من
الشيطان بالله، وأعلم أنك اليوم من وجها حينا وبوسعك أذا شئت أن تتاجر ببعض مال زوجتك فتحظى بالثراء الوفير، فأقلع
عما فى رأسك وأرض بما وهبك الله من خير ونعمة.
فأطرق قاسم محزونا ، ثم رفع رأسه إلى عمه، وقال بتصميم عجيب:

-لن أقلع عما فى رأسى ولو ملكت الوقف آله وحدى.

75

ماذا أنت فاعل وفيما تفكر وتنتظر، وماذا تنتظر ما دام القريب لم يصدقك فمنذا الذ يصدقك، وما فائدة الحزن، وما جدوى الانفراد تحت صخرة هند؟ النجوم لا تجيب ولا الظلام ولا يجيب القمر، آأنك تأمل فى لقيا الخادم مرة أخرى، ولكن أى جديد

عنده ترتقب؟ وتجوس فى الظلام حول البقعة التى قيل إن جدك قابل فيها جبل، وتقف طويلا وراء السور الكبير فى الموضع الذى قيل إنه خاطب عنده رفاعة لكن لا شخصه رأيت ولا صوته سمعت ولا خادمه رجع، ماذا أنت فاعل؟ وسيقتلعك دواما من راحة البال ومن طيبات النعم، وجبل آان مثلك وحيدا ولكنه انتصر ورفاعة عرف سبيله ومضى فيه حتى قتل ثم انتصر ماذا أنت فاعل؟

وقالت له قمر معاتبة:

شد ما تهمل طفلتك الجميلة، تبكى فلا ترحمها ، وتلعب فلا تلاعبها

فابتسم إلى الوجه الصغير مستروحا نسمة منه لسعيرة فكرة ، وغمغم

ما ألطفها ؟-.

حتى الساعة التى تجالسنا فيها تغيب عنا آأننا لم نعد من أهل دنياك

فاقترب منها على الكنبة التى تجمعهما ولثم خدها ثم قبل وجه الطفلة فى أآثر من موضع وقال

-ألا ترين أننى بحاجة إلى عطفك؟

ولك قلبى آله بما فيه من عطف وحب ومودة، ولكن ينبغى أن ترحم نفسك وناولته الطفلة فاحتضنها وراح يهدهدها برفق وحنان مصغيا إلى أنغامها السماوية وبغتة قال

إذا نصرنى المولى فلن أحرم النساء من ريع الوقف

فقالت قمر بدهشة

لكن الوقف للذآور دون الإناث

فرنا إلى العينين السوداوين فى وجه الصغيرة وقال

قال جدى على لسان خادمه إن الوقف للجميع، والنساء نصف آيان حارتنا، ومن عجب أن حارتنا لا تحترم النساء، ولكنها-.

ستحترمهن يوم تحترم معانى العدالة والرحمة
وتجلى الحب والاشفاق فى عينى قمر وقالت لنفسها إنه يذآر النصر فأين منا هذا النصر؟ وم ودت أن تنصحه بما فيه الأمن والسلامة ولكن خانتها شجاعتها وساءلت نفسها عما يخبئ لها الغد، ترى أيكون لها حظ شفيقة زوجة جبل أم تصاب بما أصيبت به عبدة أم رفاعة، واقشعر بدنها فنظرت بعيدا حتى لا يقرأ فى عينيها ما يريبه، وعندما جاءه صادق وحسن ليذهبوا جميعا إلى القهوة عرض عليهما أن يزوروا المعلم يحيى ليقدمهما إليه، ولما بلغوا آوخه وجدوه يدخن الجوزة ورائحة الحشيش الغنائية تعبق الجو، وقدم إليه صاحبيه وجلسوا جميعا فى دهليز الكوخ والبدر من نكوة يلوح آأنه السعادة وآان يحيى ينظر إلى وجوه الثلاثة بعجب وآأنه يتساءل أهؤلاء حقا هم الذين سيقلبون الحارة رأسا على عقب، ومضى يعيد على مسامع قاسم ما سبق أن ردده له ، قال:
-احذر أن يعلم أحد بسرك قبل أن تستعد.
ودارت الجوزة دورة مليحةن وآان ضوء القمر النافذ من الكوة يتوج رأس قاسم وينطرح على الكتف من صادق على حين توهجت جمرات الموقد فى ظلمة الدهليز وتساءل قاسم:
وآيف أسعتد ؟
فضحك العجوز قائلا فى دعابة
ليس من حق من اختاره الجبلاوى أن يستعين برأى عجوز مثلى
وأخلى الصمت لقرقرة الجوزة حتى قطعه العجوز قائلا
-أما عمك فلا فائدة منه ولا ضرر، وأما الاخر فبوسعك أن تكسبه إلى جانبك لو منيته بشئ.
بماذا أمنية؟-!
عده بنظارة الجرابيع
فقال صادق باخلاص
لديك عمك وعم زوجتك،
لن يميز أحد بشئ من ريع الوقف ، هو ميراث الجميع على قدم المساواة آما قال الجبلاوى
فضحك يحيى قائلا
ما أعجب جدنا ، آان قوة فى جبل ، ورحمة فى رفاعة، واليوم له شأن أخر!
فقال قاسم
إنه صاحب الوقف، ومن حقه أن يغير ويبدل فى الشروط العشرة-. .
لكن مهمتك شاقة يا بنى، إنها تخص الحارة آلها لا حيا من الأحياء

هكذا أراد الواقف

وسعل يحيى سعالا متواصلا ترآه آالقتيل فتطوع حسن لخدمة الجوزة محله، ومد الرجل ساقيه وهو يتنهد بعمق ، ثم تساءل:

ترى أتعتمد إلى القوة آجبل أم تؤثر الحب آرفاعة ؟

فجاست يد قاسم خلال لاسته ، ثم قال

القوة عند الضرورة والحب فى جميع الأحوال

فهز يحيى رأسه ، وجعل يبتسم ، ثم قال

-لا عيب فيك إلا اهتمامك بالوقف، وسوف يسوقك ذلك إلى متاعب لا حصر لها.

آيف يعيش الناس بغير الوقف ؟

فقال العجوز فى مباهاة

آما عاش رفاعة

فقال قاسم بجد وأدب

عاش بمعونة أبيه ومحبيه، وخلف أصدقاء لم يستطع أحدهم أن يحذو حذوه ، والحق أن حارتنا التعيسة فى حاجة إلى-. النظافة والكرامة

-ألا يجيئ ذلك إلا بالواقف.

بلى يا معلم بالوقف والبقضاء على الفتونة، هناك تتحقق الكرامة التى أهداها جبل إلى حيه والحب الذى دعا إليه رفاعة،-. بل والسعادة التى حلم بها أدهم

فضحك يحيى متسائلا:

ماذا أبقيت لمن يجئ بعدك ؟

فتفكر مليا ثم قال

إذا نصرنى المولى قلن تجد الحارة حاجة إلى أحد بعدى

ودارت الجوزة آملاك فى حلم، وغنى الماء فى القنية وتثاءب الانسجام ثم تساءل

ماذا يبقى لأحدآم إذا وزع الريع بالتساوى؟

فقال صادق

-إنما نريد الوقف لنستغله وبذلك تصير الحارة امتدادا للبيت الكبير.

-وماذا اعددتم من عمل؟

واختفى ضياء القمر وراء سحابة عابرة فساد الدهليز الظلام، ولمن لم تمض دقيقة حتى أهل الضياء، ونظر يحيى إلى جسم حسن المقتول وتساءل:

هل يستطيع ابن عمك أن يهزم الفتوات؟

وإذا بقاسم يقول

إنى أفكر جادا فى مشاورة محام شرعى!

فضحك يحيى

-أى محام يقبل أن يتحدى الناظر رفعت وفتواته؟

واختلط ذهول الكيف بوجوم الفكر، ورجع الأصدقاء الثلاثة فيما يشبه القنوط وعانى قاسم فى خلواته من العذاب ، ورآبه الهم والكدر حتى قالت له قمر ذات يوم:

ما ينبغى أن نهتم بسعادة الناس إلى حد إشقاء أنفسنا

فقال بحدة

-ينبغى أن أآون عند حسن الظن الذى وضع فى.

ماذا أنت فاعل ، لماذا لا تتزحزح عن حافة الهاوية، هاوية اليأس المليئة بالصمت والرآود، مقبرة الأحلام المغطاة بالرماد، ذئب الذآريات الجميلة والأنغام المطرية طارحة الغد فى آفن الأمس.

لكنه دعا يوما صادق وحسن إليه وقال لهما:

أن لنا أن نبدأ!

فتهلل وجهاهما وقال حسن

هات ما عندك

فقال بصوت دبت فيه الحياة

انتهيت من تفكيرى إلى قرار، وهو أن ننشئ ناديا للرياضة البدنية!

وعقدت الدهشة لسانيهما فابتسم وهو يقول

ستجعله فى حوش بيتى، والرياضة هواية منتشرة فى أآثر الأحياء

وما علاقة ذلك بعملنا ؟

وتساءل صادق بدوهر

ناد لرفع الأثقال مثلا ! ما علاقة ذلك بالوقف ؟

فقال قاسم وعيناه تبرقان

للثقة والاستعداد

فاتسعت الأعين وهتف حسن

سنكون عصبة وأى عصبة-. .

نعم وسيجئ إلينا شبان من جبل وآخرون من رفاعة-.

وشملتهم فرحة غناء، وبدا قاسم فى مشيته وآأنه يرقص

سيجئ إلينا الشبان ، حبان فى القوة واللعب، وسيقع الاختيار على من هم أهل

76

جلس قاسم لصق النافذة بحيث يشاهد الحارة فى يوم العيد، وما أبهج العيد فى حارتنا.

لقد رش السقاءون الأرض بالقرب وزينت أعناق الحمير وأذيالها بالورود الاصطناعية، ورقص الفراغ بالألوان الفاقعة يردتديها الصغار وتنطلق بها البالونات، ورآزت فى عربات اليد الأعلام الصغيرة، واختلط الصياح والهتاف والتهليل بأصوات الزمامير، وتمايلت العربات الكارو بالراقصات والراقصين، وأغلقت الدآاآين واآتظت المقاهى والحانات والغرز، وعند آل رآل برزغت البشاشة ، وقال قائل : آل عام وأنتم بخير، وجلس قاسم فى ثوب جديد وإحسان واقفة فى حجرة متأبطة راحتيه تجوس بيديها الصغيرتين فى قسماته أو تنشب أظافرها فى خديه.

وارتفع صوت تحت النافذة يغنى.

أصل اللى شبكتنى مع المحبوب عينى دى

فذآره لتوه زفته السعيدة حتى رق قلبه، وهو بجل يحب الغناء والطرب، وآم تمنى أدهم أن يتفرغ للغناء فى الحديقة الغناء، وماذا يغنى الرجل فى العيد؟ أصل اللى شبكتنى مع المحبوب عينى دى ! صدق الرجل فمنذ ارتفعت عيناه فى الظلام إلى قنديل سلب قلبه وعقله وارداته وها هو حوش بيته يستحيل ناديا لتقوية الأبدان وتطهير الأرواح وهو مثلهم يرفع الأثقال ويتعلم التحطيب وصادق امتلأت عضلات ذراعية آما امتلأت من قبل - بفضل عمله فى تبيض النحاس - عضلات ساقيه، أما حسن فيا له من مارد عملاق، والآخرون ما أبهر حماستهم وآان صادق حكيما يوم نصحه بدعوة المتعطلين والمتسولين نادية وسرعان ما تحمسوا لألعابه آما تحمسوا لأقواله، أجل إنهم قلة ولكنهم لطموحهم إذا وزنوا بأضعافهم رجحوا بهم وهتفت إحسان : أد .. أد ، فقبلها آثيرا، وآان طرف جلبابه الجديد مبتلا تحتها وترامى إليه من المطبخ دق الهون وصوتا قمر وسكينة ونواء القطة.

ومرت عربة آارو تحت الشباك وهى تنشد مصفقة

الفاتحة للعسكرى قلع الطربوش وعمل ولى

وابتسم قاسم فتذآر ليلة غنى المعلم يحيى هذه الأنشودة وهو فى تمام السطولن أه لو تستقيم الأمور فلا يبقى لك إلا الغناء يا حارتنا غدا يمتلئ النادى بالأعوان الأقوياء والصادقين، غدا أتحدى بهم الناظر والفتوات وجميع العقبات آى لا يبقى فى الحراة إلا جد رحيم بهم وأحفاده بره، ويمحق الفقر والقذارة والتسول والطغيان، وتختفى الحشرات والذباب والنبابيت وتسود الطمأنينة فى ظل الحدائق والغناء، واستيقظ من احلامه على صوت قمر وهى تنهر سكينة فى غضبة داهمة، انصت متعجبا ثم نادى زوجته وسرعان ما فتح الباب وجاءت قمر وهى تندفع الجارية أمامها وتقول:

انظر إلى هذه المرأة ولدت فى بيتنا آما ولدت أمها من قبل، ولا تتعفف عن التجسس علينا!

فنظر إلى سكينة بإنكار حتى هتفت بصوتها النحاسى

لست خائنة يا سيدى ولكنى ستى لا ترحم

وقالت قمر وفى عينيها فزع أخفقت فى مداراته

-رأيتها تبتسم وتقولى لى : سيجئ العيد القادم إن شاء الله وسيدى قاسم سيد الحارة آلها آما آان جبل فى حى حمدان، سلها عما تعنى بذلك ؟

وقطب قاسم مهتما وسالها:

ماذا تعنين يا سكينة ؟

فقالت الجارية بجرأة غير غريبة عليها

-أعنى ما قلت لست خادمة آالخادمات أعمل اليوم هنا وغدا هناك إنى ربيبة هذا البيت، وما آان يجوز أن يخفى عنى سر ، فتبادل الرجل نظرة سريعة مع زوجته وأشار إلى الطفلة فجاءت وتلقتها منه وأمر الجارية أن تجلس فجلست عند قدميه وهى تقول:

-أيصح أن يعلم بسرك غرباء عن البيت وأظل أجهله أنا ؟

أى سر تقصدين ؟

فقالت الجارية بنفس الجرأة

حديث قنديل إليك عند صخرة هند!

ندت عن قمر آفة ولكن قاسم أشار إلى الجارية أن تستمر فقالت

-آما حدث لجبل ورفاعة من قبل لست دونهما يا سيدى، أنت سيد، حتى على عهد الرعى آنت سيدا، وآنت الوسيط الذى جمع بينكما ألا تذآر ؟ آان يجب أن أعلم قبل الآخرين، آيف تأمن الغرباء ولا تأمن جاريتك ! سامحك الله ، لكن أدعو لك

بالنصر، نعم أدعو لك بالنصر على الناظر والفتوات، منذا الذى لا يدعوا لك بذلك.

فصاحت قمر وهى تهدد الطفلة بجرآة عصبية:

ما آان يجوز أن تتجسسى علينا ، وسيظل العيب لاصقا بذقنك

فقالت سكينة فى حرارة صادقة

- لم أقصد التجسس وربى شهيد، ولكن نفذ إلى من الباب آلام لم يسعنى إلا متابعته، وما آان فى وسع إنسان أن يغلق أذنيه دونه، إن ما يقطع قلبى يا ستى هو أنك لا تطمئنين إلى لست خائنة، أنت أخر ما اخون، ولحساب من أخونك؟ سامحك الله يا ستى.

آان قاسم يتفحصها بعناية بعينيه وبقلبه فلما انتهت قال بهدوء:

فحدجته بنظرة مستطلعة مؤملة وتمتمت

أنت مخلصة يا سكينة لا شك فى إخلاصك.

عشت يا سيدى ، أنا والله آذلك

فقال بصوت خفيض

أنا أعرف المخلصين ولن تنبت الخيانة فى بيتى آما نبتت فى بيت أخى رفاعة يا قمر، هذه المرأة مخلصة مثلك فلا-

تسيئ إليها بالظن، هى منا آما نحن منها، ولن أنسى أنها آانت رسول السعادة إلى

فقالت قمر بصوت نم على بعض الارتياح:

لكنها استرقت السمع!

فقال قاسم باسما

لم تسترق السمع، ولكن الصوت نفذ إليها بمشيئة المولى، آما سمع رفاعة صوت جده دون تدبير منه، مبارآة أنت يا- سكينة

فخطفت الجارية يده وانهالت عليها لثما وتقبيلا وهى تقول:

روحى فداؤك يا سيدى، والله لتنتصرن على أعدائك حتى تسود الحارة آلها- .

لست السيادة مطلبنا يا سكينة

فبسطت يديها داعية

اللهم حقق مطالبه- .

أمين

ثم نظر إليها باسما وهو يقول

ستكونين رسولى إذا احتجت إلى رسول، وبذلك تشترآين فى عملنا!

فتهلل وجه المرأة بشرا ونطقت عيناها بالعزة فأردق قائلا

إذا أذنت الأقدار بأن يوزع الوقف آما نريد فلن تحرم منه امرأة سيدة آانت أم خادمة

غضت الدهشة لسان المرأة بعاد يقول

-قال الواقف إن الوقف للجميع، وأنت يا سكينة حفيدة الواقف مثل قمر سواء بسواء.

واآتسى وجه المرأة بالبهجة ورنت إلى سيدها بامتنان، وترامت من الحارة أنغام مزمار راقصة وصاح صائح : لهيطة .. ألف مرة، فتحول قاسم نحو الطريق فرأى موآب الفتوات وهم يخطرون على الجياد المزينة، والناس تستقبلهم بالهتاف والإتاوات، ثم مضوا نحو الخلاء ليتنافسوا آعادهم فى الأعياد فى مضمار السباق والتحطيب ، وما إن اختفى موآبهم حتى ظهر عجرمة فى الحارة وهو يترنح سكرا، ابتسم قاسم لدى ظهور الشاب الذى يعد من أصدق شباب النادى وتابعه بعينيه حتى وقف فى مرآز الوسط من حى الجرابيع وصاح:

أنا جدع

فهبط عليه صوت ساخر من أول ربع فى حى رفاعة قائلا

يا زين الجرابيع!

فرفع عجرمة نحو النافذة عينين حمراوين وصاحبصوت مخمور

جاء دورنا يا غجر

والتفت حوله غلمان وسكارى ومساطيل فى ضجة عالية من الغناء والزغاريد والطبل والزمر وإذا بصوت يصيح

اسمعوا ، جاء دور الجرابيع ألا تريدون أن تسمعوا؟

فهتف عجرمة وهو يترنح

جد واحد للجميع، وقف واحد للجميع والسلام على الفتونة

ثم غاب فى الزحام، وسرعان ما وثب قاسم واقفا فتناول عباءته وغادر الحجرة مسرعا وهو يقول

-الله يلعن الغمرة وزمانها!

77

تجنبوا الظهور بين الناس وأنتم سكارى.

قال قاسم ذلك جادا مقطبا وهو جالس تحت صخرة هند يقلب عينهي فى وجوه أصحابه المقربين من أعضاء النادى، صادق وحسن وعجرمة وشعبان وأبو فصادة وحمروش، آان جبل يلوح من ورائهم شامخا وهى يتلقى طلائع الليل الهابطة ولم يكن فى الخلاء إلا راعى غنم يقف معتمدا على عصاه فى أقصى الجنوب وبدأ عجرمة مطرقا أسيفا وهو يقول:

ليتنى مت قبل ذلك

فقال قاسم فى فتور

من الأخطاء مالا يجدى معه الاعتذار، المهم عندى الآن أن اعرف مدى أثر هذيانك فى أعدائنا:

فقال صادق

من المؤآد أنه سمع على نطاق واسع

وقال حسن متجهما

-لمست ذلك بنفسى فى قهوة جبل حيث دعانى صديق من آل حبل إلى مجالسته، فسمعت رجلا يحكى بصوت مرتفع ما آان من أمر عجرمة، أجل آان يحكى وهو يضحك هازئا ولكنى لا استبعد أن تثير حكايته ريبة فى بعض النفوس، آما أخشى انتقالها من فم إلى فم حتى تبلغ أحد الفتوات.

فقال عجرمة متنهدا:

لا تبالغ يا حسن

فقال صادق

المبالغة خير من التهاون وإلا أخذنا من حيث لا نتوقع!

فقال عجرمة

أقسمنا ألا نخاف الموت!

فقال صادق محتدا

آما أقسمنا أن نحفظ السر!

فقال قاسم

وإذا هلكنا اليوم تبددت الآمال الكبار

واشتد الوجوم مع الظلام الزاحف حتى عاد قاسم إلى الكلام قائلا

ينبغى أن نتدبر الأمر

فقال حسن

فلندبر أمرنا على افتراض أسوأ الاحتمالات

فقال قاسم بصوت آئيب

-هذا معناه القتال.

وتحرآت الرءوس تتبادل النظرات فى الظلام، ومن فوقها انبثقت النجوم تباعا، وهب هواء يطوى فى تضاعيفه بقايا من حر النهار آالنوايا السيئة ثم قال حمروش:

سنقاتل حتى الموت

فقال قاسم ممتعضا

ويستمر الحال آما آان!

فقال صادق

ما أسرع ما يقضون علينا

فقال أبو فصاده مخاطبا قاسم

من حسن الحظ أن هناك أسباب قربى تجمع بينك وبين سوارس، آما تجمع بين حرمك وحرم الناظر، وفضلا عن هذا وذاك-. آان لهيطة من أصدقاء ابيك فى شبابه

فقال قاسم بفتور:

ربما أجل هذا القضاء ولكنه لن يمنع وقوعه

فسأل صادق برجاء

ألا تذآر أنك فكرت يوما فى الالتجاء إلى محام شرعى؟-.

وقيل لنا إنه لن يجرء محام على تحدى الناظر والفتوات

فقال عجرمة محاولا التخفف من ذنبه

هناك محام فى بيت القاضى معروف بالجرأة

ولكن صادق عاد يقول متراجعا

عواقب آلام عجرمة سابقة لأوانها

فقال عجرمة

أخشى ما أخشاه أن نجهر بالعداوة عن طريق القضية وتكون مخاوفنا من

فلنشاور المحامى فى الأمر، ولنتفق معه على تأجيل رفع الدعوى حتى تدفعنا الضرورة إلى ذلك، وسنجد من يواليها منا-. ولو من خارج الحارة

ووافق قاسم والآخرون على هذا الرأى آإجراء احتياطى، وقاموا من فورهم فذهبوا إلى مكتب الشنافيرى المحامى

الشرعى ببيت القاضى وقابلهم الشيخ فشرح له قاسم قضيتهم وأخبره عن نبيتهم فى تأجيل رفع الدعوى إلى حين، على أن يستعد هو للأمر بدراسة الموضوع والتأهب لاتخاذ آافة الإجراءات ، وعلى خلاف ظن آآثرهم قبل المحامى القضية وقبض مقدم الأتعاب، فانصرفوا من لدنه مغتبطين وتفرقوا ، فعاد الصحاب إلى الحارة ومضى قاسم إلى المعلم يحيى وجالسه فى دهليز الكوخ يدخنان ويتبدلان الرأى، وبدأ المعلم أسفا على ما وقع ووصى قاسم باليقظة والحذر.

وعاد قاسم بعد ذلك إلى داره ، ولما فتحت له قمر رأى فى وجهها ما أزعجه فسالها عما وراءها فقالت:

أرسل حضرة الناظر فى طلبك!

فخفق قلب قاسم وتساءل

متى ؟-.

أخر مرة منذ عشر دقائق-!

أخر مرة-.

أرسل إليك ثلاث مرات فى ظرف ساعة

واغرورقت عيناها وهى تتكلم فقال

ليس هذا ما انتظره منك

فانتحبت قائلة

لا تذهب

فقال وهو يتظاهر بالهدوء

الذهاب أمن من التخلف، ولا تنسى أن هؤلاء اللصوص لا يعتدون على أحد فى بيوتهم

وبكت إحسان فى الداخل فهرعت إليها سكينة ، وقالت قمر

اجل ذهابك حتى أقابل أمينة هانم

فقال بحزم

هذا لا يليق بنا ، سأذهب من فورى، ولا داعى للخوف فلا أحد منهم يعرف عنى شيئا

فتشبثت به قائلة

دعاك أنت لا عجرمة، أخشى أن يكون بعضهم قد وشى بك

فتخلص منها برفق وهو يقول

قلت لك منذ اللحظة الأولى إن أيام الراحة ولت، وجميعنا يعلم باننا سنواجه الشر عاجلا أو أجلا، فلا تجزعى هكذا، وابقى-.

بخير حتى ارجع

78

عاد البواب من داخل بيت الناظر وقال لقاسم فى فتور وجفاء:

-أدخل.

ومضى أمامه فتتبعه قاسم باذلا جهده للسيطرة على مشاعره، وسطعته رائحة الحديقة الزآية دون أن يلتفت إليها حتى وجد نفسه أمام مدخل البهو، وتنحى البواب عن طريقه فدخل ثابت الجنان بدرجة لم يكتشفها فى نفسه من قبل، ونظر أمامه فرأى فى أقصى البهو الناظر جالسا على ديوان، وآان هناك شخصان يجلس أحدهما على مقعد إلى يمن الناظر والآخر إلى يساره، لكنه لم يتبينهما أو يعن بالالتفات إلى أحدهما، واقترب من مجلس الناظر حتى وقف على بعد أذرع منه ، فرفع يده بالتحية وقال بأدب:

-مساء الخير يا حضرة الناظر.

ولمح دون قصد الجالس إلى يمينه فإذا به لهيطة، ولحظ الآخر لكن عينيه حملقتا فيه بلا وعى منه، وتلقى صدمة آادت أن تهيضه، لم يكن الرجل إلا الشيخ الشنافيرى المحامى الشرعى، أدرك خطورة الموقف، أن سره انكشف إن المحامى النذل خان الأمانة، وأنه وقع التحم فى قلبه اليأس بالغيظ والغضب، وعرف أنه لن ينجيه المكر أو الدهاء فصمم على الصمود والتحدى، ولم يكن فى الوسع أن يتراجع خطوة فكان عليه أن يتقدم أو يثبت على الأقل، وقد ذآر موقفه هذا فيما تبع من أيام، وآان يؤرخ به مولد شخص جديد فى ذاته لم يكن يتصور وجوده وانتزعه من دوامته صوت الناظر الجاف وهو يتساءل:

أنت قاسم ؟

فأجاب بصوت طبيعى

نعم يا سيدى

فسأله دون أن يأذن له بالجلوس

هل أدهشك وجود الأستاذ ؟

فأجاب بنفس النبرة

آلا يا سيدى

فتساءل بازدراء

أأنت راعى الغنم ؟

انقطعت عن رعى الغنم منذ أآثر من عامين

وماذا تعمل الآن ؟-

وآيلا لزوجتى فى أملاآها

فندت عن الناظرة هزة رأس ساخرة، ثم أشار إلى المحامى أذنا له بالكلام فقال الشيخ مخاطبا قاسم

-لعلك تعجب من موقفى باعتبارى محاميك، ولكن لحضرة الناظر مكانة تعلو على هذه الاعتبارات جميعا، وسيفسح تصرفى لك مجالا للتوبة هو خير من التورط فى عداوة آانت ستؤدى بك إلى الهلاك، وقد أذن لى حضرة الناظر فى أن أخبرك بأننى تشفعت لك عنده بالعفو إذا أعلنت التوبة، فأرجو أن تقدر حسن نيتى، وهاك مقدم الأتعاب أرده إليك.

فرمقه قاسم بنظرة قاسية وتساءل:

لماذا لم تنصحنى بالحق وأنا فى مكتبك ؟

فأخذ المحامى بجرأته ، ولكن الناظر أسعفه بقوله

-أنت هنا لتسأل لا لتسأل:

ونهض المحامى مستأذنا بالانصراف، ثم مى وهو يحبك جبته مدارة لارتباآه، وعند ذاك تفحص الناظر قاسم بنظرة قاسية وقال بنبرة آالسب:

آسف سولت لك نفسك الشروع فى رفع دعوى على ؟

وجد نفسه محاصرا ، فإما القتال وإما القتل، ولكنه لم يدر ماذا يقول فقال الآخر

انطلق ، خبرنى عما وراءك هل أنت مجنون ؟

فقال قاسم فى وجوم

-أنا عاقل بحمد الله.

لا يبدو هذا مؤآدا، لماذا أقدمت على فعلتك المنكرة، لم تعد فقيرا مذ رضيتك المجنونة زوجا لها، فماذا أردت من فعلتك؟

فزمجر قاسم آأنما ليأمن الغضب وقال

لا أريد شيئا لنفسى

فنظر الناظر نحو لهيطة آأنما يشهده على غرائب ما يسمع، ثم أعاد عينيه إلى قاسم فيما يشبه الثورة ، وصاح

إذن لماذا فعلت ما فعلت ؟

فأجاب قاسم

ما أردت إلا العدل

فضيق الرجل عينيه فى حقد وتساءل

أتحسب أن علاقة زوجك بالهانم قادرة على حمايتك ؟

فغض بصره وهو يقول

آلا يا سيدى

فصاح الرجل

قل إنك مجنون وأرحمنى.

أنا عاقل والحمد لله

لماذا شرعت فى رفع دعوى على ؟

أردت العدل

لمن ؟

فارتسم التفكير فى عينيه وهو يقول

للجميع

فتفرس فى وجهه مرتابا فى عقله وتساءل

وما شأنك أنت ؟

فقال قاسم وآأنه ثم بشجاعته

بذلك تتحقق شروط الواقف!

فصرخ الناظر

أنت يا جربوع تتكلم عن شروط الواقف ؟

فقال قاسم بهدوء

إنه جدنا جميعا

فهب الناظر واقفا فى غض وهو بشعر منشته على وجه قاسم بأقصى قوته وصاح

-جدنا ! ليس فيكم من يعرف أباه ولكنكم تقولون بكل وقاحة حدنا، يا لصوص يا جرابيع يا سفلة، إنما تتمادى فى وقاحتك

استنادا إلى حماية هذا البيت لك ولزوجتك، ولكن آلب البيت يفقد حمايته إذا عض يد المحسنين إليه، ووقف لهيطة ليسكن من ثورة الناظر فقال:

عد إلى مجلسك مطمئنا فلا يصح أن تكدر صفوك ذبابة

فجلس رفعت وشفتاه ترتعشان من الغضب وصاح

حتى الجرابيع يطمعون فى الوقف ويقولون بكل وقاحة جدنا
وعاد لهيطة إلى مجلسه وهو يقول
الظاهر أن ما تناقله الناس عن الجرابيع صحيح، ومن سوء حظ حارتنا أنها تسعى إلى الهلاك بأقدامها
والتفت إلى قاسم وقال
آان أبوك من أعوانى الأوائل فلا ترغمنى على قتلك فصاح الناظر-. .
إنه يستحق ما هو أفضع من القتل جزاء فعلته، ولولا الهانم لكان الساعة فى الهالكين
وواصل لهيطة استجواب قاسم قائلا
اصغ إلى يا بنى وخبرنى عمن وراءك ؟-.
فتساءل قاسم وهو مازال يستشعر الألم عند موقع المنشة من وجهه
من تقصد يا سيدى ؟-.
من دفعك إلى رفع الدعوى-.
لا أحد سوى نفسى-.
آنت راغى غنم ثم ابتسم لك الحظ ففيم تطمع أآثر من ذلك-.
العدل ، العدل يا معلم
فصر الناظر على أسنانه وهتف
العدل ! يا آلاب ا أراذل، هذه آلمة السر عندآم إذا اعتزمتم النهب والسرقة
ثم ملتفتا نحو لهيطة
قرره حتى يقر!
فعاد لهيطة يقول بصوت تتجمع فى نبراته نذر الوعيد
خبرنى عمن وراءك!
فقال قاسم بتحد خفى
جدنا-! .
جدنا-.
نعم ، اطلع على شروط وقفه وستعلم أنه هو الذى دفعنى
وهب رفعت واقفا مرة أخرى وهو يصيح
-ابعده عن وجهى .. ارمه خارجا.

وقام لهيطة فأخذ قاسم من ذراعه، ومضى به نحو الباب، وشد على ذراعه بقبضة من حديد تحملها الآخر متصبرا، ثم همس فى أذنه:

-أعقل أآراما لنفسك ، ولا تضطرنى إلى أن أشرب من دمك.

79

دخل قاسم داره فوجد بها زآريا وعويس وحسن وصادق وعجرمة وشعبان وأبو فصاده وحمروش، تطلعوا إليه فى اشفاق وصمت، ولما جلس إلى جانب زوجته قال عويس:

ألم أنصحك ؟

فقالت قمر فى عتاب

مهلا يا عمى حتى يستريح

فهتف الرجل

شر المتاعب ما تجئ صاحبها من نفسه!

وجعل زآريا يتفحص وجه قاسم بعناية ثم قال

نفسى، ما آان أغناك عن هذا آله

وقال عويس

أهانوك يا ابن أخى، إنى أعرفك آما أعرف

لولا أمينة هانم ما رجعت إلينا سالما

وقلب قاسم عينيه فى وجوه صحبه وقال

خاننا المحامى اللئيم

فتصلبت وجوههم وتبادلوا النظرات فى انزعاج، فسبقهم عويس إلى الكلام قائلا

انفضوا بسلام، وليحمد آل منكم الله على نجاته

وسأله حسن

ما قولك يا ابن عمى ؟

فتفكر قاسم قليلا ثم قال

لا أخفى علنكم أن الموت يتهددنا، وأنى أعفى من معاونتى من يشاء

فقال زآريا-.

-فلينته الأمر عند هذا الحد

فقال قاسم بهدوء وتصميم

لن أتخلى عن الأمر مهما تكن العواقب، ولن أآون دون جبل أو رفاعة برًا بجدى وأهل حارتنا

فقام عويس غاضبا وغادر حجرة الجلوس وهو يقول

هذا الرجل مجنون، وآان الله فى عونك يا بنت أخى

أما صادق فوثب إلى قاسم وقبل جبينه وهو يقول

رددت إلى روحى بما قلت

وقال حسن متحمسا

-الناس فى حارتنا يقتلون بسبب مليم، وبلا سبب، فلماذا نخاف الموت عندما نجد له سببا حقا ؟

وارتفع صوت سوارس من الحارة مناديا زآريا فأطل الرجل من النافذة ودعاه إلى الدخول، وما لبث أن دخل الحجرة وجلس وهو مقطب متجهم ثم نظر إلى قاسم وقال:

لم أآن أدرى أن فى حينا فتوة سواى

فقال زآريا مشفقا

ليس الأمر آما قيل لك-. .

ما قيل لى أدهى وأمر-.

فقال زآريا متأوها

عبث الشيطان بعقول أولادنا

فقال سوارس بجفاء

أسمعنى لهيطة آلاملا ثقيلا بسب ابن اخيك، آنت أحسبه فتى عاقلا فإذا بجنونه يفوق آل جنون، اسمعوا جيدا، إذا تهاونت معكم جاء لهيطة ليؤدبكم بنفسه، ولكنى لن أسمح لأحد بأنه يعرض آرامتى للمهانة، فالزموا حدودآم، والويل لمن تحدثه نفسه بالعناد.

وراح سوارس يراقب أعوان قاسم فلم يسمح لأحد منهم بالاقتراب من بيته، وفى سبيل ذلك أهان صادق ولكم أبو فصادة وطلب إلى زآريا أن ينصح قاسم بالتزام داره حتى تنسى الزوبعة، ووجد قاسم نفسه سجينا فى بيته لا يزوره أحد سوى ابن عمه حسن ، ولكن ما من قوة تستطيع أن تسجن الأخبار فى الحراة، فقد تسللت إلى حيى رفاعة وجبل همسات عما يضطرب فى حى الجرابيع، عن دعوى آادت أن ترفع على الناظر، وعن مزاعم خاصة بالشروط العشرة بل عن اتصال وقع

بين قنديل خادم الجبلاوى وبين قاسم، وثارت النفوس بشتى الانفعالات وتطايرت التهم والسخريات وقال حسن يوما لقاسم :

الحارة تتهامس بالخبر وفى آل غرزة لا حديث إلا عنك

فرفع قاسم إليه وجها غائما بالهم والفكر آشأنه فى الأيام الأخيرة وقال

انقلبنا سجناء والأيام تمر بلا عمل

فقالت قمر باشفاق

لايطالب مخلوق بما فوق طاقة البشر

وقال حسن

إخواننا على أشد من يكون من الحماس

فسأله قاسم

أحق أن آل جبل ورفاعة يرمونني بالكذب والجنون ؟

فغض حسن بصره متألما وقال

الجبن أفسد الرجال

فهز قاسم راسه فى حيرة وتساءل

-لماذا يكذبنى آل جبل ورفاعة ومنهم من قابله الجبلاوى أو حادثه؟

لماذا يكذبوننى وهم أولى الناس بتصديقى وتأيدى ؟

إن داء حارتنا الجبن ولذلك فهم ينافقون فتواهم

وارتفع من الطريق صوت سوارس آالخوار وهو يسب ويلعن، فأطلت الأسرة من الشباك فرأوا سوارس ممسكا بتلابيب شعبان وهو يصرخ فيه:

-ماذا جاء بك هنا يا ابن الزانية ؟

وعبثا حاول الشاب التخلص من قبضته وإذا بسوارس يقبض على عنقه بيسراه وينهال باليمنى ضربا على وجهه ورأسه، وغضب قاسم غضبا شديدا فتراجع عن الشباك وهرع نحو الباب غير مبال بتوسلات قمر، وفى أقل من دقيقة آان يقف أمام سوارس ويقول له بحزم وتصميم:

اترآه يا معلم سوارس : فلم يكف الرجل عن تكبيل الضربات لفريسته وصاح بقاسم:

احترم نفسك وإلا أبكيت عليك عدوك

وقبض قاسم على يده الضاربة وشد عليها بقوة هاتفا بغضب

-لن أدعك تقتله وافعل ما تشاء.
وترك سوارس شعبان فانهار على الأرض فى غيبوبة، وخطف مقطف تراب من فوق رأس المرأة عابرة وألبسه رأس قاسم، وهم حسن بالوثوب عليه لولا أن طوقه زآريا بذراعه فى الوقت المناسب الذى وصل فيه.
ورفع قاسم المقطف عن رأسه فبدا وجهه آالمختنق وانسال التراب على رأسه وثوبه حتى غطاه وسرعان ما تملكته نوبة سعال، وصرخت قمر وصوتت سكينة وجاء عويس مهرولا، وانطلق النساء والرجال والصغار من الأبواب نحو الموقعه فعلا اللغو
والضوضاء، وآان زآريا يشد على ذراع ابنه حسن بكل قواه وينظر فى عينيه الجاحظتين بتوسل وتحذير واقترب عويس من سوارس قائلا:
امسح العيب فى وجهى أنا يا معلم سوارس
وهتف أآثر من صوت : شفاعة الله يا معلم، حتى صرخ سوارس قائلا
هذا قريب وذاك شفيع، وبين هذا وذاك ضاع سوارس وانقلب مرة بعدة ما آان فتوة
فصاح زآريا
-استغفر الله يا معلم ، أنت سيدنا وتاج راسنا.
ومضى سوارس إلى القهوة فرجع رجال شعبان وراح حسن ينفض التراب عن وجه قاسم وثوبه، واستطاع المتجمعون - بعد اختفاء سوارس - أن يبدوا عن أسفهم.

80

وفى مساء ذلك اليوم ضج أحد الربوع بحى الجرابيع بالصوت ينعى ميتا أطلقته حنجرة متهالكة وسرعان ما رددته عشرات الحناجر فى الربع، وأطل قاسم من النافذة فسأل فطين بياع اللب فأجابه الرجل:
-تعيش أنت ، شعبان مات، وغادر الرجل داره فزعا فقصد ربع شعبان على مبعدة ربعين من دارهن هنالك وجد الحوش مظلما ومكتظا بسكان الشقق التحتانية الذين راحوا يتبادلون آلمات الرثاء والحزن والسخط على حين تجاوبت دهاليز الأدوار الفوقانية بالصوت وسمع امرأة تقول بعنف:
لم يمت ولكنه قتله سوارس-. .
إلهى يخب بيتك يا سوارس
فاعترضت ثالثة تقول

-ما قتله إلا قاسم ، يفترى الأآاذيب ورجالنا تقتل.
فانقبض قلب قاسم حزنا، وشق طريقه فى الظلام حتى صعدا إلى أول دور حيث توجد شقة القتيل ورأى على ضوء سراج مثبت فى حائط الدهليز أمام الشقة أصحابه حسن وصادق وعجرمة وأبو فساده وحمروش وأخرين، فأقبل صادق نحوه وهو يبكى فعانقه دون أن ينبس، وقال حسن وقد بدأ وجهه مروعا تحت الضوء الشاحب:
لن يذهب دمه هدرا
واقترب عجرة من قاسم وهمس فى أذنه
زوجته فى حالة سيئة حتى أنها حملتنا مقلته
فهمس قاسم له
آان الله فى عونها- .
وقال حسن فى نبرة انتقامية
القاتل لابد أن يقتل
فقال أبو فصاده بغيظ
منذا الذى يشهد عليه فى حارتنا ؟
فقال حسن
لكننا نستطيع أن نقتل آاالآخرين
فلكزه قاسم ليسكته وقال
من الحكمة ألا تسيروا فى جناته ولكننا سنجتمع فى القرافة.
واتجه قاسم نحو شقة الفقيد فاعترضه صادق ليمنعه ولكنه نحاه جانبا ودخل ونادى زوجته فجاءت متعجبة تطالعه بعينين دامعتين ثم تحجرت نظراها وسألته:
ماذا تريد ؟
فقال بحزن
جئت أعزيك
فقالت بحدة
أنت قتلته، ما آان أغنانا عن الوقف وأحوجنا غليه هو فقال برقة-. :
ربنا يصبرك ، ويهلك المجرمين، ونحن أهلك آلما احتجت إلى أهلك ولن يضيع دمه-.
فرمقته شزرا واستدارت راجعة وبرجوعها انفجر النواح والعويل فغادر المسكن آئيبا مغتما

وعندما طلع الصبح رأى الناس سوارس جالسا عند مدخل قهوة دنجل يقلب فى المارين وجها مدمغا بالتحدى والإجرام وحياه الناس مضاعفين له التودد مداراة لسخطهم، وتجنبوا الاشتراك فى العزاء فلبثوا فى دآاآينهم أو وراء عرباقم أو فوق التراب، وخرج النعش محمولا عند الضحى، واقتصر المشيعون على الأهل والأقارب ولكن قاسم انضم إليهم غير مبال بنظرات الفتوة المحرقة، وغضب صهر القتيل فقال لقاسم محتدا:

تقتل التقتيل وتمشى فى جنازته

فلاذ بالصمت والصبر حتى سأله أخر بخشونة

لماذا جئت ؟

فقال باصرار

-لا قاتل آما قاتل صديقى رحمه الله، آان شجاعا، ولستم آما آان وتعرفون القاتل وتصبون غضبكم على.

فوجم أآثرهم وتجمهرت النساء وراء الرجال حافيات يهرولون بالسواد يسفن التراب فوق رءوسهن ويلطمن الخدود واخترقت الجنازة الجمالية نحو باب النصر، ولما تمت مراسم الدفن تفرق المشيعون إلا قاسم، فقد تباطأ فى السير حتى تخلف عنهم، ورجع إلى القبر فوجد أصحابه فى الانتظار واغرورقت عيناه بالدموع فأجهشوا جميعا بالبكاء.

وجفف عينيه براحته وقال:

من يريد السلامة فليذهب

فقال حمروش

لو آنا نريد السلامة ما وجدتنا حولك- .

فقال وهو يطرح يده على شاهد القبر

الحاجة إليه

فقال صادق

عز على فقده آان شجاعا متحمسا ، وذهب غدرا ونحن فى أشد

قتله فتوة غادر، وسوف يبقى منا بعض ليشهدوا مصرع أخر فتوة فى حارتنا

فقال حمروش

ولكن لا ينبغى أن نضيع غدرا آما ضاع فقيدنا، فكروا فى الغد وآيف نحقق النصر- .

وآيف نجتمع لنتبادل الرأى

فقال قاسم

لم يكن لى من أنيس فى سجنى إلا التفكير فى هذا واهتديت إلى رأى ليس باليسير ولكن لا محيد عنه

فاستطلعوه متسائلين فأردف
اهجروا حارتنا ، فليدبر آل شأنه وليهاجر ، سنهاجر آما هاجر جبل قديما وآما هاجر المعلم يحيى بالأمس، ولنقيم نادينا-.
فى مكان أمن بالخلاء حتى يشتد ساعدنا ويكثر عددنا
فهتف صادق:
-نعم الرأى.
لن نطهر حارتنا من الفتوة إلا بالقوة ولن نحقق شروط الواقف إلا بالقوة ولن يسود العدل والرحمة والسلام إلا بالقوة،-.
وستكون قوتنا أول قوة عادلة باغية
استمعوا بقلوب واعية وتطلعوا إلى قاسم، وإلى القبر وراء ظهره فخيل إليهم أن شعبان يشارآهم الاستماع ويبارآه وقال عجرمة متأثرا:
نعم فبالقوة تحل المشاآل القوة العادلة غير الباغية ، آان شعبان يقصدك عندما اعترضه سوارس، لو آنا معه لا عترض-.
الفتوة قوة لا يسهل قهرها، لعنة الله على الخوف والتفرق
استروح قاسم لأول مرة نسمة ارتياح وابتهاج فقال:
-فى ابنائه من هم اهل لحملها.

81

لقد وضع جدنا ثقته بين أيدينا وهو عن يقين يؤمن بان
رجع قاسم إلى بيته عند منتصف الليل لكنه وجد قمر مستيقظة تنتظره، وبالغت أآثر من عادتها فى العناية به والحنو عليه وآان يؤلمه بمقاؤها مستيقظة حتى تلك الساعة، ثم تبين له ذبول عينيها واحمرار يخلفه البكاء آما تخلف الشمس
الشفق فتساءل فى آآبة:
هل آنت تبكين ؟
لم تجبه آانما شغلت عنه بكوب اللبن الدافئ الذى تعده له، فعاد يقول
موت شعبان أحزننا جميعا ، رحمه الله
فبادرته قائلة
بكيت على شعبان قبل ذلك لكننى آنت أبكى آلما تذآرت اعتداء الرجل عليك أنت أخر رجل يستحق أن يهال التراب على-.

رأسه ووجهه

فقال محزونا:

ما أخف هذا بلقياس إلى ما أصاحب صاحبنا المسكين

فجلست إلى جانبه وهى تقدم له الكوب وتمتم

وآم يضايثنى ما يقال عنك:

فابتسم متظاهرا بالاستهانة ورفع الكوب إلى فيه فأردفت مغيظة

إن جلطة يؤآد لآل جبل أنك طامع فى الوقف لتستأثر به وحدك، وهكذا يقول حجاج فى آل رفاعة ويشيعان عنك أنك-.

تنتقص من جبل ورفاعة

فقال دون أن يخفى ضيقه:

-أعرف ذلك آما اعرف أنه لولاك لما آنت حتى اليوم حيا فربتت آتفه بحنان وإذا بها تتذآر الأيام الماضية لغير ما سبب أيام لم تكن أحاديثهما نهاية ولا لسعادتهما غاية وأفراح الليالى المضيئة بعد مولد إحسان هى اليوم لا تملك منه شيئا ولا يملك هو من نفسه شيئا حتى الأم المرض التى تنتابها احيانا تخفيها عنه إنه لا يفكر فى نفسه شيئا فكيف تشغله بنفسها

وهى تخجل أن تثقل عليه حتى لا تعين أعداءه بغير قصد عليه منذا الذى يطمئنها عليه وأيام العمر تولى آما ولت أيام الراحة سامحك الله يا حارتنا وهعاد قاسم يقول:

- -لا يغيب عنى الملل ولو فى الظلام وما أآثر الأصدقاء الصادقين وإن بدوت وحيدا تحدى احدهم سوارس فمن آان يجروء على ذلك من قبل والأخرون مثله والشجاعة أخطر ما يلزم حارتنا آى لا تقضى العمر تحت الأقدام فلا تنصحينى بالسلامة إن الذى قتل ن قتل وهو فى طريقه إلى دارى وأنت لا ترضين لزوجك بمذلة الجبن.

ابتسمت قمر وهى تسترد الكوب فارغا وقالت:

إن زوجات الفتوات يزغردن عند المعارك وهى شر فكيف أرضى بان أآون دونهن للخير

وأدرك أن حزنها أخطر مما تبديه فربت خدها بحب وقال معزيا

أنت آل شئ لى فى دنيا انت خير رفيق فى الحياة-. .

فابتسمت استدعاء للسكينة التى يبج أن تسبق النوم

وعجب عم سنطح مبيض النحاس من اختفاء صادق وآان آلما سعى غليه فى داره لم يجد له ولا أحد من ذويه أثرا وعبد الفتاح الفسخانى آذلك لم يجد لعالمة عجرمة أثر فى الحارة ولم يعد أبو فصاده إلى مقلى حمدون ولم ينذره بغيابه وأين حمروش ؟ قال حسونة الفران إنه اختفى آأن نيران الفرن التهمته وأخرون ذهبوا بلا عودة وانتشر الخبر فى حى الجرابيع وامتدت منه أصداء إلى بقية الحارة حتى قال الناس فى حيى جبل ورفاعة هازئين إن الجرابيع يهاجرون وإن سوارس لن يجد

مع الأيام من يحصل منه على الأتاوة واستدعى سوارس زآريا إلى قهوة دنجل وقال له منذرا:
ابن أخيك خير من يدلنا على سر الهاربين
فقال زآريا
يا معلم سوارس لا تلمة مضت أيام وأسابيع وأشهر والرجل لا يغادر داره
فقال الفتوة مزمجرا
ألاعيب أطفال لكنى استدعيتك لأحذرك مما قد يصيب ابن أخيك-. .
قاسم من دمك ولا تشمت بنا العدو-.
النصر
فقال زآريا فى جزع
هو عدو نفسه وعدوى إنه يتوهم نفسه جبل هذا الزمان وهذه اللعنة هى أقرب سبيل إلى باب
-حلمك يا معلم سوارس نحن جميعا فى حمايتك.
ولما رجع زآريا إلى مسكنه صادف حسن راجعا من بيت قاسم فأفرع فيه الحنق الذى ملأه به سوارس غير أن حسن قاطعه قائلا:
صبرك يا أبى قمر مريضة ، مريضة جدا يا أبى
وعلمت الحارة بمرض قمر حتى بيت الناظر ولازمها قاسم وهو فى غاية من الكآبة والحزن وآان يهز رأسه فى حيرة ويقول فى لحظة واحدة ترقدين بلا حول
فقالت المرأة بصوت ضعيف
بقلبك المثقل بالمتاعب
فقال فى حزن شديد
آنت أخفى عنك حالى رحمة
آان ينبغى أن أشارآك ألمك من أول الأمر
فانفجرت شفتاها الشاحبتان عن ابتسامة آالزهرة الذابلة فى عود ناضب وقالت
-ستعود الصحة إلى سابق عهدها.
بذلك دعا قلبه ، لكن ما هذا الغيم يغشى العين وما هذا الجفاف يسرى فى الوجه وما تلك القدرة على اخفاء الألم ذلك آله من أجلك أنت يا إلهى احفظها برحمتك وابقها لى واعطف على بكاء الطفل الذى لا ينقطع.
-سماحك معى جعلنى لا أسامح نفسى.

فابتسمت مرة أخرى فيما يشبه العتاب وجئ بام سالم لتبخرها وأم عطية لتعد لها بعض المعاجين وإبراهيم الحلاق ليحجنها، ولكن إم إحسان استعصت فيما بدا على الشفاء وقال لها قاسم:

وددت لو افتديتك من ألمك.

فأجابت بصوت واهن آالصمت:

لا أصابك سوء

ثم مردفة

يا أحب الناس إلى قلبى

وقال لنفسه : لمنظرها تسود الدينا فى عينى وقالت هى

-العاقل مثلك أخر من يعز عليه العزاء.

وجاء زائرون وزائرات ولكنه ضاق بالمكان ففر إلى سطح البيت آانت أصوات النساء ترتفع من نوافذ الربوع، واللعنات تختلط بنداءات الباعة فى الطريق وبكاء طفل حسبه لأول وهلة صوت إحسان حتى راى صاحبه وهى يتمرغ فى تراب سطح مجاور، وآان الظلام يهبط وئيدا وسرب من الحمام يعود إلى برجه ونجمة وحيدة تومض فى الأفق وتساءل عن معنى النظرة التغريبة التى تلوح فى عين قمر، آأنها لا ترى وعن اهتزازات جانب فمها غير الإرادية وعن الزرقة التى تصبغ شفتيها وعن سشعره البالغ بالانقباض ولبث ساعات ثم نزل فقابل سكينة فى الصالة حاملة إحسان بين يديها فقالت له همسا:

-ادخل على مهلا آيلا توقظها.

واستلقى على الكنبة المواجهة للفراش فى ضوء خافت ينبعث من مصباح فوق أرضية الشباك و لم يكن ثمة صوت فى الحى إلا نواح الرباب ثم تلاه طاظا الشاعر قائلا : فقال الجد بهدوء:

رأيت أن أعطيك فرصة لم تنح لأحد ممن فى الخارج وهى أن تعيض فى هذا البيت وأن تتزوج به وأن تبدأ حياة جديدة فيه فتتابعت دقات قلب همام فى نشوة من الأفراح وقال

-الشكر لك على نعمتك-. .

إنك تستحقها

واختلع نظر الشاب بين جده وبين السجادة ثم تساءل فى اشفاق

وأسرتى ؟

فقال الجبلاوى فى عتاب

قلت ما أريد بوضوح

فقال همام باستعطاف

-إهنم يستحقون رحمتك وعفوك.

وندت عن النائمة حرآة لا تخلو من عنف فوثب فوق الكنبة إليها رأى فى عينيها بريقا جديدا حل محل الغيم فسألها عما بها فهتفت بصوت قوى:

ما بى أعظم!

فمال نحوها متسائلا

ماذا تعنين ؟-.

ألمتك آثيرا ولكن ما بى أعظم

فعض شفته ثم قال

قمر ، أنا حزين لأنى عاجز عن تخفيف ألمك

فقالت باشفاق

أخف عليك من بعدى

فقال فى حزن شديد

لا تتحدثنى عنى-. .

قاسم أرحل ، الحق باصحابك سيقتلونك إن بقيت-.

نرحل معا

فقال بمشقة

ليس الطريق واحدا-. .

لا تريدين أن ترحمينى آما عودتنى

أه ، آان ذلك فى الأيام الماضية

وبدت آالها تقاوم ضغطا شديدا فلوحت بيدها وأشتد ميله نحوها حتى امتلأ بانفاسها وتلوت وامتدت رقبتها آالمستغيثة وانطلق صدرها فى عنف وزفرة حشرجة قاسية فصاحت سكينة.

-أجلسها ، تريد أن تجلس.

فأحاطها بذراعيه ليجلسها، ولكن ندت عنها شهقة آألها وداع أبكم، وألهار رأسها على صدره وهرولت سكينة بالطفلة إلى الخارج.

ومن الخارج دوى صوتها يمزق الصمت.

وفى الصباح ازدحم بيت قاسم والطريق أمامه بالمعزين إن لصلات القربى فى الحارة احتراما متأصلا لا تحظى بجزء منه شتى الفضائل مجتمعة، فلم يكن بد من ان يجئ سوارس معزيا وما أسرع أن أقبل وراء الجرابيع ولم يكن بد من أن يجئ الناظر رفعت معزيا فتبعه على الأثر لهيطة وجلطة وحجاج وما اسرع أن أقبل وراءهم آل من هب ودب، فانتظمت الجنازة جموعا غفيرة لم تشهد لها الحارة مثيلا من قبل إلا فى جنازات الفتوات، وتحلى قاسم بصبر الرجل الحكيم رغم ألامه الدفينة وحتى فى ساعة الدفن بكت جميع حواسه وجوارحه إلا عينيه وانصرف المعزون حتى لم يبق فى المدفن إلا قاسم وزآريا وعويس وحسن، وعند ذاك ربت زآريا عضد قاسم وقال بأسى:

شد حيلك يا ابن أخى ، آان الله فى عونك

فانحنى عوده قليلا وهو يزفر من الأعماق وغمغم

قلبى دفن فى التراب يا عمى

فتقلص وجه حسن تأثرا وساد صمت المدفن آأشد ما يكون الصمت وانتقل زآريا خطوة وهو يقول

إن لنا أن نذهب

لكن قاسم تشبث بموقفه وهو يقول فى استياء

ما الذى جاء بهم

فظن زآريا إلى من يعنى بقوله فقال

لهم الشكر على أى حال:

فتشجع عويس قائلا

-ابدأ معهم من جديد، فهذه الخطوة منهم تتطلب منك خطوات ومن حسن الحظ أن ما يقال عنك خارج حينا لايؤخذ مأخذ

الجد ، فأخر أن يغوص فى الصمت والحزن على مجادلته وإذا بجماعة تقبل على رأسها صادق وآأنما آانوا يرصدون اختفاء المعزين، آانوا آثرة وليس فيهم غريب فعانقوا قاسم حتى دمعت عيناه وقلب عويس عينيه فيهم بامتعاض ولكن أحدا لم يباله وقال صادق مخاطبا قاسم:

لم يعد ثمة ما يبقيك فى الحارة-. .

لكن زآريا قال معترضا فى حدة

ابنته وداره وأملاآه هناك

وقال قاسم بلهجة ذات مغزى

-آان بقائى فى الحارة ضروريا فبفضله ازددتم مع الأيام عددا، ونظر إلى الوجوه المتطلعة إليه آانما يستشهد بكثرتها على صدق قوله، فأآثرهم ممن اغراهم بالهجرة واللحاق بأصحابه حينما آان يتسلل من داره آل ليلة عقب نوخ الحارة فيقصد من يأنس فيهم مودة وحسن استعداد للاقتناع بكلامه وسأله عجرمة:

هل يطول بنا الانتظار؟-.

حتى يتجمع عندآم عدد آاف

وانتحى به جانبا فقبله وهمس له

قلبى يتقطع حزنا لك فأنى أدرى الناس بقسوة فجيعتك

فعاوده التأثر وهمس

صدقت ما أقسم الألم

ورمقه باشفاق ثم قال

عجل باللحاق بنا فإنك اليوم وحيد-. .

آل شئ رهن بوقته

وقال عويس بصوت مرتفع

-ينبغى أن نعود.

وتعانق الصحاب مودعين، وعاد قاسم ورفاقه ومضت الأيام وهو فى داره وحيد آئيب حتى خافت عليه سكينة عواقب الحزن، ولكنه واصل جولاته الليلية الخفية بهمة لا تعرف الوهن، ومضى عدد المختفين فى النمو وأخذ الناس يتساءلون حيارى واشتدت السخرية بحى الجرابيع وفتوتهم فى بقية الحارة وقالوا فى نوبة سوارس فى الهرب ستجئ اليوم أو غدا وقال له عم زآريا ذات يوم محذرا:

-هذه حال تدعو إلى أشد القلق وتخشى عواقبها.

ولكن لم يكن من الانتظار بد وآانت أياما مليئة بالعمل والخطر، وآانت إحسان البسمة الوحيدة فى وجهها المتجهم وآانت تتعلم الوقوف معتمدة على أطراف المقاعد ثم تتطلع إليها بوجهها الصافى وتحدثه بلغة العصافير والبلابلن وآان ينعم النظر فى وجهها بحنان ويقول لنفسه ستكون طفلة جميلة ولكن أهم عندى ان تكون آأمها طيبة وحنانا وسرة أن تطالعه بعينيه السوداوين فى وجه قمر المستدير لتظل رمزا باقيا للعلاقة المحبوبة التى مزقها الدهر وترى هل يمتد به العمر حتى يراها عروسا فى الحسان أو آتب عليها ألا تجنى من دار مولدها إلا أليم الذآريات؟

يوما طرق باب الدار طارق فذهبت سكينة تتساءل من القادم ؟ فجاءها صوت يافع قائلا:

-افتحى الباب يا سكينة.

فتحت الباب فرأت فتاة فى الثانية عشر أو تزيد ملفوفة على غير المألوف فى ملاءة وعلى الوجه حجاب ودهشت سكينة وسالتها عما تريد ولكنها سارعت إلى حجرة قاسم وهى تقول بلهوجة:

مساء الخير يا عمى

ونزعت النقاب فبدا وجه بدرى قمحى بديع القسمات يقطر خفة فقال قاسم متعجبا

أهلا بك ، أجلسى أهلا وسهلا-. .

قالت وهى تجلس على حافة الكنبة

أنا بدرية ، وأرسلنى إليك أخى صادق

فقال قاسم باهتمام

صادق-. .

نعم

ورنا غليها مستطلعا ثم قال:

ماذا دفعه إلى هذه المخاطرة ؟-.

فقالت باهتمام زادها ملاحة-.

لا يمكن أن يعرفنى أحد فى الملاءة

أدرك إن جسمها اآبر من سنها فهز رأسه آالمطمئن فأردفت فى مزيد من الاهتمام

إنه يقول لك أن غادر الحارة فورا فإن لهيطة وجلطة وحجاج وسوارس تأمروا على قتلك الليلة

قطب آالمترعج على حين شهقت سكينة وسألها

آيف علم بذلك ؟

أخبره المعلم يحيى

ولكن آيف عرف يحيى ذلك ؟-.

أفشى سكران السر فى حانة آان بها صديق للمعلم يحيى هذا ما قاله أخى

وجعل ينظر إليها صامتا حتى قامت وأخذت تحبك الملاءة حول جسدها الغض فقام بدوره وهو يقول

أشكرك يا بدرية ، تخفى جيدا، بلغى تحياتى إلى أخيك واذهبى بسلام

فأسدلت النقاب على وجهها وتساءلت

ماذا أقول له ؟-.

خبريه باننا سنلتقى قبل الصباح-.
فصافحته ثم ذهبت

83

أصفر وجه سكينة ونطق بعينيها الذعر وهتفت قائلة:
فلنغادر البيت دون إبطاء
وتوثبت للتحرك فقال لها
لفى إحسان واخفيها فى شملتك واخرجى آأنك ذاهبة لبعض شأنك ثم أقصدى مدفن المرحومة وانتظرى هنالك-. .
وأنت يا سيدى-.
سألحق بك فى الوقت المناسب-.
فترددت عيناها بين الحيرة والجزع فقال بنبرة مطمئنة
سيذهب بكما حسن إلى المكان الذى سنقيم فيه
وفى ثوان تأهبت للرحيل فلثم إحسان مرات، ثم قالت له المرأة وهى تمضى نحو الباب
-استودعتك الحى الذى لا يموت.
ووقف وراء الخصاص يراقب الطريق فرأى الجارية وهى تسير نحو الجمالية حتى غيبها المنعطف، وجعل قلبه يخفق وهو يرنو إلى ثنية ذراعها حول الحمل الثمين، وأجال بصره فى الحى فرأى رجلا من أعوان الفتوات، بعضهم يجلس بقهوة دنجل والبعض يتسكع هنا وهناك، وتكاد معالمهم تذوب فى الظلام الزاحف، الدلائل تقطع بأنهم يتاهبون .. ولكن.
هل يتربصون به حتى يخرج لجولته الليلية إن آان سرها انكشف لهم؟ أو سيطبقون على داره فى أخر الليل؟ إنهم ينتشرون منذ الآن على سبيل الحيطة أن يكون سر مؤامرتهم انكشف وها هم يدبون فى الظلام آالحشرات تفوح من أنفاسهم رائحة الجريمة ن فهل يلقى مصير جبل أو مصير رفاعة؟ هكذا وجد رفاعة نفسه فى ليلة من الليالى المظلمة وتوارى فى داره بقلب مفعم بالنوايا الطيبة وأسفل الدار تدب أقدام غليظة تنضح جلود أصحابها بشهوة الدم ، متى تكفين على سفك الدماء ياحارتنا التعيسة؟ ومضى يمشى فى الحجرة ذهابا وجيئة حتى طرق الباب وترامى إليه صوت حسن وهو يناديه، وجاء حسن بجسمه الضخم وعيناه تعكسان نظرة قلقة، فقال:
فى الحى حرآة غريبة، مريبة.
فسأله دون آآتراث لملاحظته

هل عاد عمى من تجواله ؟

آلا ، لكنى أقول أنه توجد فى حينا حرآة مريبة، انظر من شيش الشباك

-رأيت ما أعزعجك وعرفت ما وراءه حذرنى صادق فى الوقت المناسب بارسال أخته الصغيرة إلى وإذا صدقت رسالته فالفتوات سيحاولون قتلى الليلة ، لذلك هربت إحسان مع سكينة وهما ينتظرانك فى مدفن المرحومة فاذهب إليهما وسيروا جميعا إلى مقر إخواننا.

وأنت ؟-.

سوف أهرب بدورى وألحق بكم

فقال حسن بعزم

لن اترآك وحدك

فقال برجاء لم يخل من استياء

-افعل ما قلت لك دون تردد ، سأهرب بالحيلة لا بالقوة ، لن تنفعنى قوتك إذا ألجأتنا الظروف إلى المقاومة، ولكن ذهابك سيحمى إبنتى، ويمكنك من تضع بعض رجالنا على رءوس الطرق من الجمالية حتى الجبل لعلهم يهبون إلى مساعدتى إن احتجت لهم عند الهرب.

أذعن حسن لإرادته ، فصافحه بقوة وقال:

-ليس آمثل عقلك شئ ، فلعلك أعددت للأمر عدته.

فأجابه بابتسامة مطمئنة وذهب حسن بوجه عابس، ولم يمض طويل وقت حتى جاء عم زآريا وهو يلهث فأيقن أنه عائد من عند المعلم يحيى بالخبر فبادره قائلا:

أرسل إلى صادق بالخبر

فقال الرجل باضطراب ظاهر

علمت به منذ قليل لدى مرورى بالمعلم فخشيت ألا يكون بلغك-. .

فأجلسه قاسم وهو يقول آالمعتذر

-أعف عما أسبب لك من متاعب.

آنت اتوقع هذا من زمن، ووجدت من سوارس تغيرا فى المعاملة فرحت أآذب نفسى ، ورأيت اليوم الشياطين منتشرين-. آالجراد، وأنت وحيد ويتعذر عليك الهرب

فاشتد عوده فى تصميم وهو يقول:

سأحاول ، وإذا فشلت فهناك فى الجبل رجال لا يغلبون

فقال زآريا فى ضجر

ما قيمة هذا آله بالنسبة لحياتك أو طفلتك ؟

فقال قاسم معاتبا

إنى اعجب آيف لم تكن على رأس اعوانى!

فقال وآأنه لم يسمع قوله

-تعال معى إلى سوارس نساومه ونتعهد له بما يشاء!

فضحك قاسم ضحكة مقتضبة ، سخرت من اقتراح عمه دون آلام، والتفت زآريا إلى الشيش يطالع من خلاله الطريق فبدا مظلما مخيفا.

وانتبه على صوت قاسم وهو يتساءل:

لماذا اختاروا الليلة بالذات ؟

فأجاب زآريا

أول أمس جهر رجل من جبل بأن قضيتك آانت لخير الجميع

وقيل مثل ذلك عن رجل من رفاعة، فلعل ذلك ما دفعهم إلى التعجيل . فتهلل وجه قاسم وقال

أرايت يا عمى ؟ أنا عدو الناظر والفتوات ولكنى صديق حارتنا ، وسيعلم الجميع ذلك-. .

فكر الآن بما ينتظرك

فقال قاسم باهتمام

إليك خطتى ، سأهرب عبر الأسطح حتى بيتك تارآا مصباحى مضاء للتضليل-. .

قد يراك أحد

لن أشرع فى الهرب حتى تخلو الأسطح من المسمار

وإذا سبقوا بالهجوم على دارك ظ-.

لن يقع هذا حتى تنام الحارة-.

قد يبلغ بهم الاستهتار حدا لا تتصوره

فقال باسما

فى هذه الحال أموت، ومنذا يدفع الأجل ؟

فرفع الرجل إليه وجها ينطق بالرجاء، لكنه طالع ابتسامة هادئة ثابتة آأنها التصميم مجسدا فقال يائسا

قد يفتشون دارى-. .

-من حسن الحظ إنهم لا يعلمون بتسرب مؤامرتهم إلينا، ولذلك سأسبقهم إلى الهرب إن شاء الله

وتبادلا نظرة طويلة أفصح من الدمع ثم تعانقا ، ولما وجد نفسه وحيدا تغلب على تأثره واقترب من النافذة يراقب الطريق ، بدا الحى فى حياته المألوفة، فالصغار يلعبون حول مصابيح العربات والقهوة تعج بالسمار ، والأسطح تضج باحاديث النساء وسعال المدخنين يتخلله الفحش والسباب، ونواح الرباب يرتفع وهذا سوارس رابض على عتبة القهوة، ورسل الموت تحتل الأرآان يا سلالة الخيانة ويا لصوص البشر، منذ اطلق إدريس ضحكته الباردة وانتم تتوارثون الجريمة وتغرقون الحارة فى بحر من الظلمات ، ألم يئن للطير الحبيس أن ينطلق؟ ومضى الوقت وئيدا ثقيلا، ولكنه حمل ليل السمار إلى غايته صمت الأسطح خلا الطريق من العربات والصغار، وأقفرت المقاهى وعلت إلى حين أصوات الأشباح العائدة ورجع من الجمالية السكارى وهم يلهوسون حتى الغرز أطفأت المجامر، و لم يبق فى الظلام إلا ندامى الموت، وقال لنفسه حان وقت العمل، وسارع إلى السلم فرقاه إلى السطح ومضى إلى السور الفاصل بين سطحه والسطح الملاصق فعبره دون عناء وهم بالجرى وإذا بشبح يعترضه قائلا : قف ، فأدرك أن الأسطح محتلة بالقتلة وإن حصاره أحكم واستدار ليرجع ولكن الآخر وثب

نحوه وأحاطه بذراعين قويتين واستدعى قوته التى ضاعفها الخوف وفأجاه بضربة فى بطنه ففك حصار ذراعيه وثنى برآله فى بطنه أيضا فسقط وهو يشهق ثم لم يقم، وجاءت سعلة مكتومة من السطح الثالث أو الرابع جعلته يعدل عن التقدم فتراجع مضطربا إلى سطحه، وقف عند السلم ينصت فسمع وقع أقدام صاعدة، وتكتل الصاعدون أمام باب شقته وخبطوا الباب خبطة شديدة فانفتح وهو يكاد يقتلع، ثم تدافعوا إلى الداخل وهبط مسرعا دون أن يضيع ثانية حتى انتهى إلى الحوض وسارع إلى الباب ولمح خارج الدار شبحا يتحرك فانقض عليه قابضا على عنقه، ثم نطحه برأسه وطعن بطنه برآبته ودفعه فاستلقى على ظهر دون حراك، واندفع نحو الجمالية وضربات قلبه تتلاحق، الآن تبين لهم خلو الدار ولعل بعضهم يصعد إلى السطح ليعثر على صاحبهم الملقى ، ولعل الآخرين يهبطون فى أعقابه مر بربع عمه دون أن يتوقف، ولما اقترب من نهاية الحارة أطلق ساقية، وعند اتصال الحارة بالجمالية وثب شبح فى طريقه وصاح بصوت آالرعد لينبه الآخرين : قف يا ابن اللئيمة، ورفع نبوته قبل أن يحيد قاسم عن طريقه، ولكن شبحا أخر ظهر من زاوية المنعطف وضرب الشبح الأول بهراوته على رأسه فهوى صارخا ثم قال لقاسم:

لفنجر بكل ما فينا من قوة-. .

وانطلق قاسم وحسن يجريان فى الظلام دون مبالاة بما قد يعترضهما من حجر أو نقرة

84

عند مدخل حارة الوطاويط انضم صادق إليهما وعند نهايتها وجدوا عجرمة وأبو فصادة وحمروش حول عربة آرو ذات أربع عجلات فاستقلوها مبادرين وانطلق الجواد بها يلهبه سوط الحوذى، انطلقت العربة بسرعة رغم الظام محدثة فى سكون الليل صوتا مزعجا آالفرقعة المتواصلة وهم يتلفتون إلى الورء من خشية وتوجس وقال صادق جلبا للطمأنينة:

سيجرون نحو باب النصر ظنا بانك تلوذ بالخلاء حول المقابر

فقال قاسم بارتياب

-لكنهم يعلمون أنكم لا تقيمون عند المقابر.

غير أن سرعة العربة بدت حاسمة وبفضلها غلب شعور بانعهم يبتعدون حقا عن الخطر، وعاد قاسم يقول فى شئ من الارتياح.

-أحسنتم التنظيم والتدبير، وشكرا لك يا صادق فلولا تحذيرك لكنت الساعة فى الهالكين.

فشد صادق على يده فى صمت وتواصل اندفاع العربة حتى لاح سوق المقطم على ضوء النجوم يلفه الظلام والوحشة عدا نور مصباح ينبعث من آوخ المعلم يحيى، وعن حذر أوقفوا العربة وسط الميدان ثم ترآوها متجهين نحو الكوخ، وما لبث أن جاءهم صوت المعلم متسائلا عن القادمين فأجابه قاسم فارتفع صوته مرة أخرى بالحمد.

وتعانق الرجلان عناقا حارا وقال له قاسم:

-إنى مدين لك بالحياة.

فقال العجوز ضاحكا:

إنما الصدفة وحدها ! لكنها وقعت لتنقذ رجلا هو أول من يستحق الحياة أسرعوا إلى الجبل فالجبل خير حصن لكم

وشد قاسم على يده ونظر على ضوء المصباح إلى وجهه فى مودة وامتنان فعاد العجوز يقول

-اليوم أنت آرفاعة أو آجبل وسوف أعود إلى حارتنا عندما يقيض لك النصر.

ابتعدوا عن الكوخ شرقا يوغلون فى الخلاء نحو الجبل وتقدمهم صادق إذ آان أخبرهم بالطريق وآانت ثمة رقة تمازج الظلام مبشرة بالفجر والسماء تقطر ندى رطبا وترامى من بعيد صياح الديكة آصرخة المخاص لمولد يوم جديد ن وبلغوا السفح فساروا بحذاته نحو الجنوب حتى عثروا على الممر الضيق الذى يصعد إلى مقامهم الجديد فوق الجبل وصعدوا وراء صادق فى طابور فردا فردا لضيق الممشى وقال صادق لقاسم:

أعددنا لك دارا وسط ديرنا وفيها الآن تنام إحسان

فقال عجرمة

بيوتنا من الصفائح والخيش

فقال حسن فى مرح

ليست أسوأ آثيرا من بيوتنا فى الحارة
فقال قاسم
حسبنا ألا نجد بيننا ناظرا أو فتوة
وهبطت إليهم أصوات فقال صادق
حارتنا الجديدة مستيقظة تنتظرك- .
ورفعوا الرءوس فرأوا خيوط الضياء الأولى تطارد فلول الظلام
وصاح صادق بأعلى صوته : هوه فأطلت رءوس رجال ونساء وتعالى الهتاف والزغاريد وانطلقت الحناجر تنشد:
يا مجبى ديل العصفور
فاستخف قاسم الابتهاج وقال باآبار
ما أآثرهم!
فقال صادق بفخار
حارة جديدة فوق الجبل سكانها يتزايدون مع الأيام وقد انضم إلينا بارشاد المعلم يحيى جميع المهاجرين من حارتنا
وقال حمروش
-لا يتعبنا إلا أننا نسعى إلى أرزاقنا فى الأحياء البعيدة خشية أن يعثر علنيا أحد من حارتنا.
ولما صعد قاسم إلى السطح تلقاه الرجال بالعناق وصافحته النساء وارتفعت الأصوات بالتحيات والتهليل والتكبير وآانت سكينة بين المستقبلين فأخبرته بأن إحسان نائمة فى الكوخ الىذ اعد لهم دارا وساروا جميعا نحو الحارة الجديدة التى أقيمت على هيئة مربع من الأآواخ فوق مسطح من الجبل، وهم يهللون وينشدون وقد ابتهج الفق بالنور المتدفق آأنه بحيرة من الورد الأبيض وهتف رجل:
أهلا بفتوتنا قاسم
فتغير وجه قاسم وصاح مغضبا
ألا لعنة الله على الفتوات جميعا ، فلا سلام ولا امان حيث يرجعون
وتطلعت إليه الوجوه الجديدة فقال
سترفع النبابيت آما رفعها جبل ، ولكن فى سبيل الرحمة التى نادى بها رفاعة ثم نستغل الوقف لخير الجميع حتى نحقق حلم أدهم هذه هى مهمتنا لا الفتونة.
ودفعه حسن برفق نحو الكوخ الذى أعد له وهو يقول مخاطبا الجميع:
-مضى الليل دون أن يغمض له جفن فدعوه الآن ليأخذ بعض حقه من الراحة.

استلقى قاسم على خيشة جنب ابنته وسرعان ما استغرق فى النوم، واستيقظ فيما بين الظهيرة والعصر برأس مثقل وجسد متعب وجاءته سكينة بإحسان فوضعها فى حجره وراح يلثمها فى حنان وقدمت له المرأ ' آوز ماء وهى تقول:

-هذا الماء يحمل إلينا من الحنفية العمومية آما آانت تحمله زوجة جبل!

فابتسم الرجل، وآان يحب آل ما يربطه بذآريات جبل أو رفاعة وألقى نظرة على داره الجديدة فرأى جدرانا مغطاة بالخيش ولا شئ بعد ذلك فضم إحسان إلى صدره بحنان آآثر ونهض قائما فأعطى سكينة ابنته وغادر الكوخ ليجد صادق وحسن فى انتظاره فجلس بينهما وهم يتبادلون تحية الصباح وألقى نظرة عل الحارة فلم تقع عينه إلا على امرأة أو طفل ، فقال صادق موضحا:

ذهب الرجال إلى السيدة وزينهم سعيا وراء الأرزاق وتخلفنا نحن حتى نطمئن عليك

وتابعت عيناه النسوة العاملات فى الطهى أو الغسل أمام الأآواخ والأطفال اللاهين هنا وهناك ثم تساءل

ترى هل راضيات ؟

فقال صادق

إنهن يحلمن بامتلاك الوقف والنعيم الذى هنأ به أمينة هانم حرم الناظر!

فابتسم ابتسامة عريضة ثم ردد بصره بينهما فى بطء وتساءل

ماذا يدور فى رأسيكما عن الخطوة التالية ؟

فرفع حسن رأسه فوق منكبيه العريضين وقال

-نحن على بينة مما نريد.

ولكن آيف ؟-.

ننتهز غفلة ثم نهجم

لكن صادق قال معترضا

النصر من ناحية وقلة الضحايا من ناحية أخرى

فهتف قاسم وأساريره تنبسط

بل نصبر حتى نضم إلينا أآبر عدد من أهل حارتنا ثم نهجم فنضمن

أحسنت

وشملتهم طمأنينة حالمة وإذا بصوت يقول فى استحياء

الطعام

فرفع قاسم عينيه فرأى بدرية حاملة إناء فول وأرغفة وهو ترنو إليه بعينين باسمتين فما ملك أن ابتسم قائلا

أهلا برسول الحياة إلى
فوضعت الإناء بين يديه وهى تقول
أطال الله عمرك
وذهبت إلى آوخ صادق فيما يلى آوخه، وداخلت نفسه رقة ورضى فتناول طعامه بشهية وفى أثناء ذلك قال
لدى قدر من المال لا بأس به سينفعنا عند الحاجة
ثم مردفا بعد قليل
لنا النصر ولا-.
يقعدهم إلا الخوف
علينا أن نصطاد آل من نأنس فيه استعدادا إلى مشارآتنا من أهل حارتنا، وما آآثر المظلومين الذين ينهنون
وما لبث أن ذهب الرجلان إلى حيث سبقهم الآخرين فوجد نفسه وحده، وقام فمضى يتجول فى المكان آأنما يتفقده، مر بأطفال لاعبين فلم يلتفت إليه أحد منهم أما النساء فكن يحيينه بالدعاء واستوقفت نظره عجوز بالغة فى الكبر، ذات مكلل بالبياض الناصع وعينين تغشاهما سحابة الهرم، وذقن متقلقل آأنها تزدرد لحييها، فأقترب منها محييا فردت التحية بالدعاء
فسألها من أمى؟
فأجابت بصوت آخشخشة الأوراق الجافة:
-أم حمروش.
أهلا بأمنا جميعا، آيف هان عليك أن تهجرى حارتنا ؟-.
يوجد فيه أبنى
ثم آالمستدرآة
أطيب المكان ما
والبعد عن الفتوات غنيمة
ثم تشجعت بابتسامته فقالت
رأيت رفاعة وأنا شابة
فسألها باهتمام
حقا ؟-.
نعم وحياتك، آان لطيفا جميلا ولكن لم يجر لى فى خاطر انه سيكون عنوان حى وحكاية من حكايات الرباب
فسألها باهتمام متزايد

ألم تقصديه آالآخرين ؟-.

-آلا ، لم يكن يدرى بنا فى حينا أحد ولا آنا ندرى بانفسنا ولولاك ما جرى ذآر للجرابيع على لسان

زتفحصها بغرابة وتساءل ترى آيف يكون جدنا اليوم ! لكنه ظل يبتسم لها برقة فدعت له طويلا حتى ذهب، وواصل المشى حتى وقف عند رأس الممشى على حافة الجبل ألقى نظرة على الخلاء أسفل ثم مد البصر نحو الأفق تراءت على البعد القباب والأسطح آأنها ملامح متباعدة فى آائن واحد، وقال إنه ما ينبغى أن تكون إلا شيئا واحدا وهذا الشئ ما اصغره من عل، فلا معنى للناظر رفعت ولا للفتوة لهيطة، ولا فرق هنا بين رفعت وعمه زآريا ومن العسير أن تهتدى من موقفك إلى الحارة المثيرة المتاعب لولا بيت الواقف الذ يبدو أنه يميز من أى موقع بيت جدنا بسوره العجيب وأشجاره العالية لكنه طعن فى السن وخفت خشيته آهذه الشمس المائلة نحو الأفقن أين أنت وآيف أنت ولم تبدو وآأنك لم تعد أنت ، المزيفون لوصيتك على بعد أذرع من منزلك وهؤلاء النسوة والصغار المبعدون فى الجبل أليسوا أقرب الناس إلى قلبك ؟ ستعود إلى مكانتك عندما تنفذ شروط وقفيتك دون اغتيال ناظر أو اعتداء فتوة آعودة الشمس غدا إلى آبد السماء.

ولولاك ما آان لنا أب او حارة أو وقف أو أمل.

وايقظه من تهويمته صوت عذب يقول:

القهوة يا معلم قاسم

التفت وراءه فرأى بدرية باسطة راحتها بالفنجان فتناوله قائلا

لم التعب ؟

تعبك راحة يا سيدى

وترحم على قمر وراح يحسو القهوة فى رفق، وبين الحسوة والحسوة تلتقى عيناهما فى ابتسامة ما ألذ القهوة عند طرف الجبل فوق الخلاء.

ما عمرك يا بدرية ؟

فثنت شفتيها داخل فيها ثم غمغمت

-لا أدرى.

لكنك تدرين بما جاء بنا إلى الجبل؟

فترددت فى استحياء ثم قالت

-أنت!

أنا ؟-.

تريد أن تضرب الناظر والفتوات وتجعل الوقف لنا، هذا ما يقول أبى

فابتسم وانتبه إلى أنه أتى على ما فى الفنجال لكنه سها عن رده، فرده إليها وهو يقول
ليت عندى من الشكر بعض ما تستحقين
فاستدارت باسمة موردة وجرت فتمتم قائلا
-تصحبك السلامة.

85

وآان وقت الأصيل هو وقت التحطيب فينبرى الرجال للمارسة التمرينات الشاقة بالنبابيت ويبدأ ذلك عقب عودهم بنقود قليلة وطعام بسيط بعد يوم شاق آادح ينقضى سعيا وراء الرزق هكذا يعودون نساء ورجالا.
وآان قاسم أول المتبارين وآم سره أن يرى حماسة رجاله وتوثبهم لليوم العصيبي أشد بين الرجال ولكنهم يكنون له من الحب ما لم تعرفه حارهم الممزقة بالبغضاء، وترتفع النبابيت وتتهاوى وتتلاقى فى ارتطامات شديدة ويتفرج الغلمان ويقلدون على حين تخلد النساء إلى الراحة أو يعددن العشاء، وصف الأآواخ يمتد طولا بما ينضم إلى الحارة الجديدة من رجال جدد وأثبت صادق وحسن وأبو فصاده أهم أهم صيادون مهرة آانوا يرصدون رجالا من الحارة فى مظاهم وما يزالون هم حتى يقنعوهم بالانضمام إليهم فيهجروا الحارة خفية وراء آمال لم تشتعل من قبل فى صدروهم وآان صادق يقول لقاسم:
لا أضمن مع هذا النشاط ألا يهتدى أعداؤنا إلى مقرنا
فيقول له
-لا سبيل إلينا إلا خلال الممر الضيق، وسيكون الهلاك نصيبهم إذا جاءوا منه.
وآانت إحسان هى سعادته الباقية حتى يلاعبها وحين يهدهدها وحين يناغيها، لكنها لم تكن آذلك حين تذآره بالراحة فتطبق عليه الوحشة وتلفحه انفاس الحنين، تلك التى خطفت من بين يديه فى أول الطريق فترآته فريسة للوحشة آلما خلا إلى نفسه وأحيانا للندم آما حدث عند حافة الجبل عند حافة الجبل يوم القهوة أو يوم النظرة الرقيقة آنسمة العصارى، وذات ليلة حرن النوم أمام عينيه فوقع صيدا معذبا للوحشة والأرق فى ظلمة الكوخ، فقام من فراشه وانطلق خارجا ومضى فى الساحة بين الأآواخ تحت النجوم الساهرة يستقبل هواء منعشا هواء الصيف عند منتصف الليل فوق الجبل، وإذا بصوت يناديه ثم تساءل صاحبه:
إلى أين أنت ذاهب فى هذه الساعة من الليل ؟
فالتفت وراءه فرأى صادق وهو يقترب منه فسأله
ألم تنم بعد ؟-.

لمحتك وأنا راقد أمام الكوخ وأنت أطيب عندى من النوم
وسارا جنبا إلى جنب حتى حافة الجبل فوقفا هنالك وقاسم يقول
الوحدة أحيانا لا تطاق
فقال صادق ضاحكا
تبا لها فى جميع الأحيان
ومدا البصر نحو الأفق فبدت الدنيا سماء متلألئة فوق أرض غارقة فى الظلام وعاد صادق يقول
أآثر رجالك أزواج أو ذوو أهل فهم لا يعرفون الوحشة
فتسءل قاسم آالمستنكر
ماذا تعنى ؟
مثلك لايستغنى عن امرأة
واشتد الاحتجاج بصوت بقدر ما استشعر فى قول الرجل من صدق فتساءل
أتزوج بعد قمر ؟
فقال الرجل بإيمان
لو استطاعت أن تسمعك صوتها لأعادت على مسمعك رأيى
واضطرب قاسم وجاشَ بالانفعال صدره وقال وآأنه يخاطب نفسه
آأنها الخيانة بعد الحب والرعاية- .
-ما أغنى الأموات عن اخلاصنا
ماذا يعنى الرجل الطيب ؟ يقرر الصدق أم يبرر الهوى؟ ولكن للحقيقة طعما مرا فى بعض الأحوال وأنت نفسك لا تواجه نفسك بالصراحة التى واجهت بها الأوضاع فى حارتك، والذى سوى هذه الأمور فى عالمك هو الذى سوى هذه النجوم فى السماء، والحق الذى لا مرية فيه أن قلبك يخفق آما خفق أول مرة وتنهد بصوت مسموع فقال صادق:
أنت أول من يحتاج إلى أنيس
ولما رجع إلى آوخه لمح سكينة واقفة عند الباب فتطلعت إليه آالمتسائلة وهى تقول بقلق
لمحتك خارجا حين آنت أظنك فى أعز النوم
فقال دون تمهيد لشدة ضغط أفكاره على رأسه
انظرى إلى صادق آيف يحضنى على الزواج!
فقالت سكينة آأنما تلقف فرصة من السماء

وددت أن أسبقه-! !

أنت-.

نعم يا سيدى، شئ ما يحز فى قلبى أن أراك جالسا وحدك مستسلما للوحشة والفكر

فأشار بيده إلى الأآواخ النائمة وقال

جميع هؤلاء معى-. .

نعم ولكن لا أحد لك فى دارك إلى عجوز، رجل فوق الأرض ورجل فى القبر

وشعر بأن تلثه دليل تقبل لما تريد ولكنه مع ذلك لم يدخل إلى آوخه وقال فى نبرة رثاء

لن أجد زوجة مثلها-! !

هذا حق ولكن توجد بنات يبشرن بالسعد

وتبادلا نظرة خلال الظلام، أردفت بهنيهة صمت، ثم تمتمت الجارية

بدرية ! ما ألطفها من فتاة

فقال بدهشة تعدل خفقة قلبه

البنت الصغيرة!

فقالت وهى تدارى ابتسامة مآرة

ما أنضجها وهى تقدم الطعام أو القهوة

فتحول عنها وهو يقول

-يا شيطانة ! لعنة الله على سلالتك!

وآان للخبر رنة فرح فى حارة الجبل جميعا آاد صادق أن يرقص وزغردت أمه حتى أسمعت الخلاء وانهالت التهانى على قاسم واحتفلت الحارة بالزفاف دون استدعاء لأحد من المحترفين فرقصت نساء من بينهن أم بدرية وغنى أبو فصادة بصوت مليح.

أنا آنت صياد سمك وصيد السمك غية

وسارت الزفة حول الأآواخ مستضيئة بأنوار السماوات وانتقلت سكينة بإحسان إلى آوخ حسن على حين خلا آوخ قاسم للعروسين.

86

لذا له حقا أن يراقب - من مجلسه على الفروة أمام الكوخ - بدرية وهى تعجن هى صغيرة بلا جدال ولكن أى امرأة تفوقها فى النشاط وتدبير الشئون، وتمطت من جهد وبظهر راحتها رفعت ما قدل من شعرها فوق الجبين، فبدت فاتنة غازية لسويداء القلب، ونم تورد وجهها على إحساسها بمتابعة عينيه حتى توقفت فى دلال ! فضحك بسرور ومال نحوها فتناول ضفيرتها وقبلها مرار ثم عاد إلى جلسته، وآان سعيدا خالى البال آشأنه فى الأويقات التى يعتزل فيها أصدقاءه وأفكاره وعلى بعد يسير مضت إحسان تنقل من موضع إلى موضع على مرمى النظر من سكينة الرابضة فوق حجر وتعالت ضجة عند رأس الممر رأى صادق وحسن وبعض الأصدقاء قادمين نحوه حول رجل عرف فيه خردة الزبال من حى رفاعة فوقف من فوره لاستقبالهم على حين زغردت نساء آما يفعلن آلما انضم إلى الجبل رجل جديد من أهل الحارة.

وعانقه والرجل يقول:

فقال له هاشا باشا

إنى معكم ، وجئت معى بنبوت!

أهلا بك يا خردة، نحن لانفرق بين حى وحى فالحارة حارتنا والوقف للجميع.

فضحك الرفاعى قائلا:

يتساءلون عن مكانكم ويتوقعون من ناحيتكم شرا ولكن قلوبا آثيرة تتمنى لك النصر

وألقى نظرة على ما حوله فشملت الأآواخ والناس ثم قال بإعجاب

آل هؤلاء معك!

وقال صادق

جاء خردة بخبر هام

فحدجه قاسم بنظرة متسائلة فقال خردة

هذه الليلة

فقال حسن بحماس

اليوم يتزوج سوارس للمرة الخامسة وستسير زفته

هذه فرصة لا تتكرر للقضاء عليه

وتحمس الرجال وقال صادق

سنهجم يوما على الحارة، فكلما تخلصنا من فتوة جاء الهجوم أيسر عناء وأضمن نتيجة

وتفكر قاسم مليا ثم قال

-سنهاجم الزفة آما يفعل الفتوات ولكن اذآروا دائما أننا نهاجم للقضاء على الفتوة.
وقبيل منتصف الليل تجمع الرجال عند حافة الجبل ثم مضوا يهبطون رجلا رجلا وراء قاسم وأيديهم قابضة على نبابيتهم آانت السماء صافية، والبدر يحتل منها الكبد ونوره يضفى على الدنيا وشى الأحلام وانتهوا إلى الخلاء فاتجهوا ناحية الشمال من وراء سوق المقطم ثم ساروا بحذاء الجبل حتى لا يضلوا الطريق ، ولما اقتربوا من صخرة هند أقبل نحوهم شبح رجل آان يتجشش لهم الأخبار فقال لقاسم:
ستسير الزفة نحو باب النصر
وتعجب قاسم قائلا
لكن زفاتنا تسير عادة نحو الجمالية
فقال خردة
لعلهم يبتعدون عن الأماآن التى يظنون مقامكم قريبا منها
وفكر قاسم بسرعة ثم قال
سيذهب صادق وبعض الرجال إلى ما وراء بوابة الفتوح ويمضى عجرمة وآخرون إلى الخلاء باب النصر وسأنتظر أنا وحسن-.
وبقية الرجال وراء باب النصر وعندما أدعوآم إلى الهجوم أهجموا
وبدأ الرجال ينقسمون جماعات وقبل أن يهموا بالرحيل قال:
-رآزوا الضرب على سوارس وأعوانه، أما الآخرون فسيكونون إخوانكم غدا.
ومضت آل جماعة فى طريقها وأوغل هو وحسن ومن معهما شمالا بحذاء الجبل ثم عدلوا إلى اليسار فى طريق القرافة حتى آمنوا وراء البوابة وآان ورجاله يحاصرون الطريق فصادق يتربص يمينا وعجرمة يتوثب يسارا وهو يكمن وراء البوابة وقال حسن:
ستتجمع الزفة فى قهوة الفلكى
فقال قاسم
للفتوات ضحايا لا يحيصم العد
وأرسل صادق صفيرا وتبعه عجرمة فاشتدت عزيمتهم وقال حسن
إذا هلك سوارس تسارع أهل حينا إلينا.
وإذا جاء الآخرون للقضاء علينا أهلكناهم فى الممر
هذه الأحلام مثل ضوء القمر وما هى إلا ساعة حتى يتقرر النصر لهم أو تتبخر الآمال مع أرواحهم المهدرة، وخيل له أنه يرى

شبح قنديلن وأنه يسمع نبرة قمر، وآأن دهرا مضى مذ آان يرعى الغنم.
وشد قبضته على نبوته وقال لنفسه لا يمكن أن ننهزم وسمع حسن وهو يسأله:
ألا تسمع ؟
وأرهف السمع قليلا حتى التقط أصداء من أنغام فقال
-استعدوا الزفة قادمة.
وأخذت الأصوات تقترب وتتضح ثم ترامى الزمر والطبل وتعالت الآهات وأطبق التهليل ثم على ضوء المشاعل بدت الزفة وهى تتقدم وتراءة سوارس للعين وسط هالة من الراقصين اللاعبين بالنبابيت.
وتساءل حسن:
أصفر لعجرمة ؟
فقال قاسم بثبات
-عندما تصل طليعة الزفة إلى وآالة الثوم.
واستمر تقدم الزفة واشتد الرقص واللعب وأخذ راقص بنشوة الرقص فجعل يثب فى الهواء ثم يدور أمام الزفة فى سرعة رشيقة راسما دائرة متموجة والنبوت يدور مرتكزا على راحته المرفوعة فوق راسه آالمروحة، ومضى يتقدم خطوة عقب آل دورة حتى جاوز وآالة الثوم والزفة من وراءئه تتقدم فى بطء شديد حتى بلغ رأسها الوآالة عند ذاك صفر حسن ثلاثا فهبط عجرمة ورجاله من عطفة الطماعين وانقضوا على مؤخرة الزفة تسبقهم نبابيتهم فاجتاح الاضطراب صفوفها وارتفع صراخ الغضب والخوف وصفر حسن ثلاثا مرة أخرى فاندفع صادق ورجاله من السماآين على وسط الزفة من الناحية الأخرى قبل أن تفيق من الهجمة الأولى، وفى الحال هجم قاسم ورجاله من تحت البوابة على مقدمة الزفة هجمة رجل واحد استرد سوارس ورجاله أنفسهم من شرك المفاجأة فرفعوا النبابيت واشتبكوا فى معرآة مريرة وتطاير آثيرون من المسالمين
فلاذوا بالحوارى والأزقة واشتد ارتطام النبابيت وسالت الدماء من الأوجه والرءوس وتحطمت آلوبات وتناثر الورد فطحنته الأقدام، وانطلق الصوات من النوافذ وأغلقت المقاهى أبوابها وضرب سوارس بقسوة وبخفة فانطلق نبوته آالمجنون مرة فى هذه الناحية ومرة فى تلك، واشتد الضرب وتكاثف الحقد آقطع الليل ووجد سوارس نفسه بغتة أمام صادق فصرخ:
-يا ابن النجسة.
ووجه إليه ضربة فتلاقت مع ضربة وجهها صادق الذى ارتج وترنح ورفع سوارس نبوته وهوى به مرى أخرى عليه فتلقاه بنبوته
المرتكز على قبضته غير أنه سقط على رآبتيه من شدة الصدمة وهم بتوجيه الضربة الثالثة والقاضية لكنه لمح حسن منقضا عليه آالوحش لإنقاذ صاحبه فتحول نحوه وهو يطفح بالغضب صائحا:

-وأنت أيضا يا ابن زآريا ! يا ابن الزانية.

وأطلق نحوه ضربة هائلة لو لم يتفاد منها بوثبة جانبية لهلكن ثم طعن سوارس فى أثناء وثبته برأس نبوته فأصاب عنقه ، عطت الطعنة سوارس لحظات عن تسديد الضربة التالية فسيطر حسن على توازنه ووجه ضربة شديدة بقوته الخارقة فأصابت جبهة سوارس وفجرت نافورة من الدم وسرعان ما تراخت قبضته عن نبوته فهوى، وتراجع خطوات مترنحة ثم سقط على ظهره دون حراك، وعلا على أصوات النبابيت المتلاطمة صياح رجل:

-سوارس قتل!

فأدرآه عجرمة بضربة نبوت فوق أنفه فصرخ، وتراجع فعثر بطريخ فسقط وقويت عزيمة رجال قاسم فاشتدت ضرباتهم وتخاذل رجال سوارس وهالتهم آثرة الساقطين من رجالهم فتقهقروا ثم أسلموا أرجلهم للفرار ، وأخذ رجال قاسم فى التجمع حوله وهم يهلثون ، البعض تسيل دماؤهم والبعض يحملون جرحاهم، ونظروا صوب الأرض على ضوء الفوانيس الصادر من شراعات أبواب المقاهى أجسادا مطروحة منها ما لقى حتفه ومنها ما راح فى غيبوبة ووقف حمروش فوق ظل سوارس وهتف:

ليطمئن جثمانك يا شعبان!

فجذبه قاسم إلى جانبه وقال

يوم النصر قريب يوم يلقى بقية الفتوات نفس المصير، يوم نصبح سادة حارتنا وأصحاب وقفنا وأحفادا بررة لجدنا

وعند عودتهم إلى الجبل استقبلتهم النساء بالزغاريد وجرت مع الهواء أنباء النصر وأوى قاسم إلى آوخه وبدرية تقول له

-عليك غبار آثير ودم ن يجب أن تستحم قبل النوم.

ولما استلقى عقب الاستحمام تأوه من الألم وأتت له بطعام وانتظرت أن يجلس ليتناوله ولكن استولت عليه حال بين اليقظة والمنام.

وشعر بارتياح آأنه السعادة ولكن شابه إحساس قلق آأنه الحزن، وقالت بدرية:

تناول طعامك

فنظر إليها بعينين مثقلتين حالمتين وقال

ستشهدين النصر قريبا يا قمر

وانتبه إلى هفوة اللسان إثر وقوعها ورأى تغير وجه بدريه، فجلس فى فراشه الأرضى وقال فى تودد وارتباك

ما أشهى طعامك

لكنها نفرت من تودده متجهمة فتناول قطعة من الطعمية قائلا

جاء دورى لأعودك الطعام

فلوت عنه وجهها وتمتمت

آانت طاعنة فى السن ولا جمال لها

فتقوضت قامته المنتصبة فى آآبه آأنه تهدم وقال فى عتاب وحزن شديدين

لا تذآريها بسوء فمثلها لاينبغى أن يذآر إلا بالرحمة-.

فارتد إليه رأسها متوثبا لكنها رأت على صفحة وجهه حزنا مخيفا فترددت ثم لاذت بالصمت

87

رجع المغلوبون يرآبهم الخزى، ابتعدوا ما استطاعوا عن الأنوار المنبعثة من بيت سوارس حيت يتالق الجو ببهجة الفرح والطرب، وانحجز آل رجل فى ربعه وإذا بالأنباء السود تنتشر آالحريق فتعالى الصوات فى مساآن آثيرة وانطفأ العرس آأنما أهيل عليه التراب انطلقت الحناجر تنعى سوارس ثم تنعى من قتل معه من رجاله وامتد المصاب فشمل رجالا من الرفاعية وأخرين من جبل ممن اشترآوا فى الزفة ومن المجرم المعتدى؟ قاسم ، قاسم الغنام ، قاسم الذى آان ينبغى أن يظل متسولا مدى عمره لولا قمر، وشهد رجل بأنه تبع عصابة قاسم فى عودتها حتى اهتدى إلى ملجاها فوق المقطم وتساءل آثيرون هل يعتصم بالجبل حتى يقضى على رجال الحارة؟ واستيقظ النائمون وخرجوا إلى الحارة والأربع تتجاوب بالصوات وصراخ أحد رجال جبل فى غضب:

اقتلوا الجرابيع

لكن جلطة أوقفه صائحا

لا ذنب لهم ، قتل فتوتهم، وعدد وافر من رجالهم-.

أحرقوا المقطم-.

هاتوا جثة قاسم لتأآلها الكلاب-.

على الطلاق لا شربن من دمه-.

الجربوع اللئيم الجبان-.

يحسب أن الجبل سيحيمه-.

لن يحميه إلا القبر

واضطراب وقال له صادق:

جاءت الحارة للانتقام وهم مجتمعون أسفل الممر

وقال خردة

-آنت أول ذاهب للعمل فرأيتهم وأنا على مبعدة خطوات من الخلاء فرجعت مسرعا وطاردنى بعضهم فأصابونى بحجر فى ظهرى وجعلت أنادى صادق وحسن حتى جاء جماعة من إخواننا إلى رأس الممر فانتبهوا إلى الخطر ورموا المهاجمين بالأحجار حتى تراجعوا.

ونظر قاسم نحو راس الممر فراء حسن وبعض الرجال واقفين عنده بأيد قابضة على الأحجار فقال:

نستطيع أن نصدهم هناك بعشرة رجال:

فقال حمروش

-إن الصعود على هذه الحال انتحار فليصعدوا إذا شاءوا.

وتجمع الرجال والنساء حول قاسم حتى خلت الأآواخ جاء الرجال بالنبابيت والنساء بمقاطف طوب أعدت لذلك اليوم، وانطلق

أول شعاع للشمس من سماء صافية وتساءل قاسم:

أما من مسلك أخر إلى المدينة ؟

فقال صادق واجما

يوجد مسلك فى الجنوب على مسيرة ساعتين فى الجبل

وقال عجرمة

لا أظن أن لدينا من الماء ما يكفينا أآثر من يومين

فسرت فيهم همهمة قلق وبخاصة النساء فقال قاسم

-لقد جاءوا للانتقام لا للحصار، وإذا حاصرونا عمدنا إلى المسلك الآخر لفك الحصار.

ومضى الرجل يفكر وهو يحافظ على هدوء وجهه الذى تتطلع إليه الأبصار لو حاصروهم لوجدوا أآبر المشقة فى إحضار المياه من المسلك الجنوبى، ولو هجم برجاله عليهم فهل يضمن الانتصار على رجال فيهم لهيطة وجلطة وحجاج؟ وأى مصير يخبئه مغيب هذا اليوم لهم؟

ورجع إلى آوخه ثم عاد قابضا على نبوته ثم سار إلى حسن ورجاله عند رأس الممر فقال له حسن:

-لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب.

ودنا قاسم من حافة الجبل فرأى أعداءه متجمعين على هيئة هلال فى الخلاء بعيدا عن مرمى الحجر هاله عددهم لكنه لم يستطع أن يميز الفتوات بينهم، ومد بصره خلال الفضاء حتى استقر على البيت الكبير بيت الجبلاوى الغارق فى صمته آأنه

لايبالى بصراع الأبناء من أجله ما أحوجهم إلى قوته الخارقة التى دانت لها هذه البقاع فى الزمن الخالى، ولعل القلق لم يكن ليساوره لولا ذآرى مصرع رفاعة على آثب من بيت جده ووجد دافعا من أعماقه يدعوه إلى ان يصيح بأعلى صوته قائلا

:يا جبلاوى ، آما يفعل أهل حارته فى أحوال شتى، لكن لفت سمعه أصوات النساء المقتربة فاستدار ناظرا حوله فرأى الرجال منتشرين على حافة الجبل ينظرون إلى أعدائهم والنساء متجهات إلى المواقع نفسها فصاح بهن أن يرجعه، وشدد فى الصياح لدى ترددهن وأمرهن بان يعددن الطعام وأن يزالون مالون الأعمال وما زال بهن حتى صدعن بامره فاقترب منه صادق قائلا:

أحسنت فأن اخوف ما أخاف علينا تأثير اسم لهيطة

فقال حسن

ليس أمامنا إلا أن نضرب

ولوح بنبوته مردفا

سيتعذر علينا التجوال سعيا وراء أرزاقنا بعد أن عرفوا مكمننا ، فليس أمامنا إلا أن نهجم

فأدار قاسم رأسه مادا البصر نحو البيت الكبير وقال

بالصواب نطقت ن ما قولك يا صادق ؟-.

ننتظر حتى يجئ الليل

فقال حسن

سيضر بنا الانتظار ، ولن ينفعنا الليل فى عراك

وتساءل قاسم

ترى ما هى خطتهم ؟

فقال صادق

أن يجبرونا على النزول إليهم

وتفكر قاسم مليا ثم قال

إذا قتل لهيطة ضمنا النصر

وردد عينيه بين الرجلين ثم أردف

إذا سقط تقاتل جلطة وحجاج على الفتونة-. .

ومضت الشمس فى الارتفاع فتوهج الحصا وانتشرت نذر الحر

وتساءل حسن:

-خبراني ما العمل ؟

فبدا تساؤله آالحصار ولكن لم يطل باحد التردد فقد انطلق صراخ امرأة من ناحية الساحة، وتلته على الفور صرخات وتميز الصوت وهو يصيح:

هوجمنا من الناحية الأخرى.

وارتد الرجال عن الحافة فانطلقوا نحو الساحة فيما يلى الجنوب أوصى قاسم المدافعين عن الممر بمزيد من الانتباه ، أمر خردة أن يدعو النساء القادرات إلى الانضمام إلى المدافعين عن الممر، جرى بين صادق وحسن نحو الساحة حتى توسط رجاله لاح للجميع لهيطة وهو يقود عصابة آبيرة من الرجال قادمين من جنوب الجبل، قال قاسم بحنق:

شاغلنا برجاله حتى يقوم برحلته حول الجبل ثم يجيئنا من مسلك الجنوب

فصاح حسن وجسمه العملاق ينتفخ بالتوثب

جاء بقدميه إلى موته!

فقال قاسم

-يجب أن ننتصر وسننتصر.

وامتد رجاله من حوله آذراعين قويتين ومضى القادمون يقتربون بنابيت مرفوعة آأنهم دغل من الأشواك ودخلوا فى مجال الأبصار فقال صادق:

-ليس فيهم جلطة ولا حجاج.

وأدرك قاسم أن جلطة وحجاج على رأس المحاصرين أسفل الجبل وحدس أنهما سيهاجمان الممر مهما آلفهم ذلك من مشقة لكنه لم يفض بوساوسه إلى أحد، وتقدم خطوات وهو يلوح بنبوته فشد الرجال على نبابيتهم وجاء الصوت الغليظ صوت لهيطة وهو يصيح:

-لن تدفنوا فى قبر يا أولاد الزوانى.

وامدفع قاسم مهاجما فاندفع حوله الرجال وأقبل الأخرون آالصخور المنقذفة حتى اصطكت النبابيت واختلطت الزمجرة وارتفع الزئير وفى ذات الوقت انهال الطوب من المدافعات عن رأس الممر على هجوم من أسفل الجبل بدا، لكن آل رجل من رجال قاسم مع أخر من العدو اشتبك تضارب قاسم ودنجل بعنف ومرك وهوى نبوت لهيطة على قرقوة حمروش فانكسر، والتحم صادق وزينهم فى هجمات متتابعة ودك حسن بنبوته الغضبان فسكت ورب لهيطة زقلة فى رقبته فانقلب، وتمكن قاسم من إصابة دنجل فى أذنه فصرخ وتراجع ثم أندلق وحمل زينهم على صادق حملة شديدة لكن هذا بادره بطعنة فى بطنه فخذلته يداه فثنى بطعنة أخرى فجندله، وتغلب خردة على الحفناوى ولكن لهيطة شل ذراعه قبل أن يهنا

بنصرته ووجه حسن ضربة إلى لهيطة لكنه زاغ عنها برضاقة ورفع نبوته ليهوى به على الشاب غير أن قاسم عاجلة بضربة تلقاها بنبوته، وجاء أبو فصاده آالريح ليقذفه بالضربة الثالثة لكن لهيطة نطحه برأسه فى أنفه فحطمه ، بدا لهيطة آأنه قوة لا تغلب، واشتد القتال وتلاطمت النبابيت بلا هوادة واندفعت سيول الشتائم واللعنات وانبثقت الدماء تحت أشعة الشمس المحرقة وتوالت الاصابات فخر الرجال تباعا من الفريقين واحترق لهيطة غضبا للمقاومة المستبسلة التى لم يتوقعها فتضاعفت هجماته وضرباته وقسوته، ومن الناحية الأخرى أمر قاسم حسن وعجرمة بان يتحينا الفرصة للهجوم معه على لهيطة حتى يهدموا الحصن الذى يلوذ به المهاجمون ، وإذا بامراة من المدافعات عن الممر تجئ وهى تصرخ محذرة:

إنهم يصعدون تحت ألواح العجين

ففزعت قلوب رجال الجبل وصاح لهيطة

لن تدفنوا فى قبر يا أولاد الزوانى

فصاح قاسم فى رجاله

-انتصروا قبل أن يصعد المجرمون.

واندفع نحو لهيطة بجناحين من حسن وعجرمة فاستقبلة الفتوة بضربة شديدة تلقاها بنبوته ، وأراد عجرمة أن يعاجلة بضربة ولكن العفش أصاب ذقنه فانبطح على وجهه ووثب حسن امامه وهما يتبادلا ضربتين ورمى حسن بنفسه عليه فالتحما فى صراع مميتن وارتفع صراخ النساء عند رأس الممر وأخذ بعضهن يلذن بالفرار وتحرج الموقف، وسارع قاسم بغرسال صادق وبضعة رجال إلى حافة الجبل، ثم انقض على لهيطة لكن اعترضه زحلقة فاشتبكا فى قتال عنيف، ودفع حسن لهيطة بكل قوته فتراجع خطوة فبصق على عينه وهو يهدر، ثم رآله فأصاب رآبته وبسرعة خاطفة هجم عليه متقوسا فنطح بطنه آانه ثور غاضب فاختل توازن الجبار ووقع على ظهره فبرك الآخر فوقه وأطبق بنبوته على رقبته بكلتا يديه وضغط بكل قواه، وأقبل رجال للدفاع عن فتوهم فتصدى لهم قاسم وبعض رجالهن واصطكت قدما لهيطة وجحظت عيناه، واحتقن بالدم وجههن وأخذ يختنق وبغتة وثب حسن واقفا فوق غريمة الخائر القوة وهوى على رأسه بنبوته بضربة شرسة حانقة فتحطمت جمجمته وانتهى وصرخ حسن بصوت آالرعد:

-لهيطة قتل ، فتوتكم قتل ، انظروا إلى جثته.

وأحدث موت لهيطة غير المتوقع أثرا عنيفا فاشتد عزائم ووهنت عزائم واندفع الأمل واليأس فى قتال مرير وانظم حسن إلى قاسم فى صراعه فلم تخب له ضربه وشهد الميدان رجالا تتوثب ثم تثب ونبابيت ترتفع ثم تنقض وثار الغبار وانتشر ثم أطبق على المتعارآين آليل دموى وقذفت الصدور بجيشات وصيحات ولعنات وصرخات متأوهة وزمجرات متوعدة وبين آل أونة واخرى يترنح رجل ثم يسقط أو يتراجع ثم يفر، وانتشر المنطرحون على الأرض والتمعت الدماء تحت أشعة الشمس، وانتحى قاسم جانبا فأرسل بصره نحو رأس الممر الذى أقلقه أمره فراى صادق ورجاله يصبون الطوب بالمقاطف فى توتر

شديد دل على اقتراب الخطر المتصاعد وسمع النساء وبينهن زوجته وهن يصرخن آالمستغيثات، وشاهد بعض رجال صادق وهم يقبون على النبابيت استعدادا للقاء المصرين على الصعود تحت وابل الطوب، وقدر خطورة المر فمضى من فوره إلى جثة لهيطة التى ابتعد عنها القتال لتقهقر رجال الحارة وراح يسحبها وراءه نحو رأس الممر ونادى صادق فجاءه مسرعا فتعاونا على حمل الجثة، وسارا بها حتى أول الممر وقذفا بها معا فتهاوت ثم تدحرجت حتى وقفت تحت أرجل الصاعدين تحت الأولواح، ووقع اضطراب واضح وجلجل صوت حجاج وهو يصرخ فى غضب.

اصعدوا تقدموا الويل للمجرمين

فصاح قاسم متهكما فى ضبط نفس عجيب

-تقدموا هذه جثة فتوتكم وورائى جثث رجالكم الآخرين تقدموا نحن فى انتظارآم.

وأشار إلى الرجال والنساء فانهال الطوب آالمطر حتى توقفت طليعة المهاجمين وأخذوا فى التراجع البطئ رغم دفع حجاج وجلطة لهم، وترامت إلى قاسم همهمة تحرش واحتجاج وتذمر فصاح قاسم:

يا جلطة ، يا حجاج ، اقدما ولا تهربا

فارتفع غليه صوت جلطة آأنه نبرة الكراهية وهو يصيح

انزلوا إن آنتم رجالا ! انزلوا يا نسوان يا أولاد العواهر!

وصاح حجاج وهو واقف وسط الموجة المرتدة من الرجال

-لا عشت إن لم أشرب من دمك يا أقذر من رعى الغنم!

فتناول قاسم حجرا وقذف به بكل قوته وتواصل انهمار الأحجار واسرعت الموجة المرتدة حتى اوشكت أن تنقلب جريا وإذا بحسن يجئ فيقول وهو يمسح عن جبهته دما سائلا:

انتهى القتال ، وفر الأحياء منهم نحو الجنوب

فهتف قاسم

ادع الرجال لنتبعهم!

لكن صادق قال له

إن الدم يسيل من أسنانك وذقنك!

فمسح فمه وذقنه براحته وبسطها فرأها حمراء قانية وقال حسن بأسف

قتل من ثمانية وأصيب الأحياء بجروح بالغة فلن يستطيعوا حراآا

ونظرا إلى أسفل من خلال الأحجار المتهاوية فراى أعداءه يرآضون فى نهاية الممر فقال صادق

لو أتموا رحلتهم ما وجدوا مقاتلا يصمد لهم-. .

ثم لثم ذقن قاسم الدامى وأردف بامتنان

-أنقذنا عقلك.

وأمر قاسم رجلين بالبقاء عند راس الممر للحراسة وأرسل أخرين فى أعقاب الهاربين لاستطلاع النباء ثم عاد بين صادق وحسن وهم ينقلون خطوات ثقالا فى غعياء وآلال نحو الساحة التى لم يبق فوق أديمها جثث القتلى آانت مذبحة وأى مذبحة قتل من رجاله ثمانية ومن أعدائه عشرة غير لهيطة ولم يسلم من رجاله الحياء أحد من آسر أو جرح ن وقد أووا إلى الأآواخ فأخذ النساء فى تضميد جراحهم على حين ضجت أآواخ الضحايا بالبكاء والصوات وجاءت بدرية فى لهف ودعتهم إلى إلى الكوخ لتغسل جروحهم، ثم جاءت سكينة حاملة إحسان وهى تبكى بكاء صارخا وآانت الشمس تقذف بنيرالها من آبد السماء، والحداى والغربان تدور مدومة وهابطة فى الفضاء، والجو يفوح برائحة الدم والتراب، ولم تكف إحسان عن البكاء

ولكن لم يعرها أحد التفاتا وحتى حسن العملاق بدا وآأنه يترنح وتمتم صادق بصوت حزين:

ليرحم الله قتلانا

فقال قاسم

ليرحم الله القتلى والأحياء على السواء

وأخذت حسن صحوة ابتهاج طارئة فقال

سننتصر عما قريب فتودع حارتنا عهد الدم والإرهاب

فقال قاسم

-سحقا لعهد الإرهاب والدم.

89

لم تشهد الحارة آارثة آهذه من قبل ، رجع الرجال صامتين ذاهلين ذابلين غاضين البصار آأنما شدت جفونهم إلى أديم الرض ووجدوا أنباء الهزيمة قد سبقتهم إلى الحارة وأن الربوع ترتج باللطم والعويل وانتشر الخبر فى الحارات والأزقة وباتت سمعة الحارة الرهيبة أحدوثة تلوآها ألسنمة التشفى وتبين أن حى الجرابيع بأسره قد غادر الحارة خوفا من الانتقام فخلت الدور والدآآين ولم يشك أحد فى أنهم سينضمون حتما إلى ابن حيهم المنتصر فيزداد بهم عددا وقوة وخيم الحزن على الحارة المكللة بالحداد لكن أنفاسه الحارة قطرت حقدا ومقتا ورغبة فى الانتقام وإذا برجال من جبل يتساءلون عن فتوة الحارة ولمن تكون وإذا بالسؤال نفسه يتردد على ألسنة فى حى رفاعة فانتشر سوء الظن انتشار التراب فى العاصفة،

وعلم الناظر رفعت بما تهجس به الخواطر فدعا حجاج وجلطة إلى مقابلته وذهب الرجلان وحوله آل رجاله الأشداء حتى غص بهم بهو الناظر واحتل آل فريق جناحا من البهو فكأنه لم يعد يأمن الاختلاط بجيرانه وقد أدرك الناظر مغزى تلك فازداد غما على غم وقال:

تعلمون أن آارثة حلت بنا لكننا لم نمت و لم يقض علينا و لم يزل فى وسع سواعدنا أن تحقق لنا النصر على شرط أن-.

نحافظ على وحدتنا وألا فقولوا علينا السلام

فقال رجل من جبل:

ستكون الضربة الأخيرة لنا وما شدة إلا وبعدها الفرج

وقال حجاج

بالجبل لهلكوا عن أخرهم

وقال ثالث

لولا اعتصامهم

لا قاهم لهيطة بعد رحلة طويلة شاقة تبرك بعدها الجمال

فقال الناظر بامتعاض

حدثونى عن وحدتكم ما شانها ؟

فقال جلطة

نحن بضل الله إخوان وسنظل آذلك-! .

هذا قولك لكن مجيئكم بعددآم الوفير هذا ينم على الارتياب الذى يفرق بين قلوبكم

فقال حجاج

بل دعت إلى ذلك رغبة الجميع فى الانتقام!

فوقف الناظر متوتر الأعصاب وقال مقلبا عينيه فى الوجوه الكالحة

-آونوا صريحين إنكم تنظرون إلى بعضكم بعين ، وتنظرون بالأخرى إلى فتوة الحارةن إلى مكان لهيطة الخالىن ولن تعرف الحارة الأمان مادامت هذه الحال، واخشى ما أخشاه أن تتداخل النبابيت فى الأمر فتهلكوا جميع ويأآلكم قاسم لقمة سائغة!

فارتفعت أصوات آثيرة تقول فى نفس واحد:

نعوذ بالله من ذلك

فقال الناظر بصوت قوى واضح

لم يعد بالحارة إلا حيا جبل ورفاعة فليكن عليها فتوتان، ولا ضرورة للفتوة الواحد، ولنتعاهد على ذلك ولنكن يدا واحدة-.
على الخارجين
وانقضت ثوانى صمت رهيبة ثم رددت أصوات فى فتور:
نعم .. نعم
وقال جلطة
سادة الأحياء منذ القدم
فقال حجاج محتجا
سنرضى بذلك رغم أننا
ليكن القبول بلا من ، لا سادة هنا ولا خدم وبخاصة بعد ذهاب الجرابيع ومنذا ينكر أن رفاعة آان أنبل من عرفت حارتنا؟
فهتف جلطة محتدا حانقا
حجاج ! أنا عارف قلبك
وهم رفاعى بالكلام ولكن الناظر صرخ غاضبا
-الجبل آالذئاب،
وخبرونى هل تستطيعون أن تقفوا صفا واحدا أو أرى لنفسى وجهة أخرى؟
خبرونى هل عزمتم على أن تكونوا رجالا أو لا ، أن أى نبأ يطير عن ضعفكم سيعقبه زحف الجرابيع من
فصاح أفراد من هنا ومن هناك:
هس ، عيب يا رجال، حارتنا على وشك أن تفقد آل شئ
وتطلعت إليه الوجوه فى تسليم فقال
مازلتم متفوقين فى العدد والقوة، ولكن لا تهاجموا الجبل مرة أخرى
وارتسم التساؤل على الوجوه فأردف قائلا
سنحبسهم فوق الجبل سنتربص لهم أمام المسلكين المفضيين للجبل، فإما يموتون جوعا وإما يضطرون إلى النزول إليكم-.
فتقضون عليهم
فقال جلطة:
جبنا وأبى إلا أن يهاجم
وقال حجاج
نعم الرأى ، به أشرت على لهيطة رحمه الله ولكنه اعتد الحصار

-هو الرأىن ولكن ينبغى تأجيل تنفيذه حتى يرتاح الرجال، وطلب الناظر إليهم أن يتعاهدوا على الإخاء والتعاون فتصافحوا ورددوا الاقسام وبدا لكل ذى عينين فيما تبع ذلك من أيام أن جلطة وحجاج يشتدان فى معاملة أتباعهما لتغطية أثار الهزيمة التى لحقتهما، وأذاعا فى الحارة أنه لولا حماقة لهيطة لقضى على قاسم بلا مشقة ، ولكن إصراره على صعود الجبل
أهلك رجاله فذهب بقوهم وشجاعتهم، وألقاهم عدوهم وهم على أسوأ حال، وصدق الناس ما قيل لهم ومن أبدى من الارتياب سب ولعن وضرب أما فتونة الحارة فلم يكن يسمح لأحد بالخوض فيها على الأقل فى الجهر، ولكن آثيرين - من الرفاعية والجبلية على السواء - جعلوا يتساءلون فى الغرز عمن سيخلف لهيطة بعد النصر، وتولد فى الحراة رغم التعاهد والأقسام جو خفى من الريبة فاحتاط آل فتوة لنفسه فلم يكن ينأى عن مرآزه إلا وسط جماعة من أعوانه، لكن الاستعداد ليوم الانتقام لم يتوقف لحظة واحدة.

واتفقوا فيما بينهم على أن يعسكر جلطة ورجاله أمام مسلك المقطم عند السوق وأن يعسكر حجاج ورحاله أمام مسلك القلعة وسوف يلازمون أماآهم ولو بقوا عمرا وستسرح النساء للبيع والشراء ويجئنهم بالطعام، وعند مساء اليوم السابق ليوم الخروج تجمعوا فى شتى الغرز وجاءوا بقدور البوظة والنبيذ وراحوا يحششون ويسكرون حتى ساعة متأخرة من الليل وودع الأعوان حجاج أمام ربعه بحى رفاعة وهو فى نهاية من الانبساط والسلطنة ودفع الباب ومضى فى الدهليز وهو يدندن:

الأوله أه..

لكنه لم يتمها ، انقض عليه شبح من وراءه فسد فاه بيده وطعن بسكين قلبه بالأخرى، انتفض الجسم بقوة بين يديه فلم يترآه أن يحدث سقوطة صوتا ، وأنامه برفق على الأرض لا حراك به فى الظلام الدامس.

لأول مرة فى مصر

النص الكامل لرائعة نجيب محفوظ .. أولاد حارتنا

بعد 35 عاما من غيابها عن الشعب المصرى

***

90

استيقظت الحارة فى باآر الصباح على ضجة صارخة مفزعة فتحت النوافذ واطلت الرءوس وسرعانا ما تجهت نحو الربع الذى يقيم فيه حجاج فتوة رفاعة، حيث تجمهر جمع غفير واختلط اللغط بالصراخ والعويل ، وامتلأ دهليز الربع بالرجال والنساء، وآثر التساؤل والتعليق واندرت الأعين المحمرة بالبكاء بكل شر خطيرن وهرع إلى الرفع الرفاعية من آل ربع ودار وجحر وما

لبث أن جاء جلطة ورجاله فاوسع الناس لهم حتى انتهوا إلى الدهليز وصاح جلطة:

مصيبة ولا آل المصائب ليتنى آنت فداك يا حجاج

آف الباآون عن البكاء والصارخون عن الصراخ والحانقون عن التساؤل ، لكنه لم يسمع آلمة مجاملة واحدة فعاد يقول

مكيدة دنيئة ، ليس الغدر من شيم الفتوات لكن قاسم راعى غنم متسول لا فتوة، ولن يهنأ لى بال حتى أمى بجثته إلى-. الكلاب

وصاحت امرأة فى حدة ملتاعة:

مبارآة عليك فتونة الحارة يا جلطة

وتقلصت سحنته بالغضب فوجم القريبون منه وسرت الدمدمة فيما وراء ذلك وصاح بغلظة

فلتغلق النسوان أفواههن فى هذا اليوم الأغبر

فعادت المرأة تقول

ّليفهم آل ذى عقل

وصوتت فهاج الصوات، وانتظر جلطة حتى هدأت العاصفة وقال

مكيدة ماآرة دبرت بليل للايقاع بيننا

فهتفت امراة اخرى

مكيدة ! قاسم وجرابيعه فى الجبل، وحجاج قتل فى حارته بين قومه وجيرانه الطامعين فى الفتونة!

فصاح جلطة

مرة مجنونة، ومجنون آل من يتقبل ظنها، وإذا تماديتم فسيقتل بعضنا بعضا آما يفسد قاسم

وإذا بقلة تهوى فتتحطم عند قدمى جلطة فتراجع ورجاله وهو يقول

-عرف ابن الزانية آيف يفسد بيننا.

ومضى من توه نحو بيت الناظر، واشتد اللغط عقب ذهابه وإذا برجلين - رفاعى وجبلى - يتشابكان فى شجار عنيف وتبعتهما على الأثر امرأتان وتضارب غلمان من الحيين واستعرت معارك قذف وسب من النوافذ ، وشاع الاضطراب فى الحارة حتى تجمهر فى آل حى رجاله وارتفعت النبابيت وخرج الناظر من بيته بين خدم ورجال فسار حتى توسط الحيين وصاح بأعلى صوته:

اعقلوا .. الغضب سيعميكم عن عدوآم الحقيقى ، قاتل المعلم حجاج

فصاح أحد الرفاعية

من أدراك بذلك ؟ وأى جربوع يتجرأ على دخول الحارة؟

فصاح رفعت

آيف يقتلون حجاج اليوم وهم فى أشد الحاجة إليه-. .

سل المجرمين ولا تسلنا نحن-!

الرفاعية لا يخضعون لفتوة من جبل-.

سيدفعون ثمن دمه غاليا

فعاد الناظر يصيح

لا تطيعوا المكيدة وغلا رأيتم قاسم زاحفا عليكم آالوباء-. .

فليأت قاسم إذا شاء ولكن لن يكون جلطة فتوة علينا

فقال الناظر وهو يضرب آفا بكف

فتعالت الأصوات

انتهينا وسيدرآنا الخراب.

-الخراب خير من جلطة.

وقذفت طوبة من حى رفاعة فاستقرت بين الرجال فى حى جبل وأجاب حى جبل بالمثل، ورجع الناظر مسرعا وإذا بالطوب ينهمر من الجانبين وسرعان ما اشتبك الحيان فى معرآة دامية واشتد الضرب فى قسوة بالغة وامتدت المعرآة إلى بعض الأسطح حيث تبادل نساء من الحيين قذف الطوب والحصا والتراب والخشاب وتواصل الاشتباك فترة طويلة رغم أن الرفاعية آانوا يقاتلون بغير فتوهم، ولكن آثر صرعاهم أمام ضربات جلطة التى لا تخيب وإذا بأصوات نساء تنطلق من النوافذ فى ضوضاء غير متميزة ضاعت فى ضوضاء المعرآة غير أن النساء بدون وهو يشرن بأيديهن فى فزع تارة نحو طرف الحارة الشرقة وطورا نحو الطرف الأخر والتفت أناس إلى حيث تشير النساء ، رأوا قاسم أمام البيت الكبير يتقدم فى عصبة من رجال تسبقهم نبابيتهم ورأوا فى الطرف الخر حسن يتقدم فى عصبة أخرى ضج المكان بصيحات التحذير وتتابعت الأحداث فى سرعة خاطفة أمسكت الأيدى عن الضرب آأنما شلت وبدافع عفوى تكتلوا وتداخلوا الضارب منهم والمضروب وانقسموا فرقتين لمواجهة القادمين وصاح جلطة بحنق:

-قلت إنها مكيدة فلم تصدقوا.

استعدوا للقتال وهم من الجهد واليأس على أسوأ حال لكن قاسم توقف فجاة عن التقدم ن ومثله فعل حسن آأنهما-. ينفذان خطة واحدة

وصاح قاسم بأعلى صوته:

لا نريد أذى أحد، لا غالب ولا مغلوب أبناء حارة واحدة وجد واحد والوقف للجميع

فصاح جلطة

مكيدة جديدة

فقال قاسم غاضبا

لا تدفعهم إلى القتال دفاعا عن فتونتك ، دافع عنها وحدك إذا شئت

وصرخ جلطة

-اهجموا.

وانقض على مجموعة قاسم ، تبعه رجال وانقض أخرون على حسن ورجاله تردد آثيرون تسلل الجرحى إلى الربوع وآذلك المنهكون ثم تبعهم المترددون لم يبق إلا جلطة وعصابته لكنهم خاضوا معرآة شديدة رغم ذلك واستماتوا فى الدفاع تضاربوا بالنبابيت والرءوس والقدام والأيدى ورآز جلطة هجومه على قاسم بحقد أعمى تبادلا ضربات عنيفة ثم مضى قاسم يتلقى ضربات عصابة جلطة حتى غابت تحت عشرات النبابيت، وانقض حسن وصادق على جلطة هو مشتبك مع قاسم فضرب صادق نبوته وهوى حسن بنبوته على رأسه مرة وثانية وثالثة فسقط النبوت من يده واندفع يجرى آالثور الذبيح ثم انكب على وجهه آمصراع بوابة انتهت المعرآة سكتت لأصوات النبابيت وصرخات الرجال وقف المنتصرون وهم يلهثون ويمسحون الدما ءعن والوجوه والرءوس والمعاصم لكن ثعورهم افترت رغم ذلك عن ابتسامة الفوز والسلامة ، آان العويل يترامى من النوافذ ورجال جلطة مبعثرون على الأرض والشمس ساطعة ترسل أشعة حامية وخاطب صادق قاسم قائلا فى ثقة وطمأنينة:

انتصرت ، نصرك الله ، إن جدنا لا يخطئ فى اختياره ولن تسمع حارتنا العويل بعد اليوم-. .

فابتسم قاسم ابتسامة هادئة ثم استدار فى عزم موجها بصره نحو بيت الناظر فاتجهت الرءوس إليه

91

سار قاسم على رأس رجاله إلى بيت الناظر فوجوا الباب والنوافذ مغلقة والصمت والكآبة يخيمان عليه وطرق حسن الباب بقوة ولكن أحدا لم يرد وتجمع نفر من الرجال وراحوا يدفعون الباب بشدة حتى انفتح على مصراعيه ودخل الرجل ورجاله وراءه فلم يعثروا للبواب على أثر ولا أحد من الخدم وتسارعوا إلى البهو ببقية الحجرات ثم الأدوار الثلاثة فتبين لهم أن الناظر وأهله وخدمه قد غادروا البيت هاربين والحق أن قاسم لم يأسف على ذلك إذ آان فى أعماقه راغبا عن الفتك بالناظر إآراما لزوجته التى لولاها لقضى عليه من أول الأمر، ولكن حسن والأخرين غضبوا غضبا شديدا فنجاة الرجل الذى أذاق

الحارة الفقر والهوان طوال عهده بها وهكذا تم النصر لقاسم وأصبح رجل الحارة دون منازعن وتولى شئون النظارة إذا أنه آان لابد للوقف من ناظر، ÷ وعاد الجرابيع إلى حيهم وعاد معهم آل مامن هاجر من الحارة خوفا من الفتوات وعلى رأسهم المعلم يحيى ومضت أربعون يوما فى هدوء فالتأمت الجراح وسكنت النفوس واطمأنت القلوب ويوما وقف قاسم أمام البيت الكبير ودعا إليه أهل الحارة رجالا ونساء من جميع الحياء فمضوا إليه فى لهفة وتطلع وقلوبهم تخفق بشتى الخواطر واآتظ بهم المكان واختلط جرابيعهم بآل جبل وآل رفاعة وبدا قاسم باسما متواضعا رقيا مهيبا معا فأشار إلى أعلى إلى البيت الكبير وقال:

هنا يقيم الجبلاوى، جدنا جميعا لا تمييز فى الانتساب إليه بين حى وحى أو فرد وفرد أو رجل وامرأة-. .

تهللت الوجوه فى دهشة وبشر وبخاصة وجوه الذين توقعوا أن يسمعوا مقاله رجل ملك وانتصر

وأردف قاسم قائلا:

وحولكم وقفه، وسيكون لكم جميعا على السواء آما وعد أدهم حين قال له : سيكون الوقف لذريتك، وعلينا أن نحسن-.

استغلاله حتى يكفى الجميع ويفيض، فنحيا آما تمنى أدهم أن يحيا فى رزق موفور وطمأنينة شاملة وسعادة صافية غناء

وتبادل الناس النظرات آأنهم فى حلم فواصل آلامه قائلا:

يوجد فى حارتنا بعد اليوم فتوة ، لن تؤدوا إتاوة لجبار، أو تخضعوا لعربيد-.

متوحش فتمض حياتكم فى سلام ورحمة ومحبة

ذهب الناظر إلى غير رجعة واختفى الفتوات ، لن

وقلب عينيه فى الوجوه المستبشرة وقال:

وبيدآم أنتم ألا يعود الحال آما آان، رابوا ناظرآم فإذا خان اعزلوه وإذا نزع أحدآم إلى القوة اضربوه وإذا ادعى فرد أو حى-.

سيادة أدبوه، بهذا وحده تضمنون ألا ينقلب الحال إلى ما آان وربنا معكم

فى ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم وأخرون عن هزيمتهم ونظر الجميع إلى الغد آانما ينظرون إلى بزوغ البدر فى ليلة من اليالى الربيع.

ووزع قاسم الريع على الجيمع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتجديد والانشاء، أجل آان نصيب الفرد ضئيلا ولكن إحساسه بالعدل والكرامة فاق آل حد ومضى عهده فى تجديد وبناء وسلام، ولم تنعم حارتنا قبله بمثل ما نعمت به فى أيامه من الوحدة واللفة والسعادة أجل آان ثمة أحاد فى آل جبل يضمرون غير ما يظهرون ويتهامسون فيما بينهم:

-أنكون من جبل ويحكمنا جربوع من الجرابيع؟ ومثلهم وجد فى آل رفاعة، بل لم يخل الجرابيع من نفر أخذتهم العزة والزهو، ولكن صوتا لم يرتفع لتعكير الصفو فى عهده ، ورأى الجرابيع فيه طرازا من الرجال لم يوجد مثله من قبل ولن يوجد مثله من بعد، جمع بين القوة والرقة والحكمة والبساطة والمهابة والمحبة والسيادة والتواضع والنظارة والأمانة، وإلى ذلك آله آان

ظريفا بشوشا أنيقا وعشيرا تطيي مودته فضلا عن ذوقه الجميل وحبه الغناء والنكتة لم يتغير من شأنه شئ اللهم إلا أنه توسع فى حياته الزوجية آأنما جرى فيها مجراه فى تجيد الوقف وتنميته فعلى حبه بدرية تزوجة حسناء من آل جبل وأحرى من آل رفاعة ، وتعشق امرأ ' من الجرابيع ثم تزوج منها أيضا وقال أناس فى ذلك إنه يبحث عن شئ افتقده مذ فقد زوجته الأولى قمر، وقال عمه زآريا إنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا، لكن حارتنا لم تكن بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث، بل الحق أنها إذا آانت أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته مرات وأن حب النسوان فى حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون ومترلة تعدل فى درجتها الفتونة فى زمانها أو تزيد.

ومهما يكن من أمر فإن حارتنا لم تشعر قبله بالسيادة حقا، وبان أمرها قد أل إلى نفسها دون ناظر يستغل أو فتوة يستذل ، ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه من الخاء والمودة والسلام.

وقال آثيرون إنه إذا آانت أفة حارتنا النسيان فقد أن لها أن تبرا من هذه الآفة وأنها ستبرأ منها إلى الأبد.

هكذا قالوا..

هكذا قالوا يا حارتنا!

عرفة

92

المتأمل لحال حارتنا لايصدق ما تقول الرباب فى القهوات من جبل ومن رفاعة ومن قاسم ، وأين الأثار التى تدل عليهم خارج نطاق القهوات؟ أما العين فلا ترى إلا حارة غارقة فى الظلمات وربابا تتغنى بالأحلام، وآيف أل بنا الأمر إلى هذه الحال؟ أين قاسم والحارة الواحدة والوقف المبذول لخير الجميع؟ وماذا جاء بهذا الناظر الجشع وهؤلاء الفتوات المجانين؟ ستسمع حول الجوزة الدائرة فى الغرز بين الحسرات والضحكات أن صادق خلق قاسم على النظارة فسار سيرته، وان قوما رأوا أن حسن احق منه بالنظارة لقرابته من قاسم ولأنه الرجل الذى قتل الفتوات، وأهم حرضوا حسن على رفع نبوته الذى لا يقاوم فأبى أن يعود بالحارة إلى عهد الفتونة لكن الحارة آانت قد انقسمت على نفسها ومضى أناس فى آل جبل وآل رفاعة يجاهرون بما آانو يضمرون ولما رحل صادق عن الدنيا أسفرت الرغبات المكبوته عن وجهها الشائه ونظراتها العدوانية واستيقظت النبابيت بعد رقاد وسال الدم فى آل حى على حدة وبين آل حى وأخر حتى قتل الناظر نفسه فى إحدى المعارك، وأفلت الزمام ووئد الأمن والسلام فلم يجد الناس بدا من إعادة أخر ذرية الناظر رفعت إلى النظارة التى يتقاتل الطامعون عليها هكذا عادا الناظر قدرى إلى النظارة وانقلبت الأحياء إلى عصبتها القجيمة وغدا آل حى يسيطر عليه فتوة ثم دارت المعارك على فتونة الحارة حتى فاز بها سعد الله فاحتل بيت الفتوة وصار الناظر الأول واستاثر يوسف بآل جبل وعجاج بآل رفاعة والسنطورى بحى قاسم ووزع الناظر الريع بالأمانة أول الأمر فاستمرت حرآة التعمير والتجديد وسرعان ما لعب الطمع بقلب الناظر والفتوات من بعده آما آان المتوقع فارتدوا إلى النظام القديم أى أن الناظر يستأثر بنصف الريع ويوزع نصفه الأخر على الفتوات الأربعة الذين استاثروا به من دون المستحقينن و لم يقفوا عند ذلك بل جازوه بكل وقاحة إلى فرض الإتاوات على ابتاعهم المساآن وتعطلت حرآة الإنشاء حتى توقف البناء فى بيوت لم يشيد منها إلا نصفها أو ربعها.

وبدا وآان شيئا من القديم لم يتغير إلا أن حى الجرابيع أصبح حى آل قاسم يراسه فتوة آالفتوات الأخرين وتقوم على جانبيه الربوت مكان الأآواخ والخرائب أما أهل الحارة فانقلبوا إلى ما آانوا عليه فى الزمان الأسود بلا آرامة ولا سيادة تتهكهم الفاقة وتتهددهم النبابيت وتنهال عليهم الصفعات وانتشرت القذارة والذباب والقمل وآثر المتسولون والمشعوذون وذوو العاهات و لم يعد جبل ورفاعة وقاسم إلا أسماء، وأغانى ينشدها شعراء المقاهى المسطولون وتباهى آل فريق برجله الذى لم يبق منه شئ وتنافسوا فى ذلك إلى حد الشجار والعراك وذاعت شعارات المساطيل، فيقول أحدهم وهو

داخل إلى الغرزة : ما فيها فائدة يعنى الدنيا لا الغرزة ويقول أخر : هناك نهاية واحدة هى الموت فلنمت بيد الله خير من أن نموت بنبوت فتوة، وأحسن ما نفعل سكرة أو تحشيشة وآانوا يتغنون بمواويل حزينة ينسجونها من خيوط الخيبة والفقر والذل أو يترنمون باغنيات فاحشة داعرة يقذفونها فى أذان النساء والرجال الباحثين عن السلوى والعزاء ولو فى خرابة مظلمة وعندما يشتد الكرب بأحدهم يقول له : المكتوب مكتوب، لا جبل أجدى ولا رفاعة ولا قاسم، حظنا من الدنيا الذباب

ومن الآخرة التراب، ومن عجب أن تبقى حارتنا بعد ذلك آله الأثير بين الحوارى يشير إليها الرجل من جيراننا ويقول فى إآبار حارة الجبلاوى، ونقبع فى أرآانها ساهمين واجمين آاننا بتنا قانعين بالذآريات العزيزة الماضية وأننا نجتر الأصغاء إلى هاتف فى اعماقنا يهمس بصوت خافت ليس من المستحيل أن يقع فى الغد ما وقع بالأمس فتتحقق مرة أخرى أحلام الرباب وتختفى من دنيانا الظلمات.

93

فى يوم من الأيام قبيل العصر رأت الحارة فتى غريبا قادما من ناحية الخلاء يتبه أخر آالقزم ، آان يرتدى جلبابا ترابى اللون على اللحم ويشد على وسطه حزاما شطر جلبابه شطرين انداح اعلاهما وتدلى وامتلأ بأشياء فيه، وانتعل مرآوبا باهتا متهتكا اما رأسه بدا عاريا مشعث الشعر غزيره وآان اسمر اللون، مستدير العينين حاد البصر تلوح فى محجرية نظرة قلقة نافذة وفى حرآاته ثقة واعتداد، وقف قليلا أمام البيت الكبيرن ثم تقدم على مهل يتبعه صاحبه وتطلعت نحوه الأبصار وآأنما تساءل : غريب فى حارتنا، يا للوقاحة، قرأ ذلك فى أعين الباعة وأصحاب الدآاآين والجالسين فى القهوات والمطلات من النوافذ، بل فى أعين الكلاب والقطط حتى خيل إليه أن الذباب نفسه سيتجنبه أزدراء واحتجاجا والتفت نحوه الغلمان فى تحرش واقترب بعضهم منه وأخذ الأخرون يملأون النبال أو يبحثون فى الأرض عن طوبة، فابتسم لهم متوددا ودس يده فى عبه فأخرج شوية نعناع وراح يوزعه عليهم فأقبلوا نحوه فرحينن ومضوا يمصون النعناع وهم يرمقونه بإعجاب وقال لهم والابتسامة لا تفارق وجهه:

أما من بدروم خال للإيجار؟ هيا يا رجال من يدلنى منكم عليه فله قرطاس نعناع

وسالته امرأة آانت مقتعدة الأرض امام أحد الربوع

فى حارتنا ؟

فضحك الرحل وقال

يا ألف مصيبة عليك ، من أنت حتى تسكن

محسوبك عرفة ، من أولاد حارتكم آالآخرين وهو عائد بعد غيبة طويلة
فدققت المرأة فيه النظر وتساءلت
ابن من يا روح أمك ؟
فبالغ فى الضحك توددا وقال
-خالدة الذآرة جحشة ، ألا تعرفينها يا ست النساء؟
جحشة ؟ بنين زين ؟-.
بعينها ولحمها-.
وقالت المرأة مستندة إلى جدار ، آانت تتابع الحديث وهى تفلى رأس غلام
آنت تتبع أمك فى تلك الأيام وانت غلام، مازلت أذآرك، وتغير آل شئ فيك إلا عينيك
فقالت المرأة الأولى
سائلة عن الغيب أوشوش الدآر وترمى هى بالودع-.
وتتكلم ، الله يرحمك يا جحشة
أى والله وأين أمك ؟ ماتت الله يرحمها ، ياما قعدت قدام مقطفها
فقال بارتياح:
الله يطول عمرك ستدلينى أنت على بدروم خال بإذن الله
فحدجته المرأة بنظر أعمش وسألته
وماذا عاد بك بعد الغيبة الطويلة ؟
فقال محاآيا لهجة الحكماء
مسير الحى إلى حارته واهله
فأشارت المرأة إلى ربع فى حى رفاعة وقالت
عندك هناك بدروم خلا مذ ماتت ساآنته حرقا الله يرحمها، الا يخيفك ذلك؟
فضحكت امرأة مطلة من نافذة وقالت
هذا رجل تخاف منه العفاريت
فرفع رأسه متظاهرا بالضحك والانبساط وقال
نصحتنى امى عند الوفاة بالعودة إليك
ثم نظر إلى المرأة القاعدة وقال

يا حارتنا يا حلوة ما ارق ظرف أهلك الآن أعرف لماذا

الموت حق علينا يا زبونة المرحومة أمى، سواء جاء من حرق أو غرق أو عفريت أو نبوت

وحياها ومضى نحو الربع الذى أشارت إليه وأصبح محط أنظار آثيرين فقال رجل ساخرا

أباه؟

فقالت عجوز

عرفنا أمه فمنذا يعرف

ربنا أمر بالستر!

فقال ثالث

يمكنه أن يدعى أنه ابن رجل من جبل أو رفاعة أو قاسم آما يشاء أو تشاء مصلحته ، الله يرحم أمه

فهمس صاحبه فى أذنه ساخطا

لماذا عدت بنا إلى هذه الحارة ؟

فقال عرفة والابتسامة مازالت فى شفتيه

-فى آل مكان أسمع هذا الكلام وهذه حارتنا على أى حال وهى الحارة الوحيدة التى يمكننا الإقامة بها حسبنا تخبطا فى الأسواق ونوما فى الخلاء والخرابات ثم إن هؤلاء الناس طيبون رغم قذارة ألسنتهم، أغبياء رغم نبابيتهم، فهنا يسهل علينا آسب رزقنا ، تذآر هذا يا حنش!

فهز حنش منكبيه الضيقين آأنما يقول : الأمر لله، واعترضهما رجل مسطول فسال عرفه:

ماذا نسميك ؟

عرفة

ولقبك ؟-!

عرفة أبن جحشة

فضج الواقفون بالضحك مسرورين بهوانه فعاد المسطول يقول

طالما ساءلنا أنفسنا فى ذلك الزمان حينما حملت أمك ترى من يكون أبوه؟ فهل خبرتك بالحقيقة؟

فقال عرفة مداريا ألمه بمزيد من الضحك

ماتت هى نفسها قبل أن تعرفه

ومضى وهم يضحكون وسرى نبأ عودته فى الأحياء وقبل أن يتسلم البدروم جاء صبى قهوة الرفاعية وقال له

-المعلم عجاج فتوة حينا يطلبك.

ذهب إلى القهوة على مبعدة قريبة مالربع لفت نظره اول ما اقترب منها الصورة المنقوشة على الجدار الوسط فوق أريكة الشاعر آانت تبدأ من أسفل لصورة لعجاج ممتطيا جواده وفوقها صورة الناظر قدرى بشاربه الفخيم وعباءته الأنيقة ثم فوقهما صورة لجثة رفاعة بين يدى الجبلاوى وهو يرفعها من الحفرة لياخذها إلى بتيه.

تأمل ذلك المنظر باهتمام ولكن بسرعة ثم دخل القهوة فرأى عجاج يجلس على أريكة تتوسط الجناح الأيمن ومن حوله يجلس الاتباع والعوان.

مضى عرفة إليه حتى مثل بين يديه فرمقه الفتوة بنظرة ازدراء طويلة آانما يلومه بعينيه قبل أن ينقض عليه وقال عرفة رافعا يديه إلى رأسه.

التحيات المبارآات على فتوتنا ، من نحتمى بحماه ونسعد بجواره فلاحت السخرية فى العينين الضيقتين وقال-. :

لا نعترف بها وحدها

فقال عرفة باسما

آلام حلو يا ابن القديمة ولكنه عمله

ستجئ العملة الخرى فى اقرب وقت عن شاء المولى-. .

عندنا متسولون أآثر من الحاجة-.

فقال عرفة بكبريا ضاحك

لست متسولا يا معلم ولكنى ساحر اعترفت بفضله الملايين

وتبادل الجلاس النظرات فقطب عجاج متسائلا

-ماذا تعنى يا ابن المجنونة؟

فدس عرفة يده فى عبة وأخرج حقا صغيرا دقيقا فى حجم النبقة وتقدم فى خضوع من المعلم ومد به يده فتناوله المعلم بعدم اآتراث وفتحه فرأة مادة قاتمة رفع إليه عينيه متسائلا فقال عرفة فى ثقة لا حد لها:

بساعتين وبعدها فإما ترضى عن محسوبك عرفة وإما تطرده من الحارة-.

مشفوعا باللعنات

قمحة منه على فنجال شاى قبل لامؤاخذة

اشرابت الأعناق باهتمام شديد لأول مرة وحتى عجاج لم يستطع ان يخفى اهتماه لكنه تساءل فى استهانة مصطنعة:

اهذا هو سحرك ؟-.

عندى ايضا البخور النادر، والوصفات العجيبة الطب والدواء والأحجبة ويعرف قدرى حقا عند المرض والعقم والضعف

فقال عجاج فيما يشبه الوعيد

الله .. الله .. فلنبشر بالأتاوات!

فانقبض قلب عرفة لكن وجهه زاد انبساطا وهو يقول

آل ما أملك تحت امرك يا معلم

فضحك الفتوة بغتة وقال

لكنك لم تخبرنا من ابوك ؟

فقال دون أن يزايله المرح

-لعلك به اعلم.

وضجت القهوة بالضحك وتلاقت التعليقات الساخرة فى شراريب الدخان السابحة فى الجو ولما ابتعد عرفة عن القهوة قال لنفسه حانقا:

من يدرى من يكون ابوه حقا ولا أنت ياعجاج أه يا أولاد الكلب

وتفقد هو وحنش البدروم فى ارتياح ومضى يقول

مناسب جدا يا حنش فهذه الحجرة صالحة للمقابلات والتى بالداخل للنوم والأخيرة للعمل

فسأله حنش بقلق

أوسع مما آنت أتوقع

ترى فى أى حجرة احترقت المرأة؟

فضحك عرفة ضحكة عالية رنت بين الجدران الخالية وقال

اتخاف من العفاريت يا حنش إننا نتعامل معهم آما آان يتعامل جبل مع الثعابين

ونظر فيما حوله بارتياح وقال

الطريق من تحت من خلال النافذة ذات القضبان

الحديدية فلهذه المقبرة ميزة جليلة وهى أنها لا يمكن أن تسرق

ليس عندنا إلا نافذة واحدة فى الحجرة المطلة على الطريق سنرى

قد تنهب-! .

قد

ثم وهو يتنهد

آل ما عندى فيه فوائد للناس، لكنى لم ألق فى حياتى إلا الإساءة

قال حنش

-امك من قبل.

94

سيعوضك النجاح عن آل ما نالك من أذى أو ما نال المرحومة
فى أوقات الفراغ آان يحلو له أن يجلس على آنبة قديمة ليتفرج على ما يجرى من النافذة المطلة على أرض الحارة جلس مسند الجبين إلى قضبان النافذة فبدت الأرض على مستوى بصره لكل ما يدب عليها من أقدام وعجلات وآلاب وقطط وحشرات وأطفال، اما الوجوه والصدور فلم يكن ليراها إلا بتخفيض قامته ورفع رأسه ووقف أمامه طفل عار وهو يلعب بفار ميت ثم مر عجوز ضرير يحمل على يسراه صينيه خشبيه حملت لبا وفولا وحلوى وذبابا ويتوآا بيمناه على عصا غليظة، وآان صوت عويل يترامى من شباك بدرونم ومعرآة تدور بين رجلين حتى تدفق الدم من وجهيهما وابتسم الطفل العارى وسأله برقة:
ما أسمك يا شاطر ؟
فاجاب
-أونة.
قصدك حسونة، هل يعجبك هذا الفأر الميت يا حسونة؟
فرماه به ولولا ان حجزه قضيب لأصاب وجهه وجرى الصغير آقارب يتاميل والتفت نحو حنش وآان يهوم عند قدميه وقال دليلا واحد على وجود أناس مثل جبل أو رفاعة-.
أو قاسم
فى آل شبر من هذه الحارة تجد دليلا على وجود الفتوات ولكنك لن تجد
لكنهم وجدوا ، أليس آذلك ؟
فاشار حنش إلى أرض الحجرة باصبعه وقال
ربعنا رفاعى آل سكانه رفاعية أى رجال رفاعة الذى تؤآد الرباب آل مساء إنه عاش ومات فى سبيل الحب والسعادة،-.
ومع ذلك فنحن نغير ريقنا آل صباح على سبابهم ومشاجراتهم هكذا هم نساء ورجالا
فلوى عرفة شفتيه امتعاضا وقال:
لكنهم وجدوا ، اليس آذلك ؟
فواصل حنش آلامه قائلا

السباب أهون ما يقع فى حى رفاعة، اما المعارك فاجارك الله منها أمس فقط فقد ساآن عينه
وقف عرفة محتدا وقال
حارة عجيبة، الله يرحمك يا أمى ، انظر غلينا مثلا الكل ينتفع بنا ولا احد يحترمنا-. .
-إنهم لا يحترمون احد
فأصر على أسنانه وقال
إلا الفتوات!
فقال حنش ضاحكا
حسبك إنك الوحيد فى هذه الحارة الذى يتعامل مع الجميع من جبلية ورفاعية وقاسمية-. .
عليهم اللعنة جميعا
وصمت مليا وعيناه تلمعان فى ضوء البدروم الخافت ثم قال
آل واحد منهم يفاخر برجله بغباء وعمى يفاخرون برجال لم يبق منهم إلا أسماؤهم ولا يحاولون قط أن يجاوزوا الفخر-. الكاذب بخطوة واحدة أولاد آلب جبناء
وآان أول من قصده من زبائن امرأة من رفاعة، فى الأسبوع الول من استقراره فى مسكنه وغذا بها تسأله بصوت خفيض:
آيف يمكن التخلص من امرأة دون أن يدرى أحد ؟
فارتاع الرجل ونظر إليها باستغراب ثم قال
لست لذلك ياستى ، إذا أردت أدوية للجسد أو للروح فأنا خادمك
فتساءلت بانكار
ألست ساحرا؟
فقال بوضوح
فى آل ما فيه فائدة للناس، أما القتل فله أناس آخرون-. .
لعلك خائف؟ لكننا سنكون شريكين سرهما واحد
فقال برقة تطوى سخرية
لم يكن رفاعة آذلك!
فهتفت
-رفاعة عليه الرحمة نحن فى حارة لا تجدى فيها الرحمة ولو آانت تجدى ما هلك رفاعة نفسه.
وترآته يائسة لكنه لم يندم، إن رفاعة نفسه - أول الطيبين - لم يظفر بالسلامة فى هذه الحارة فكيف يأمل فيها من يبدأ

عمله بالجريمة؟ وأمه ! آم لاقت من آلام دون أن تتعرض لأحد بأذى فليكن على خير صلة بالناس جميعا آما يجدر لكل تاجر لبق ومضى يتردد على جميع المقاهى فيجد فى آل قهوة زبونا يعرفه واستمع إلى قصص الرباب فى جميع الحياء حتى اختلطت فى رأسه وآان يدور بها ذلك الراس وآان أول زبون جاءه من حى قاسم رجلا طاعنا فى السن فقال له همسا وهو يبتسم:

سمعنا عن الهدية التى اتحفت بها عجاج فتوة رفاعة

فتفرس فى وجهه المجعد باسما فقال الرجل

اتحفنا بما عندك ولا تدهش فى وحياتك رمق

وتبادلا ابتسامة آالسر فقال العجوز متشجعا

أنت قاسمى اليس آذلك ؟ هكذا يعتبرك أهل حينا

فسأله عرفة ساخرا

هل يعرفون أبى عندآم؟

فقال الرجل بجد واهتمام

القاسمى يعرف بسيماه لذلك فأنت قاسمى نحن الذين رفعنا الحارة إلى قمة العدالة والسعادة ولكنها واأسفاه حارة- مشئومة

ثم تذآر الرجل الغرض الذى جاء من اجله فقال برقة:

-الهدية من فضلك!

وذهب الرجل وهو يقرب الحق من عينه العمشاء وقد دبت فى مشيته المتهالكة صحوة نشاط وامل وآان اخر من زاره شخص غير متوقع.

آان يجلس فى حجرة الاستقبال على شلته أمامها بخور تنفث دخانا رقيقا ساحرا حين دخل عليه حنش بين يدى نوبى عجوز وهو يقول:

عم يونس بواب حضرة الناظر

فانتفض عرفة واقفا ومد له يديه مرحبا وهو يقول

أهلا .. أهلا ، زارنا النبى .. تفضل يا مولانا

جلسنا متجاورين وقال البواب بصراحة معهودة

الهانم، نظيرة هانم حرم الناظر تحلم أحلاما سيئة حتى قل نومها

بدا الاهتمام فى عينى عرفة ودق قلبه دقة الأمل والطموح لكنه قال ببساطة

حالة عارضة تمر بسلام-. .

لكن الهانم مترعجة وقد أرسلتنى إليك لتجد لها شيئا مناسبا

شعر رفاعة بساعدة وسيادة لم يعرفها طوال حياة التشرد التى الفها فى ظل امه الراحلة وقال

الأفضل أن احادثها بنفسى!

فقال البواب بحدة

محال ! لن تجئ غليك ولن تدخل إليها

وغالب عرفة اليأس مستميتا فى الدفاع عن فرصته الذهبية فقال

-يلزمنى منديلها أو شئ من طرفها.

واحنى البواب رأسه المعمم وقام ليذهب، وعندما بلغا باب البدروم تلكا البواب قليلا ثم مال على أذن عرفة قائلا فى همس :

سمعنا عن هديتك لعجاج فتوة رفاعة ؟

ولما ذهب البواب بالهدية ضحك عرفة وحنش طويلا وتساءل الأخير

لمن أخذ الهدية يا ترى . لنفسه أم للناظر أم للهانم ؟

وهتف عرفة ساخرا

-يا حارة الهدايا والنبابيت.

ومضى إلى النافذة ينظر إلى الحارة فى الليل بدا الجدار المواجه لعينيه مفضضا بضوء القمر وتعالت زفرات الصراصير وارتفع صوت الشاعر من قهوة الحى وهو يقول:

-وتساءل أدهم.

متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة؟

فقال إدريس

لترحمنا السماء ألست اخى؟ هذه رابطة ليس فى الإمكان فصمها.

إدريس ! آفاك ما فعلت بى

الحزن قبيح ولكن آلان مصاب، أنت فقدت همام وقدرى وأنا فقد هند، أصبح للجبلاوى العظيم حفيدة عاهرة وحفيد قاتل فعلا صوت أدهم وهو يهدر

-إذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء.

وتحول عرفة عن النافذة فى سأم متى تكف حارتنا عن حكى الحكايات؟ ومتى يكون على الدنيا العفا؟ وامى رددت يوما هذا

القول : إذا لم يكن الجزاء من جنس العمل فعلى الدنيا العفاء، أمى المسكينة ساآنة الخلاء لكن ماذا أفدت من الحكايات ياحارتنا.

95

آان عرفة وحنش يعملان بهمة فى حجرة البدرون الخلفية على ضوء مصباح غازى مثبت فى الجدار لم تكن الحجرة تصلح للحياة العادية لرطوبتها وظلامها ولموقعها أخر البدروم فجعل عرفة منها مقرا لعمله وبدت على ارضها وفى أرآانها مجموعات من أوراق الأحجبة والأتربة والجير ونباتت وتوابل وحيوانات وحشرات مجففة آالفئران والضفادع والعقارب، وأآوام من قطع الزجاج وقوارير ومياه فى صفائح وسوائل غريبة ذات رائحة نفاذة وفحم وآانون وقد رآبت على الجدران رفوف حملت بانواع شتى من الأوعية والأنية والأآياس، وآان عرفة منهمكا فى خلط بع المواد وعجنها فى وعاء من الفخار آبير، وآان العرق يتصبب من جبينه فيجففه بكم جلبابه من حين آخر، هذا وحنش رابض عن عثب يراقبه باهتما واستعداد لتلبية أية إشارة تصدر منه وآأنما أراد أن يعزيه أو يتودد إليه فقال:

هذا التعب لا يبذل جزاء منه اآبر عامل فى هذه الحارة المنكودة وفى سبيل أى جزاء يبذل ؟ ملاليم أو قرش على خير الفروض.

فقال عرفة بارتياح:

رحم الله أمى لا يعرف فضلها سوى ويوم سلمتنى لذلك الساحر العجيب الذى يقرأ لك جميع ما يجول فى خاطرك تغيرت-. حياتى تغيرا آليا فلولاها لكنت على خير ظن نشالا أو متساولا

فأصر حنش على أسفه قائلا:

-ملاليم.

ولا تنس المترلة السامية التى اتمتع

7

Page-النقود تكثر بالصبر لا تياس من ذلك ليست الفتونة هى السبيل الوحيد إلى الثروة

بها فإن من يقصدنى إنما يعتمد آل الاعتماد على ويضع سعادته أمانة بين يدى وليس هذا بالشئ القليل، ولا تنس أيضا لذة السحر نفسه لذة استخراج مادة مفيدة من مواد قذرة لذة الشفاء حين ياتمر بامرك وهنالك القوة المجهولة التى تشوف للاتصال بها وامتلاآها ان استطعت ونظر حنش إلى الكانون وقال منقطعا فجأة عن تيار صاحبه الوفق أن اوقد الكانون فى دهليز المنور وإلا اختنقنا.

-أوقده فى جهنم ولكن لا تخرجنى عن أفكارى إن ألى مغفل ممن يحسبون انفسهم معلمين فى هذه الحارة لا يستطيع أن يدرك خطورة الأشياء التى تصنع فى هذه الحجرة المعتمة القذرة ذات الروائح الغريبة ادرآوا فائدة الهدية ولكن ليست الهدية آل شيء إن أعاجيب لا يحيط بها الخيال يمكن ان تخرج من هذه الحجرة المجانين لا يدرآون قيمة عرفة الحقيقة لعلهم يعرفونها يوما ما وعند ذاك يجب أن يترحموا على أمى لا ان يعرضوا بها آما يفعلون.

وآان حنش قد قام نصف قومة فعاد يجلس القرفصاء وهو يقول بامتعاض:

آل هذا الجمال قد تطيح به عصاه فتوة أحمق؟

فقال عرفة بحدة

نحن لا نؤذى أحدا وندفع الاتاوة فكيف نتعرض للاذى يا ابن جلجل؟

فضحك حنش قائلا

وما آان ذنب رفاعة ؟

فحدجه بنظرة غاضبة وقال

لماذا تقرفنى بهذه الأفكار ؟

أنت تأمل أن تثرى وهنا لا يثرى إلا الفتوات وتامل أن تصبر قويا وهنا لايسمح بالقوة إلا للفتوات، فأعمل حسابك يا أخ

وصمت عرفة حتى يتأآد من حسن تقديره فى الخلط بين المواد، ثم نظر إلى حنش فرأى سحنته مازالت محتفظة بصورة التحذير فضحك قائلا:

ابن جلجل ، لكن عدت إلى الحارة وفى رأسى خطة-. .

يبدو أنه لم يعد يهمك إلا السحر

فقال عرفة فى جدل آالنشوة

حذرتنى أمى من قبلك، شكرًا يا حنش يا

-السحر شئ عجيب حقا، لا حد لقوته، ولا يدرى أحد أين يقف، وقد تبدو النبابيت نفسها لمن يملكه لعب أطفال يا حنش ولا تكن غبيا، تصور لو آان اجميع أولاد حارتنا سحرة ؟

لو آانوا جميعهم سحرة لماتوا جوعا!

فضحك عرفة ضحكة آشفت عن أسنان حادة وقال

لا تكن غبيا يا حنش وأسأل نفسك ماذا آان يمكن أن يصنعوا، والله آانت العاجيب تخرج من حارتنا فى غزارة السباب-. والشتائم

نع ، على شرك ألا يموتوا جوعا قبل ذلك-. !

نعم ، ولن يموتوا ماداموا فى غير
لكنه سكت قبل أن يتم قوله ومضى يفكر فى اهتمام حتى آفت يداه عن العمل، ثم رجع يقول
شاعر آل قاسم يقول أن قاسم أراد استغلال الوقف حتى يجد آل حاجته فيستغنى عن العمل ويفرغ للسعادة والغناء-.
التى حلم بها أدهم
ذلك قول قاسم:
فقال وعيناه تلمعان بشدة
لكن الغناء ليس هو الهدف الأخير ! تصور أن يمضى العمر فى فراغ وغناء ؟ وهو حلم جميل لكنه مضحك يا حنش، الأجمل-.
حقا أن تستغنى عن العمل لنصنع الأعاجيب
هز حنش راسه الكبير - الذى يبدو منغرسا فى جسده دون رقبه تذآر - محتجا على حديث لا معنى له، ثم استرد لهجة العمل الجدية وهو يقول:
دعنى الآن أوقد الكانون تحت المنور.
أفعل ، وضع نفسك فوق اللهيب فما تستحق إلا الحرق
وغادر عرفة غرفة العمل بعد ساعة فمضى إلى الكنبة وجلس ينظر من النافذة إلى الخارج اقتحمت أذنيه ضجة الحياة بعد صمت فلتلاقت فيهما نداءات الباعة وأحاديث النساء المتبادلة ونكات صارخة ومختارات من الشتائم تصاحب تيار الرائحين والغادين الذى لا ينقطعن وإذا به يلاحظ أن شيئا جديدا اتخذ مكانه عند الجدار المواجه لنافذته قهوة متنقلة مكونة من قبص مغطى بملاءة قديمة صفت عليه علب البن والشاى والقرفة وموقد وآنجات وفناجيل وأآواب ومعالق، وقد جلس عجوز على الأرض يروح على الموقف ليسخن ماء، على حين وقفت وراء القفص فتاة فى ربيع العمر وهى تنادى بصوت دافئ، قهوة مزاج يا جدع، آانت القهوة تقع عند ملتقى القاسمية بالرفاعية وبدا أن أآثر زيبائنها من أصحاب عربات اليد والمساآين وجعل عرفة يطيل النظر إلى الفتاة من بين القضبان ، هذا الوجه الأسمر المتلفع بخمار أسود ما ألطفه، وهذا الجلباب البنى الغامق الذى يغطيها من العنق حتى القدمين ويتجرجر منه طرف على الأرض إذا مشت بطلب أو عادت بقدح فارغ، هذا الجلباب حشمة وادب وهذه القامة الرشيقة والعينان العسيليتان ما أجملهما لولا أحمرار أشفار يسراهما لرمد أو قذارة هى ابنة العجوز آما يشهد الوجهان ويبدو أنه أنجبها فى سن متأخرة آما يقع آثيرا فى حارتنا ودون تردد صاح بها:
-يا شابة ، فنجال شاى وحياتك.
فامتدت إليه عيناها وبسرعة ملت قدحا من أبريق مدفون حتى منتصفه فى الرماد، ومضت به إليه عبر الطريق فتسلمه وهو يقول باسما:

عاشت يدك ، آم ثمنه ؟-.

نكله

غال ! ولكن لا يغلو لك ثمن!

فقالت باحتجاج

-فى القهوة الكبيرة بتعريفة وهو لايمتاز عما فى يديك بشئ.

وذهبت دون انتظار لكلام ، فراح يسحوه قبل أن يبرد ودون أن يحول عينيه عنها، ما أسعد أن يملك فتاة بهذا الشباب، لا عيب فيها إلا حمرة عينها وما أسهل أن يداويها، ولكن الأمر يحتاج إلى قدر من النقود لم يوجد بعد والبدروم جاهز، وما على حنش إلا أن ينام فى الدهليز أو فى حجرة الاستقبال إذا شاء على شرط أن يفليها من البق أول بأول وانتبه على همهمة غريبة ورأى الناس ينظرون نحو أعلى الحارة ويقول البعض منهم " : السنطورى .. السنطورى " ، فنظر بميل على قدر ما سمحت القضبان له فرأى الفتوة قادما فى هالة من الأعوان، ولما مر بالقهوة المتنقلة وقع بصره على الفتاة فسأل رجلا من رجاله:

من الفتاة؟

عواطف بنت عم شكرون

فلعب الرجل حاجبيه فى ارتياح ومضى نحو حيه وشعر عرفة بضيق وقلق لوح للفتاة بالقدح الفارغ فجاءته فى خفة فأخذته وتناولت من يده النكلة وعند ذلك سألها وهو يشير بذقنه إلى الناحية التى ذهب إليها السنطورى:

ألم يضايك شئ ؟-.

فقالت ضاحكة وهى تستدير لتذهب

-سأستعين بك عند اللزوم ، فهل تعين ؟

فحزت فى نفسه سخريتها حزينة لا متحدية فتضاعف ضيقه ، وهنا سمع صوت حنش وهو يناديه فوثب إلى أرض الحجرة واندفع إلى الداخل.

96

تكاثر زباين عرفة مع الأيام لكن قلبه لم يفرح بزبون آما فرح بعواطف يوم رأها مقبلة عليه فى حجرة الاستقبال نسى مهابة المعلم التى يرتديها أمام زباينة فوقف مرحبا بها ثم أجلسها على شلته أمامه وتربع فى مجلسه والدنيا لا تسعه من السرور حياها بنظرة شاملة لكنها سرعان ما وقفت على عينها اليسرى التى تختفى وراء ورم ملتهب فقال محتجا:

أهملتها يا شابة ، آانت حمراء منذ أول يوم رأيتك
فقالت آالمعتذرة
أآتفيت بغسلها بالماء الساخن والمشغول بالعمل مثلى ينسى.
لايجوز أن تنسى صحتك وبخاصة إذا تعلق الأمر بعضو عزيز مثل عينك الجميلة
ابتسمت متأثرة بالثناء على حين آان هو يمد يده إلى رف خلفه ليجئ بكوز ثم أخرج منه لفافة صغيرة وقال وهو يشير إليها :
فى منديل وحطية فوق بخار ماء يغلى ثم أربطيه على عينك ليلة بعد أخرى حتى تعود عينك إلى جمال-.
أختها
صرى ما فيها
تناولت اللفافة وأخرجت آيسا من جيبها وهى تسأله بعينها اليمنى عن الثمن فقال ضاحكا:
لا عليك من هذا فنحن جيران وبيننا صداقة-. !
لكنك تدفع ثمن ما تشرب من شاى
فقال متهربا
إنى أدفع فى الواقع لأبيك هذا الرجل الوقور آم أود أن أعرفه وآم أسفت على اضطراره للعمل حتى هذه السن المتأخرة.-
فقالت فى مباهاة:
لكن صحته جيدة وهى يأبى أن يقعد فى البيت غر أن طول عمره من دواعى حزنه فى الحياة إذ أنه آان ممن شهدوا الأحداث على عهد قاسم
فتجلى الاهتمام فى وجه عرفة وسألها:
حقا ! أآان من أعوانه ؟-.
آلا ، لكنه ذاق السعادة فى أيامه ومازال يتحسر عليها-.
أريد أن أعرفه وأن استمع إليه
فبادرته قائلة
-لا تجره إلى هذا الحديث فإنى أود أن ينساه إلى الأبد حرصا على سلامته آان مرة فى خمارة يشارب بعض أصحابه ولما سكر وقف بينهم يطالب بأعلى صوته بأن تعود الحياة إلى ما آنت عليه أيام قاسم، وما أن عاد إلى حارتنا حتى وجد السنطورى أمامه فانهال عليه ضربا وصفعا و لم يترآه حتى أغمى عليه.
تفكر عرفة فى امتعاض شديد ثم لحظ عواطف بمطر وقال:

لا أمان لأحد مع وجود هؤلاء الفتوات

فرمقته بنظرة خاطفة آأنما تتساءل عما وراء مقصده الظاهر وقالت

صدقت لا أمان لأحد معهم

وتريث وهو يعض شفتيه آالمتردد ثم قال

رأيت السنطورى وهو ينظر إليك نظرة آلها وقاحة.

فدارت ابتسامة بجرآة من رأسها إلى أسفل وقالت:

ربنا يأخده

لكن عرفة تساءل فى ارتياب

اليس مما يسر الفتاة أن يعجب بها فتوة مثله؟-.

إنه زوج لأربع

فغاص قلبه فى أعماقه، وتساءل

وإذا آان عنده متسع ؟

فقالت بحدة

الإتاوة وآأنهم لاستكبارهم هم الذين يعطون

فانتعش بالارتياح وقال بحماس

آرهته منذ اعتدى على أبى وهكذا جميع الفتوات لاقلوب لهم، يأخذون

أحسنت يا عواطف آما أحسن قاسم من قبل يوم قضى عليهم، لكنهم يعودون مثل بعض الدمامل الغامضة-. .

لذلك يتحسر أبى على أيام قاسم

فهز رأسه فى غير آاآتراث طارئ وقال

ويوجد غيره من يتحسرون على أيام جبل ورفاعة لكن الماضى لا يعود

فقالت فى استياء مليح

-تقول ذلك لأنك لم تشهد قاسم مثل أبى.

وهل شهدته أنت ؟-.

-أبى قال لى

وأمى قالت لى ولكن ما جدوى ذلك؟ إنه لا يخلصنا من الفتوات وأمى نفسها آانت ضحية لهم، وها هم يعرضون بها بعد-.

موتها

حقا-. .

فقال بوجه متجهم آأنه قدح ماء صاف تعكر فجأة بإثارة راسبه

لذلك أخشى عليك يا عواطف الفتوات يهددون الرزق والعرض والحب والسلام، واصارحك بأننى اقتنعت منذ رأيت الوحش-.

يتطلع إليك بوجوب القضاء عليهم

فقالت عواطف باهتمام:

-يقولون إنه فى وصية جدنا الواقف.

أين جدنا ؟

فقالت ببساطة

فى البيت الكبير

فقال بهدوء وبوجه لاينم عن السرور

-نعم أبوك يتحدث عن قاسم، وقاسم حدث عن جدنا هكذا نسمع ولكنا لا نرى إلا قدرى وسعد الله وعجاج والسنطورى ويوسف نحن فى حاجة إلى قوة لتخلصنا من العذاب فماءا تجدى الذآريات وانتبه إلى أن مجرى الحديث آاد يفسد عليه اللقاء، فقال وهو يعدل عن السيكا إلى الصبا:

-الحارة فى حاجة إلى قوة آما أنا فى حاجة إليك.

فحدجته بنظرة استنكار فابتسم فى جرأة بدت غير غريبة عن عينيه الجارحتين وقال بجدية ليتحاشى غضبة متوثبة فى حاجبيها:

وهى تظن أنها فى حاجة إلى فتتضح-.

لها الحقيقة وهى إننى أنا الذى فى حاجة إليها

شابة طيبة مجتهدة جميلة تنسى فى غمرة العمل عينها حتى تتورم ثم تجيئنى

قالت وهى تهم بالقيام.

-آن لى أن أنصرف.

-بغير غضب من فضلك واذآرى إننى لم أصرح بجديد فلا شك أنك استشففت إعجابى بك طوال الأيام الماضية إذ نظراتى تذهب وتجئ ما بين نافذتى وقهوتك، إن أعزب مثلى لا يمكن أن يعيش وحده إلى الأبد وإن بيته المشحون بالعمل فى حاجة للرعاية وإن أرباحه تفيض عن حاجته فلابد أن يشارآه فيها إنسان.

غادرت الحجرة وقف فى نهاية الدهليز ليودعها وآأنها لم ترض أن تذهب دون تحية فقالت:

فتك بعافية-. .

ولبث مكانه وهو يترنم بصوت مهموس

خدك المياس يا بدرى واملا لى الكأس من بدرى

وانت أحلى الناس فى نظرى

ثم مضى فى فتوة ونشاط إلى حجرة العمل فوجد حنش منهمكا فى واجباته ، فسأله:

ماذا عندك

فعرض أممه زجاجة وهو يقول

يمتحن سدادها ثم قال-. :

نعم فى الخلاء وإلا افتضح أمرنا

فقال حنش بقلق

معبأة ومحكمة الإغلاق، ولكن ينبغى أن تجرب فى الخلاء فتناولها عرفة وراح

الرزق بدا يجئ والحياة تبتسم فلا تفرط فيها وهبك الله من سعادة أخذ حنش يضيق بالحياة بعد أن حلت فى عينيه

ابتسم عرفة عند هذا الخاطر ونظر إلى حنش مليا ثم قال

آانت أمى آما آانت أمى.

نعم ولكنها توسلت إليك ألا تفكر فى الانتقام

آان رأيك غير ما تبدى الان ؟-.

سنقتل قبل أن ننتقم

فضحك عرفة وقال

لا أخفى عنك أننى آففت عن التفكير فى الانتقام من زمن فتهلل وجه حنش وهو يقول-. :

هات الزجاجة لنفرغها يا أخى

لكن عرفة شدد قبضته على الزجاجة وهو يقول

بل سنجربها حتى تبلغ الكمال

فقطب حنش فى استياء احتجاجا على الهزء به فأردف عرفة قائلا

أنا اعنى ما أقول يا حنش ثق أننى عدلت عن الانتقام لا إذعانا لتوسلات أمنا، وإنما لقتناعى بوجوب القضاء على الفتوات-.

بصر النظر عن انتقامنا

فقال حنش محتدا:

بسبب حبك لهذه الفتاة

فضحك عرفة حتى بأن حلقه وقال

حب الفتاة ، حب الحياة ، اسمه بما تشاء، آان قاسم على حق- .

مالك أنت وقاسم ! آان قاسم يحقق رغبة جده

فمط بوزه وقال

-من يدرى ؟ حارتنا تحكى الحكايات أما نحن فنقوم بأعمال حاسمة فى هذه الحجرة لاشك فيها وأين الأمان فى حياتنا؟ سيجئ عجاج غدا لينهب رزقنا، وإذا قدمت يدا للزواج من عواطف اعترضنى نبوت السنطورى، وهذا حال آل رجل فى حارتنا

حتى المتسول فما يكدر صفوى هو ما يكدر صفو حارتى، وما يؤلمنى هو ما يؤمنها حق ما أنا فتوة ولا برجل من رجال الجبلاوى، ولكنى أملك الأعاجيب فى هذه الحجرة ومنها قوة لم يحز عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين.

ورفع بالزجاجة بيده متخذا هيئة الموثب للقذف بها ثم أعادها إلى حنش قائلا:

-سنجربها الليلة بالجبل، أبسط وجهك واستعد حماسك.

وغادر حجرة العمل إلى النافذة وتقرفص فوق الكنبة مرسلا ناظرية إلى القهوة المتنقلة، وآان الليل يهبط رويدا وصوتها يعلو مناديا بالقهوة والشاى وتجنب النظر إلى نافذته فدل التجنب على خطورة ببالها وومض بالابتسام فهما مثل ذلك النجم، وابتسم عرفة آيانه آله ابتسم وفاض من قلبه الرضى حتى أقسم ليمشطن شعره آل صباح وترامت من الجمالية ضجة أقوام يطاردون لصا، ثم انبعثت من القهوة أنغام الرباب وترامى صوت الشاعر مفتتاحا ليلته بقوله:

الأولى آه سى قدرى ناظرنا

والثانية آه سعد الله فتوتنا

والثالثة آه عجاج فتوة حتتنا

فانتزع من حلمه بلا رحمة وقال بملل وتمرد : ستبدأ الحكايات متى تنتهى هذه الحكايات؟ وماذا افاد الاستماع إليها طوال الليالى؟ سيغنى الشاعر وتستيقظ الغرز يا حارة الحشرات.

97

وطرأ على حياة عم شكرون اضطراب غامض آان يتكلم أحيانا بصوت مرتفع جدا آأنه يخطب فيقول بعطف : الكبر .. إنه الكبر،

وآان يغضب شديد الغضب لأتفه سبب أو ما سبب فيقولون " الكبر " وآان يصمت طويلا حتى حين تتطلب الحال الكلام فيقولون " الكبر " وآان يقول أقوالا تعد فى الحارة آفرا فيقولون فى اشفاق " الكبر اللهم احفظنا " وآان عرفة يراقبه آثيرا من خلال القضبان فى عطف واهتمام ، ومضى يراقبه ذات يوم وهو يقول لنفسه : رجل مهيب رغم أسماله البالية وقذارته وعلى صفحة وجهه الناحلة نقشت النكسة التى عدت على الحارة عقب أيام قاسم إذ أنه من سوء حظه أنه عاصر قاسم، فنعم بأيام العدل والأمانة ونال نصيبة آاملا من ريع الوقف ورأى الأبنية تشيد باسم الوقف ثم تتوقف بأمر قدرى وبالجملة هو رجل بائس طال به العمر أآثر مما ينبغى، ورأى عواطف قادمه بوجه لا تشوبه شائبة بعد أن شفيت عينها فتحول عن الرجل إليها وهتف باسما:

الشاى يا أهل النظر!

وجاءته بالقدح فقال قبل أن يتناوله من يدها ليضمن بقاءها

مبارك عليك الشفاء يا وردة حارتنا

فقالت باسمة

-الفضل لله ولك.

وتناول القدح متعمدا أن يمس أنامله أناملها فرجعت ومرح مشيتها ينبئ عن القبول والرضى، ما أجدر أن يخطو الخطوة الحاسمة وهو رجل لا تعوزه الجرأة غير إنه يجب أن يعمل للسنطورى ألف حساب الحق على عم شكرون الذى جاء بفتاته إلى طريق السنطورى، مسكين أعياه التجوال وراء عربته حتى عجز عن الاستمرار ففتح هذه القهوة المشئوة، وترامت من بعيد ضجة وهتاف فتطلعت الرءوس نحو الجمالية وما لبث أن ظهرت عربة آارو حملت النساء المغنيات المصفقات فى وسطهن عروس عائدة من الحمام فجرى الغلمان نحو العربة مهللين وتعلقوا بأطفرافها وهى صاعدة نحو حى جبل ويضطرم الجو حينا بالزغاريد والتهانى والهمسات الفاحشة ووقف عم شكرون آالغضب وصاح بصوت آالرعد:

-اضرب .. اضرب.

فهرعت إليه عواطف وأجلسته وهى تربت ظهره فى أسى وحنان وتساءل عرفة ترى هل يحلم الرجل أو يهلوس ؟ ما ألعن الكبر آيف إذن يعيش جدنا الجبلاوى؟ وجعل ينظر إلى الرجل حتى سكن ثم سأله برقة:

يا عم شكرون هل رأيت الجبلاوى؟

فأجابه دون أن ينظر إليه

يا مغفل ألا تدرى أنه اعتكف فى بيته من قبل أيام جبل

فضحك عرفة آما ابتسمت عواطف وقال بصوت باسم

فصاح شكرون
ربنا يمد فى عمرك يا عم شكرون.
دعاء آان له قيمة حقا عندما آان العمر له قيمة
وجاءت عواطف لتاخذ القدح فقالت له همسا
دعه فى حاله ، إنه لا ينام من الليل ساعة
فقال باهتمام حار
قلبى عندك يا عواطف
ثم بسرعة قبل أن تهم بالسير
-أود أن أحدثه فى أمرنا.
فحذبته بأصبعها وذهبت وراح يتسلى برؤية صغار يلعبون " وطى البصلة " وبغته ظهر السنطورى قادما من حى آل قاسم فتراجع رأسه عن القضبان بجرآة غريزية ماذا جاء به؟ من حسن حظه إنه أقام فى حى رفاعة فأصبح له من عجاج حام، عجاج الغارق فى " هداياه " اقترب الفتوة حتى وقف أمام قهوة شكرون وتفحص وجه عواطف وهو يقول:
واحد سادة
لعلعت ضحكة امراة فى نافذة وتساءلت أخرى
-أى شئ حمل فتوة قاسم على طلب السادة من قهوة المتسولين؟ بدا السنطورى غير مكترث لشئ قدمت عواطف له الفنجان فتلوى قلب عرفة فى صدره وانتظر الفتوة حتى تذهب حرارة المشروب وهو يبتسم إلى الفتاة ابتسامة وقحة آشفت عن أسنانه المذهبة وتوعده عرفه فى نفسه بضربة بجبل المقطم، ورشف السنطورى رشفة وقال:
-تسلم يدك الجميلة.
وخافت أن تبتسم آما خافت أن تقطب على حين تطلع شكرون إليهما بارتياع ثم أعطاها الفتوة قطعة من ذات الخمسة القروش فدست يدها فى جيبها لاحضار الفكة ولكنه لم ينتظر ولم يبد أنه يطالب بشئ وعاد إلى قهوة القاسمية وحارت عواطف فى أمرها فقال لها عرفة بصوت منخفض:
لا تذهبى إليه
فتساءلت
-وباقى النقود.
فنهض عم شكرون رغم ضعفه وأخذ الباقى وذهب إلى المقهى وبعد قليل عاد العجوز إلى مجلسه وما لبث أن أغرق فى الضحك حتى اقتربت منه ابنته وقالت برجاء:

آفاك ضحكا

ونهض قائما مرة أخرى وقف مستقبلا بيت الواقف فى نهاية الحارة وصاح

-يا جبلاوى .. يا جبلاوى.

والتفتت نحوه الأعين من النوافذ وأبواب الأربع والمقاهى والبدرومات وهرع نحوه الغلمان حتى الكلاب رمقته بأعينها وعاد شكرون يصيح:

-.

يا جبلاوى

يا جبلاوى .. حتى متى تلازم الصمت والاختفاء ، وصاياك مهملة وأموالك مضيعة أنت فى الواقع تسرق آما يسرق أحفادك وهتف الصغار " هيه " وقهقة آثيرون أما العجوز فاستدرك صرخة:

يا جبلاوى ألا ستمعنى ؟ ألا تدرى بما حل بنا ؟ لماذا عاقبت إدريس وآان خيرا ألف مرة من فتوات حارتنا ؟ يا جبلاوى!

خرج عند ذاك السنطورى من المقهى وهو يصيح به

يا مخرف احتشم

فالتفت نحوه غاضبا وهتف

-عليك اللعنة يا وغد الأوغاد.

همس آثيرون فى إشفاق : ضاع الرجل، واتجه السنطورى نحوه وقد أعماه الغضب وضربه على رأسه بقبضته، ترنح الرجل وآاد يهوى لولا أن أدرآته عواطف ورأها السنطورى فرجع إلى مجلسه.

وقالت الفتاة باآية:

-لنعد إلى البيت يا أبى.

وانضم إليها عرفة فى مساندته ، ولكن العجوز حاول فى ضعف أن يبعدهما عنه، وثقلت أنفاسه على حين ساد الأقربين وجوم، وقالت امرأ ' من نافذة.

الحق عليك يا عواطف، فالأحسن أنه آان يبقى فى البيت

فقالت عواطف وهى ما زالت تبكى

ما لى حيلة

وراح شكرون يقول بصوت ضعيف

يا جبلاوى .. يا جبلاوى.

وقبيل الفجر شق صوات مولول السكون ، ثم عرف الناس أن شكرون قد مات آانت حادثة غير غريبة على الحارة وقالت بطانة السنطورى " : الله يجحمه، عاش قليل الأدب، وقلة الأدب آانت السبب فى موته : وقال عرفة لحنش:

جرائمهم ولا يتجرأ أحد على الشكوى أو يجد شاهدا-.

واحدا

قتل شكرون آما يقتل آثيرون فى حارتنا، والقتلة لا يبالون بإخفاء

فقال حنش بتقزز:

يا للمصيبة لماذا جئنا إلى هنا-. .

إنها حارتنا-.

أمنا غادرتها منكسرة الخاطر حارة ملعونة هى ومن عليها

فقال باصرار

لكنها حارتنا-. .

آأننا نكفر عن ذنوب لم نجنها-.

التسليم هو أآبر الذنوب جميعا

فقال حنش بيأس

خابت تجربة الزجاجة فى الجبل.

لكنها ستنجح فى المرة القادمة

ولما حمل نعش شكرون لم يكو وراءه إلا عواطف وعرفة ، وهكذا بدا أمام الربع وعجب الجميع من اشتراك عرفة الساحر فى الجنازة وهامسوا بجرأته العجيبة ذلك الساحر المجنون!

وآان الأعجب من نذلك أن السنطورى انضم إلى الجنازة عندما توسطت حى آل قاسم بأى جرأة وقحة فعل ! لكنه فعل بلا حياء وقال لعواطف:

-البقية فى حياتك يا عواطف!

وأدرك عرفة أن الرجل يمهد لطلبه القادم، والمهم أن حال الجنازة تغير فى غمضة عين أذ تسارع إليها الجيران والمعارف الذين منعهم الخوف حتى ملأت الطريق وعاد السنطورى يقول:

البقية فى حياتك يا عواطف!

فنظرت إليه فى تحد وقالت
تقتل القتيل وتمشى فى جنازته
فقال السنطورى بصوت سمعه الكثيرون
قيل مثل هذا لقاسم من قبل
وتعالت أصوات آثيرة وهى تقول
وحدى الله .. الأجال بيد الله وحده
فصاحت به عواطف

فقال السنطورى
قتل أبى بضربة يدك.
الله يسامحك يا عواطف لو آنت ضربته ضربة حقيقية لقتل فى الحال، والحق أنى ضربته ولكن هوشته والكل يشهدون-.
بذلك
واستبقت الحناجر قائلة:
هوشه ! ما لمسته يده ! والله ما لمسه ، وليأآل الدود عيوننا إن آنا آاذبين
فهتفت عواطف
ربنا المنتقم
فقال السنطورى بحلم ضرب مثلا عهدا طويلا
الله يسامحك يا عواطف
ومال عرفة على أذن عواطف وقال فيما يشبه الهمس
خلى الجنازة تسير بسلام
وما يدرى عرفة إلا ورجل من أعوان السنطورى يدعى العضاض يهوى بكفه على وجهه ويصيح به
-يا ابن المبولة ما أدخلك أنت بينها وبين المعلم.
التفت عرفة نحوه فى ذهول فتلقى ضربة أشد من الأولى وأخر صفعة وثالث بصق على وجهه ورابع أخذ بتلابيبه وخامس دفعه بقوة فسقط على ظهر وسادس قال له وهو يرآله:
-ستدفن فى القرافة إذا ذهبت إليها.
لبث مطروحا على الأرض فى ذهول وتجمع وقام فى ألم غير يسير وراح ينفض التراب عن جلبابه ووجهه وآان جمع من

الصغار قد التفوا حوله وراحوا يهتفون : العجل وقع .. هاتوا السكين " رجع إلى البدروم وهو يعرج وقد جن جنون غضبه.

ونظر حنش إليه بأسى وقال:

قلت لك لا تذهب

فصرخ فى حنق أهوك

اسكت الويل لهم

فقال له بلين وحزم معا

اصرف النظر عن هذه البنت وإلا فعلينا السلام.

فصمت مليا وهو ينظر إلى الأرض مفكرا ثم رفع وجها مكفهرا بالاصرار المخيف وقال:

سترانى متزوجا بها أقرب مما تتصور-. .

هذا هو الجنون بعينه-.

وسوف يرأس عجاج الزفة-.

أنك تبلل ثيابك بالكحول وترمى بنفسك فى النار

وسأعاود تجربة الزجاجة الليلة فى الخلاء

ولزم داره لا يبرحها أياما ، ولكن صلته بعواطف لم تنقطع عن طريق النافذة ذات القضبان، ثم قابلها خفية عقب انقضاء أيام الحداد فى دهليز ربعها وقال لها فى صراحة:

يحسن بنا أن نتزوج فى الحال

ولم تفجأ الفتاة بطلبه ولكنها قالت فى حزن

لك من المتاعب ما لا تحتمل

فقال بثقة

ستسبب موافقتى

-قبل عجاج أن يشرف حفلنا، ولذلك معنى لا يخفى عليك.

واتخذت الخطوات فى تكتم شديد حتى تم آل شئ، وعلمت الحارة دون سابق إنذار أن عواطف ابنة شكرون تزوجت من عرفة الساحر وانتقلت إلى داره وأن عجاج فتوة آل رفاعة قد شهد الزواج، ذهل آثيرون وتساءل آخرون آيف تم ذلك ، آيف تجرأ عرفه عليه، وآيف أقنع عجاج بمبارآته ؟ أما أهل الخبرة فقد قالوا يا داهية دقى.

واجتمع السنطورى بأعوانه فى قهوة آل قاسم وعلم عجاج بذلك فاجتمع بأعوانه فى قهوة آل رفاعة ودرت الحارة بالاجتماعين فتوتر جوها، وسرعان ما خلال الموقع بين القاسمية والرفاعية من الباعة والمتسولين والأطفال وأغلقت الدآآين والنوافذ وخرج السنطورى برجاله إلى الحارة فخرج عجاج برجاله آذلك واحتدم الشر حتى فاحت رائحته الكريهة فلم يبق على اندلاع اللهيب إ لمسه وصاح رجل طيب من فوق سطح:

ماذا أغضب رجالنا ؟ فكروا قبل أن تجرى الدماء

فقال عجاج من خلال صمت الرهبة وهو ينظر إلى السنطورى

لسنا غاضبين ولا داعى عندنا للغضب

فقال السنطورى بغلظة

-أنت خرجت على حدود الزمالة يا معلم ، ولا يمكن أن يقرك فتوة على ما فعلت.

وما الذى فعلت ؟

فقال السنطورى وآان الكلام يخرج من فمه وعينيه معا

حميت رجلا وهو يتحدانى-. .

رفاعة

فقال السنطورى بازدراء

ما فعل الرجل إلا أن تزوج بنتا وحيدة بعد وفاة أبيها، وأنا أشهد زواج آل

ما هو برفاعى ، ولا يعرف أحد أباه، ولا هو نفسه، وقد تكونت أنت أباه وقد أآونه أنا، أو أى متسول فى الحارة-. .

لكنه يقيم اليوم فى حيى-.

ليس إلا أنه وجد بدروما خاليا-.

ولو

فصرخ السنطورى بصوت مدو

أعرفت أنك خرجت على حدود الزمالة

فصاح به عجاج

لا تصرخ يا معلم ، الأمر لا يستوجب أن نتنافر آالديوك-. .

لعله يستوجب

فقال عجاج بنبرة آألها أمر بالاستعداد

اللهم طولك يا روح-. .

عجاج ، انتبه لنفسك-.

ملعون أبو القفا-.

ملعون أبوك

وارتفعت النبابيت لولا أن أدرآها صوت آالهوار يصيح بلهجة أمرة

-عيب يا رجال.

اتجهت الرءوس نحو مصدره فرأوا المعلم سعد الله فتوة الحارة وهو يشق طريقه بين الرفاعية حتى وقف فى المنطقة بين الحيين وهو يقول:

نزلوا النبابيت

فهبطت النبابيت آرؤس المصلين، ونظر سعد الله مرة إلى السنطورى وأخرى إلى عجاج وقال

لا أحب الآن أن أسمع آلام أحد تفرقوا بسلام ، مذبحة من أجل مرة ، يا خسارة الرجولة-. .

تفرق الرجال فى سكون ورجع سعد الله صوب داره

وآان عرفة وعواطف داخل البدروم لا يصدقان أن الليلة ستمر بسلام ، آانا يتابعان ما يدور فى الخارج بقلبين واجفين ووجهين ممتقعين، و لم يتل لهما حلق حتى سمعا صوت سعد الله بنبرته الأمرة التى لا ترد تنهدت عواطف من العماق وقالت:

ما أقسى هذه الحياة

وأراد أن يبث فى نفسها شيئا من الطمأنينة فقال وهو يشير إلى رأسه

أنا أعمل بهذا ، هكذا آان جبل، وهكذا آان قاسم الداهية

فازدردت ريقها بمشقة وقالت

ترى هل تدوم السلامة؟

ضمها إلى صدره فى مرح ظاهرى وقال

ليت آل زوجين يسعدان مثلنا

فطرحت رأسها على آتفه ريثما تسترد أنفاسها وهمست قائلة

ترى هل تنتهى المسألة عند ذلك ؟

فنفخ قائلا فى صراحة

أى فتوة لا يؤمن جانبه

فرفعت رأسها وهى تقول

أعرف ذلك وبى جرح لن يلتئم حتى أراه صريعا

وعرف من تعنى ونظر فى عينيها بتفكير وقال

-الانتقام فى مثلك حالتك واجب ولكنه لا يؤدى إلى نتيجة حاسمة إن سلامتنا مهددة لا لأن السنطورى يود البطش بنا، ولكن لأن سلامة حارتنا آلها مهددة ببطش الفتوات ولو تغلبنا على السطنورى فمن يضمن لنا ألا يتحرش بنا عجاج غدا أو يوسف بعد غد، فإما أمن للجميع أو لا أمن لأحد، فابتسمت فى فتور متسألة:

أتريد أن تكون آجبل أو رفاعة أو قاسم ؟

فقبل شعر رأسها وهو يتشمم رائحته القرنفلية دون أن يجيب فعادت تقول

أولئك آلفوا بالعمل من قبل جدنا الواقف

فقال بضجر

-جدنا الواقف ! آل مغلوب على أمره يصيح آما صاح المرحوم أبوك " : يا جبلاوى " ولكن هل سمعت عن أحفاد مثلنا لا يرون

جدهم وهم يعيشون حول بيته المغلق؟ وهل سمعت عن واقف يعبث العابثون بوقفه عل هذا النو وهو لا يحرك ساآنا؟

فقالت ببساطة:

إنه الكبر!

فقال بارتياب

لم أسمع عن معمر عاش طول هذا العمر-. .

آل شئ

فصمت مليا ثم غمغم قائلا

يقال إنه يوجد رجل فى سوق المقطم جاوز المائة والخمسين من العمر، ربك قادر على

آذلك السحر فهو قادر على آل شئ

فضحكت من غروره وهى تنفرد بإصبعها على صدره وقالت

سحرك قادر على مداواة العين-. .

وعلى أشياء لا تحصى

فتنهدت قائلة

يا لنا من مساطيل ! نتسلى بالأحاديث آاننا لا يتهددنا شئ

لم يأبه لمقاطعتها فواصل حديثه قائلا

وقد يتمكن يوما من القضاء على الفتوات أنفسهم وتشييد المبانى وتوفير الرزق لكافة أولاد حارتنا

فتساءلت ضاحكة

هل يمكن أن يحدث ذلك قبل قيام القيامة؟

فرقت عيناه الحادتان بنظرة حالمة وقال

أه لو آنا جميعا سحره-! .

لو

ثم أردفت قائلة

-فى زمن قصير حقق قاسم العدالة بغير سحرك.

وسرعان ما ولت أما السحرة فأثره لا يزول لا تستخفى بالسحر يا عسلية العين إنه لا يقل عن حبنا خطورة ويخلق مثله-.

حياة جديدة ولكنه لن يؤتى أثره الحق إلا إذا آان أآثرنا سحرة

فتساءلت فى دعابة:

وآيف يتأتى ذلك؟

ففكر طويلا قبل أن يجب قائلا

إذا تحقق العدالة، إذا نفذت شروط الواقف، إذا استغنى أآثرنا عن الكد وتوفروا على السحر-. .

أتريدها حارة من السحرة

وضحكت ضحكة لطيفة واستدرآت قائلة

يكلف أحدا من أحفاده بعمل

فنظر إليها نظرة غريبة وتساءل

لماذا لا نذهب نحن إليه ؟

وما السبيل إلى تنفيذ الشروط العشرة وجدنا قعيد الفراش ويبدو أنه ما عاد بوسعه أن

فضحكت مرة أخرى وقالت:

هل تستطيع أن تدخل البيت الكبير

فضربت يده وهى تقول

آفاك مزاحا حتى نطمئن على حياتنا أولا

فابتسم ابتسامة غامضة وقال

لو آنت أحب المزاح ما عدت إلى حارتنا

فأفزعها شئ فى نبرته فحدجته بدهشة وهتفت

أنت تعنى ما تقول

فطالعها بنظرة صامته فعادت تقول

تصور أن يقبضوا عليك فى البيت الكبير

فقال بهدوء

-ما العجب فى وجود حفيد ببيت جده!

قل إنك تمزح ، رباه ! ما لك تنظر جادا هكذا ، شئ عجيب لماذا تريد أن تذهب إليه؟-.

ألا تستحق مقابلته المخاطرة-.

آملة ندت عن لسانك فكيف انقلبت حقيقة مرعبة

فربت راحتها ليهدى خاطرها وقال

مذ عدت إلى حارتنا وأنا أفكر وحدى فى أشياء لا تخطر ببال

فتساءلت بتوسل

لم لا نعيش فى حالنا ؟-.

يا ليت إنهم لا يترآوننا نعيش فى حالنا ولا بد للإنسان من أن يؤمن حياته-.

إذن نهرب من الحارة

فقال بإصرار

لا أهرب وفى يدى السحر

وجذبها برقة حتى ألصقها بنفسه وجعل يربت منكبها وهو يهمس فى أذنها

-سنجد للكلام فرصا آثيرة أما الآن فليطمئن قلبك.

100

ترى جن الرجل أم أعماه الغرور؟ هكذا جعلت عواطف تتساءل وهى تراقب عرفة فى عمله وتفكيره، ومن ناحيتها هى لم يكن يكدر صفو أيامها السعيدة إلا رغبتها فى الانتقام من السنطورى قاتل أبيها، والانتقام فى الحارة تقليد مقدس من قديم

الزمان، وحتى هذا التقليد المقدس يمكن أن تتناساه ولو على مضض غكراما للحياة السعيدة التى وهبها الزواج لكن عرفة آان يؤمن بأن الانتقام من السنطورى ما هو إلا جزء من عمل آبير إلى على نفسه - آما خيل إليها - القيام به ولم تفهمه أيحسب أنه أحد الرجال الذين تتغنى بهم الرباب؟ لكن الجبلاوى لم يعهد إليه بشئ وهو لا يبدو آبيرا للثقة بالجبلاوى ولا بما تحكى الرباب ومن المؤآد أنه بات يعطى السحر من جهده ووقته أضعاف أضعاف ما يتطلبه الرزق وإذا فكر جاوزه تفكيره شخصه وأسرته إلى مسائل عامل لا يعنى بها أحد آالحارة والفتوة والنظارة والوقف والربع والسحرن وآان يحلم أحلاما عريضة عن السحر والمستقبل مع أنه آان الرجل الوحيد فى الحارة الذى للم يقبل على الحشيش لحاجة عمله فى الحجرة الخلفية إلى اليقظة والانتباه، ولكن آل هذا هان إلى جانب رغبته الجنونية فى التسلل إلى البيت الكبير، لماذا يا رجلى؟ لا سالة المشورة فيما ينبغى أن تسير عليه الحارة أنت تعلم بما ينبغى أن تسير عليه الحارة، وآلنا نعلم فما الضرورة إلى تعريض نفسك للهلاك؟ أريد معرفة شروط الوقف العشرة ليست العبرة فى المعرفة ولكن فى العمل فماذا تستطيع أن تفعل، الحق أنى أريد أن اطلع على الكتاب الذى طرد بسببه أدهم إن صدقت الحكايات وماذا يهمك فى ذلك الكتاب ؟ لا أدرى ما الذى يجعلنى أؤمن أنه آتاب سحر وأعمال الجبلاوى فى الخلاء لا يفسرها إلا السحر لا العضلات والنبوت آما يتصورون وما الداعى إلى هذه المخاطر وأنت سعيد ورزقك موفور بغيرها؟ لا تضنى أن السنطورى نسيا .. آلما خرجت آدت أتعثر فى نظرات رجاله الحاقة حسبك السحر ودع البيت الكبير جانبا، هناك الكتاب .. آتاب السحر الأول .. سر

قوة الجبلاوى الذى ضن به حتى على أبنه قد لايكون شيئا مما تتصور وقد يكون والأمر يستحق المخاطرة وإذا به يخطو خطوة حاسمة فى طريق الصراحة فقال لها:

-هكذا أنا يا عواطف ما العمل؟ لست إلا ابنا حقيرًا لامرأة تعيسة وأب مجهول والكل يعرف هذا ويتنذر به، ولكن لم يعد لى

من هم فى الدنيا إلا البيت الكبير، وليس غريبا على مجهول الأب أن يتطلع بكل قوته إلى جده وحجرتى الخلفية علمتنى ألا أؤمن بشئ إلا أذا رأيته بعينى وجربته بيدى فلا محيد عن الوصول إلى داخل البيت الكبير، وقد أجد القوة التى أنشدها وقد لا أجد شيئا على الإطلاق ولكننى سأبلغ برا هو على أى حال خير من الحيرة التى أآابدها ولست أول من اختار المتاعب فى حارتنا، آان بوسع جبل أن يبقى فى وظيفته عند الناظر، وآان بوسع رفاعة أن يصير نجار الحارة الأول، وآان فى وسع قاسم أن يهنأ بقمر وأملاآها وأن يعيش عيشة الأعيان، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر.

فقال حنش بأسى:

ما أآثر الذين يجرون نحو الهلاك بأرجلهم فى حارتنا

فقال عرفة بحدة

قليل منهم من عنده لذلك أسباب وجيهة
غيرأن حنش لم يتخلف عن معاونة أخيه ، تبعه آظله فى الهزيع الأخير من الليل إلى الخلاء، ولما يئست عواطف من مقاومته رفعت يديها بالدعاء له آانت ليلة مظلمة ظهر الهلال فىأولها ساعة ثم اختفى سار الأخوان بلص الجدران حتى بلغا السور الخلفى للبيت الكبير فيما يلى الخلاء، وقال حنش همسا:
آان رفاعة يقف فى مكاننا عندما ترامى إليه صوت الجبلاوى
فقال عرفة وهو ينظر فيما حوله مدققا

فأشار حنش إلى الخلاء وقال بقرهبة
هكذا تقول الرباب وسوف أعرف حقيقة آل شئ.
وفى هذا الخلاء آلم بنفسه جبل وأرسل خادمه إلى قاسم
فقال عرفة بامتعاض
-وفيه أيضا قتل رفاعة واغتصبت أمنا وضربت ولم يحرك جدك ساآنا.
وحط حنش مقطفا به أدوات حفر على الأرض ثم شرعا فى حفر الأرض تحت السور ورفع الأتربة بالمقطف، عملا بجد وعزم حتى امتلأ صدراهما برائحة ترابية وتبين أن حنش لم يكن دون عرفة حماسا ن آأنما آانت تدفعه نفس الرغبة وإن غلبه الخوف، ولم يكن رأس عرفة فوق الأرض إلا بشبر حين قال من جوف الحفرة:
حسبنا هذه الليلة
ثم وثب إلى سطح الأرض معتمدا على راحيتيه ثم قال
-علينا أن نسد الفوهة باللوح الخشبى ثم نغطيها بالتراب حتى لاينكشف أمرها، ثم رجعا مسرعين والفجر فى أعقابهما، آان يفكر فى الغد ، الغد العجيب حين يسير فى البيت الكبير المجهور ، ومن يدرى قلعة يلقى الجبلاوى ولعله يحادثه فيستوضحه عما مضى وعما هو راهن وعن شروط وقفه وسر آتابه ذلك الحلم الذى لا يتحقق إلا بين سحابات الدخان الذى تنفثه الجوز.
وفى البدروم وجد عواطف ما تزال ساهرة تنتظر فلما رأته حدجته بنظرة عتاب ناعس وغمغمت:
آأنك راجع من مقبرة
فقال بمرح يدارة به قلقه
ما أحلاك
وارتمى إلى جانبها فقالت

لو آنت عندك شيئا لما استهنت برأى

فقال مداعبا

ستغير رأيك عندما تشهدين ما يحدث غدا-. .

لى فى السعادة فرصة وفى الهلاك ألف

فضحك عرفة ثم قال

أن ما تنعم به من سلام ما هو إلا خيال، ومزق سكون الفجر صوات حاد، وتبعه عويل

فعبست عواطف وتمتمت

لو رأيت الأعين الحاقدة لأيقنت

فال غير حسن!

فهز منكبيه باستهانة ، ثم قال

لا تلوميني يا عواطف وأنت مسئولة بعض الشئ عما أنا فيه-. .

أنا

فقال جادا

-عدت إلى الحارة مدفوعا برغبة خفية إلى الانتقام لأمى ، ولما وقع الاعتداء على أبيك تأصلت تلك الرغبة فى الانتقام من جميع الفتوات ولكن حبى لك أضاف إليها جديدا آاد يطمس على الأصل ، وهو أن أقضى على الفتوات للانتقام ، ولكن ليهنأ الناس بالحياة، وما قصدت بيت جدنا إلا لأحصل على سر قوته.

ورنت إليه بنظرة طويلة قرأ فيها بوضوح على ضوء الدوابة الإشفاق الأليم من أن تفقده آما فقدت أباها، فابتسم إليها مشجعا متوددا، وآان العويل يستفحل فى الخارج.

101

وشد حنش على يد عرفة مودعا والأخير فى اعماق الحفرة وانبطح عرفة على وجهه وراح يزحف خلال الممر المعبق برائحة الأرض، ومازال فى زحفه حتى برز رأسه من أرض الحديقة داخل البيت الكبير، استقبل أنفه شذا عجيبا آأنه خلاصة خلاصات من الورد والياسمين والحناء مذابة فى ندى الفجر ، أسكره الشذا رغم شعوره البالغ بالخطورة ، ها هو يتشمم الحديقة التى مات أدهم حسرة عليها ، مايبدو منها إلا ظلام ضارب تحت الأنجم السهرة وعليها صمت رهيب يند عننه من آن لآن هسيس الأوراق المستجيبة للنسائم، ووجد الأرض طرية رطيبة فبيت فى نيته أن يخلع نعليه عند تسلله إلى البيت

آيلا يطبع على الأرض أثره.
ترى أين ينام البواب والبستانى وغيرهما من سائر الخدم؟ وزحف على أربع فى حذر شديد أن يحدث صوتا متجها نحو البناء الذى بدا شبح هيكله متربعا فى الظلام، ولاقى فى رحلته نحو البيت من الارتياع ما لم يلاق فى حياته على إيلاف خوض الظلمات والمبيت فى الخلاء والخرائب ومضى يزحف لصق الجدار حتى مست يده اولى درجات السلم المفضى إلى السلاملك إن صدقت الرباب، هنا دفع الجبلاوى بغدريس ليطرده خارجا، ذلك آان مصير إدريس جزاء تحديه لأمر أبيه، فما عسى أن يفعل الجبلاوى بمن يقتحم عليه داره ليسرق سر قوته؟ ولكن مهلا فإن أحدا لا يمكن أن يتوقع تسلل لص إلى البيت الذى ظل أمنا مدرعا بمهابته طيلة الأعوام الماضية، ودار زاحفا حول الدرابزين ثم أخذ يرقى فى الدرج على يديه ورآبتيه حتى بسطه السلاملك ، وخلع نعليه وتأبطهما ثم زحف نحو الباب الجانبى الذى تقول الرباب إنه يفضى إلى المخدع، وبغتة سمع سعلة قادمة من الحديقة، فلبد أسفل الباب مرسلا ناظرية نحو الحديقة فرأى شبحا يقترب من السلاملك ، آتم أنفاسه لأنه خيل إليه أن اضطراب قلبه سيسمع مدويا واخذ الشبح يقترب، ومضى يرقى فى الدرج لعله الجبلاوى ، ولعله يضبطه متلبسا لجريمته آما ضبط أدهم من قبل فى نفس الساعة على وجه التقريب، وبلغ الشببح بسطة السلاملك على بعد ذراعين من مكمنه لكنه مضى إلى الجانب الآخر من السلاملك، ورقد على شئ يشبه الفراش ، خف التوتر مخلفا وراءه إعياء ، ولعل الشبح لم يكن إلا خادما ذهب لقاء حاجة ثم عاد إلى مرقده وها هو يعلو شخيره استرد شيئا من جرأته فرفع يده متحسسا موضع الأآره حتى عثر عليها، وأدارها بهوادة ومضى يدفع الباب برفق حتى انفرج عن فتحة تسعه ثم زحف داخلا ورد الباب وراءه وجد نفسه فى ظلمة حالكة، فأجال يده أمامه حتى مس اولى درجات السلم وجعل يصعد فى خفة الهواء، انتهى إلى ردهة طويلة مضاءة بمصباح فى آوة بالجدار، وآانت تنعطف يمينا إلى الداخل، وتمتد يسارا بعرض البيت ويتوسطها باب المخدع مغلقا، عند ذاك المنعطف وقفت أميمة، ومن موقفه انطلق أدهم، وها هو ينطلق وراء الشئ نفسه ، تراآمت على صدره الرهبة، فنادى إرادته وجرأته، وآان من السخرية ان يرجع قد يظهر خادم فى أيه لحظة وقد يفيق من جنونه على يد تقبض على آتفه، فما أجدره أن يسرع ، سار على أطراف أصابعه نحو الباب أدار المقبض اللامع فدار مع يده ودفع الباب فانفتح برفق، ثم تسلل رادا الباب وراءه، اسند ظهره إلى الباب فى ظلام لا يرى فيه شيئا وتنفس بحذر وآأنما يضن بأنفاسه ، وعبثا حاول أن يرى شيئا ، وبعد قليل شم رائحة بخور ذآية أفعمت قلبه قلقا وحزنا غريبا لم يدر له من سب ولم يعد يشك أنه فى مخدع الجبلاوى متى يألف الظلمة؟ وآيف يلم نفسه المبعثرة ؟ ومن وقف موقفه هذا من قبل؟ وآيف يشعر بأنه سينهار إلى الحضيض إذا لم يستمسك بكل ما أوتى من قوة وعزم وجراة وتوعد نفسه بالهلاك إذا لم يصب لكل حرآة حسابها الدقيق وتذآر السحب فى جريانها الذى يرسم لها أشكالا غريبة بطريقة عفوية فيرسم جبلا آما يرسم قبرا ومس الجدار بإصبعه فاتخذ منه مرشدا بطريقة عفوية فسار بحذاته متوسا حتى لمس آتفه مقعدا، لكن حرآة مفاجئة ندت من رآن الحجرة البعيد تصلبت له شرايينه، لبد وراء المقعد متجه

العينين نحو الباب الذى دخل منه وسمع وقع أقدام خفيفة وحفيف ثوب، وتوقع أن يغمر الظلماء نور وأن يرى الجبلاوى واقفا حياله، سيسجد عن قدميه مستعطفا ويقول له إنى حفيدك لا أب لى ولا هدف إلا الخير ، فافعل بى ما تشاء.
رأى رغم الظلمة شبحا يقترب من الباب ورأى الباب وهو يفتح برفق ونور الردهة الخارجية يتسرب إلى ما ورائه، وخرج الشبح تارآا الباب مواريا واتجه يمنه فتبينه على ضوء المصباح الخارجى، امراة عجوز سوداء نحيلة الوجه طويلة بصورة لا يمكن أن تنسى ، ترى أهى خادم؟ وهل يمكن أن تكون هذه الحجرة من جناح الخدم؟ ونظر من جانب المقعد إلى المكان ليراه على الضوء الباهت المتسلل من الباب، فميز أشباح المقاعد والكنب وتراء له فى الصدر رسم فراش آبير ذى عمد وناموسية يليه عند قدميه فراش صغير لعله هو الذى غادرته العجوز، لن يكون هذا الفراش الفخم للجبلاوى، إنه نائم الآن هنالك غير دار بجريمته، آم يود أن يلقى نظرة عليه ولو من بعيد لولا هذا الباب الموارب الذى ينذر بعودة الذاهبة ونظر إلى يساره فلمح رسم باب الخلوة مغلقا على سرة الرهيب، هكذا تطلع إليه أدهم فى القديم فله الرحمة ، وزحف وراء المقاعد متناسيا الجبلاوى نفسه حتى صار أسفل الباب الصغير لم يستطيع مقاومة الإغراء فرفع يده حتى دس إصبعه فى ثقب المفتاح ثم ضغط إلى أسفل جاذبا إياه فأطاع، وسرعان ما رده وقلبه يرتجف انفعالا وإحساسا بالفوز، وإذا بالضوء الضئيل يختفى وتغرق الحجرة مرة أخرى فى الظلام، وسمع مرة أخرى آذل وقع الأقدام الخفيفة، ثم طقطقة فراش وشت باستلقاء العائدة، ثم ساد الصمت وانتظر متصبرا حتى تنام العجوز ومضى يمعن النظر نحو الفراش الكبير ولكنه لم ير شيئا واقتنع بانه من الجنون أن يحاول الاتصال بجده، إذ قبل ذلك ستستيقظ العجوز وتملأ الدنيا صراخا ثم يكون الوداع، ولكن حسبه الكتاب الخطير بما يتضمن من شروط الوقف وأيات السحر التى سيطر بها جده فى الخلاء والناس فى زمانه الأول إن احدا قبله لم يتصور أن الكتاب آتاب سحر لأن احدا قبله لم يمارس السحر، وعاد يرفع يده ويدس إصبعه ويجذب الباب ثم تسلل زاحفا ورده وراءه ، وقف فى حذر وهو يتنفس فى عمق ليريح شيئا ما أعصابه المرهقة لماذ ضن الجبلاوى على أبنائه بسر آتابه؟ حتى أحبهم إلى قلبه أدهم، هنالك سر بلا ريب وسينكشف السر بعد ثوان، بعد إشعال شمعه وقديما اشعل أدهم الشمعة وها هو مجهول الأب يشعلها مرة أخرى فى نفس الموقف، وسوف تغنى الرباب بهذا إلى الأبد، أشعل الشمعة فرأى عينين تنظران غليه، رغم ذهوله أدرك أن العينين لعجوز أسود يرقد على فراش فى مواجهة الداخلن ورغم ذهوله ورعبه تبين له أن العجوز يجاهد للخروج من الغيبوبة الفاصلة بين النوم واليقضة التى ربما آان أحدثها صوت حك عود الثقاب، وبحرآة غير إرادية ولا شعورية أنقض عليه فأطبق يمناه على رقبته وشد بكل قوة أعصابه، تحرك العجوز بعنف وقبض على يده فضربه بقدمه فى بطنه وضاعف من قوة الضغط على عنقه، وسقطت الشمعة من يسراه فانطفأت وساد الظلام ، وفى الظلام تحرك العجوز حرآة أخيرة من أعماقه ثم همد لكن يده المجنونة لم تكف عن الضغط حتى تراخت أصابعها، وتراجع لاهثا حتى التصق ظهره بالباب ومرت الثوانى وهو فى جحيم من العذاب الصامت، وشعر بقواه تخور وبأن الزمن بات أثقل من الذنوب سيقع على الأرض أو فوق جثة ضحيته إذا لم يتغلب على ضعفه وناداه الهرب آقوة لا قبل له بها، لن

يستطيع أن يتخطى الجثة إلى الكتاب الأثرى الكتاب المشئوم ولا شجاعة عنده ليشغل الشمعة من جديد ، العمى أحب إليه من ذلك وشعر بألم فى ساعديه لعله من أثر أظافر الرجل عند المقاومة اليائسة، وارتعد جسده لتلك الفكرة ، آانت جريمة أدهم العصيان أما جريمته هو فالقتل، قتل رجل لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه على يده سببا، وهو قد جاء سعيا وراء قوة يناضل بها المجرمين فانقلب وهو لايدرى مجرما، واتجه رأسه فى الظلام إلى الرآن الذى ظن الكتاب معلقا به ودفع الباب ثم تسلل وهو يرده وراءه وزحف بحذاء الجدار إلى الكتاب وتريث وراء المقعد الأخير ، لايرى فى هذا البيت إلا الخدم فأين سيده؟ ستحول هذه الجريمة بينهما إلى الأبد وشعر بالخيبة والفشل حتى أعمق أعماقه، وفتح الباب برفق فأعشى النور عينيه ويخل إليه أنه ينقض عليه فى ضوضاء صاخبة ووميض صارخ، أغلق الباب ومضى على أطراف أصابعه وهبط السلم فى ظلمة حالكة، وعبر السلاملك إلى الحديقة وقد قل من الإعياؤ والحزن حذره، وإذا بالنائم فى السلاملك يستيقظ متسائلا : من ! فلبد عرفه لصق الجدار اسفل السلاملك وقد أمده الفزع بقوة ونادى الصوت آرة أخرى فأجابت قطة بموائها، لبث فى مكمنة وهو يخشى أن يساق إلى جريمة جديدة ، ولما استقر الصمت زحف على أرض الحديقة الخلفية حتى السور، وراح يتحسس موضع الثغرة حتى عثر عليها.

ودخلها زحفا آما جاء، ولما بلغ النهاية أو آاد ارتطم بقدم، وإذا بأقدام ترآله فى رأسه بسرعة فاقت خاطره.

102

وثب على صاحب القدم فاشتبكا فى صراع لم يدم طويلا إذ ندت عن الآخر صيحة غضب آشفت عن شخصه لعرفة فهتف فى ذهول:

حنش!

تعاونا على الخروج معا إلى سطح الأرض وقال حنش-.

طالت غيبتك فدخلت لاتنسم الأخبار

فقال عرفة وهو يتنفس بمشقة

أخطأت آعادتك ولكن هلم بنا

عادا إلى الحارة المستغرقة فى النوم ولما رأته عواطف هتفت

-اغتسل .. رباه .. ما هذا الدم يسيل من يدك وعنقك.

فارتعد لكنه لم يجب ومضى ليغتسل وسرعان ما أغمى عليه، وأفاق بعد قليل وبمساعدة عواطف وحنش جلس على الكنبة بينهما وهو يشعر بأن النوم بات أبعد عنه من الجبلاوى ولن يعد يتحمل عبء سره وحده فقص عليهما ما وقع له فى

رحلته العجيبة وانتهى والأعين تحملق فيه برعب ويأس ، وهمست عواطف.
آنت ضد الفكرة من أول الأمر
غير أن حنش قصد أن يخفف من وقع الكارثة فقال
ليس فى الإمكان تجنب مثل هذه الجريمة
فقال عرفة بحزن
-هيهات أن تتجه الظنون إليك.
لكنى قتلت عجوزا لا ذنب له ، ومن يدرى فلعله الخادم الذى أرسله الجبلاوى إلى قاسم؟
وغشيتهم فترة صمت قاتمة آالسهاد المرير حتى قالت عواطف
ألا يحسن بنا أن نام ؟
فقال عرفة
ناما أنتما ، أما أنا فلا نوم لى الليلة
وانحط الصمت مرة أخرى فوق رءوسهم وإذا بحنش يسأله
ألم تلمح الجبلاوى أو تسمع صوته ؟
فهز رأسه فى ضيق قائلا
آلا-. .
لكنك رأيت فى الظلام فراشه-.
آما نرى بيته
فقال حنش فى حسرة
ظننت غيابك انقضى فى محادثته-. .
البيت
فقالت عواطف بقلق
ما أسهل الخيال خارج
-أنت تبدو آالمحموم ومن الأفضل أن تنام.
من أين يجئ النوم ؟
لكنه شعر بصدق قولها فيما ينتابه من حرارة وذهول وعاد حنش يقول بحسرة
آنت على بعد ذراع من الوصية لكنك لم تنظر فيها!

وتقلص وجهه من الألم فقال حنش
يا لها من رحلة شاقة وخاسرة-! .
نعم
ثم بنبرة جديدة حادة
-لكنها علمتنى أنه لا ينبغى أن نعتمد على شئ سوى السحر الذى بين أيدينا ألا ترى انى غامرت برحلة جنونية جريا وراء فكرة ربما آانت أبعد ما يكون عن ظنى؟
أن يكابد حال اضطراب فى العقل-.
والنفس
نعم ، لم يقل غيرك أحد أن آتابه المشهور آتاب سحر ، فقال عرفة وقد بدا أآثر من قبل
تجربة الزجاجة ستنجح اقرب مما تصور ، وستكون جد نافعة إذا احتجنا للدفاع عن النفس
وأنذر الصمت المخيف بالعودة فقال حنش
الوصول إلى البيت الكبير وصاحبه دون تلك المغامرة
فقال عرفة بحماس
ليتك عرفت من السحر ما يمكنك من
السحر لا نهاية له، ليس بين يدى منه اليوم إلا بعض الأدوية ومشروع زجاجة للدفعا أو للهجوم، أما ما يمكن أن يوجد لا-. يحيط به خيال
فقالت عواطف فى ضجر:
دنيا أخرى، وما آنت لتفيد شيئا من محادثته لو-.
وقعت، ولعله نسى الوقف والنظارة والفتوات والأحفاد والحارة
ما آان ينبغى أن نفكر إطلاقا فى تلك المغامرة ، جدنا من دنيا ونحن من
وغضب عرفة بلا سبب ظاهر، ولكن حالته الطارئة آانت تبرر آل غريب، وقال بحدة:
-هذه الحارة المغرورة الجاهلة؟ ماذا تدرى من الأمر ؟ لا شئ .. ليس لديها إلا الحكايات والرباب وهيهات أن تعمل بما تسمع ويظنون حارتهم قلب الدنيا، وما هى إلا مأوى البلطجية والمتسولين وآانت فى البدء مرتعا قفرا للحشرات حتى حل بها جدآم الواقف.
وأجفل حنش على حين بللت عواطف خرقة وهمت بوضعها على جبينه ولكنه أبعد يدها بحدة وقال:
أنا عندى ما ليس عند أحد ولا الجبلاوى نفسه عندى السحر وهو يستطيع ان يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة-.

وقاسم مجتمعين
قالت عواطف بتوسل:
متى تنام ؟-.
عندما تخمد النار المشتعلة فى رأسى
فتمتم حنش بغشفاق

فهتف عرفة
أوشك الصبح أن يطلع.
فليطلع ، ولن يطلع حتى يقضى السحر على الفتوات، ويطهر النفوس من عفاريتها، ويجلب من الخير ما يعجز الوقف عن-.
جزء منه ويصير هو الغناء المنشود الذى آن يحلم به أدهم
وتنهد من اعماقه ثم طرح راسه على الجدار فى إعياء فأملت عواطف أن يجئ النوم عقب ذلكن وإذا بصوت يجلجل فى السكون بقوة هزة النفوس وتبعته أصوات صراخ وعويل وثب عرفة قائما وهو يقول برعب:
جثة الخادم اآتشفت!
فقالت عواطف من حلق جاف
من أدراك أن الأصوات قادمة من البيت الكبير-. .
جرى عرفة إلى الخارج فتبعاه على الأثر وقفوا أمام الربع برءوس متجهة نحو البيت الكبير
آانت أخر الظلمة ترق وتشف عن إمارات الصباح وفتحت نوافذ وأطلت رءوس واتجهت جميعا نحو البيت الكبيرن وجاء رجل من أقصى الحارة مهرولا نحو الجمالية، فلما مر بهم سأله عرفة:
ماذا جرى يا عم ؟
فأجابه دون توقف
-من بعد العمر الطويل مات الجبلاوى!

103

لله الأمر
انقلب ثلاثتهم إلى البدروم وعرفة لا تكاد تحمله قدماه فانحط على الكنبة وهو يقول:

الرجل الذى قتلته آان خادما اسود تعيس المنظر ، وآان نائما فى الخلوة

لم ينبس أحد منهما ودفنا نظريهما فى الأرض متحاشيين عينيه الزائغتين فقال بحدة

أراآما لا تصدقان ! أقسم لكما أننى لم اقترب من فراشه

فتردد حنش مليا لكنه شعر بان الكلام خير على أى حال من ترآه للصمت فقال بحذر

لعلك لم تتبين وجهه من شدة المفاجأة ؟

فهتف بيأس

أبدًا ، أنت لم تكن معى!

فهمست عواطف بخوف

-أخفت من صوتك.

وغادرهما مهرولا إلى الحجرة الخلفية وقعد فى الظلام وهو يرتجف من الاضطراب أى جنون دفعه إلى تلك الرحلة المشئومة !اجل آانت رحلة مشئومة إن الأرض تميد به وتنفث من جوفها الأحزان، ولم يعد له من أمل إلا هذه الحجرة العجيبة.

وأشرق أول شعاع للشمس فإذا الناس جميعا مجتمعون فى الحارة حول البيت وتسربت الأخبار وشاعت وبخاصة عقب زيارة الناظر للبيت زورة قصيرة ثم عودته إلى بيته وتناقل الناس أن لصوصا سطوا على البيت الكبير من خلال نفق حفوره تحت السور الخلفى فقتلوا خادما أمينا.

ولما علم الجبلاوى بالخبر تأثر تأثرا لم تحتمله صحته الواهية فى تلك الذروة من العمر ففاضت روحه، وثار الغضب بالنفوس حتى غطى دخانه الأسود على الدموع والصراخ، وهتف عرفة لما بلغته النباء بزوجه وحنش:

ها هى الأنباء الصادقة

ثم ذآر من توه أنه على أى حال تسبب فى موته فلاذ بصمت الخجل والألم ولم تجد عواطف ما تقوله فغمغمت

فليرحمه الله

وقال حنش

لم يمت ناقص عمر!

فقال عرفة بنبرة الرباب الحزينة

لكننى أنا سبب موته، أنا من دون أحفاده جميعا حتى الأشرار منهم وما آآثرهم

فبكت عواطف وهى تقول

ذهبت بنفس لا تشوبها شائبة سوء

وإذا بحنش يتساءل فى قلق

ألا يمكن أن يستدل علينا ؟

فهتفت عواطف

فلنهرب

فأشار إليها عرفة حانقا وهو يقول

وبذلك نقدم أسطع دليل على جريمتنا!

وترامت من الطريق المحتشد أصوات متلاطمة

-يجب قتل الجانى قبل دفن الرجل.

يا ألعن جيل فى حارتنا حتى آبار الأشرار احترموا هذا البيت طيلة ماضينا، وحتى إدريس نفسه علينا اللعنة إلى يوم-. القيامة

ليس القتلة من حارتنا، منذا يتصور ذلك-. .

سوف يعرف آل شئ-.

علينا اللغنة إلى يوم القيامة

واشتد اللطم والندب حتى الهارت أعصاب حنش فقال

-وآيف نبقى فى الحارة بعد اليوم.

واقترح آل جبل أن يدفن الجبلاوى فى مقبرة جبل لاعتقادهم من ناحية ألهم أقرب نسبا إليه من الآخرين ولألهم آرهوا أن يدفن فى المقبرة التى تضم إدريس فيما تضم من رفات أسرة الواقف من ناحية أخرى وطالب آل رفاعة أن يدفن فى القبر الذى دفن فيه رفاعة بيده، وقال آل قاسم إن قاسم خير أحفاد الواقف وإن قبره هو أليق قبر بجثمان الجد العظيم، وآادت ان تقع فتنة فى الحارة ولما يدفن الرجل ، لكن الناظر قدرى أعلن أن الجبلاوى سيدفن فى المسجد الذى أقيم فى مكان حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير، ولاقى هذا الحل ارتياحا عاما ملحوظا وغن أسف أهل الحارة على حرمالهم من مشاهدة جنازة الجد آما حرموا من قبل من مشاهدة الرجل فى حياته وهامس آل رفاعة فرحين بأن الجبلاوى سيدفن فى القبر الذى دفن فيه رفاعة بيده، لكن أحدا غيرهم لم يكن يصدق تلك الحكاية القديمة، وراحوا يسخرون منهم حتى ثار عجاج فتوهم وأوشك أن يلتحم فى معرآة بالسنطورى وعند ذاك تصدى سعد الله للجميع وصاح منذرا:

-سأآسر رأس أى مكابر يحاول النيل من احترام هذا اليوم الحزين.

ولم يشهد الغسل إلا خدمه المقربين وهم الذين آفنوه وأودعوه نعشه، حملوا النعش إلى البهو الكبير الذى شهد أخطر أحداث الأسرة آعهده بالنظارة إلى أدهم وثورة غدريس عليه ثم دعى للصلاة عليه الناظر ورءوس جبل ورفاعة وقاسم ، وورى بعد ذلك فى قبره والشمس تميل نحو الغروب، وفى المساء أم السرادق جميع اولاد الحارة وذهب إليه عرفة وحنش

فيمن ذهب من آل رفاعة وبدا وجه عرفة الذى لم يذق طعم النوم منذ ارتكب جريمته آوجه ميت، و لم يكن للناس من حديث إلا أمجاد الجبلاوى قاهر الخلاء وسيد الرجال ورمز القوة والشجاعة صاحب الوقف والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة وبدا عرفة حزينا ولكن ما آان يدور بنفسه لم يخطر لأحد على بال، ذلك الذى اقتحم البيت غير مبال بجلاله الذى لم يتاآد من وجود جده إلا عند موته الذى شذ عن الجميع ولوث يديه إلى الأبد وتساءل آيف يمكن التكفير عن هذه الجريمة ؟ إن مآثر جبل ورفاعة وقاسم مجتمعة لا تكفى القضاء على الناظر والفتوات وانقاذ الحارة من شرورهم لايكفى تعريض النفس لكل مهلكة لا يكفى تعليم آل فرد السحر وفنونه وفوائده لا يكفى شئ واحد يكفى هو أن يبلغ من السحر الدرجة التى تمكنه من إعادة الحياة إلى الجبلاوى ! الجبلاوى الذى قتله أسهل من رؤيته فلتهبه الأيام القوة حتى يضمد الجرح النازف فى قلبه، وهؤلاء الفتوات ذوو الدموع الكاذبة لكن أه ثم أه لم يأثم أحدهم آما اثم وآان الفتوات يجلسون واجمين يرآهم الخزى والهوان ستقول الحوارى إن الجبلاوى قتل فى بيته ومن حوله الفتوات الكبار يحششون لذلك تتوعد نظراتهم بالانتقام والويل والموت يطلان من عيونهم وعندما عاد عرفة إلى البدروم فى أخر الليل جذب عواطف إليه وسالها فى استغاثة يائسة:

عواطف صارحينى برأيك ، هل ترينى مجرما ؟

فقالت برقة

أنت رجل طيب أنت أطيب من صادفت فى حياتى ولكنك أتعسهم حظا

فأغمش عينيه وهو يقول

لم يتجرع أحد قبلى الألم آما تجرعته-. .

نعم . أعرف ذلك

وقبلته بشفتين باردتين وهمست

أخشى أن تحل بنا اللعنة

فحول عنها وجهه وقال حنش

لست مطمئنا سيكتشف أمرنا اليوم أو غدا ، لا أتصور أن يعرف آل شئ عن الجبلاوى أصله، وقفه، سيرته فى أبنائه ،-! اتصالاته بجبل ورفاعة وقاسم ، وأن يجهل فقط موته

فنفخ عرفة فى ضيق وسأله:

هل عندك حل غير الهرب ؟

فلزم حنش الصمت ثم فعاد الآخر يقول

أما أنا فعندى خطة ، غير أنى أود أن أطمئن إلى نفسى قبل الشروع فى تنفيذها إذا لا أستطيع أن أعمل إن آنت مجرما.-

فقال حنش بفتور:

إنك برئ

فقال بحدة

التى ستقع عجائب وستكون ذروة

العجائب أن تعود الحياة إلى الجبلاوى تأوهت عواطف أما حنش فقال مقطبا

سأعمل يا حنش ، لا تخف علينا ، فإن الحارة ستشغل عن الجريمة الكبرى بالأحداث

هل جننت ؟

فقال بصوت المحموم

-إن آلمة من جدنا آانت تدفع الطيبين من أحفاده إلى العمل حتى الموت ، موته أقوة من آلماته، إنه يجب على الأبن الطيب أن يفعل آل شئ أن يحل محله أن يكونه ، أفهمت ؟

104

تأهب عرفة لمغادرة البدروم بعد أن سكت أخر صوت فى الحارة أوصلته عواطف حتى الدهليز محمرة العينين من البكاء وآانت تقول فى تسليم من لا حيلة له:

فلتحرسك العناية

أما حنش فتساءل فى اصرار

لم لا أصحبك ؟

فقال عرفة

الهرب أيسر على واحد منه على اثنين

فقال له ناصحا وهو يربت ظهره

-لا تستعمل الزجاجة إلا عند الضرورة.

فأوما برأسه موافقا وذهب ، ألقى نظرة على الحارة الغارقة فى الظلام ثم مضى نحو الجمالية ودار دورة آبيرة شملت حارة الوطاويط والدراسة والخلاء فيما وراء البيت الكبير حتى انتهى إلى سور بيت سعد الله المشرف على الخلاء من ناحية الشمال واتجه نحو موضع فى منتصف السور وتحسس الأرض حتى عثر على حجر فأزاحه ثم غاص فى الممر الذى داب على حفره - هو وحنش - ليلة بعد أخرى، زحف على بطنه حتى نهايته ثم عالج بيديه القشرة الرقيقة التى تسده ونفذ منها

إلى حديقة بيت الفتوة آمن وراء السور وألقى نظرة على المكان فرأ ' فى البيت نافذة مغلقة تنضح بضوء خافت أما الحديقة فقد غشيها النوم والظلام إلا نور نافذة المنظرة الساهرة، ومن المنظرة ترامت بين أونة وأخرى عربدات الساهرين وضحكاتهم الغليظة، استل من صدره خنجرا ولبث متوثبا والوقت يمر أثقل من الذنوب، لكن الغرزة انفضت عقب وصوله بنصف

ساعة، فتح بابها وخرج الرجال تباعا نحو الباب الخارجى المفضى إلى الحارة والبواب يتقدم بفانوس فى يده وأغلق الباب وعاد البواب متقدما سعد الله نحو السلاملك، تناول عرفة من الأرض حجرا بيسراه وتسلل متوسا والخنجر بيمناه ثم آمن وراء نخلة حتى هم سعد الله بإرتقاء أول درجة من درجات السلم فانقض عليه وأغمد خنجره فى ظهره فوق القلب ندت عن الرجل صرخة ثم تقوض بتاوه التفت البواب مذعورا لكن الحجر أصاب الفانوس فأطفأه وحطمه ثم جرى عرفة مسرعا نحو السور الذى جاء منه وصرخ البواب صرخة مدوية وسرعان ما تدافعت أقدام وتلاطمت أصوات فى الداخل وفى أخر الحديقة وعثر عرفة فى جرية بقائم آأنه أصل شجرة مقطوعة فسقط على وجهه وهو يحس بألم بهصرة فى ساقة وآوعه، لكنه تغلب على ألمه وقطع بقية المسافة إلى النفق زحفا وارتفعت الأصوات واشتد وقع الأقدام رمى بنفسه فى النفق وزحف بسرعة حتى خرج إلى الخلاء ونهض وهو يئن ثم اندفع شرقا وقبل أن يدور مع سور البيت الكبير التفت وراءه فرأى أشباحا تندفع نحوه وسمع صوتا يصيح " : من هنا " ، فضاعف من سرعته رغم ألمه حتى بلغ نهاية السور الخلفى للبيت الكبير وعندما عبر الفراغ الذى يفصل بين البيت الكبير وبيت الناظر لمح أضواء آالمشاعل وسمع ضجة فاندفع فى الخلاء متسمتا سوق المقطم وشعر بأن الألم سيقهره عاجلا أو أجلا، وأن أقدام المطاردين تقترب وأصواتهم تتعالى صارخة فى السكون:

"أمسك .. حلق " ، عند ذاك اخرج الزجاجة من عبه الزجاجة التى قضى الشهور فى تجربتها ثم توقف عن الجرى واستقبل القادمين بوجهه واحد بصره حتى تراءت له أشباحهم ثم قذف الزجاجة عليهم وما هى إلا ثانية حتى دوى انفجار لم تعرفه أذن من قبل وتتابعت صرخات وتأوهات وواصل جريه وقد آفت الأقدام عن مطاردته وعند حافة الخلاء ارتمى على الأرض وهو

يلهث ويئن لبث فى ألم وعجز وحيدا تحت النجوم ونظر وراءه فلم ير إلا ظلاما وصمتا وجعل يمسح الدم السائل على ساقه بيده وسار متمهلا نحو الدراسة وفى أول الدراسة راى شبحا قادما فنظر نحوه بحذر وخوف ولكن القادم مر به دون أن يلتفت إليه فتنهد فى ارتياح ومضى راجعا فى نفس الدورة التى جاء بها ولما اقترب من حارة الجبلاوى ترامت إلى أذنه ضجة حارة غير مألوفة فى ذلك الهزيع من الليل خليط من الأصوات الهادرة والبكاء والصرخات الغاضبة ونذر شر تتطاير فى الظلام تريد مليا ثم تقدم ملتصقا بالجدران والقى نظرة من عين واحدة عند رآن الحارة فرأى خلقا آثيرا متجمعا فى الأخر فيما بين بيتى الناظر وسعد الله على حين بدا ح قاسم خاليا مظلما وتسلل بحذاء الجدار حتى غيبه الربع ، ارتمى بين عواطف وحنش ثم آشف عن ساقه الدامية فارتاعت عواطف وذهبت مسرعة لتعود بطبق القلة المملوء بالماء وراحت

تغسل الجرح وهو يعض على أسنانه حتى لا تفلت منه صرخة ألم وساعدهم حنش وهو يقول بقلق:
الغضب يشتعل فى الخارج آالنار
فسأله عرفة بوجه منقبض
-ماذا قالوا عن الانفجار ؟
وصف الذين آانوا يطاردونك ما وقع فلم يصدقهم أحدن لكنهم وقفوا ذاهلين امام الجراح التى أصابت الوجوه والأعناق-.
وآادت حكاية الانفجار تغطى على مقتل سعد الله
فقال عرفة:
قتل فتوة الحارة وغدا يبدا التناحر بين الفتوات على مكانه، ثم نظر إلى زوجته المنهمكة فى تضميد جراحه برقة وقال-. :
عهد الفتوات موشك على الزوال وأولهم قاتل أبيك-.
لكنها لم تجبن وظلت عينا حنش تومضان فى قلق ثم أسند عرفة رأسه إلى يده من شدة الألم

105

فى باكر الصباح طرق طارق باب البدروم ولما فتحته عواطف رأت أمامها عم يونس بواب بيت الناظر فحيته برقة ودعته إلى الدخول لكنه قال وهو ثابت فى مكانه:
حضرة الناظر يطلب عم عرفة إلى مقابلته لاستشارة عاجلة-. .
ذهبت عواطف لإبلاغ عرفة دون ان تجد للدعوة العالية السرور الخليق بها فى غير الظروف التى تعانيها ومضت فترة قصيرة ثم جاء عرفة مرتديا خير ملابسه جلبابا أبيض ولاسة منقطة ومرآوبا نظيفا غير أنه آان يتوآأ على عصا لعرج طارئ غير خاف فرفع يده تحية وقال:
-تحت الأمر.
فسار البواب وهو يتبعه وآانت الكآبة تغشى الحارة من أولها إلى أخرها فالأعين قلقة آأنما تساءل فى خوف عما سيجئ به الغد من الكوارث وأعوان الفتوات تجمعوا فى المقاهى يتشاورون على حين تتبع العويل والنواح فى بيت سعد الله ودخل بيت الناظر وراء البواب فسار فى الممر المسقوف بعريشة الياسمين حتى بلغا السلاملك وتخيل أوجه الشبه بين هذا
البيت والبيت الكبير فوجدها آثيرة حتى ظن ألا اختلاف إلا فى الدرجة، وقال لنفسه بحنق تقلدونه فيما ينفعكم لا فيما ينفع الناس ! وسبقة البواب ليستأذن له ثم عاد ليشير إليه بالدخول فمضى إلى البهو الكبير حيث رأى الناظر قدرى جالسا فى انتظاره فى أقصى المكان وقف على بعد ذراع منه وهو ينحنى احتراما حتى تقوس ظهره، وبدا لعينيه من اول لمحة طويل

القامة قوى البنيان ممتلىء الوجه باللحم والدم ولما ابتسم إليه ردا على تيحته افتر فمه عن أسنان صفرة قذرة لا تناسب بها منظره بحال وأشار إليه أن يجلس إلى جانبه على ديوانه لكن عرفة اتجه إلى أقرب مقعد وهو يقول:

عفوا يا حضرة الناظر

لكن الناظر أصر على دعوته فأشار إلى الديوان قائلا بلطف وأمر معا

-هنا .. أجلس هنا.

فلم يجد بدا من الجلوس إلى جانبه فى أقصى الديوان وهو يقول لنفسه لاشك أنها حالة سرية، وتأآد ظنه حينما رأى البواب وهو يغلق باب البهو ولبث صامتا فى حال خضوع والناظر يرمقه بهدوء ثم قال الناظر فى نبرة هادئة آالمناجاة:

-عرفة ! لم قتلت سعد الله ؟

تجمد البصر تحت البصر وسابت المفاصل ودار آل شئ، وانقلب المستقبل ماضيا ورأى الرجل ينظر إليه بعين الواثق فلم يشك فى أنه عرف آل شئ آالقضاء والقدر ثم لم يمهله فقال بشئ من الحدة:

لا ترتعب ! لماذا تقتلون إذا آنتم ترتعبون؟ تمالك مشاعرك لتستطيع أن تجيبنى وخبرنى صراحة لم قتلت سعد الله ؟

وآره الصمت فقال وهو لا يدرى ما يقول

سيدى .. أنا!

فقال الناظر بحدة

-يا ابن الحقيرة أحسبتنى أهذا ! أو انى أتكلم دون دليل ؟

أجبنى لماذا قتلته ؟

وهو يتمزق من الحيرة واليأس جالت عيناه فى أرجاء البهو بحرآة لا معنى لها، فقال الناظر بصوت بارد آالموت

لا مهرب يا عرفة . وفى الخارج أناس لو علموا بأمرك لمزقوك بأسنانهم ولشربوا دمك- .

وآان النواح يشتد فى بيت الفتوة أما أماله فقد ووريت فى التراب ، وفتح فمه دون أن يقول شيئا

فقال الناظر بقسوة:

الصمت مهرب فى متناول اليد، سأدفع بك إلى الوحوش فى الخارج وأقول لهم هاآم قاتل سعد الله، وإن شئت أقول لهم-. هاآم قاتل الجبلاوى

هتف بصوت مبحوح:

-الجبلاوى!

حافر الأنفاق وراء الأسوار الخلفية نجوت فى المرة الأولى ووقعت فى الأخرى، لكن لماذا تقتل يا عرفة ؟

وقال فى يأس بلا قصد ولا معنى

برئ يا حضرة الناظر ، أنا برئ

فقال فى تهكم

-إذا أعلنت تهمتك فلن يطالبنى أحد بدليل، فى حارتنا الإشاعة حقيقة والحقيقة حكم، والحكم هو الإعدام، ولكن خبرنى عما دفعك إلى اقتحام البيت الكبير، ثم قتل سعد الله ؟

هذا الرجل يعرف آل شئ ، آيف؟ لا يدرى لكنه يعرف آل شئ وإلا فلماذا صب عليه اتهامه دون أهل الحارة جميعا ؟

هل آنت تقصد السرقة ؟

غضن بصره فى يأس لكنه لم يتكلم فهتف الناظر فى غضب

انطق يا أبن الأفاعى-. .

سيدى-.

لماذا تسعى إلى السرقة وأنت أفضل حالا من آثيرين

فقال بنبرة الاعتراف اليائسة

-النفس أمارة بالسوء.

ضحك الناظر بظفر، أما عرفة فساءل نفسه فى حيرة عما جعل الرجل يؤجل الفتك به إلى الآن ! بل لما لم يفض بسره إلى أحد الفتوات بدلا من استدعائه على ذلك النحو الغريب؟ وترآه الناظر لنفسه آأنما يعذبه ثم قال:

يا لك من رجل خطير-. .

أنا رجل مسكين

أيعد فى المساآين من يحوز سلاحا آسلاحك الذى هزئ بالنبابيت ؟ لا يبكى ميت على فقد بصره، هذا الرجل هو الساحر حقا لا هو وجعل الناظر يتلذذ بيأسه مليا ثم قال:

انضم احد خدمى إلى مطاريدك، وآان متأخرا عنهم فلم يصبه سلاحك ثم تبعك وحده فى هدوء فلم يشعرك بمطاردته-.

الخفية ثم عرفك عند الدراسة فلم يهاجمك خوفا على نفسه من مفاجأتك وسارع إلى فاخبرنى

فقال عرفة بلا وعى:

ألا يمكن أن يخبر أحدا غيرك ؟

فقال مبتسما

إنه خادم أمين-. .

ثم بنبرة ذات معنى

-الآن حدثنى عن سلاحك.

اخذت الغيوم تتكشف لناظرية الرجل يطمع فيما هو أثمن من حياقمن لكن ياسه آان محيطا، وأين المفر؟ قال بصوت منخفض:

هو أبسط مما يتصور الناس

فقست نظرته وتجهم وجهه وقال

فى وسعى أن أفتش بيتك الآن لكننى اتحاشى لفت الأنظار إليك ألا تفهم ؟

وسكت مليا ثم أردف

لن قملك ما دمت تطيعنى

آان يتكلم ونذر الوعيد تتطاير من عينيه فقال عرف وقد طفت باليأس روحه

ستجدنى رهن مشيئتك-. .

بدأت تفهم يا ساحر حارتنا، لو آان مقصدى قتلك لكنت الساعة فى بطون الكلاب

ثم تنحنح وواصل حديثه قائلا

دعنا من الجبلاوى وسعد الله وحدثنى عن سلاحك ما هو ؟

فقال بدهاء

زجاجة سحرية!

فحدجة بنظرة ارتياب وقال

أفصح-. .

فقال وهو يسترد شيئا من الطمأنينة لول مرة لغة السحر لا يتكلمها إلا أهلها

ألا تفصح حتى ولو وعدتك بالسلامة ؟

فضحك باطنة ولكنه قال بجد ظاهر

ما قلت إلا الحق

فنظر الرجل إلى الأرض قليلا ثم رفع رأسه متسائلا

ألديك منها الكثير ؟-.

ليس لدى منها شئ الساعة

فعض الناظر على أسنانه هاتفا

يا أبن الأفاعى-. .

فقال عرفة ببساطة

-فتش بيتى لترى صدقى بعينيك.
أتستطيع أن تصنع مثلها ؟
فقال بثقة
بكل تأآيد
فشبك ذراعية على صدره من شدة الانفعال وقال
أريد منها الكثير
فقال عرفة
سيكون لك منها ما تشاء
وتبادلا نظرة تفاهم لأول مرة وإذا بعرفة يقول بجرأة
سيدى يريد الاستغناء عن الفتوات الملاعين ؟
فومضت بعينى الرجل نظرة غريبة وسأله
صارحنى بما دفعك إلى اقتحام البيت الكبير؟
فقال عرفة ببساطة
الخادم الأمين عن غير قصد منى
فحدجه بنظرة ارتياب وقال
لا شئ إلا حب الاستطلاع وقد ساءنى مقتل
تسببت فى موت الرجل الكبير
فقال عرفة بحزن
شد ما يتقطع قلبى حزنا لذلك
فهز الناظر منكبيه قائلا
ليتنا نحيا مثله.
يا لك من منافق أثيم لا شئ يهمك إلا الوقف وقال:
أمد الله فى عمرك
فعاد يسأله بارتياب
الم تذهب إلا جريا وراء الاستطلاع ؟
بلى

ولماذا قتلت سعد الله؟

فقال بصراحة

لأنني مثلك أود القضاء على جميع الفتوات

فابتسم الرجل وقال

إنهم شر مستحكم-. .

لكنك في الحق تبغضهم لما يأخذون من أموال الوقف لا لشرهم-.

الحق نطقت يا سيدى

فقال باغراء

ستثرى فوق ما آنت تحلم

فقال عرفة بمكر

ولا غاية لى إلا ذلك

فقال الناظر بارتياح

-لسحرك فى حمايتى ، وسيكون آل آل ما تشتهيه نفسك!

106

لا ترهق نفسك بالعمل نظير الملاليم ، تفرغ

جلس ثلاثتهم على الكنبة ، عرفة يقص ما حدث له وعواطف وحنش يتابعانه بانتباه وانفعال وفزع حتى ختم عرفة حديثه المثير بقوله:

لا اختيار لنا ، إن جنازة سعد الله لم تخرج بعد ، فإما القبول وإما الإبادة

فقالت عواطف

وإما الهرب-. !

لا مهرب من عيونه التي تحيط بنا-.

لن نكون فى آنفه أمنين

تجاهل قولها آما يود أن يتاجهل أفكاره وتحول إلى حنش قائلا

ما لك لا تتكلم ؟

فقال حنش بجد وحزن

-عدنا إلى هذه الحارة يوم عندنا بأمال بسيطة محدودة، أنت وحدك المسئول عن التغير الذى وقع بعد ذلك، عن تعلقنا بالآمال الكبيرة وآنت أعارض طموحك بادئ الأمر ولكنى عاونتك دون تردد ، وأخذت أقتنع برأيك رويدا رويدا، حتى لم يعد لى

من أمل إلا أمل حارتنا فى الخلاص والكمال، واليوم تفاجئنا بخطة جديدة ستصبح بها آلة رهيبة لاسيذلال حارتنا ، آلة لا يمكن أن تقاوم ولا أن تبيد وإن جاز أن يقاوم فتوة أو يقتل وقالت عواطف:

ولا أمان لنا بعد ذلك فقد ينال منك ما يريد ثم يتخلص منك بحيلة آما يدبر الأن للفتوات

آان مقتنعا فى أعماقه بما يقولان ولا يكف عن التفكير فيه لكنه قال وآأنما يحاور نفسه

سأجعله دائما فى حاجة إلى سحرى

فقالت عواطف

ستكون على خير الأحوال فتوته الجديد

فقال حنش مؤيدا

نعم ، فتوة سلاحه زجاجة بدلا من النبوت، واذآر مشاعره نحو الفتوات لتعرف ما ستكون عليه نحوك

واحتد عرفة غضبا فقال

-ما شاء الله ، آأننى الطامع وأنتما الزاهدان، إنما انا الأيمان الذى أصبحتما به تؤمنان، وما سهرت الليالى فى الحجرة الخلفية وما عرضت نفسى للموت مرتين إلا لخير حارتنا، فإذا آنتما ترفضان ما فرض علينا دون اختيار فأشيرا على بما يجب فعله.

ونظر إليهما بتحد غاضب فلم ينبس منهما أحد، وآان اللم يعتصره والدنيا تبدو آابوسا خانقا لعينيه ودهمة شعور غريب بأن ما يعانيه ما هو إلا انتقام لتهجمه القاسى على جده، فازداد ألما وحزنا، وهمست عواطف بتوسل يائس:

الهرب

فتساءل بحدة وحنق

وآيف الهرب ؟-.

لا أدرى لكنه لن يكون أصعب عليك من التسلل إلى بيت الجبلاوى

فنفخ يائسا وقال بهدوء آالرثاء

الناظر الآن بانتظارنا ، عيونه حولنا ، آيف ندبر الهرب ؟

وآان صمت ، يا له من صمت آصمت القبر الذى يضم الجبلاوى ، فقال بتشف

لا أريج أن اتحمل الهزيمة وحدى

فتأوه حنش قائلا آالمعتذر

لا خيار لنا

ثم بحرقة

قد يلد المستقبل فرصة للنجاة

فقال عرفة بلب شارد

من يدرى ؟

ومضى إلى الحجرة الخلفية وحنش فى أثره وأخذا يعبئان بعض القوارير بقطع من الزجاج والرمل وغيرهما ، وإذا به يقول

-ينبغى أن نتفق على رموز للدلالة على خطوات أعمالنا السحرية ، وأن نسجل صورها فى آراسة أمينة سرية حتى لا يتعرض جهدنا للضياع أو يكون موتى نذير النهاية لهذه التجارب، ومن ناحية أخرى أرجو أن يكون لديك الاستعداد لتعلم السحر، فما ندرى شيئا عما يخبئه القدر لنا.

وواصلا عملهما بهمة عالية وحانت من عرفة التفاته إلى صاحبه فرأه متجهما فلم يخف عليه سره لكنه قال مداراة للموقف الغريب:

ستقضى هذه القوارير على الفتوات

فقال حنش فيما يشبه الهمس

لا لحسابنا ولا لحساب حارتنا

فقال دون أن يكف يداه عن العمل

ماذا عملت رباب الشاعر؟ وجد فى الماضى رجال أمثال جبل ورفاعة وقاسم، فماذا يمنع أن يجئ أمثالهم فى المستقبل؟

فقال حنش متنهدا

آدت أحسبك فى بعض الأوقات أحدهم

فضحك عرفة ضحكة جافة مقتضبة وتساءل

وهل عدلت بك عن ذلك هزيمتى ؟

فلم يجب ، فعاد الآخر يقول

حارتنا، أما أنا فلا يفهمنى أحد

ثم وهو يضحك

لن أآون مثلهم فى ناحية واحدة على الأقل، وهى أهم أهم آانوا ذوى أتباع من أولاد
آان فى وسع قاسم أن يكتسب تابعا قويا بكلمة حلوة، أما أنا فتلزمنى أعوام وأعوام حتى أستطيع أن أدرب رجلا على-
عملى وأجعل منه تابعا
وفرغ من تعبئة زجاجة فأحكم سدادها وعرضها أمام ضوء المصباح فى إعجاب ثم قال:
-هى اليوم ترعب الأفئدة وتدمى الوجوه بالجراح، وغدا قد تقتل قتيلا ، فلت لك إنه ليس للسحر من نهاية.

107

من فتوة حارتنا؟ مضى الناس يتساءلون عنه مذ رقد سعد الله فى قبره، وأخذ آل فريق يزآى رجله فآل جبل قالوا إن يوسف أقوى فتوات الحارة وأوثقهم نسبا بالجبلاوى، وقال آل رفاعة إنهم حى أنبل من عرفته الحارة فى تاريخها، الرجل الذى دفنه الجبلاوى فى بيته وبيديه، وقال آل قاسم إنهم هم الذين لم يستغلوا النصر لصالح حيهم ولكن لصالح الجميع فكانت الحارة على عهد رجلهم وحدة لا تجزأ يسودها العدل والإخوة، وآالعادة بدأت الخلافات همسا فى الغرز، ثم تطايرت فى الجو فثار الغبار وتحفزت النفوس لشر المهالك، ولم يعد فتوة يسير بمفرده، وإذا سهر فى قهوة أو غرزة أحاط به الأتباع مدججين بالنبابيت، وراح آل شاعر يدعو بالرباب على فتوة حيه، وتجهم أصحاب الدآاآين والباعة وآدر التشاؤم وجوههم وتناس الناس موت الجبلاوى، ومقتل سعد الله بما رآهم من هم وتوجس للخوف، وحق لأم نبوية بياعة النابت أن تقول باعلى صوت:
قطعت العيشة ويابخت من آان الموت نصيبه
وذات مساء ترامى صوت من فوق سطح بحى جبل وهو يصيح
يا أولاد حارتنا اسمعوا واجعلوا العقل حكما بيننا وبينكم حى جبل أقدم أحياء الحارة، وجبل أول رجالها الكرام، فلا مذلة-
لأحد إذا ارتضيتم يوسف فتوة لحارتكم
فتعالت أصوات الاستهزاء من حيى رفاعة وقاسم مصحوبة بقذائف السب واللعن وما لبث أن تجمع الصغار أمام الربوع وراحوا
ينشدون:

يايوسف يا وش القملة   مين قلك تعمل دى العملة

واشتدت القلوب غلظة وسوادا ولم يؤجل وقوع الكارثة إلا أن التناحر آان يقوم بين ثلاث قوى متضادة معا، وإنه آان لابد من

أن يتحد حيان أو أن ينسحب من التنافس حى مختار، ووقعت أحداث بعيدا عن الحارة ذاتها فقد التقى بائعان فى بيت القاضى أحدهما من جبل والآخر من قاسم فاشتبكا فى معرآة حامية فقد فيها القاسمى أسنانه والجبلى عينا، وفى حمام السلطان نشبت معرآة أخرى بين نسوة من جبل ورفاعة وقاسم وهن عرايا فى المغطس فانغرست الأظافر فى الخدود والأسنان فى السواعد والبطون والأيدى فى الضفائر، وتتطايرت الكوز وأحجار الحك وألياف التدليك وقطع الصابون، وانجلت المعرآة عن إغماء امرأتين وإجهاض ثالثة وبض أجساد لا حصر لها بالدم، وعند ظهيرة اليوم نفسه عقب عودة المتعارآات تباعا إلى الحارة ، واستؤنفت المعرآة من جديد من فوق الأسطح واستعمل فيها الطوب والسباب الفاحش، وسرعان ما امتلأت سماء الحارة بالقذائف وارتفع صراخها إلى السحاب ، وإذا برسول من قبل الناظر يتسلل خفية إلى يوسف فتوة جبل ويدعوه إلى مقابلة الناظر، وحرص الفتوة على أن يقابل الناظر دون أن يدرى به أحد، واستقبله الناظر بلطف وطلب إليه أن يعمل على تهدئة الخواطر فى حيه وبخاصة أن ذلك الحى هو التالى موقعه لبيت الناظر وعندما صافحه مودعا قال له إنه يتمنى أن يستقبله فى المرة الأتية وهو فتوة الحارة آلها، وخرج الرجل من بيت الناظر ثملا بتأييده الصريح له وأمن بان الفتونه باتت فى متناول يديهن وما لبث أن الزم حيه بالنظام وهامس الناس فى حيه بما يدخره الغد لهم من سيادة وجاه وتسربت من حيهم النبأ إلى بقية الحارة فهاجت الخواطر ولم تمض أيام بعد ذلك حتى تقابل عجاج والسنطورى سرا فاتفقا فيما بينهما على القضاء على يوسف من ناحية، ثم على الاقتراع على الفتونة بعد النصر من ناحية أخرى، وعند فجر اليوم التالى تجمع الرجال من ىىل قاسم ورفاعة فهاجموا حى جبل، فدارت معرآة شديدة ، لكن يوسف وآثرة من اتباعه قتلوا وهرب الباقون وأذعن آل جبل للقوة يائسين وحدد العصر لإجراء القرعة المتفق عليها ، وعند العصر هرع القاسمية والرفاعية رجالا ونساء إلى راس الحارة أمام البيت الكبير، وامتدت جموعهم جنوبا حتى بيت الناظر وصمالا حتى بيت الفتوة الذى سيصبح ملكا للفائز بالقرعة، وجاء السنطورى وعصابته آما جاء عجاج وعصابته، فتبادلوا تحيات السلام والتعاهد، وتعانق عجاج والسنطورى أمام الجميع ، وقال عجاج بصوت سمعه جميع المتطلعين:

أنا وأنت أخوان ، وسنبقى أخوين فى جميع الأحوال

فقال السنطورى بحماس

-على الدوام يا سيد الجدعان.

وقف الحيان متقابلين يفصل بينهما فراغ أمام مدخل البيت الكبير وجاء رجلان - أحدهما من قاسم والآخر من رفاعة - بمقطف.

ملئ بالقراطيس فوضعاه وسط الفراغ ثم تقهقر آل إلى قومه، وأعلن على الجميع أن القادوم هو رمز عجاج وإن الساطور هو رمز السنطورى، وأنه وضعت نماذج صغيرة منها فى القراطيس مناصفة، وجئ بغلام ليأخذ - وهو معصوب العينين - من المقطف قرطاسا ، مد الغلام يده فى صمت متوتر ثم استردها بقرطاس فتحه وهو مايزال معصوب العينين وتناول ما فيه

ورفع به يده فهتف القاسمية:

السنطورى .. السنطورى

مد السنطورى إلى عجاج يده فتناولها الآخر وشد عليها باسما وتعالى هتاف حار

-يعيش السنطورى فتوة حارتنا.

ومن صفوف الرفاعية تقدم رجل إلى السنطورى مفتوح الذراعين ففتح له السنطورى ذراعيه ليعانقه لكن الآخر طعنه بسكين فى قلبه بمنتهى القوة والسرعة . سقط السنطورى على وجهه قتيلا سيطر الذهول لحظة ثم انفجر الصياح والوعيد والغضب وتلاقى الحيان فى معرآة دامية قاسية، لكن لم يكن يوجد فى القاسمية من يستطيع الوقوف أمام عجاج، فسرعان ما نفذت إلى قلوبهم الهزيمة وسقط من سقط وجرى من جرى ولم يجئ المساء حتى آانت الفتونة قد تقررت لعجاج، بينما ضج حى قاسم بالعويل ، انطلقت الزعاريد من حى رفاعة وراحوا يرقصون فى الطريق حول فتوهم - فتوة الحارة - عجاج وإذا بصوت يرتفع فوق الزغاريد صائحا:

-هس ، اسمعوا ! اسمعوا يا غنم.

تطلعوا فى عجب إلى مصدر الصوت فراوا يونس بواب الناظر يسير بين يدى الناظر نفسه الذى جعل يتقدم فى هالة من خدمه، مضى عجاج نحو موآب الناظر وهو يقول:

محسوبك عجاج فتوة الحارة وخادمكم

حدجه الناظر بنظرة ازدراء وقال فى الصمت الرهيب الذى غشى الحارة جميعا

يا عجاج لا أريد فى الحارة فتوة ولا فتونة

ذهل رجال رفاعة وماتت على شفاههم بسمات الظفر والطرب وتساءل عجاج فى دهشة

ماذا يقصد حضرة الناظر ؟

فقال الناظر بقوة ووضوح

لا نريد فتونة ولا فتوة دعوا الحارة تعيش فى أمان

فهتف عجاج ساخرا

أمان ؟

فسدد الناظر نحوه نظرة قاسية لكن الآخر تساءل فى تحد

-ومنذا يحميك أنت ؟

وإذا بالقوارير تنهال من أيدى الخدم على عجاج وأعوانه ودوى الانفجارات يزلزل الجدران وشظايا الزجاج والرمال تصيب الوجوه

والأطراف وتفجر الدماء، وانقض الفزع على النفوس آما تنقض الحدادى على الفراخ، فطاشت العقول وسابت المفاصل ، سقط عجاج وأعوانه فأجهز الخدم عليهم وتعالى الصوات فى حى رفاعة وزغاريد الشماتة فى جبل وقاسم، وتوسط يونس الحارة داعيا الجميع إلى الإنصات حتى ساد الصمت ، ثم صاح قائلا:
يا أولاد حارتنا جاءآم السعد والأمان بفضل حضرة الناظر أطال الله بقاه، فلا فتوة بينكم أو يغتال أموالكم بعد اليوم-. .
وارتفعت أصوات الهتاف إلى السماء

108

انتقل عرفة وأسرته بليل من بدروم حى الرفاعية إلى بيت الفتوة على يمين البيت الكبير وبذلك أمر الناظر وليس لأمره رد ، وجدوا أنفسهم فى مأوى آالحلم وراحوا يطوفون بالحديقة الغناء والمنظرة الأنيقة، والسلاملك والبهو إلى غرف النوم والجلوس والسفرة فى الدور الثانى والسطح وما يزدحم بجدرانه وأرآانه من بيوت الدجاج وبلاليص الأرانب وأعشاش الحمام وارتدوا لأول مرة ملابس فاخرة وتنفسوا هواء نقيا وتشمموا روائح ذآية وراح عرفة يقول:
صورة صغرى من البيت الكبير ولكن بلا أسرار
فتساءل حنش
وسحرك ؟ ألا يعد من الأسرار
ولاح بالذهول فى عينى عواطف وهى تقول
-لا يحلم أحد بشئ آهذا.
وتغير الثلاثة منظرا ولونا ورائحة ، ولكن لم يكد يستقر بهم المقام حتى جاءهم جمع من الرجال ومن النساء قال أولهم إنه البواب وثانيهم الطاهى وثالثهم البستانى ورابعهم مربى الطيور والأخريات للدار، فعجب عرفة لهم وسألهم:
من أذن لكم بالمجئ ؟
فقال البواب إنابة عنهم
حضرة الناظر وسرعان ما دعى عرفة إلى مقابلة الناظر فذهب من فوره، ولما جلسا جنبا إلى جنب فوق الإيوان بالبهو قال قدرى
سنتقابل آثيرا يا عرفة فلا يزعجك استدعائى لك
الحق قد أقلقت المكان والمجلس والرجل لكنه قال ببشاشة
-سيدى الخير والبرآة.

الدار ؟

فقال عرفة حياء

سحرك أصل الخير آله ، ترى هل أعجلتك

هى فوق الأحلام وبخاصة أحلام قوم فقراء مثلنا، واليوم جاءنا الخدم أشكالا وألوانا

فتفرس الناظر فى وجهه وهو يقول

هم رجالى أرسلتهم إليك ليخدموك وليحموك-! .

يحموننى

فقال قدرى وهو يضحك

-نعم ، ألا تعلم أن الحارة لا حديث لها إلا انتقالك إلى بيت الفتوة ويقولون فيما بينهم هو صاحب القوارير السحرية، وأهل الفتوات موتورون آما تعلم، والآخرون يموتون حسدا لذلك آله فأنت فى خطر محيط، ونصيحتى إليك ألا أمن أحد أن تسير بمفردك أو تبتعد عن دارك.

تجهم وجهه ما هو إلا سجين يحيط به الغضب والمقت واستدرك قدرى قائلا:

-لكن لا تخف فإن رجالى حولكن واستمتع بالحياة ما شئت فى بيتك وفى بيتى ماذا تخسر وراء ذلك إلا الخلاء والخرائب، ولا تنس أن أهل حارتنا يقولون إن سعد الله قتل بالسلاح الذى قتل به عجاج وأن الوسيلة التى تسلل منها القاتل إلى بيت سعد الله هى نفس الوسيلة التى تسلل منها إلى البيت الكبير من قبل، فقاتل عجاج وسعد الله والجبلاوى شخص واحد هو عرفة الساحر.

فهتف عرفة متشنجا:

هذه لعنة مسلطة على رأسى

فقال الناظر فى هدوء

-لا تخف ما دمت فى آنفى ومن حولك خدمى.

أيها اللئيم الذى أوقعنى فى سجنه ما أردت السحر إلا للقضاء عليك لا لخدمتك، اليوم يمقتنى من أحبهم وأود خلاصهم ولعل أقتل بيد أحدهم ، وقال برجاء:

وزع أنصبة الفتوات على الناس يرضوا عنك وعنا

فضحك قدرى هازئا ثم تساءل

و لم إذن آان القضاء على الفتوات ؟

وأردف وهو يتفحصه بقسوة

إنك تتلمس سبيلا إلى رضاهم ! دعك من هذا وتعود مثلى على مقت الآخرين لك ولا تنس أن ملاذك الحق هو رضاى عنك -.

فقال فى قنوط:

آنت وما زلت فى خدمتك

ورفع الناظر رأسه نحو السقف آأنما يتسلى بتأمل زخارفه، ثم أعاد رأسه إليه قائلا

أرجو ألا يلهيك متاع الحياة الجديدة عن سحرك

فهز رأسه بالإيياب فقال الرجل

وإن تكثر ما استطعت من القوارير السحرية

فقال عرفة بحذر

لست بحاجة إلى أآثر مما لدينا منها

فدارى الآخر حنقة بابتسامة وقل

-أليس من الحكمة أن ندخر منها عددا موفورا ؟

لم يجب ، ودهسه يأس ، وتساءل هل جاء دوره هكذا سريعا ؟

وسأله بغتة:

سيدى الناظر إذا آان مقامى يضايقك فاسمح لى بالذهاب إلى غير عودة

فتظاهر الرجل بالانزعاج وتساءل

ماذا قلت يا رجل ؟

فقال وهو يواجهه بنظرة صريحة

أنا أعلم أن حياتى رهن بحاجتك إلى

فضحك الرجل ضحكة لا مرح فيها ثم قال

فى

28

Page-لا تضننى أستهين بذآائك وأعترف لك بسلامة تفكيرك لكن آيف توهمت أن حاجتى إليك تقف عند القوارير ؟ أليس

وسع سحرك أن يصنع أعاجيب أخرى ؟

لكن عرفة واصل حديثه الأول قائلا بجفاء:

رجالك هم الذين أذاعوا سر ما قدمت لك من خدمات لست أشك فى ذلك لكن يجب أن تذآر آذلك أن حياتك فى حاجة
إلى ، قطب الناظر متوعدا لكن عرفة قال دون تردد
بعد-.
غد
أنت اليوم لا فتوات لك، ولا قوة عندك إلا بالقوارير، وما لذيك منها لا يغنى عنك شيئا، فإذا مت أنا اليوم تبعتنى غدا أو
مال الناظر عليه آالوحش فجأة فطوق عنقه بيديه وشد عليه حتى ارتعد جسمه لكنه سرعان ما خفف من قبضتيه ثم
سحبهما ، ثم ابتسم ابتسامة مقيته وقال:
انظر ما آنت ستدفعنى إليه سلاطة لسانك بينما لا توجد لدينا دواع للخصومة، وفى وسعنا أن نستمتع بالنصر وبالحياة-.
فى سلام
تنفس عرفة بعمق ليسترد روحه المذعورة على حين واصل الآخر حديثه قائلا:
لا تخف على حياتك منى فسأحرص عليها حرصى على الحياة نفسها ، تمتع بالدنيا ولا تنس سحرك الذى يجب أن تجنى-.
أزهار ثماره وأعلم بأن من يغدر منا بصاحبه فقد غدر بنفسه
-تجهم وجها عواطف وحنش وهو يعيد على مسمعيهما ذلك الحديث فى البيت الجديد وبدا أن ثلاثتهم تعوزهم الطمأنينة
الحقة فى ظل حياتهم الجديدة لكنهم تناسوا أسباب قلقهم عند العشاء حول مائدة حفلت بما لذ وطاب من طعام شهى
ونبيذ معتق ولأول مرة ارتفع صوت عرفة وهو يضحك واهتز جذع حنش وهو يقهقه ومضيا فى حياتهما آما شاءت الظروف
آانا يعملان معا فى حجرة وراء البهو أعداها للسحر ودأب عرفة على تسجيل الرموز التى اصطلحها عليها فى آراسة لم
يعلم بها سواهما أحد، ومرة قال له حنش فى أثناء العمل:
يا لنا من سجناء
فقال له محذرا
اخفض من صوتك فإن للحيطان أذانا
فمد حنش بصره نحو الباب فى حقد ثم عاد يقول فيما يشبه الهمس
أليس من الممكن أن نصنع سلاحا جديدا نقضى به عليه من حيث لا يدرى
فقال عرفة بامتعاض
لن يتاح لنا أن تجربة سرا بين هؤلاء الخدم فهو لن يخفى عليه شئ من أمورنا، وإذا قضينا عليه قضى علينا الموتورون من-.
أهل حارتنا قبل أن ندافع عن أنفسنا حياهم
لماذا تعمل إذن بهذا الجد آله ؟

فتنهد قائلا

-لأنه ليس إلا أن أعمل.

وآان يذهب عند الأصيل إلى بيت الناظر فيجالسه ويشاربه ثم يعود ليلا إلى داره فيجد حنش قد هيأ له الحديقة أو المشربية غرزة صغيرة فيحششان معا، ولم يكن معدودا فى الحشاشين من قبل، ولكن التيار جرفه، وطارد الملل وحتى عواطف أخذت تتلقن تلك الأشياء آان عليهم أن ينسوا الملل والخوف واليأس وإحساسا محزنا بالذنب آما آان عليهم أن ينسوا أمال الماضى العريضة ورغم ذلك فقد آان للرجلين عمل أما عواطف فما آان لها من عمل آانت تأآل حتى تتخم وتنام حتى تمل الرقاد وتقضى الساعات الطويلة فى الحديقة مستمتعة بشتى ألوان جمالها، وذآرت أنها باتت تنعم بالحياة التى تحسر عليها أدهم ، ما أثقلها من حياة وآيف تعد مطلبا تذهب النفس حسرات عليه، لعلها آانت تكون آذلك لو لم تكن سجنا ولم يكن ما يحيط بها عداوة وبغضاء، لكنها ستلبث سجنا مطوقا بالكراهية ولا مهرب منه إلا حول المجمرة ومن تأخر عرفة فى بيت الناظر، فخطر لها أن تنتظره فى الحديقة وتقدمت قافلة الليل وراء حادى القمر وهى جالسة تصغى إلى انغام الغصون ونقيق الضفادع، وانتبهت إلى صوت الباب وهو يفتح فاستعدت للقاء القادم غير أن حفيف ثوب قادما من ناحية

البدروم لفت سمعها، ثم رأت من موقفها شبح خادمة على ضوء القمر مضت نحو الباب دون أن تدرى بها وتقدم عرفة آالمترنح فانتحت الخادمة ناحية الجدار الممتد من السلاملك فلحق بها ثم رأتهما يلتحمان وقد أخفاهما ظل الجدار من ضوء القمر.

109

انفجرت عواطف آما ينفجر لامرأة من حارة الجبلاوى ، انقضت على الكائن المتلاحم آاللبؤة فهوت بقبضتها على رأس عرفة فتراجع ذاهلا مترنحا حتى اختل توازنه فوقع ، ثم أنشبت أظافرها فى عنق الخادمة وانهالت على رأسها نطحا حتى مزق صراخها سكون الليل، وقام عرفة من سقطته لكنه لم يجرؤ على الدنو من المعرآة وجاء حنش مهرولا وفى أعقابه عدد من الخدم، فلما عرف الموقف على حقيقته صرف الخدم، وخلص بين المرأتين بكياسة ولباقة حتى استطاع أن يعود بعواطف إلى البيت وهى تقذف بسيل من السباب والشتائم واللعنات، ومضى عرفة مترنحا إلى المشربية المطلة على الخلا وارتمى على شلته وحيدا فى الغرزة ثم مد ساقية وأسند رأسه إلى جدار وهو فى شبه غيبوبة ولحق به حنش بعد فترة قصيرة فأتخذ مجلسه أمامه حول المجرة صامتا ورمقه بنظرة سريعة ثم عاد ينظر إلى الأرض حتى قطع الصمت قائلا:

آان لا بد للفضيحة أن تقع

فرفع إليه عينين خجلتين وقال ممعنا فى الهرب

-أشعل النار!

ولبثا فى المشربية حتى قبيل الصباح وذهبت الخادمة فحلت محلها أخرى، وبدا لعواطف أن ذلك الجو المحيط بها يغرى بزلة بعد أخرى، وأخذت تؤول آل حرآة تصدر عن زوجها تاويلا سيئا يتناسب مع ارتيابها حتى أنقلبت الحياة جحيما وفقدت العزاء

الوحيد الذى آانت تتسلى به فى سجنها الملئ بالمخاوف، فلا البيت بيتها ولا الزوج زوجها، سجن بالنهار وماخور بالليل، وأين عرفة الذى أحبته؟ عرفة الذى تحدى بالزواج منها السنطورى والذى عرض نفسه للهلاك مرات فى سبيل الحارة حتى ظننته رجلا من رجال الرباب ، ما هو اليوم إلا وغد مث قدرى ومثلما آان سعد الله والحياة إلى جانبه عذاب مشتعل وخوف مؤرق وعاد عرفة ليلة من بيت الناظر فلم يجد لعواطف أثرا وشهد البواب بأنه رأها تغادر البيت أول الليل ثم لم تعد، وتساءل عرفة ورائحة الخمر تتطاير من أنفاسه:

أين ذهبت يا ترى ؟

فقال حنش باشفاق

إن تكن فى الحارة فهى عند جارتها القديمة أم زنفل بائعة المفتقة

فقال عرفة غاضبا

-المرأة لا تؤخذ باللين هذه حكمة آل حارتنا فلأهملها حتى تعود بنفسها ذليلة.

لكنها لم ترجع وانقضت عشرة أيام فقرر عرفة أن يذهب ليلا إلى أم زنفل متوخيا ألا يشعر بذهابه أحد، وفى الميعاد المضروب تسلل من البيت متبوعا بحنش وما آادا يقطعان خطوات حتى سمعا أقداما تتبعهما فالتفتا ورأهما فرأيا خادمين من خدم البيت ، فقال عرفة لهما:

ارجعا إلى البيت:

فأجابه أحدهما

-نحن نحرسك بأمر حضرة الناظر.

تميز غيضا لكنه لم يعقب وساروا نحو ربع قديم فى حى قاسم وصعدوا إلى طابقه الأخير حيث توجد حجرة أم زنفل ، طرق عرفة الباب مرات حتى فتح عن عواطف نفسها بوجه يعلوه النعاس ولما تبينت وجهه على ضوء مصباح بيدها قطبت متراجعة فتبعها رادا وراءه الباب واستيقظت أم زنفل فى رآن الحجرة وراحت تنظر بذهول نحو القادم، أما عواطف فقالت بحدة:

ماذا جاء بك ؟ ماذا تريد ؟ ارجع إلى بيتك المبارك عليك

وهمست أم زنفل بانزعاج وهى تحدق فى وجهه

عرفة الساحر

وقال عرفة لزوجته دون أن يلقى بالا إلى المرأة المترعجة

أعقلى وتعالى معى

فقالت بالحدة نفسها

لن أعود إلى سجنك ولن أفرط فى راحة البال التى أجدها فى هذه الحجرة-. .

لكنك زوجتى

فارتفع صوتها وهى تقول

زوجاتك هناك بالخير والبرآة

وقالت أم زنفل فى نبرة احتجاج

ارتكها لنومها وعد ف الصباح

فرماها بنظرة قاسية دون أن يوجه لها آلمة واحدة ثم نظر إلى وجته قائلا

آل رجل وله زلة

فهتفت

أنت نفسك زلة ولا آل الزلات

فمال نحوها قليلا وقال محرآا ألحان الرقة فى أوتار صوته

استغنى عنك-. .

لكنى انا استغنيت

فتساءل بامتعاض

عواطف أنا لايمكن أن

تبيعينى لغلطة أفلتت وأنا سكران ؟

فهتفت بتشنج

لا تعتذر بالسكر ، حياتك آلها أخطاء وستحتاج إلى عشرات الاعذار لتبررها، ولن أجنى من ورائها إلا المتاعب والعذاب-. .

هى على أى حال أفضل من الحياة فى هذه الحجرة

فابتسمت ابتسامة مريرة ساخرة وتساءلت

من يدرى ؟ خبرنى آيف ترآك السجانون لتجئ إلى هنا ؟-!

عواطف

فقالت باصرار

-لن أعود إلى بيت لا عمل لى فيه إلا التثاؤب ومعاشرة عشيقات زوجى الساحر العظيم.

وعبثا حاول أن يثنيها عن إصرارها قابلت لينة بالعناد وغضبه بالغضب ، وسبه بالسب، فارتد عنها يائسا ثم غادر المكان متبوعا بصاحبه والخادمين وسأله حنش:

ماذا أنت فاعل ؟

فقال بامتعاض

ما نفعله آل يوم

وسأله قدرى الناظر

هل من جديد عن زوجك ؟

فأجاب وهو يتخذ مجلسه إلى جانبه

عنيدة آالبغل ربنا يحفظ مقامك

فقال الناظر باستهانة

لا تشغل بالك بامرأة عندك خير منها

وجعل يتفحص عرفة باهتمام ثم سأله

هل تعرف امرأتك شيئا عن أسرار عملك ؟

فبادره عرفة بنظرة مريبة ثم قال

السحر لا يعرفه إلا ساحر-.. .

أخشى أن-.

لا تخشى شيئا لا ظل له من الوجود

وامتد الصمت ثوانى فعاد يقول فى جزع

لن تمتد لها يد بسوء وأنا على قيد الحياة

فكظم الناظر غيظه وابتسم وأشار إلى الكأسين المترعتين داعيا وهو يقول

-من قال إن يدا ستمتد إليها بسوء ؟

ولما توثقت الألفة بين قدرى وعرفة جعل يدعوه إلى سهراته الخاصة التى تبدأ عادة عند منتصف الليل شهد عرفة سهرة عجيبة فى البهو الكبير حفلت بكل ما ل وطاب من مأآل ومشرب ورقصت فيها نساء جميلات وهن عرايا حتى آاد عرفة يجن من الشراب والمنظر فى تلك السهرة ن رأى عرفة الناظر يعربد بلا حدود، مثل وحش مجنون ودعاه إلى سهرة فى الحديقة فى خميلة يحدق بها مجرى ماء مضاء الوجه بنور القمر وآان بين أيديهما فاآهة ونبيذ وأمامهما مليحتان إحداهما لخدمة المجمرة والأخرى لخدمة الجوزة وهب نسيم الليل يحمل عزف الأزهار ونغم عود وأصوات تغنى.

يا عود قرنفل فى الجنينة منعنع يعجب الجدعان الحشاشة المجدع

آانت ليلة بدرية يلوح قمرها مكتملا إذا مال غصن التوت الريان مع النسيم أو يبدو أعينا من الضياء خلال شبكة من الأغصان

والأوراق إذا رجع الغصن إلى مستقره وسرت فى يد المليحة والجوزة نشوة إلى رأس عرفة فدار مع الأفلاك وقال:

رحم الله أدهم

فقال الناظر باسما

ورحم الله إدريس ، ماذا ذآرك به ؟-

مجلسنا هذا-

آان ادهم يحب الأحلام ولا يعرف منها إلا ما أدخله الجبلاوى فى رأسه

ثم وهو يضحك

الجبلاوى الذى أرحته أنت من عذاب الكبر

انقبض قلب عرفة وانطفأت نشوته فغمغم محزونا

لم أقتل فى حياتى إلا فتوة مجرما- .

وخادم الجبلاوى-

على رغمى قتلته

فقال قدرى هازئا

-أنت جبان يا عرفة.

فهرب إلى القمر ينظر غليه خلال الغصون تارآا الغرزة لأنغام العود ثم جعل يسترق النظر إلى يد المليحة وهى ترص الحجر وغذا بالناظر يهتف به:

أين أنت يا ابن المذهول ؟

فالتفت نحوه باسما وهو يسأل

أتسهر وحدك يا حضرة الناظر ؟-.

لا أحد هنا يليق بمساهرتى-.

وحتى أنا لا سمير لى إلا حنش

فقال قدرى باستهانة

عند درجة من السطول لا يهمك أن تكون وحدك

تردد عرفة قليلا ثم تساءل

ألسنا فى سجن يا حضرة الناظر ؟

فقال الآخر بحدة

ماذا تريد ما دمنا مطوقين باناس يمقتوننا-. .

وذآر آلمات عواطف وآيف فضلت مسكن أم زنفل على بيته

فقال متنهدا:

يا لها من لعنة-. .

أحذر أن تفسد علينا صفونا

فتناول الجوزة وهو يقول

لتصف الحياة إلى الأبد

فضحك قدرى قائلا

إلى الأبد ؟ حسبنا أن نضمن نفحة من نفحات الشباب مدى عمرنا بفضل سحرك

فملأ صدره من عبير الحديقة المتطيب بنداوة الليل العميق ثم قال

من حسن الحظ أن عرفة لا يخلو من فوائد!

ترك الناظر الجوزة ليد المليحة وهو يزفر دخانا آثيفا بدا مفضضا فى ضوء القمر ثم قال بحسرة

لم يدرآنا الهرم ؟ ألذ الطعام نأآله وأبهج الشراب نشربه وأطيب العيش نهنأ به لكن المشيب يزحف فى أوانه لا يرده شئ-.

آأنه الشمس أو القمر

لكن أقراص عرفة تحيل برودة الشيخوخة حرارة.

ثمة شئ تقف أمامه عاجزا

ما هو يا سيدى ؟

بدا الناظر حزينا فى ضوء القمر وتساءل

ما ابغض الأشياء إلى قلبك ؟

لعله السجن الذى وضع فيه، لعلها الكراهية المحدقة به لعله الهدف الذى تنكب عنه لكنه قال

ضياع الشباب.

آلا ، لا خوف عليه من ذلك

آيف وزوجى غاضبة ؟-.

سيجدن دائما سببا أو أخر للغضب

واشتد هبوب النسيم مرة فارتفع حفيف الغصون وتوهجت الجمرات فى المجمرة وتساءل قدرى

لماذا نموت يا عرفة ؟

فرمقه بكآبة و لم ينبس فأردف الآخر

حتى الجبلاوى مات

آأن إبرة إنغرزت فى قلبه ، ولكنه قال

آلنا أموات وأبناء أموات

فقال فى ضجر

لست فى حاجة إلى تذآيرى بما قلت-. .

ليطل عمرك يا سيدى-.

طال أو قصر فالنهاية هى تلك الحفرة التى تعشقها الديدان

فقال عرفة برقة

-لا تدع الأفكار تكدر صفوك.

إنها لا تفارقنى ، الموت .. الموت ، دائما الموت يجئ فى أيه لحظة ولأتفه الأسباب أو بلا سبب على الإطلاق ، أين-.

الجبلاوى؟ أين الذين تتغنى بأعمالهم الرباب؟ هذا قضاء ما آان ينبغى أن يكون

ولحظه عرفة فرأى وجهه شاحبا وعينيه تنطقان بالفزع فبدا التناقض صارخا بين حاله وبين مجلسه فداخله قلق وقال برقة:

-المهم أن تكون الحياة آما ينبغى فلوح بيده غاضبا وقال بحدة نعت الصفو نعيا.

-الحياة آما ينبغى وأحسن لا ينقصها شئ حتى الشباب تعيده الأقراص ولكن ما جدوى ذلك آله والموت يتبعنا آالظل ؟

آيف أنساه وهو يذآرنى بنفسه آل ساعة؟

سر لعذابه لكنه سرعان ما سخر من مشاعره وتابع يد الحسناء بشوق وحنان وتساءل فى سره منذا يضمن لى أن أرى

القمر ليلة أخرى ، ثم قال:

لعلنا فى حاجة إلى مزيد من الشراب-. .

سنفيق فى الصباح

وجد نحوه ازدراء وظن أن ثمة فرصة متاحة فأراد أن يخطفها فقا ل

لولا حسد المحرومين من حولنا لتغير مذاق الحياة فى أفواهنا

فضحك الناظر ضحكة ساخرة وقال

قول بالعاجائز أجدر ! هبنا استطعنا أن نرفع حياة أهل حارتنا إلى مستوى حياتنا فهل يقلع الموت عن اصطيادنا؟

فهز عرفة رأسه فى تسليم حتى خضت حدة الرجل ثم قال

الموت يكثر حيث الفقر والتعاسة وسوء الحال-. .

وحيث لا يوجد منا شئ يا أحمق

فقال وهو يبتسم

نعم ، لأنه معد مثل بعض الأمراض

فضحك الناظر قائلا

هذا اغرب رأى تدافع به عن عجزك

فقال متشجعا بضحكة

نحن لا ندرى عنه شيئا فلعله أن يكون آذلك ، وإذا حسنت أحوال الناس قل شرده فازدادت الحياة قيمة وشعر آل سعيد-.

بضرورة مكافحته حرصا على الحياة السعيدة المتاحة

ولن يجى ذلك فتيلا-. .

بل سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت بل سيعمل بالسحر آل قادر، هنالك يهد الموت الموت

وندت عن الناظر ضحكة عالية ثم اغمض عينيه مستسلما للحلم، وتناول عرفة الجوزة وشد نفسا طويلا حتى اشتعل الحجر، وعاد العود بعد انقطاع يترنم وغنى الصوت الحنون " : طول يا ليل " فقال قدرى:

أنت حشاش يا عرفة لا ساحر

فقال عرفة ببساطة

-بذلك نقتل الموت.

لم لا تعمل أنت وحدك ؟-.

إنى أعمل آل يوم ولكن ما أعجزنى وحدى أمامه

واستمع الناظر إلى الغناء مليا دون حماس ثم سأله

آه لو تنجح يا عرفة ! أى شئ تفعله لو نجحت ؟

فقال وآثما أفلت منه القول

أرد إلى الحياة الجبلاوى

فلوى الرجل شفتيه بفتور وقال

هذا شأن يعنيك بصفتك قاتله!

فقطب عرفة متألما وغمغم بصوت غير مسموع

-أه لو تنجح يا عرفة!

111

وعند الفجر غادر عرفة بيت الناظر آان من السطل فى عالم مسحور غائم المسموعات والمرئيات ولا تكاد تحمله قدماه ، مضى ناحية بيته فى حارة غارقة فى النوم مفروشة الأديم بضوء القمر ، وعند منتصف المسافة بين بيت الناظر وبيته - أمام البيت الكبير - اعترضه شبح لم يدر من أين أتى، وقال له فيما يشبه الهمس:

-صباح الخير يا معلم عرفة.

دهمه خوف لعله من المفاجأة انبعث لكن تابعيه انقضا على الشبح وأمسكا به، وتفرس فيه فوضح لعينيه رغم ذهولهما أنه شبح امرأة سوداء مرتدية جلبابا أسود يلفها من العنق حتى القدمين أمر خادميه أن يترآاها فترآاها ثم سألها:

ما لك يا ولية ؟

فقالت بصوت أآد أنها سوداء

-أريد أن أحدثك على انفراد.

-لم ؟.

مكروبة تشكو إليك آربها

فقال بضجر وهو يهم بالذهاب

-الله يحنن عليك. .

فقالت بضراعة نافذة

-وحياة جدك الغالى ألا ما سمحت لى.

فحدجها بنظرة غاضبة لكنه لم يحول عن وجهها عينيه تساءل أين ومتى راى ذلك الوجه، وإذا بقلبه يخفق خفقة اطارت السطل من رأسه ، هذا الوجه الذى رأه على عتبة حجرة الجبلاوى وهو مختف وراء المقعد فى الليلة المشئومة، وهذه هى خادمة الجبلاوى التى آانت تشارآه حجرته ورآبه خوف تخلخلت له مفاصله فحملق فى وجهها فزعا.

وساله أحد الخادمين:

نطردها ؟

فخاطبهما قائلا

-اذهبا إلى باب البيت وانتظرا.

انتظر حتى ذهبا فخلا لهما المكان أمام البيت الكبير وراح يتفرس فى وجهها الأسود الناحل وجبينها الضيق العالى وذهنها المدبب والتجاعيد المحدقة بفيها وجبينها ، وقال يطمئن نفسه إنها من المؤآد لم تره تلك الليلة ولكن أين آانت منذ وفاة الجبلاوى وماذا جاء بها ؟ وسألها:

نعم يا ستى ؟

فقالت بهدوء

-لا شكوى لى ، وإنما أردت أن أخلو إليك لأنفذ وصيته!

أية وصية ؟

فمال رأسها نحوه قليلا وهى تقول

آنت خادمة الجبلاوى وقد مات بين يدى-! !

أنت-.

نعم أنا فصدقنى

ولم يكن فى حاجة إلى دليل فسألها بصوت مضطرب

آيف مات جدنا ؟

فقالت المرأة بنبرة حزينة

به التأثر عقب اآتشاف جثة خادمه ، وبغتة احتضر فسارعت إليه لأسند ظهره المختلج ! ذلك الجبار الذى دان له-.

الخلاء

اشتد

زفر عرفة بصوت حار آدر سكون الليل وانخفض رأسه فى حزن آانما يداريه عن ضوء القمر ، وإذا بالمرأة ترجع إلى حديثها الأول قائلة:

جئتك تنفيذا لوصيته

فرفع رأسه إليها مرتعشا متسائلا

ماذا عندك ؟ تكلمى

فقالت بصوت هادئ آنور القمر

قال لى قبل صعود السر الإلهى " : اذهبى إلى عربة الساحر وابلغية عننى أن جده مات وهو راض عنه"

فانقض عرفة آالملدوغ وهتف بها

يا دجالة ! ماذا تمكرين ؟-.

سيدى ، حفظتك العناية-.

خبريني أى لعبة تلعبين

فقالت ببراءة

لا شئ غير ما قلت والله شهيد

فسألها بارتياب

ماذا تعرفين عن القاتل ؟

لا أدرى شيئا يا سيدى ، منذ وفاة سيدى وأنا طريحة الفراش وأول ما فعلت بعد شفائى أن قصدتك

ماذا قال لك ؟-.

أذهبى إلى عرفة الساحر وأبلغيه عنى ان جده مات وهو راض عنه

فقال عرفة بتحد

آاذبة ! أنت تعرفين يا ماآرة أننى) ثم مغيرا نبرته (آيف عرفت بمكانى ؟-.

سألت عنك أول ما جئت فقالوا لى إنك عند الناظر فلبثت انتظر-.

ألم يقولوا لك إننى قاتل الجبلاوى

فقالت بارتياع

ما قتل الجبلاوى أحد وما آان فى وسع أحد أن يقتله-. .

بل قتله الذى قتل خادمهه

فهتفت بغضب

آذب وافتراء ، لقد مات الرجل بين يدى

وجد عرفة رغبة فى البكاء لكنه لم يسفح دمعة واحدة ورنا إلى المرأة بطرف منكسر فقالت ببساطة

أفوتك بعافية

فسألها بصوت غليظ متحشرج آأنه صوت ضميره المعذب

أتقسمين على أنك صادقة فيما قلت ؟

فقالت بوضوح

-أقسم بربى وهو شهيد.

ومضت وألوان الفجر تخضب الأفق فأتبعها ناظريه حتى اختفت ثم ذهب وفى حجرة نومه سقط مغشيا عليه، وأفاق بعد دقائق فوجد نفسه متعبا لحد الموت فنام لكن نومه لم يستمر أآثر من ساعتين ثم أيقظه القلق الباطنى، ونادى حنش فجاءة الرجل فقص عليه قصة المرأة والآخر يحملق فى وجهه آالمترعج فلما فرغ من قصته ضحك حنش قائلا:

هنيئا لك سطل الأمس

فغضب عرفة وهتف به

حقيقة لا شك فيها

فقال حنش برجاء

لم يكن ما رأيت سطلا، ولكن

-نم أنت فى حاجة إلى نوم عميق.

ألا تصدقنى ؟-.

آلا طبعا ، وإذا نمت آما أود واستيقظت بعد حين فلن تعود إلى هذه القصة-.

و لم لا تصدقنى

فضحك قائلا

وقفت قليلا أمام باب البيت الكبير ثم-.

واصلت السير يتبعك خادماك

آنت فى النافذة وأنت تغادر بيت الناظر فرأيتك وأنت تقطع عرض الحارة نحو بيتكن

فوثب عرفة واقفا وهو يقول بظفر:

إلى بالخادمين

فأشار حنش إليه محذرا ثم قال

آلا ، وإلا شكا فى عقلك

فقال بإصرار

سأستشهد بهما على مسمع منك

فقال حنش متوسلا

لم يبق لنا إلا شئ من الكرامة حيال الخدم فلا تبدده

فلاحت فى عينى عرفة نظرة جنونية وراح يقول ذاهلا

لست مجنونا وليس هو بالسطل ، مات الجبلاوى وهو عنى راض.

فقال حنش بعطف:

فليكن ولكن لا تدع أحدا من الخدم-. .

إذا وقعت آارثة فستقع أول ما تقع فوق رأسك

فقال بحلم

لا سمح الله ، فلندع المرأة لتحدثنا بنفسها ، أين ذهبت؟

فقطب متذآرا ، ثم قال بإشفاق

نسيت أن أسالها عن مسكنها-. !

لو آان حقيقة ما رأيت لما ترآها تذهب

فهتف عرفة بإصرار

آان حقيقة ، لست مجنونا، وقد مات الجبلاوى وهو عنى راضى

فقال حنش بعطف

-لا تجهد نفسك فأنت فى حاجة إلى لراحة.

واقترب منه فربت رأسه ن وبحنو دفعه نحو الفراش وما زال به حتى أرقده اغمض الرجل عينيه أعياه وما لبث أن نام نوما عميقا.

112

قال عرفة بهدوء وتصميم:

-قررت أن أهرب.

فدهش حنش دهشة فوق مايطيق حتى توقفت يداه عن العمل، ونظر بحذر فيما حوله ورغم أن حجرة العمل آانت مغلقة إلا أنه بدا خائفا و لم يكترث عرفة لدهشته و لم تكف يداه عن العمل وراح يقول:

هذا السجن لم يعد بمدنى إلا بأفكار الموت، وآأن الطرب والشراب والراقصات ليست إلا ألحان الموت، وآأننى أشم رائحة-. القبور فى أصص الأزهار

فقال حنش بقلق:

لكن الموت نفسه ينتظرنا فى الحارة-. .

سنهرب بعيدا عن الحارة

ثم وهو ينظر فى عينى حنش

وسنعود يوما لننتصر-! .

إذا استطعنا الهرب-.

اطمأن لنا الأوغاد فلن يعجزنا الهرب

وواصلا العمل مليا فى صمت ثم تساءل عرفة

ابيس هذا ما آنت تود ؟

فتمتم حنش فى حياء

آدت أنسى ولكن خبرنى ما الذى دعاك اليوم إلى هذا القرار ؟

ابتسم عرفة وهو يقول-.

إن جدى أعلن رضاءه عنى رغم اقتحامى بيته وقتلى خادمه

فعادت الدهشة وجه حنش وهو يتساءل

-أتغامر بحياتك لحلم رأيته فى السطل ؟

سمه بما تشاء ، لكنى واثق من أنه مات وهو عنى راض، لم يغضبه الاقتحام ولا القتلن لكن لو اطلع على حياتى الراهنة-. لما وسعته الدنيا غضبا

ثم بصوت خافت:

لذلك نبهنى بلطف إلى سابق رضاه

فقال حنش وهو يهز رأسه عجبا

لم يكن من عادتك أن تتحدث عن جدنا باحترام-. .

آان ذلك فى الزمان الول وأنا آثير الارتياب أما وقد مات فحق للميت الاحترام

الله يرحمه

تيسر لى النجاح فلن نعرف-.

الموت

وهيهات أن أنسى انني المتسبب فى موته لذلك فعلى أن أعيده إلى الحياة إذا استطعت وإن

فرمقه حنش باسى وقال:

لم يسعفك السحر حتى اليوم إلا باقراص منشطة وقارورة مهلكة-. .

نحن نعرف من أين يبدأ السحر لكن لا نستطيع أن نتخيل أين ينتهى

وأجال بصره فى الحجرة قائلا

-سنتلف آل شئ إلا الكراسة يا حنش ، فهى آنز للأسرار، وساجعلها فوق صدرى ولن نجد الهرب عسيرا آما تتوهم.

ومضى عرفة آعادته مساءا إلى بيت الناظر وقبيل الفجر عاد إلى بيته وجد حنش مستيقظا فى انتظاره فلبثا فى حجرة النوم ساعة حتى يطمئنا إلى نوم الخدم وتسللا معا إلى السلاملك فى خفة وحذر، وآان شخير الخادم النائم فى شرفة السلاملك يتصاعد فى انتظام، فهبطا السلم، واتجها نحو الباب ومال حنش إلى فراش البواب فرفع بيده هراوة وهوى بها عليه لكنها أصابت جسما قطنيا فارغا وأحدثت صوتا مزعجا فى سكون الليل، ثبت لهما أن البواب ليس فى فراشه وخافاأن يكون الصوت قد أيقظ أحدا فلبثا وراء الباب بقلب خافق، ورفع عرفة المزلاج وفتح الباب على مهل ثم خرج وحنش فى أثره ورد الباب وسارا لصق الجدران نحو ربع أم زنفل يخترقان ظلمة صامته واعترضهما فى منتصف الحارة آلب رابض فوقف مستطلعا وجرى نحوهما متشمما وتبعهما خطوات ثم توقف وهو يتثاءب ولما بلغا مدخل الربع قال عرفة همسا:

ستنتظرنى هنا ، وإذا رابك شئ فصفر لى واهرب إلى سوق المقطم، دخل عرفة الربع فاجتاز الدهليز إلى السلم ورقى فيه حتى غرفة أم زنفل ونقر على الباب حتى سمع صوت زوجته وهى تسأل عن الطارق فقال بسرعة وحرارة

أنا عرفة افتحى يا عواطف

ففتحت الباب فطالعه وجهها الشاحب من أثر النوم على ضوء مصباح صغير بيدها قال مباشرة

اتبعينى سنهرب معا

وقفت تنظر إليه فى ذهول على حين ظهرت وراء آتفها أم زنفل فقال

سنهرب من الحارة سنعود آما آنا ، اسرعى

ترددت قليلا ثم ثم قالت بنبرة لم تخل من غيظ

ما الذى ذآرك بى ؟

فقال بلهفة ولهوجة

دعى الملام لحينه فللدقيقة الآن ثمنها

وإذا بصفير حنش ينطلق وضجة تترامى فهتف فى فزع

الكلاب ضاعت الفرصة يا عواطف

وثب إلى رأس السلم فرأى فى فناء الربع أضواء وأشباحا فارتد يائسا ، وقالت عواطف

ادخل

فقالت أم زنفل بخشونة دفاعا عن نفسها

لا تدخل

وما فائدة الدخول؟ وأشار إلى نافذة صغيرة بدهليز المسكن وسأل زوجته بسرعة

علام تطل ؟

المنور

فاستخرج الكراسة من فوق صدره واندفع نحو النافذة منحيا عن سبيله أم زنفل ثم رمى بها وغادر المسكن مسرعا فأغلق الباب وراءه وصعد درجات السلم القليلة المؤدية إلى السطح وثبا أطل من فوق السور على الحارة فرأها تعج بالأشباح والمشاعل وترامت إلى أذنيه ضجة الصاعدين إليه وجرى إلى السور الملاصق لأحد ربوع الرفاعية فرأى من خلال باب سطحه أنوار للربع المجاور من ناحية الجمالية فرأى أشباحا تسبقه إليه وراء حامل مشعل ارتد إلى السور مشاعل قادمة، وتملكه يأس خانق وخيل إليه أنه سمع صراخ أم زنفل ترى هل اقتحموا مسكنها؟ هل قبضوا على عواطف؟ وإذا بصوت عند باب السطح يصيح به:

سلم نفسك يا عرفة

وقف مستسلما دون ان ينبس بكلمة ، لم يتقدم منه أحد لكن الصوت قال

إذا رميت بزجاجة انهالت عليك الزجاجات

فقال

لا شئ معى

انقضوا عليه فطوقوه ورأى بينهم يونس بواب الناظر الذى اقترب منه وصاح به

يا مجرم .. يا لئيم .. يا آافرا بالنعمة-. .

وفى الحارة رأى رجلين يسوقان أمامهما عواطف فقال بتوسل حار

دعوها فلا شأن لها بى-. .

لكن لطمة الموت هوت على صدغه فأسكتته

113

أمام الناظر الغاضب وقف عرفة وعواطف مقيدى اليدين إلى ظهريهما أنهال الناظر لطما على وجه عرفة حتى آلت يداه وصاح به:

آنت تناديني وأنت مبيت الغدر يا ابن الزانية ؟

فقالت عواطف بأعين دامعة

ما جاءنى إلا ليصالحنى

فبصق الناظر على وجهها وصاح

اخرسى يا مجرمة

فقال عرفة

إنها بريئة ولا ضلع لها فى شئ-. .

بل شريكتك فى قتل الجبلاوى وسائر جرائمك

ثم وهو يهدر

-أردت الهرب وسأهربك من الدنيا آلها.

ونادى رجاله فجاءوا بجوالين دفعوا عواطف فسقطت على وجهها فسرعان ما قيدوا قدميها وأدخلوها فى الجوال وهى تصرخ ثم ربطوا فوهته ربطا محكما وصاح عرفة بانفعا جنونى:

اقتلنا آما تشاء .. سيقتلك الحاقدون غدا

فضحك الناظر ضحكة باردة وقال

عندى من القوارير ما يحمينا إلى الأبد

فصاح عرفة

-حنش هرب بكل الأسرار، هرب وسوف يعود يوما بقوة لا تقاوم فيخلص الحارة من شرك.

فرآله فى بطنه فسقط يتلوى وانقض عليه الرجال ففعلوا به ما فعلوه بزوجته ثم حملوا الجوالين خارجا، ومضوا بهما نحو الخلاء، وما لبثت عواطف أن أغمى عليها ولكن بقى هو يعانى العذاب إلى أين يسيرون بهما؟ وماذا أعدوا لهما من ألوان الموت؟ أيقتلونهم ضربا بالنبابيت؟ بالحجار؟ بالنار؟ أم رميا من فوق الجبل؟ يا لهذه الدقائق الأخيرة من الحياة المشحونة بأفظع الآلام ! حتى السحر لا يستطيع أن يجد لهذا المأزق الخانق مخرجا ، إن رأسه المتورم من لطمات الناظر يرقد أسفل الجوال فيكاد أن يختنق ولم يعد له من أمل فى الراحة إلا بالموت ، سيموت وتموت الآمال وربما عاش طويلا ذو القهقهة الباردة وسيشمت به الذين ود لهم الخلاص، ولنه يدرى أحدا ماذا سيفعل حنش والرجال الذين يحملونه إلى الموت

صامتين، لا تند عن أحدهم آلة فليس ثمة إلا الظلام وليس وراء الظلام إلا الموت وخوفا من هذا الموت انطوى تحت جناح الناظر فخسر آل شئ وجاء الموت، الموت الذى يقتل الحياة بالخوف حتى قبل أن يجئ لو رد إلى الحياة لصاح بكل رجل.. لا تخف .. الخوف لا يمنع من الموت ولكنه يمنع من الحياة، ولستم يا أهل حارتنا أحياء ولن تتاح لكم الحياة ما دمتم تخافون الموت.

وقال رجل من القتلة:

هنا.

فقال آخر من القتلة معترضا

-هناك الأرض طرية.

ارتعد قلبه رغم أنه لم يفهم للكلام معنى، لكنها آانت لغة الموت على أى حال، واشتد به عذاب المتوقع حتى أوشك أن يصيح بهم إن اقتلونى ولكنه لم يفعل، وفجأة هوى الجوال إلى الأرض فشهق وارتطم رأسه بالأرض فهصر الألم عنقه وعموده الفقرى، وانتظر بعد لحظة وأخرى انقضاض النبابيت أو ما هو أفض ولعن الحياة آلها من أجل الشر حليف الموت، وسمع يونس وهو يقول:

-احفروا بسرعة حتى نعود قبل الصبح.

لم يحفرون القبر قبل القتل؟ وخيل إليه أنه يحمل المقطم فوق صدره وسمع أنينا ما لبث أن ميز فيه نبرة عواطف فندت عن جسده المقيد حرآة عنيفة ثم ملأت دقات الحفر أذنيه فعجب من غلظة أآباد الرجال ، وإذا بيونس يقول:

-سيلقى بكما إلى قعر الحفرة ثم يهال عليكما التراب دون أن يمسكما إنسان بسوء.

فصرخت عواطف رغم إعيائها وهتفت أعماقه بلغة لم يدرها أحد ورفعتهما أيد شديدة ثم رمت بهما إلى قعر الحفرة، فانهال التراب وارتفع الغبار فى الغسق.

114

انتشر خبر عرفة فى الحارة ، لم يعرف أحد أسباب مصرعه الحقيقية، ولكن بالتخمين عرفوا أنه أغضب سيده فدفعه هذا إلى مصيره المحتوم، وذاع حينا ما أن عرفة قتل بنفس السلاح السحرى الذى قتل به سعد الله والجبلاوى، وفرح الجميع لقتله رغم مقتهم للناظر، وآثر الشامتون من أهل الفتوات وأنصارهم ، فرحوا لمقتل الرجل الذى قتل جدهم المبارك وأعطى ناظرهم الظالم سلاحا رهيبا يستذلهم به إلى الأبد، وبدا المستقبل قاتما أو أشد قتامة مما آان بعد أن ترآزت السلطة فى يد واحدة قاسية، واختفى الأمل فى أن ينشب بين الرجلين نزاع فيفضى إلى أضعافهما معا ولجوء أحدهما إلى أهل

الحارة وبدا أنه لم يبق لهم إلا الخضوع، وأن يعتبروا الوقف وشروطه وآلمات جبل ورفاعة وقاسم أحلاما ضائعة قد تصلح ألحانا للرباب لا للمعاملة فى هذه الحياة.

ويوما اعترض رجل أم زنفل وهى ذاهبة إلى الدراسة فحياها قائلا:

مساء الخير يا أم زنفل

فرمقته بنظرة فما عتمت أن قالت بدهشة

حنش!

فاقترب منها باسما ثم سألها

ألم يترك المرحوم شيئا فى مسكنك ليلة القبض عليه ؟

فقالت بلهجة من يقصد دفع الشبهة عن نفسه

لم يترك شيئا ، رأيته يرمى بأوراق إلى المنور، فتسللت إليه فى نهار اليوم التالى فعثرت بين القاذورات على آراسة لا-. فايدة منها ولا عايدة فترآها ورجعت

التمعت عينا حنش بنور عجيب وقال برجاء:

مدى لى يدك حتى آآثر على الكراسة

فأجفلت العجوز وهى تهتف

-ابعدوا عنى، لولا رحمة ربنا لهلكت فى المرة الماضية.

فأودع يدها قطعة من النقود حتى سكن فزعها، وواعدها أخر الليل حين تنام العيون، وفى الموعد المضروب تسلل بارشادها إلى أسفل المنور وأشعل شمعة وجلس القرفصاء بين آآوام الزبالة وراح يفتش على آراسة عرفة ، فرز الأآوام ورقة ورقة وخرقة خرقة ، وتخللت أصابعه الرماد والتراب وبقايا المعسل وفتات الأطعمة المنتنة لكنه لم يعثر على ضالته، وصعد إلى أم زنفل فقال لها بيأس غاضب:

لم أجد شيئا-. .

فهتفت المرأة ساخطة

لا شأن لى بكم ! إنكم تجيئون ثم تتبعكم المصائب.

حلمك يا أمى

لم تترك لنا الأيام حلما ولا عقلا، خبرنى ماذا يهمك فى تلك الكراسة؟

فتردد حنش قليلا ثم قال

إنها آراسة عرفة-. .

عرفة ! الله يسامحه قتل الجبلاوى، ثم أعطى الناظر سحره وذهب

فقال حنش بحزن

آان من أولاد حارتنا الطيبين لكن الحظ خانه ، آان يريد لكم ما أراد جبل وعرفة وقاسم، بل وأحسن مما أرادوا

فحدجته المرأة بنظرة ارتياب ثم قالت بغية التخلص منه

لعل الزبال أخذ الزبالة التى ترآت الكراسة فيها ففتش عنها فى مستوقد الصالحية

وذهب حنش إلى مستوقد الصالحية وسأل عن زبال حارة الجبلاوى ثم سأله عن زبالة الحارة ، فسأله الرجل

تبحث عن شئ ضائع ! ما هو ؟-.

آراسة-.

فلاحت فى عين الزبال نظرة مريبة لكنه قال وهو يشير إلى رآن فى الحجرة الملاصقة للحمام

-أنت وحظك ، فإما تجدها عندك وإما تكون فى النار.

ومضى حنش يفتش فى الزبالة بصبر وأمل ، لم يبق له من أمل فى الحياة إلا تلك الكراسة، هى أمله وأمل الحارة ، قتل عرفة السيئ الحظ مغلوبا على أمره، لم يترك وراءه إلا الشر وسوء السمعة، فهذه الكراسة جديرة بإصلاح أخطائه والقضاء على أعدائه وبعث الآمال فى الحارة المتجهمة ، وإذا بالزبال يسأله:

ألم تعثر على مطلوبك؟-.

أمهلنى ربنا يكرمك

فهرش الرجل إلبطيه متسائلا

ما اهمية الكراسة ؟

فقال حنش دفعا للقلق الذى انتابه

فيها حسابات المحل وستراها بنفسك

وواصل بحثه رغم تزايد مخاوفه حتى سمع صوتا غير غريب عنه يقول

-أين قدرة الفول يا متولى ؟

ارتعدت فرائصه لدى سماع صوت عم شنكل بياع الفول بالحارة ، لم يلتفت نحوه ولكنه تساءل فى جزع، ترى هل لمحه الرجل؟ وهل يحسن به أن يهرب؟ وزادت سرعة يديه فى التفتيش حتى بدا آاألرنب الذى يحفر مأوى له.

وعاد عم شنكل إلى الحارة ليقول لكل من يصادفه إنه رأى حنش رفيق عرفة فى مستوقد الصالحية مكبا على التفتيش فى الزبالة عن آراسة آما أخبره الزبال، وما أن بلغ الخبر بيت الناظر حتى ذهبت قوة من الخدم إلى المستوقد ولكنها لم تجد لحنش أثران ولما سئل الزبال قال إنه ذهب لبعض شأنه، ولما عاد آان حنش قد ذهب، ولم يدر إن آان عثر على ضالته

أم لا ن ولا يدرى أحد آيف اخذ الناس يتهامسون فيما بينهم بأن الكراسة التى أخذها حنش ما هى إلا آراسة السحر التى أودعها عرفة أسرار فنونه وأسلحته، وإنما ضاعت أثناء محاولته الهرب فحملت فى الزبالة إلى مستوقد الصالحية حيث عثر عليها حنش وانتشرت الأخبار من غرزة إلى غرزة بأن حنش سيتم ما بدأه عرفة ثم يعود إلى الحارة لينتقم من الناظر شر انتقام، وأآد الأقوال والظنون أن الناظر وعد من يجئ بحنش حيا أو ميتا بمكافأة آبيرة آما أعلن ذلك رجاله فى المقاهى والغرز، فلم يعد أحد يشك فى الدور المنتظر أن يلعبه حنش فى حياهم، وارتفعت فى الأنفس موجه استبشار وتفاؤل قذفت بعيدا بزبد القنوط والخنوع وامتلأت القلوب عطفا على حنش فى مهجره المجهول، بل امتد العطف إلى ذآرى عرفة نفسه وتمنى الناس لو يتعاونون مع حنش فى موقفه من الناظر لعلهم يحرزون بانتصاره عليه نصرا لهم ولحارهم وأمنا لحياة خير وعدالة وسلام وصمموا على التعاون ا وجدوا إليه سبيلا باعتباره السبيل الوحيد إلى الخلاص، إذا آان من المسلم به أنه لا يمكن التغلب على القوة السحرية التى يحوزها الناظر إلا بقوة مثلها مما قد يعدها حنش، ونما إلى علم الناظر ما الناس يتهامسون به فأوحى إلى شعراء المقاهى أن يتغنوا بقصة الجبلاوى وبخاصة مقتله بيد عرفة، وآيف أن الناظر اضطر إلى مهادنته ومصادقته خوفا من سحره حتى تمكن منه فقتله انتقاما للجد الكبير.

ومن عجب أن تلقى الناس أآاذيب الرباب بفتور وسخرية وبلغ هم العناد أن قالوا " : لا شأن لنا بالماضى، ولا أمل لنا إلا فى سحر عرفة، ولو خيرنا بين الجبلاوى والسحر لاخترنا السحر."

ويوما بعد يوم مضت حقيقة عرفة تتكشف للناس، لعلها تسربت من ربع أم زنفل التى علمت بالكثير عنه من عواطف على عهد إقامتها عندها، ولعلها جاءت عن طريق حنش نفسه فيما آان يعرض البعض عن مقابلته فى الأماآن النائية، المهم أن الناس عرفوا الرجل، وما آن ينشده من وراء سحره للحارة من حياة عجيبة آالأحلام الساحرة ووقعت الحقيقة من أنفسهم موقع العجب فأآبروا ذآراه ورفعوا اسمه حتى فوق أسماء جبل ورفاعة وقاسم، وقال أناس إنه لا يمكن أن يكون قاتل الجبلاوى آما ظنوا ، وقال آخرون إنه رجل الحارة الأول والأخير ولو آان قاتل الجبلاوى وتنافسوا فيه حتى أدعاه آل حى لنفسه.

وحدث أن أخذ بعض الشبان من حارتنا يختفون تباعا، وقيل فى تفسير اختفائهم إهم اهتدوا إلى مكان حنش فانضموا إليه، وأنه يعلمهم السحر استعدادا ليوم الخلاص الموعود، واستحوذ الخوف على الناظر ورجاله فبثوا العيون فى الأرآان، وفتشوا المساآن والدآاآين، وفرضوا أقصى العقوبات على أتفه الهفوات، وانهالوا بالعصى للنظرة أو النكتة أو الضحكة حتى باتت الحارة فى جو قاتم من الخوف والحقد والإرهاب، لكن الناس تحملوا البغى فى جلد، ولاذوا بالصبر واستمسكوا بالأمل ، وآانوا آلما أضر هم العسف قالوا : لابد للظلم من أخر، ولليل من نهار، ولنرين فى حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب.